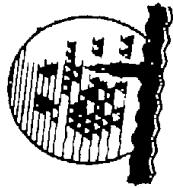


General Organization of the
Alexandrian Library (GOAL)

General Organization of the
Alexandrian Library (GOAL)

262.03

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

262.03
1/1
ر

الزهراء للإعلام العربي
قسم النشر

ص.ب ١٠٢ مدينة نصر — القاهرة — تلغرافياً زهراتيف تليفون : ٢٦١١١٠٦ / ٢٦١٨٢٤٠ فاكس : ٤٠٢١٩٨٨
P.O: 102 Madinat Nasr. Cairo -Cabi : Zahratif- Tel : 2611106 - Fax : 2618240

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَمَنْ أَحْسَنَ مِنْ قَوْلًا مُّمَكِّنًا وَجَعَلَ إِلَيَّ اللَّهِ
وَعَمَلَ صِدْقًا كَانَ وَقَالَ إِنَّمَا مِنَ الْمُسَلِّمِينَ»

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

فَضْلَتْ ٤٢

الطبعة الأولى
١٤١٤ - ١٩٩٥ م
حقوق الطبع محفوظة

ولا يجوز طبع أي جزء من هذا الكتاب أو حزنه بواسطة أي نظام لخزن المعلومات أو استرجاعها أو نقله على آية هيئة أو بأية وسيلة سواء كانت إلكترونية أم شرائط مغnetة أم غير ذلك ، أو آية طريقة معلومة أو مجهولة إلا بإذن كاتب صريح من الناشر .

اطيحة العامة للكتبة الاسكندرية
رقم العمل : ١٧٢٢٩
رقم للتسجيل : ٦٧٤٩

١٧٢٢٩

مصر وكيف خُدِّر بها

Egypt and Its betryal

ترجمة

عبد الفتاح عنايات

حقيقة

ابتسام عبد الفتاح عنايات

تأليف

أليبرت فارمان

Farman . Elbert Eli

فنصل أمريكا في مصر ١٨٧٦ : ١٨٨١ م

الزهوراء للأعلام الحضرية

نبذة عن المؤلف

كان يشغل منصب المعتمد والقنصل العام للولايات المتحدة الأمريكية في مصر من ١٨٦٨ إلى ١٨٧٥ - والذي عين بدلاً من المستر « بيروسلي » الذي توفي - فرُشح « فارمان » لهذا المركز . كان عمل فارمان هو الإشراف على أعمال المدنيين والتجار التابعين للولايات المتحدة والمترددين على مصر - وكان يقوم بجمع الضرائب القنصلية المستحقة على الواردات وال الصادرات التي يتعامل فيها التجار الأمريكيون .. فكانت واجباته دبلوماسية وقنصلية .

فارمان ، ألبرت إلى

الوظيفة : قاضي .

الميلاد : ٢٣ إبريل ١٨٣١ - ولد في نيويورك .

الدرج الوظيفي : ١٨٥٥ أنهى تعليمه العالي في كلية أمرست - أحد يعمل في محاكم أمريكا .

١٨٥٩ سافر إلى أوروبا لدراسة اللغات والقانون في جامعات برلين وهايدلبرج .

١٨٦٨ - ١٨٧٥ كان مثلاً دبلوماسياً للولايات المتحدة ، وقنصلًا عاماً في مدينة القاهرة في مصر .

١٨٧٦ - ١٨٨١ حصل على منحة وقام برحالة إلى أعلى النيل .

١٨٨٤ - ١٨٨٣ كان يمثل الولايات المتحدة في الرابطة العالمية وكان دوره أن يقوم بفحص الدعوى المقدمة لصالح ساكني الإسكندرية وإصدار قرار لتحديد القيمة المالية التي ستدفع تعويضاً لهم عن الخسارة التي نتجت عن قذف

المدينة بالقنابل وحرقها سنة ١٨٨٢ - وذلك لضممان « مسلة كليوباترة »
كهدية من الخديوي لمدينة نيويورك .

١٨٧٨ كان عضواً مثلاً للولايات المتحدة في الاتحاد الدولي لتعديل قانون
المحاكم المختلطة في مصر .

١٨٧٩ قام بجمع أكبر مجموعة من العملات والآثار المصرية وهي
موجودة الآن في متحف الفنون بمدينة نيويورك .

١٨٩٤ منحه الخديوى وساماً إمبراطوريًا برتبة « مدیديہ Medjidieh »
١٩١١ توفي .

مصدر المعلومات : من سجل الدبلوماسيين بالقنصلية الأمريكية بالقاهرة .

تحقيق ابتسام عبد الفتاح عنایت .



مقدمة

نعرض في هذا الكتاب إلى فترة زمنية هامة وقعت مصر خلالها تحت ظلال الحكم العثماني ما يقرب من ثلاثة عشر عام كان تاريخ مصر فيها شديد التماست والترابط إلى حد كبير وكانت فترة لها مظاهرها الواضحة المتميزة تحت ظلال الحكم الإسلامي القوي . حلت العناصر التركية الأرستقراطية محل بقوات المالكين وأصبحت هي المالكة الكبرى للأرض ، وكانت الأرض هي مصدر القوة والثراء لذلك استطاع الأتراك السيطرة على السياسة الداخلية والخارجية دون مقاومة تذكر . فلم يكن هناك مجال للتمرد أو المقاومة فاستتب الأمن والنظام في البلاد ، وانكب أفراد المجتمع على العمل الجاد ، وانفتحت أبواب البلاد لطائفة من الأجانب الذين بدأوا يتذرون إلى مصر . وببدأ بنشأ نظام التعليم الحديث ببداية حركة النقل والاقتباس في المجال الفكري والحضاري ، وظهرت طبقة « الأفندية » من الموظفين - تلك الطبقة التي استطاعت أن تلعب دورها في الحياة السياسية في تاريخ الحركة الوطنية .

ووُجِدَت الظروف التي أدت إلى نشأة الطبقة الرأسمالية الزراعية المصرية ، (الإقطاعيين) ، فالأرض التي استولت عليها حكومة الولاة ، انتقل جزء كبير

منها إلى أيدي الأفراد ، وأصبحت الطبقة الرأسمالية الزراعية ذات مصلحة أساسية في سياسة الدولة ، فقد تحركت حين اشتدت الأزمة المالية في عهد إسماعيل .

كانت هذه الحياة الاجتماعية الجديدة ذات صلة وثيقة بالحياة الاقتصادية في القرن التاسع عشر ، وظلت الأرض الطيبة أرض مصر هي مصدر الثروة والرخاء الذي كانت تعيش فيه في ذلك الوقت كما كان الحال في القرون السابقة .

في عهد حكومة الولاة ازدادت مساحة الأراضي المنزرعة إلى ما يزيد على أربعة ونصف مليون فدان ذلك مع قلة عدد السكان ، وتوسعوا في زراعة القطن بل تم تصديره ، وأنشئت صناعات أخرى ، وأنشئت السكك الحديدية ، وحفرت قناة السويس ، ونشطت التجارة ، فكانت مصر هي هبة النيل تنعم بالثروة والرخاء .

في ذلك الوقت اشتدت المنافسة بين إنجلترا وفرنسا على الاستئثار بالنفوذ الأعلى في مصر ، لتحقيق خدمة مصالحها الاقتصادية ، وكانت هذه المصلحة ملحة وشديدة في القرن ١٩ بسبب الثورة الصناعية في قارة أوروبا ، فالدول الصناعية مثل هاتين الدولتين كانتا تريدان الأسواق لجلب المواد الخام الازمة للصناعة ، وأيضاً لتصريف خاماتها المصنعة فيها ، أضف إلى ذلك تشغيل رءوس الأموال . ازداد عدد الأجانب الوافدين إلى مصر ، والذين جلبوا معهم رءوس الأموال لاستثمارها ، وبالتالي ظهرت معها حاجة الولاة والخديويين إلى هذه الأموال ، فازداد نفوذ القنصلين في مصر ، حتى إن القنصلي تغلغل في مصر ، وأصبح هؤلاء القنصلين بالاشتراك مع طائفة المولين الأجانب ؛ صاروا يُؤلفون عصبة قوية ذات مصالح مالية بعيدة المدى ، ما لبث أن وضعت مصر في ثوب جديد - ليس فقط لاستغلالها اقتصادياً ، بل صار التطلع وأضيقاً بشدة إلى التدخل السياسي .

وبدأت معالم التدخل السياسي تتحقق ؛ فقد تم خلع الخديوي إسماعيل ١٨٧٩ ، وقامت الثورة العرائية ، وأزالت بريطانيا قواتها ، وبدأ الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ .

وبهذا الحدث يختتم تاريخ مصر في القرن التاسع عشر .

هذا عرض سريع يسبق ، ويعاصر الفترة التي أقام فيها مؤلف هذا الكتاب في مصر .

بقلم : اbtسم عبد الفتاح عنایت .

الفصل الأول

مشاهداتي الأولى في مصر

في صبيحة يوم من أيام شهر مايو وصلت إلى الإسكندرية بعد رحلة دامت ستة أيام من مرسيليا على إحدى البوانخر التابعة لشركة « مساجيرى ماريتيم Messagerie Maritimes » ولقد كان وقع صوت رفع الحقائب والصناديق من أماكن تخزينها إينانا للركاب بقرب وصولهم إلى محطة رحالهم . ومن ثم هرع جميع الركاب إلى سطح السفينة ليلتقطوا أول منظر لأرض النيل .

ولقد كان الشاطئ المتلحف خلواً من الأشجار لا تتخلله أية نجادة . وكان أول ما يقع عليه البصر خطأ صغيراً مصغراً من شاطئ رملي ييدو خلال غاشية الصباح . وخلف ذلك نحو الشرق . سرعان ما ييدو لك تصب « يومي » وبعض الاستحكامات العسكرية تليها إلى البحر أشرعة عدد كبير من السفن الرئيسية في الميناء ، إلى جانب عدة طواحين هوائية على طول الشاطئ . ولقد مررنا في طريقنا بنقطة مرابوط Point Marabout ، ثم مررنا بعد ذلك بباب العرب ، وهو عبارة عن قناة قديمة طولها ميل تخترق شريط الأرض الذي يفصل بحيرة مريوط عن البحر . وعلى طول هذا الشريط كنت ترى قلاغاً لا يدل منظرها على العدوان ، ييد أنني شاهدتها بعد ذلك ست سنوات

وقد حجبها دخان المعارك وسط صخب القنابل المتفجرة وزفير المدافع .

وعلى مقربة من « باب العرب » تقع المكس وبقايا القصى الصيفي لسعيد باشا ، بقبائه وأبراجه الرائعة . وحينما صعد مرشد عربي إلى ظهر السفينة واصلنا طريقنا نحو الشرق في قناة وعرة متعرجة على مقربة من خط من الاستحكامات . وبعد أن تركنا الفنار على يسارنا - ذلك الفنان الذي أقيم في بقعة كانت فيما مضي الطرف الشرقي لجزيرة فاروس « Island of Pharos » التاريخية - دخلنا ميناء الاسكندرية العتيق المتقلب الأطوار ، ثم ألت الملاحة مرساها في مواجهة رأس التين ، وهو المقر الصيفي للخدبوبي . هنا كان أول منظر وقع عليه بصرى من مناظر الحياة الشرقية التي تكشفت أمام ناظري إبان عدة سنوات ، تلك المناظر التي طالما امتازت بالغرابة وإن اتسمت بالفتنة دائمًا .. في ذلك الوقت لم يكن ثمة أحواض للبواخر الكبيرة . وكنا نحن على بعد ميل من مكان الرسو . وب مجرد أن رsons إذا بالقوارب الصغيرة تغطى المياه حولنا يباشرها أعراب معتمدون يرتدون ثياباً فضفاضة وهم يظهرون استعدادهم للقيام بخدمة الركاب .

وكان المكان أشبه بمستشفى المجاذيب ، فقد كانت مئات من الأصوات الجمهورية التي يشيع فيها الغضب تصبايح بروطانة غير معروفة . وكانت القوارب التي ينافس بعضها بعضاً تروح وتندو ساعية في الوصول إلى مكان قريب من المرسا . ولقد انقض عدد كبير من هؤلاء الأعراب على حقائب اليد التي كان يحملها أول راكب ينزل من السفينة ، ثم أعقب ذلك مشادة وحشية لم تخسمها إلا بضع ضربات من أحد رجال البوليس ... هذه كانت أول معرفة لي بعرب مصر الذين وجدتهم في النهاية أناستا سلسي القياد يسهل حكمهم . ولقد أرسل إلى حاكم المدينة قاربه الخاص يديره بعض الجنود ، وسرعان ما أفسحت القوارب الأخرى الطريق له . وهكذا نجوت من مضائقات الحشود الغفيرة من الأعراب الذين كانوا يتربكون وصولنا منذ أول خط من خيوط الصباح . وهكذا أدار زورقنا الخفيف ثمانية من الرجال

المدرسين على التجديف حتى وصلوا بنا إلى المرفأ المجاور لترسانة السلاح بدلاً من الرسو في المرفأ العادي على مقربة من الترسانة . وتقع الترسانة على لسان من الأرض يصل جزيرة فاروس العتيقة بموقع المدينة ، وكانت هذه الجزيرة تبعد ميلًا عن الشاطئ الأصلي في عصر ما قبل البطالمة . ويقال إن الإسكندر الأكبر بعد أن أبحر من أحد فروع النيل سار بمحاذاة الشاطئ حتى وصل خلف الجزيرة ، وكانت هذه الجزيرة هي المرفأ الوحيد للسفن على شاطئ مصر . وحينما أدرك ما لهذه المدينة من ميزات طبيعية أمر بأن تقام فيها مدينة . وكانت هناك قرية في ذلك الوقت يسكنها بعض الصيادين ويطلق عليها اسم « فيرا-كروز Vera-Cruz » .

وقد ربط « بطليموس سوتر » أو ابنه « فيلا ألفونس » الجزيرة بالشاطئ الأصلي بواسطة جسر أطلق عليه ، نظيرًا لطوله ، اسم « السبع مضامير »⁽¹⁾ (ويبلغ طوله حوالي ثلاثة أربع ميل) . وكانت تتخلل هذا الجسر مرات للقوارب . وكانت هذه المرات مليئة منذ أمد طويلاً بancaض المدينة ورواسب البحر . ويكون جسر السبع مضامير - ويبلغ عرضه الآن أكثر من نصف ميل - جزءاً هاماً من الحي العربي بالمدينة . وفي طريقى إلى الفندق في الحي الأوروبي لحت طرقاً من تلك المناظر الشرقية الخلابة التي لا تفتّأ تسرّ خاطر السائحين . وقد حدث بعد ذلك بفترة وجيزة أن كنت أصطحب سيدة أمريكية - في أول زيارة لها لمصر - من الباخرة إلى نفس الفندق ، فصاحت عندما وقع بصرها على أحد هذه المناظر ، وكان يوماً من أيام السوق في الحي العربي : « إن هذا المنظر وحده يستحق الرحلة من أمريكا » .

ولقد وجدت بالإسكندرية نائب القنصل العام الأمريكي الذي قدم من القاهرة لمقابلتي ويرفنته أحد حراس القنصلية ويدعى حسن . وكان حسن يشغل هذا المنصب منذ ثمانية عشر عاماً .. كان عربياً أميناً مخلصاً ، يعتز

(1) المقصود به مضمار السباق عند اليونان وطوله 6,6 أقدام وتسع بوصات .

بنصبه الذي كان يعتبر أرفع من مستوى الفلاحين العاديين . وكان يرتدي بدلة كحلية زاهية مطرزة بالجداول الذهبية كما يحمل سيفاً مقوساً . وحينما رأيته بادئ الأمر مع نائب القنصل العام لم أدرك تماماً حقيقة مركزه ووظيفته . وعندما حانت لي فرصة البقاء بعض الوقت في غرفتي بالفندق ، وجدته عند انصرافي جالساً في البهو عند باب غرفتي ، وبيدو أني أظهرت دهشتي ، سواء بالنظرات أو الكلمات ، إذ أنه بادرني بقوله : « لسوف أكون ملك دائمًا » .

ولم يكن هناك أصدق من هذه الكلمات تعبيراً عن الواقع ، فقد كان « دائمًا معى » ، في مكتبي بالمدينة ، وخلال رحلاتي العديدة في أعلى النيل ، وفي فلسطين ، وجل سيناء ، وفي كل مكان كان لي نعم الخادم ، والحارس الأمين ، بل والترجمان لي بين العرب المقيمين خارج القاهرة . وكان في جولاته يقوم بدور الخادم الخاص لي ، فيجلس بجوار السائق ويسلك بيده عصاً أو هراوة يعتليها تمثال نسر . ولقد جعلت منه خبرته الطويلة ، ومقدراته الطبيعية ، وتفانيه المطلق في أداء واجباته ، جعلت منه شخصاً نافعاً للغاية ، كما اكتسب شهرة لامعة وورد ذكره مرازاً في الكتب التي نشرها السائحون . وكان قد رافق اثنين من القنصلين العاديين في ساعاتهم الأخيرة ، وظل على إخلاصه لكل من خدم معه . زد على ذلك أنه رافق بتلر ، القنصل العام ، في رحلته إلى الخرطوم في رقة الجنرال ستانتون الذي كان يقود قافلة مكونة من أربعين جملًا ، في رحلة دامت أربعة عشر يوماً عبر الصحاري حيث لم يتعثر على الماء إلا مرة واحدة فحسب ^(١) .

وبعد أن طفت بالمدينة وشاهدت مسلة كليوباترا - الموجودة الآن في نيويورك - ونصب بومبي الذي يقع عند مدخل السرايوم ، سافرنا إلى القاهرة في

(١) كان ذلك في وقت دأب فيه الخديوي على الاحتفاء بالضيف حفاوة ملكية رائعة ، فكانت الرحلة تقوم على حساب سمو الخديوي إسماعيل باشا ، في باخر خاصية حتى الشلال الأول والثاني . ومن ثم بالجمال عبر الصحراء إلى مدينة بيرير ثم بالباخرة مرة ثانية إلى الخرطوم . وكان المسافة التي يقطعها المسافرون ذهاباً وإياباً تبلغ حوالي أربعة آلاف ميل ، بينما كان الوقت اللازم للإتمام للرحلة يبلغ شهراً في الذهاب ومثله في الإياب .

قطار بعد الظهر ، بعد أن أجلنا المزيد من دراسة الإسكندرية إلى يوم آخر في المستقبل .

وتبلغ المسافة إلى القاهرة مائة وثلاثين ميلاً . وكانت رحلة عانينا فيها حرارة الجو وغباره ، فقد كان وقت التحاريق ، وهوأسوء فصل من فصول السنة . وفي هذا الخط من خطوط العرض قلما تجد النهار طويلاً ، إذ ما كدنا نشرف على الأهرامات عند غروب الشمس حتى أرخى الليل سدوله عند وصولي إلى « جراند نيو أوتيل » .

ورغم أنني كنت متعباً من جراء الرحلة التي دامت زهاء شهر ، إلا أن الأرق اعتراني في أول ليلة لي في مصر ، ذلك لأن التغير الفجائي من هواء البحر البارد قد زاد من أثر الحرارة الاستوائية ، ولم تكف الموسيقى العربية (أو تلك الأصوات النشاز المزعجة التي تصدر عن الآلات أو الأصوات . والتي يطلق عليها العرب اسم الموسيقى) لم تكف هذه الموسيقى حتى ساعة متأخرة من الليل . واستمر بعد ذلك نباح الكلاب وغناء الشبان العرب وصياحهم - أعني متشردي القاهرة الذين لا مأوى لهم سوى الشوارع - حتى مطلع الفجر . وعلى كل لا يحتاج الأمر إلى ليالٍ كثيرة حتى تألف هذه الأصوات الغريبة . فلم تُورق بعد ذلك نومي أكثر من رياح وأمواج البحر أو دقات الساعة في غرفة النوم .

أما الكلاب في القاهرة ، كما هو الحال في القسطنطينية والمدن الشرقية الإسلامية الأخرى ، فليس لها صاحب ، وتسمى بالكلاب « الضالة » لأنها ليست مستأنسة ، وهي تعيش في جماعات ، وكل جماعة تقيم في حيها الخاص بها ، والويل للكلب التعمس الذي يعتدى على أرض جماعة أخرى ، إذ ب مجرد أن يعبر خط الحدود ، تقوم القوات المتحدة للأرض المعتمد علىها بالهجوم عليه دون رحمة أو هواة .

في هذه المدن حيث تلقى القمامنة في الشوارع أو في الأراضي الفضاء ، تؤدى الكلاب عمل الكناسين ، مثل الصقور التركية الجارحة التي تحوم في

« فيرا كروز Verakruz ، وكثيراً ما تنازع المسؤولين فنات الخبز التي تلقي من المطابخ .

وهيأ لى الصباح مشاهدة أول منظر لمدينة القاهرة . وكان الفندق . وهو بناء ضخم ، من بين الممتلكات الخاصة للخديوي في ذلك الوقت ، فقد أقيم أصلاً لكي يتسع لإقامة الضيوف الذين حضروا الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، وكان له شرفة ذات أرضية من الرخام حيث يستطيع الضيوف أن يجلسوا ، وقد أظلتهم خميلة تحميهم من وهج الشمس ، ويشاهدوا المناظر العابرة التي تنطق بالفتنة الجارفة ، كما يستنشقون الهواء الصحي الذي يمتاز به هذا الجو الممتع . حقاً ، إن الزائر الذي يملأ وقت فراغ كاف يستطيع أن يقضي الساعات والأيام في هذا المكان ، ينعم بمشاهدة مناظر متعددة تتكشف أمام ناظريه على الدوام . والشوارع مكتظة بالمارة يتجاذب فيها باستمرار وقع أقدام خليط كبير من الناس ، وهم يسرعون في طريقهم . هنالك توجد الحمير لركوب السائحين أو النساء المحجبات اللاتي يرتدين ملابس سوداء واللاتي يتمسحن إلى القشرة الدنيا من الطبقة المتوسطة ، ويسرع خلف الحمير المكاريون يستحثونها بصرخاتهن العالية أو يلهبون ظهورها بسياطهم . وتوجد أعداد كبيرة من الجمال محملة بالحبيبات ، وأخرى أسرع منها تحمل بعض البدو على ظهورها ، كما توجد عربات يركبها بعض النسوة الجميلات من حريم الخديوي تغطي وجوههن غلالات رقيقة ، ويرافقهم أغواتهن . وهناك عربات أخرى أقل فخامة تحمل بعض النساء الأكثر تحفظاً (وهن زوجات وبنات البكوات والباشوات) ويرافقهم كذلك أغواتهن .

أما السقا أو « حامل الماء » فهو يسير حاملاً قريته ملوءة بالماء يرش به الشارع أو يوزع جرعات من الماء على المارة في أكواب مصنوعة من النحاس الأصفر وهو ينادي : « يعرض الله علي » أملاً في أن ينال صدقة يسيرة . وير القناصل والباشوات في مواكب حافلة يتقدمهم سائرون يرتدون

ملابس مزركشة ويسرعون الخطى » ، كما يتقدم موكب الخديوى حراسه على صهوة جيادهم وسائسه وهم يصيحون : « افسحوا الطريق » .

والى جانب ذلك يوجد بعض الجنود تصاحبهم فرق الموسيقى وترى الى جانب ذلك الشحاذين القدرين ، وتسمع وقع أقدام لا ينقطع من اليهود ، والأقباط ، والسلميين ، والعرب ، والأتراك ، والسوريين ، والأرمن ، والعجم ، والأوريين ، وكل منهم في زيه الذي يتميز به . هذه هي المناظر اليومية لذلك الشريط الذى لا ينتهي من المناظر الخلابة التي تجرى في شوارع القاهرة .

وتكتنف شرفة الفندق من كل جانب حدائق مليئة بأشجار ونباتات المناطق الحارة . وعبر الشارع في قلب الحي الأوربى ، تقع حديقة الأزبكية ببحيراتها ، ونافوراتها ، وجبلائياتها ، ومجاراتها ، وتحتل عشرين فداناً أو يزيد . كما تتخللها طرقاً جميلة ، والشجيرات والأشجار العديدة النادرة التي غالبها من الهند .

ومن بين هذه الأشجار يوجد عدد كبير من أشجار « البنيان » تتدلى فروعها إلى الأرض وتتدأ أغصانها إلى باطن الأرض فتكون أصولاً جديدة . وإنك لتسمع صوت البط في مجاري المياه الصناعية وترى البجع الأبيض والأسود وهو يتهادى في رشاشة على سطح البحيرات كما تشاهد قوارب النزهة الصغيرة تشق الماء ويرح فيها الأطفال .

ويتدفق القاهريون الذين ينتمون إلى الطبقتين الوسطى والدنيا ، عصر كل يوم ومساءه ، إلى هذه الحديقة لكي يستمتعوا بصوت الموسيقى ويشاهدو ألعاب الشعوذة . وبهذه الوسيلة يتتحققون للأجنبي فرصة عجيبة لكي يشاهد خليطاً من الناس - من كل الأشكال والألوان والأديان والجنسيات - الذين يتكون منهم سكان القاهرة . كما يحيط بالحديقة من جميع الجوانب مبان فخمة ، من بينها دار الأوبرا .

ولقد تركت نزهة الصباح القصيرة أثرا طيبا في نفسي عن مقر إقامتي المؤقت ، كما منحتني أملاً ، تحقق بعد ذلك بأكمل معانيه ، في إقامة سارة في عاصمة الخديوى .

الفصل الثاني

استقبال سمو الخديوى لي

كان أول واجب أقوم به في القاهرة هو زيارة الخديوى إسماعيل باشا . ولقد تم ذلك في قصر الجزيرة الواقع على الشاطئ الغربى للنيل في مواجهة المدينة . ولقد أحاط شريف باشا - وزير الخارجية - سموه علما بوصولى ، وتحدد ميعاد ومكان هذه المقابلة غير الرسمية .

ولقد عبرت النيل على ذلك الجسر الفخم إلى تلك الجزيرة الطويلة البيضاوية الشكل حيث اتجهت إلى اليمين مخترقا شارقا عريضا تفصل بينه وبين شاطئ النيلأشجار نخل باسقة . وعلى الجانب الآخر ، أي الجانب الأيسر ، تقع حدائق النباتات والحيوانات . وتشتمل الأخيرة على مختلف أنواع الحيوانات الواردة من أفريقيا وأسيا من بينها قطيع صغير من الفيلة يقوم على خدمتها حراسها الهنود . وقد أرسلت هذه الفيلة فيما بعد ، بناء على نصيحة الجنرال ستون إلى مناطق أعلى النيل لكي تقوم بمهمة النقل . وفي آخر هذا الطريق المتسع يقع قصر الجزيرة ، وهو قصر صغير نسبيا ، ولكنه مسكن رائع منيف ، بدء في بناه أثناء حرب الاستقلال التي اشتعلت في بلادنا بينما كانت مصر منتشرة بسبب ثروتها المفاجئة الناشئة عن ارتفاع ثمن القطن . ولقد أنشأ إسماعيل باشا هذا القصر خصيصا للذاته لمدة محدودة من كل عام . وكان يتصل به حدائق غناء ، كما أقيم به كشك قد زين على الطراز المراكشي . وعلى مسافة قصيرة من القصر أقيم بناء خاص بالحرير .

ولقد أقام في هذا القصر أيام الاحتفال بفتح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، الإمبراطورة يوجيني أولأ ثم فرنسيس جوزيف إمبراطور النمسا بعد ذلك ، كما أقام فيه بعض الشخصيات البارزة أمثال « البرنس أوف ويلز ». ولقد بيع القصر واستبدل بفندق يشرف على إدارته بعض الضباط الإنجليز . هذه الجزيرة تكون على هذا الحال في وقت فيضان النيل فقط ، ذلك أن الفرع الغربي للنيل يجف في الأوقات الأخرى .

دخلت القصر فتقدمني كبير التشريفات على سلك كبير صنع من الرخام « الكارارا » حيث لقيني الخديوي في غرفة استقبال فاخرة . ولقد استقبلني سموه عند الباب استقبلاً حاراً . وبعد التقديم والتضحية المعتادة اتخذت مقعدي عند طرف إحدى الأرائك الكبيرة وأخذ الخديوي مقعده في الطرف الآخر وقد امتدت قدماه أمامي على الطراز التركي .

وكان حديثنا يدور حول موضوعات عامة ، ورحب بي الخديوي في بلاده وسألني ما إذا كنت مسروراً بزيارتى ، كما سأل عن صحة رئيس الولايات المتحدة وحالة البلاد العامة ، ثم تمنى لي أن استمتع بإقامة طيبة في بلاطه ، كما أبدى استعداده لعمل كل ما بوسعه لجعل زيارتي مريحة . ولما كان لا يتكلّم الإنجليزية فقد كانت محادثاتنا باللغة الفرنسية التي كان يتكلّمها بطلاقة . لم يكن إسماعيل باشا جذايا من الناحية الجسمانية ، فقد كان يبلغ من العمر حوالي السابعة والأربعين ، قصير القامة ، عريض المنكبين ، ضخم الجثة ، ولون بشرته أكثر سمرة من لون بشرة الأوروبيين . أما جفونه فكانت مرتعشة ، وجفونه اليسرى أكثر ارتخاء من اليمنى . وعندما تكون ملامحه ساكنة تبدو عيناه وكأنها نصف مغلقة . وكانت حواجبه فاحمة اللون ، خشنة ، كثة الشعر ، وبذرعة إلى الأمام . أما لحيته البنية الداكنة فكانت قصيرة . وكانت أذناه كبيرتين وليس من الحسن بمكانته . وكان يرتدي حلقة إفرينجية سوداء ، غير أن معطفه كان من الطراز « الاستانبولي » أي أنه معطف « بصف واحد » ذو ياقة منتصبة ، كما كان يرتدي على رأسه الطربوش الأحمر .

ولا يظهر الأتراك عراة الرءوس فقط ، إذ أن هذا العمل يعتبر دليلاً على المهانة البالغة . ولقد أخبرني شاب كان أبوه أحد وزراء السلطان ، وكان هو نفسه يعمل في إحدى المصالح في القاهرة ، أخبرني أنه لم يظهر أمام والده عاري الرأس مطلقاً ، حتى ولا في طفولته المبكرة ، وأنه لا يجرؤ على مثل هذا العمل ، ذلك أنه لا يستطيع أن يعرض أباً له مهانة بالغة . ولقد أخبرني رياض باشا ، الذي أصبح رئيساً للوزراء فيما بعد ، في معرض الحديث عن أول زيارة له لأوروبا ، أنه دهش حينما طلب منه موظف الكنائس في ألمانيا ، وكان يزروها في ذلك الوقت ، أن يخلع طربوشه . ولو تصادف أن دخل مسلماً أحد المساجد وهو عاري الرأس لطرد على الفور ، ولكن محظوظاً إذا لم يصبهسوء . وينبئ الطربوش أو العمامة في المسجد ، وفي حفلات الاستقبال العامة والخاصة ، وفي الولائم ، والواقع في كل مكان يذهب إليه التركي أو المسلم . أما المرأة التي تبدو في الشارع فينبغي عليها لا أن تكون محجبة فحسب بل عليها أن تغطى رأسها كله . ويعتبر خرقاً صريحاً لآداب اللياقة أن تظهر المرأة الجزء الخلفي من رأسها ، تماماً كما لو أظهرت وجهها . فإن أقدمت على عمل شيء من ذلك كان فضيحة العمر .

وكان للخدیو عادة التحدث بإحدى عینيه مغلقة ، بينما يمعن النظر بعينه الأخرى في أدق تفاصيل ، وحركات ، وطريقة الحديث ، وحتى أفكار هؤلاء الدين يتحدث معهم .

ورغم كل نعائمه ومساوئه الجسمانية ، كان محدثاً ممتعاً ، يتسنم في كثير من الأحيان ، بشوشًا دائمًا ، ومثيراً للاهتمام . كان صوته هادئاً يبعث على السرور ، وألفاظه منتقاة ومعبرة . وكان فائق الذكاء ، ولديه معلومات دقيقة حتى عن التفاصيل التي تخصل حكومته وشعبونه الخاصة الشاسعة ، وتبرهن نظراته الحادة الثاقبة (حينما تكون عيناه مفتوحتين من أثر حديث شائق) وإجاباته السريعة الدقيقة ، ومعلومات الخاصة بموضوعات ليس من المفروض أصلاً أن يكون ملماً بها ، تبرهن لكل هؤلاء الذين استمتعوا بالحديث

معه ، أنه رجل يمتاز بقدرة غير عادية .

وبحسب العرف الجاري في البلاد لم يكن في مقدور أي أمريكي أن يتقدم إلى الخديوي إلا عن طريق مثله الدبلوماسي . وقد أتيحت لي الفرصة في أن أقوم بهذا الواجب مراراً أثناء السنوات الخمس التي أقمتها في القاهرة ، وكثيراً ما كان يدهش الزائر لما كان يلمسه من ذكاء الخديوي النادر . فعندما قدم له قائد إحدى البوارج الأمريكية أحد الخديوي يوجه له سلسلة من الأسئلة التي تخص سفينته ، ولم يستطع القائد أن يجيب على بعضها ، ثم تطرق إلى وصف سفنه الخاصة وصفاً تفصيلياً .

وقد عبر القبطان وغيره من الضباط الذين كانوا يرافقه عن بالغ دهشتهم بعد أن انصرفوا من حضرة سموه . نظروا لما لمسوه منه من معلومات حرية . وكان القول نفسه ينطبق على غير ذلك من الشئون . ولذا كان العسكريون والمدنيون على السواء يدهشون من معلوماته المفضلة . أضف إلى ذلك أنه كان يملك القدرة النادرة على أن يكتسب ثقة زائره بأن يزيح عن كاهله كل حرج ممكن ويجعله على طبيعته تماماً .

وقد تأجلت مقابلتي الرسمية مدة طويلة نظراً لعدم وصول أوراقي الضرورية من القسطنطينية ، ذلك أنه من الوجهة الإسمية يعتبر الخديوي من رعايا السلطان . ولذلك ، قبل أن يترعرع رسميًا بممثل حكومة أجنبية في مصر ، لابد من الحصول على موافقة أو إذن السلطان . ويتم هذا عن طريق الحكومة التي ترسل ممثلها . ومن ثم تتصل حكومة السلطان بحكومة الخديوي لكي تؤكد ما إذا كان المرشح مقبولاً ، أي ما إذا كان « شخصاً مرغوباً فيه » .

كما أن أعمال الدواوين في القسطنطينية غاية في البطء ، وربما تكون أبطأ من أعمال أية دواوين لأية حكومة في العالم ، أضف إلى ذلك أن مقتل السلطان عبد العزيز ، الذي حدث عقب وصولي بأسبوعين ، قد أدى إلى زيادة تعطيل وصول الوثائق الرسمية المطلوبة .، وحال كذلك دون وصول

الأوراق عاجلاً ، كما أدى إلى زيادة التعطيل موت طومسون باشا ، وزير البحريـة ، وزوج الأمـيرة فاطمة هـانم ، ابنة الخديـوى الثـانية التي كان يـؤثـرها على غيرـها .

وكانت الأوراق التي أرسلـها هـوراس مـيلـنـارد وزـيرـنا المـفـوض لـدى « الـباب العـالـي » ، تتـضـمن فـرـماـنا مـوجـهـاً إـلـى الخـديـوى وـتـوجـيـهاً مـرسـلاً إـلـى يـحدـد اـمـتـياـزـاتـي الرـسـميـة ، وـقـد كـتـبـتـ هذه الأوراق بالـلـغـةـ التـرـكـيـةـ بـأـسـلـوبـ منـمـقـ وبـحـرـوـفـ كـبـيرـةـ ، كـمـاـ كـانـتـ سـطـورـهاـ مـتـعـاـقـبـةـ مـخـلـفـةـ الـأـلـوـانـ ، وـهـيـ الـآنـ ضـمـنـ الـهـدـاـيـاـ الـكـثـيـرـةـ الـتـيـ تـلـقـيـتـهاـ فـيـ مـصـرـ . ولـقـد قـمـتـ بـتـرـجـمـةـ هـذـاـ فـرـماـنـ إـذـ أـنـهـ مـثـلـ عـجـيبـ عـلـىـ التـعـبـيرـاتـ الشـرـقـيـةـ . « إـلـىـ وزـيرـ النـبـيلـ ، سـموـ الخـديـوىـ ، المـثـلـ الـأـعـلـىـ ، وـالـمـدـيرـ الـقـدـيرـ لـأـعـمـالـ الدـوـلـةـ ، مـنـبـعـ الـخـزمـ وـالـإـنـسـانـيـةـ ، بـلـ وـمـؤـسـسـ صـرـحـ الـعـزـةـ وـالـمـجـدـ - أـنـتـ يـاـ مـدـعـمـ قـوـاءـ الدـسـادـةـ وـالـخـلـاصـ . خـلـيلـ الـعـنـيـةـ الـإـلـهـيـةـ ، خـدـيـوىـ مـصـرـ ، مـزـدـائـاًـ بـتـيـاشـينـ الـدـوـلـةـ الـعـشـمـانـيـةـ وـالـمـجـيـدـيـةـ مـنـ الـدـرـجـةـ الـأـوـلـىـ ، أـيـ وزـيرـ إـسـمـاعـيلـ باـشاـ ، الـأـمـيرـ الـجـلـيلـ الـقـدـيرـ ، الـذـيـ اـخـتـارـتـهـ قـدـرـةـ اللهـ . عـنـدـ اـسـتـلـامـ هـذـاـ الـأـمـرـ لـيـكـنـ مـعـرـوفـاًـ لـدـيـكـ بـأـنـ الـبـعـثـةـ الـدـبـلـوـمـاسـيـةـ لـلـلـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ الـتـىـ تـقطـنـ عـنـدـ بـوـابـتـاـ السـعـيـدـةـ قـدـ قـامـتـ بـرـفـعـ تـقـرـيـرـ تـحـيـطـيـ فـيـ عـلـمـاـ بـوـفـاـهـ الـمـسـتـرـ بـيـروـسـلـيـ الـذـيـ كـانـ قـصـلـاًـ عـامـاـ لـلـلـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ فـيـ مـصـرـ وـالـتـيـ تـشـرـفـ عـلـىـ أـعـمـالـ التـجـارـ الـتـابـعـينـ لـلـلـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ الـذـينـ بـرـوـحـونـ وـيـغـدـونـ فـيـ هـذـاـ القـطـرـ . كـمـاـ أـحـاطـتـنـىـ بـتـرـشـيـحـ مـسـتـرـ الـبـرـتـ . أـ. فـارـمـنـ الـذـيـ اـعـتـمـدـ مـنـيـ بـأـمـرـ سـلـطـانـيـ . ذـلـكـ الـأـمـرـ الـذـيـ قـدـمـ إـلـىـ الـوزـيرـ الـمـفـوضـ لـيـحـفـظـهـ لـدـيـهـ . وـلـقـدـ أـعـطـاهـ أـمـرـىـ السـلـطـانـيـ هـذـاـ سـلـطـةـ الـإـشـرافـ عـلـىـ أـعـمـالـ الـمـدـنـيـنـ وـالـتـجـارـ الـتـابـعـينـ لـلـلـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ وـالـمـتـرـدـدـينـ عـلـىـ هـذـهـ الـبـلـادـ ، كـمـاـ نـصـ عـلـىـ أـنـ يـعـاـمـلـ ، دـوـنـ أـيـ تـدـخـلـ مـنـ جـانـبـ أـيـ شـخـصـ غـرـيـبـ ، طـبـقـاـ لـلـشـرـوـطـ الـمـنـصـوصـ عـلـيـهـاـ فـيـ الـمـعـاهـدـاتـ الـمـبـرـمـةـ حـالـيـاـ . لـقـدـ أـعـطـيـتـهـ فـرـماـناـ آـخـرـ ، وـلـسـوـفـ تـعـاـمـلـهـ شـخـصـيـاـ وـفـقـاـ لـلـمـعـاهـدـاتـ الـمـبـرـمـةـ ، وـأـنـتـ ، أـيـهـاـ الـخـدـيـوىـ السـالـفـ الـذـكـرـ ، لـسـوـفـ تـتـصـرـفـ بـمـقـتضـىـ نـصـوصـ هـذـاـ الـأـمـرـ الـمـشـارـ

إليه ، وتسمح له بجمع الضرائب القنصلية المستحقة على الواردات وال الصادرات التي يتعامل فيها التجار الأميركيون ، وعليك ألا تسمح بأي نوع من أنواع التدخل في حقوق القنصلية .

خاتم السلطان

كبير الوزارة

ولقد تجنب الباب العالي ذكر اختصاصات القنصل العام في مصر وتعتبر واجبات المعتمد البريطاني والقنصل العام للولايات المتحدة في مصر واجبات دبلوماسية وقنصلية ، وإن كانت الأولى هي أهمها أساساً . ومعتمدون والقناصل العاملون التابعون لدول أوربا الكبرى التي لها قناصل يقومون بالواجبات القنصلية تعتبر وظائفهم دبلوماسية محضية . وعلى كل فإن الباب العالي لا يعترف بهؤلاء الممثلين الدبلوماسيين إلا على أنهم قناصل عاملون ويعتبرون في نفس مرتبة غيرهم من المعتمدين والقناصل العاملين لدى الخديوى .

وفي حفل الاستقبال الرسمي الذي أقيم في قصر عابدين قدمت خطاب اعتمادي شخصياً إلى الخديوى ، بناء على التعليمات الصادرة إلى وكان هذا الخطاب موجهاً من رئيس الجمهورية الجنرال جران特 . وكانت وزارة الخارجية في واشنطن قد أرسلت نسخة منه إلى شريف باشا لهذا الغرض . وكان نص الخطاب كما يلي :

من بوليسبيس س. جرانت ، رئيس جمهورية الولايات المتحدة إلى سمو خديوى مصر .

صديقي العزيز البار

لقد وقع اختيارى على البرت أ. فارمن ، من مواطني الولايات المتحدة كمعتمد وقنصل عام للولايات المتحدة الأمريكية في مصر ، لكي يقيم في

القاهرة ويشرف على مصالحنا ، ويذل كل ما في وسعه من وسائل شريفة كي ينمى ويحافظ على الألفة والنية الصادقة بيننا . ولذا أتمنى من سموكم أن تعامله على هذا الأساس وأن تمنحه الاحترام اللازم وأن تواليه بالثقة التامة في كل ما يمثله من قبل حكومته وعلى الأخضر عندما يؤكد لسموكم توافر الصداقة الخالصة بيننا .

حرر في واشنطن في ١٣ من أبريل سنة ١٨٧٦ م .

بأمر رئيس الجمهورية

صديقي المخلص

وزير الدولة

إ. س. جرانت

ج. ل. كادوالدر

هذا وقبل تقديم الخطاب قمت بإلقائه كلمة قصيرة أكدت فيها لسمو الخديوى الصداقة الحارة من قبل الرئيس ورغبته في دوام علاقات الصداقة الموجودة بين حكومة مصر وحكومة الولايات المتحدة ، فأجاب الخديوى بالفرنسية مبيتاً تقديره لعبارات الصداقة ، كما سماها ، التي ألقاها باسم حكومتنا . راجياً مني تبلغ مشاعر الصداقة إلى جناب الجنرال جرانت ، كما عبر عن رغبته التي لا تقتصر على دوام علاقات الإخلاص بل ترمى إلى تقوية هذه العلاقات ب مختلف الوسائل بين كل من الولايات المتحدة الأمريكية ومصر . كما أكد لي أنه على استعداد لمساعدتي في إنجاز المهمة التي كلفت بها من قبل حكومتى .

في هذه الزيارة كان يصحبني طبقاً للعرف الجاري . الوزير المفوض المساعد وسكرتيرى الخاص وأربعة من المترجمين ، ولم تكن وظائف هؤلاء المترجمين سوى وظائف فخرية فحسب ، وذلك لأنهم لا يقومون بخدماتهم إلا في بعض المناسبات الرسمية العامة . ولقد كانوا أشخاصاً من ذوي النفوذ والمال الذين يقومون بخدمات صغيرة من حين إلى حين في مقابل ما يتمتعون

به من حماية . ولما كانوا ملحقين بالمفوضية كان لهم حق التمتع بحقوق وامتيازات المواطنين الأمريكيين ، وعليه فقد كان هذا سبباً في تخلصهم من طلبات الابتزاز للحكام وغيرهم من الموظفين المحليين لتلك الحكومة الاستبدادية .

والدولة العثمانية تسمح بأربعة من المترجمين لكل وزير مفوض جرياً على التقاليد القديمة . وهم من الوجهة النظرية يكونون جانباً من حاشية الوزير المفوض . الواقع أنهم سكرتيروه ومترجموه ومساعدوه .

بعد تقديم خطاب الاعتماد كان من بين الحاضرين ، وهم من الموظفين المصريين ، شريف باشا ، وقد جلس الجميع على أرائك تركية ، وقدمنا إليهم نراجيل ذات أذرع مرصعة باللأس أ أجسامها مرتكزة على أطباق من الفضة . وكانت هذه الأذرع طويلة بشكل يسمح للإنسان باستخدام النرجيلة بطريقه ملائمة . وبداع أن أخذنا بضعة أنفاس قدمت إليهم القهوة التركية . وبعد حديث قصير بيني وبين الخديوي قام سموه ورافقني حتى بباب غرفة الاستقبال . وعندما كنت على وشك الخروج أبدى أسفه على أن الظروف قد حالت بينه وبين استقباله لي بالطريقة المألوفة ، ثم أردف قوله : إنه سوف يكون سعيداً إذا ما قام بهذا العمل غي المستقبل .

كنت أعتقد أن هذه المقابلة سوف تكون بديلاً لحل الاستقبال الفخم المألوف الذي يقام طبقاً لما يجري به العرف في مصر ، ذلك أنه لم تكن قد انقضت مدة الحداد ، وهي أربعون يوماً ، على وفاة المرحوم طوسون باشا . ولذا فإننا قد أبلغنا في الخطاب الذي حدد مكان وميعاد الاستقبال بأنه سوف يتم دون « أي احتفال » .

وفي الوقت المحدد للاستقبال النهائي ، حضر زكي باشا ، كبير التشريفات ، إلى مقر إقامتي بصفته ممثلاً للخديوي ومعه عربستان : إحداهما ، وهي العربية الملكية ، خصصت للباشا ولشخصي ، وكانت مطلية بطلاء ذهبي وتجزها جياد بيضاء مزركشة يصاحبها بعض السائسين والحراس . أما العربية

الأخرى فكانت لحاشية القنصل . وكان الباسا محيطًا بعده من رجال السواري على جياد بيضاء وشهباء ساروا في حراستنا حتى القصر . وعند مدخل القصر ظهرت فضيلة من المشاة على جانبي الميدان . وعندما اقتربنا بدأت طلقات المدفع تدوى من القلعة وبدأ الجنود يحيوننا عند مرورنا .

وعند مدخل القصر استقبلنا طونيتو بك مساعد كبير التشريفات يصبحه آخرون من أتباع الخديوي . وحينما ارتقينا السلم الضخم ، استقبلنا الخديوي وقادنا إلى غرفة الاستقبال . وبعد أن تبادلنا مع سمو الخديوي قليلاً من كلمات المحاملة جلسنا جميعاً ودارت علينا الغلايين وفناجين القهوة كما حدث في المناسبة السابقة . وحينما استأذنت للانصراف ، قدم لي الخديوي سيفاً مقوساً ذا نصل دمشقي وغمد مرصع بالذهب ، كرمز لسلطتي في بلاده . وعندما غادرنا القصر مررنا بين صفوف الجند الذين قاموا بتحيتها مرة ثانية ، ووصلت إلى مقر إقامتي بنفس الطريقة التي حضرت بها ، ويصبحني نفس الأشخاص الذين رافقوني إلى القصر ، ثم تبادلت الزيارات بعد ذلك ، كما جرت العادة ، مع شريف باشا ، ومع أبناء الخديوي وغيرهم من الشخصيات البارزة .

وفي الصباح التالي ترتب على هذه المقابلة أن حضر إلى سائقو العربات والسائسون وغيرهم من خدم الخديوي وخدم ناظر التشريفات ووزير الخارجية الذين أسعدهم الحظ بحضورهم هذه المقابلات . وقد حضروا جميعاً لتناول «البتشيش» الذي كان من حقهم ، كما يقتضى العرف في مثل هذه المناسبات . وقد حدد العرف المبالغ التي تعطى لهم فيما يلي : سائق الخديوي ، ستة جنيهات استرلينية ، السائق الثاني ، أربعة جنيهات ، السائسون ، أربعة جنيهات ، حرس ناظر التشريفات ، خمسة جنيهات ، حرس وزير الخارجية ، عشرة جنيهات ، سائق الوزير وسائسه وخدمه ، خمسة جنيهات ، الحرس القنصلي ، جنيه واثنا عشر شلنًا ، فيصبح المبلغ الكلي خمسة وثلاثين جنيهًا واثني عشر شلنًا استرلينيًا ، أو مائة وثلاثة وسبعين دولارًا .

ولقد منح الخديوى القائم على خدمتنا (حسن) ستة عشر نايليو (تقدر بما يزيد على ستين دولاراً) وذلك ليشتري بها خلة رسمية جديدة من المفروض أنه يحتاج إليها عند دخوله الخدمة لدى القنصل العام الجديد . وكان من عادة الخديوى حينئذ أن يقوم بإهداء أي قنصل عام جديد - بمناسبة استقباله الرسمي - جواذاً رشيقاً ، جهز سرجه ولجامه على أحسن طراز شرقي ، فقد وشي سرجه الكبير بالذهب بينما زخرف بقية الطاقم بنفس الأسلوب الفاخر . ولقد قبل القنascil العامون لكل الدول هذه الهدية بما فيهم قناصل الولايات المتحدة ، فيما عدا سلفي الذي تلقى تعليمات بألا يقبل الهدية ، وقد تكرر هذا الحظر في التعليمات التي صدرت إلى ، ولما كان من المعلوم أن الحصان لا يمكن قبوله ، لم يقم المسؤولون بتقادمه إلى . وعلى كل فقد سبق أن سألي شريف باشا في حديث جرى حول هذا الموضوع ، عن الحق الذي يكفل للولايات المتحدة أن تتدخل في عاداتهم القدية ، ثم لمح بأنه ينبغي عليه أن يقدم الحصان ، تاركاً لي أمر رفض الهدية .

ولم يتوان سائس الخديوى عن أن يحضر إلى لكي يتناول نصيبه من « البقشيش » كما لو كان قد تبعنى من القصر مقتاداً الجواد ، وكما لو كنت قد قبلت الهدية . ولم لا ؟ لم يكن ذنبه إن حكومة الولايات المتحدة قد اتخذت قراراً يفيد بأن هذه الهدية عمل غير دستوري ، بعد أن كانت قد سمحت بقبول الجواد لأمد طويل . وعادة إهداء الحصان عادة قدية يرجع أصلها إلى الزمن الذي لم يكن فيه ثمة طرق ممهدة للعربات في مصر ، حتى ولا في المدن الكبرى مثل الإسكندرية والقاهرة ، ولذا كان وجود الحصان ضرورة بالنسبة لأي شخص ذي مكانة . وعندما وصلت ، لم يكن ثمة طرق للعربات خارج هاتين المدينتين وضواحيهما القرية ، وليس هناك الآن سوى بعض طرق قليلة ، أطولها - على حد معرفتي - الطريق الممتد من القاهرة إلى الأهرامات ، وهي مسافة تبلغ حوالي تسعة أميال .

و قبل حفل الاستقبال الرسمي الذي أقيم لي ، كثيراً ما قمت بزيارة

الخديوى الذى أشعرنى بأنى على صلة وثيقة بسموه بفضل شخصيته الاجتماعية اللطيفة . وكان ينبعى على أكثر من مرة أن أقوم بواجب غير سار ، وهو المطالبة غير الرسمية – وإن كانت بطريقة ملحة مهذبة – بدفع التعويضات الأمريكية ضد الحكومة المصرية . وعلى حين أتى كنت أقوم بهذا العمل أمام وزير الخارجية أو وزير المالية كان من الضروري في بعض الأحيان أن أثير الموضوع أمام الخديوى شخصياً ، وكانت الحكومة المصرية في ذلك الوقت في ضائقة مالية شديدة ، ولذا كان مجرد ذكر أي تعويض مالي لابد وأن يسبب بعض الضيق . وعلى كل ، لم يكن بي حاجة للمطالبة بشيء آخر خلاف ذلك ، في الوقت الذى كان فيه الممثلون الأوروبيون لا يلحون في طلب التعويضات المالية فحسب ، بل يقومون كذلك بتنفيذ مشروعات سياسية ، ذات أهمية حيوية بالنسبة للخديوى ، الأمر الذى أدى في النهاية إلى أن يفقده عرشه .

وعندما أعلنا نباً وصولى في القصر لم يكن الخديوى يخشى مطلبنا ممجحفاً أو مؤامرة سياسية من جانب حكومتى ، ولذا لقينى بالخلاص تام دون أي خوف من تعريض مصالحه للخطر . والواقع أن الولايات المتحدة وروسيا كانتا في ذلك الوقت الدولتين الكبيرتين الوحidentين اللتين لم تكن لها مطعم سياسي مباشر أو غير مباشر بالنسبة لمصر . مثل هذه الظروف ساعدت كثيراً في دفع التعويضات الأمريكية التي سوت أخيراً بطريقة مرضية ، ودفعت عن آخرها . ولقد كنت مدينا بهذه النتيجة لصداقة الخديوى .

الفصل الثالث

أسرار النيل والري

مصر بلد العجائب ، والقاهرة مدينة ساحرة فاتنة ، من أجمل مدن العالم ، وقلما تجد مدينة تضاهيها في بهجتها ، وقلما تجد مملكة حديثة العهد في مظاهرها وروعتها كمصر ، بل قلما يجد الباحث وراء اللذة أو الباحث وراء العلم ما يضاهيها . ففي كل زاوية من زوايا البندر أو الريف تجد المدهش العجيب ، والمجديد اللذيد ، فالمساجد وقباب المساجد لسلطانين المماليك ، ومقابر العائلة المالكة وجبانة العرب ، والقصور العتيقة ، والشوارع المكتظة بالكتل البشرية المتحركة ذهاباً وإياباً ، ومبانيها ذات الطراز العربي ، والأسواق العجيبة الممتلئة بالبسط والسجاجيد الشرقية الفاخرة ومجموعة الآثار الفرعونية ، والقلعة بقصورها ، ومسجد محمد على المبني من المرمر والمناظر الباهرة ، والصحراري والغابات المتحجرة ، والصخور الفسفورية البيضاء بجبل المقطم ، والأهرامات وأبي الهول ، والأضرحة العتيقة الرائعة ، والنيل ، والحقول الخصبة بواديها ، وعادات أهلها المختلفة . كل ذلك يجتمع ليحدث أثراً ليس له نظير في أي مكان آخر فوق سطح المعمورة .

لقد نقشت هذه المناظر على الذاكرة أثراً لا يلى ، وذلك أنه بعد مضى سنين عديدة على تلك المناظر يشتق « الإنسان الذي شرب من ماء النيل مرة » أن يمرح ثانية في طقس مصر الجميل ويعود إلى مساراتها وملذاتها التي تظهر له حينما يسرح الطرف فيها وكأنها حلم لذيد عن أرض عجيبة تضيئها أشعة مصباح علاء الدين السحرية .

ولقد قال هيرودوت (أبو التاريخ) في معرض الحديث عن مصر منذ ألفين وثلاثمائة وخمسين عاماً : « أنها تشمل على عجائب أكثر من أي بلد آخر في الوجود . وتبدي أعمالاً أعظم مما يتصور عند مقارنتها بغيرها من الأقطار » .

منذ ذلك التاريخ لم تقف مصر عن إثارة إعجاب السائح والمؤرخ المحب لجمالها وروعتها .

أما من الوجهة الجغرافية فهي ليست إلا واحة محاطة بالصحراء الشاسعة من كافة الجهات ، عدا الشمال . ولقد كانت تسمى عند القدماء بالأرض السوداء وذلك نسبة إلى لون الطمي الأسود الذي يهبه النيل للبلاد فيكسبها الخصوبة والنماء ، و يجعل بينها وبين رمال الصحراء فرقاً شاسعاً .

ولقد كانت منذ العصور الأولى البستان ، بل حقل القمح الخصيب لأهل المشرق ، فقد كانت المورد الغذائي الوحيد الذي يعتمد عليه . بل لقد كانت منذ العصور الأولى تمد أهلها (الذين كان عدهم أكثر من الآن) بخيرات تفوق الوقت الحاضر ، كما كانت تمد قبائل البدو المنتشرة في الصحراء المجاورة ، وتصدر كميات كبيرة من الغلال والسكر والقطن - حتى أنه منذ ستة وثلاثين قرناً من الزمان قال يعقوب عليه السلام إلى أبناءه : « إنني قد سمعت عن مصر بكثرة غلتها ، ألا فلتنزلوا مصر وتبتعدوا لنا منها حتى يمكننا أن نعيش ونحفظ أنفسنا من الموت » - منذ ذلك اليوم لم تتحقق مصر في إنتاج أكبر محصول سنوي ، فيما عدا بعض السنوات . في سنة ١٨٨٠ كانت مصر تحتوى على خمسة ملايين من الأفدنة من الأطيان الزراعية ، وهي مساحة تقل عن سدس مساحة ولاية نيويورك . ومع صغر مساحتها هذه فإنها ما زالت (سواء كان ذلك في الأزمنة القديمة أو الحديثة) محطة أنظار الطامحين من الأجانب .

ولقد قاست مصر من الغزوات الكثيرة ، واليوم تعرض تلك التربة الغنية

أهلها للصعوبات التي يسببها لهم هؤلاء الذين يفرون من الجبال والأقاليم القاحلة ، والنيل العجيب (سليل أوزiris) هو مصدر خصوبتها وثروتها .

أما الواحات الصغيرة فتروي أراضيها من مياه العيون والآبار وعليه يروي ويزرع النزر اليسير من أراضيها .

وفي دلتا النيل وواديه تؤخذ المياه من النهر للغرض نفسه . ولا توجد أهناك أمطار ذات أهمية عملية ، ولكن النيل هو عماد النباتات ، فعلى مياه النيل يعيش الأهالي ودواهم ، وأنه لينبع الحياة لهذه المملكة ، أهلها وحيوانها ونباتها ، فمياهه إن فاضت تسبب دماراً عظيماً وإن شحت يتسبب عنها المجاعة ، وإذا ما توقف النيل عن الفيضان ذابت وذوت كل النباتات والشجيرات والأشجار ، وبعد مدة لا تتجاوز الأشهر الثلاثة تصبح هذه البلاد قاحلة لا يقطن فيها إنسان تماماً مثل الصحراء الكبرى .

هذا وإن ملايين السكان لم يشربوا غير مياهه العذبة ليتظرون فيضانه السنوي بفارغ الصبر ، كما يرقب فلاج المناطق الشمالية عودة فصل الربيع .

ولقد كان النيل عند قدماء المصريين ذلك المعبد المقدس الذي تفوق أسراره أسرار أي معبد آخر ، فإن منابع النيل هي العامل الأكبر في فيضانه السنوي لأن حرارة الصيف ، وانخفاضه في فصل الشتاء ، بل وخصائصه التي تهب الحياة للبلاد .. كل ذلك كان في اعتقادهم ، كغيره من الخبرات التي تهبهما المعبدات الأخرى ، عبارة عن مظاهر تفوق إدراك الأحياء من البشر ، ومن القدسية بحيث لا يمكن الاستغناء عنها .

ولقد شاهد الكثير من عقلاه الرجال وكتبوا عن هذه الموضوعات وقدموا بوجه عام نظريات باللغة السخيف .

ويروى هيرودوت أن الرجل الوحيد من بين جميع المصريين والليبيين واليونانيين الذي يدعى أنه يعرف شيئاً عن منابع النيل إنما هو مسجل بيت المال

بنيرفا في سايس بمصر .

وتحضر قصته فيما يلي :

يوجد جبلان قائمان بين مدينة سين في طيبة وجزيرة الفيل .. وأن منابع النيل التي لا قاع لها تنحدر من بين هذه الجبال ، ونصف هذه المياه تتدفق نحو الشمال إلى مصر والنصف الآخر نحو الجنوب إلى بلاد الحبشة ، هذه الرواية تحدد منابع النيل عند الشلال الأول الذي زاره هيرودوت فيما بعد محاولاً الوقوف على ما في تلك المعلومات من خطأ دون الحصول على الحقائق السليمة . هذا وأن الفيلسوف الرياضي العظيم طاليس أحد الحكماء السبعة الذين نزلوا بمصر حوالي سنة ٦٠٠ قبل الميلاد ، قد أدى برأيه في سبب فيضان النيل قائلاً :

« إن الرياح السنوية التي تهب بشدة على مصب النهر تسد التيار المائي وتوقفه ومن ثم تمنعه من أن يفيض في البحر ، وبسبب هذا ترتفع مياه النهر ويمتلئ مجراه بالمياه حيث تفيض على البلاد المنخفضة .

وأحياناً : « نسب الفيلسوف المزاجيوس الفيوضان إلى ذوبان الثلوج التي تنزل على بلاد الحبشة » .

ولقد ترك لنا تلميذه يوريبيديس هذه السطور :

« إن نهر النيل الذي ينبع من بلاد العبيد اليابسة إنما يفيض عند ذوبان الجليد وانحداره إلى مجرى النهر » .

هذا ويقول « أفورس » :

إن أرض مصر قاطبة مكونة من طمي النيل ، وتريتها تمتاز بطبيعة إسفنجية مفككة وبها صخور ضخمة ومغارات تمتلىء بمياه غزيرة تتجمد في فصل الشتاء ، وتنحدر في فصل الصيف من كل جانب كما يتصرف العرق من

المسام ، ف تكون سببا في ارتفاع مياه النيل .

كما توجد نظريات أخرى غير معقولة كهذه استنبطها حكماء اليونان الأقدمين بعد عناء شديد . فعندما نقرأ عن الرياح التي توقف جريان نهر عظيم مسببة فيضانه فوق ريوس البلاد لبضعة أشهر أو عن تلك المياه المتجمدة في إقليم يمتاز بصيف دائم ثم ذوبانها بسبب فعل حرارة الصيف اللاذعة ، نتساءل عما إذا كانت حكمة العلماء في القرن التاسع عشر لا تزال تصاهمي تلك الحكمة غير المعقولة لهؤلاء الذين كانوا يعيشون منذ ألفي عام .

أما هوميروس فمع أنه لم يكن يعرف شيئاً عن هذه الحقائق إلا أنه كان مصيبيا في تسمية النيل نبأ سماويا ، في بيته القائل « برجوعنا إلى مجرى مصر السماوي » .

ومع أن الأمر يبدو لنا الآن يسيرا إلا أنها استغرقنا أكثر من ألفي عام لحل أسرار منابع النيل وفيضانه السنوي . ولم تعرف الحقائق ولم تفسر الظواهر بطريقة مرضية إلا في جيلنا الحاضر ، رغم أن المسألة لم تعد أكثر من مشكلة جغرافية منذ أمد طويل .

والآن وقد أحاط الناس علما بما تهبه الطبيعة من المياه بتنظيم فيضانها حللت العبادة محل الإعجاب ، هذا وإن العربي الذي يعيش في الوقت الحاضر وقد جرد من عمى الخرافات ليبسيط سجادته متوجهًا نحو مكة راكعا في صلاته الخافقة إلى الله سبحانه وتعالى شاكرا ربها من الأعمق لفيضان النيل التي تمنحه الحقوق اليائنة والمحاصيل، الوفيرة .

يوجد بمصر فصلان : فصل الصيف الطويل الحار ، وفصل الشتاء القصير . وفي فصل الشتاء تنخفض الحرارة إلى درجة التجمد إلا مرة كل بضع سنين حيث ينشأ عنها برد أيض صغير .

وفي شهر يونيو ترتفع الحرارة بشكل يؤثر على النفس كما يؤثر على التربة

حيث تجف وتبس وتشق شقوقاً كبيرة . هنالك تذبل النباتات وتذوى أوراق الأشجار بل ويجف وجه الأرض ويسى في مختلف أنحاء البلاد . وإذا بالنيل الذي انخفض إلى قراره ووصل إلى أقصى درجة من الهبوط يبدأ في الفيضان فجأة .

وبالرغم من حرارة الشمس المتزايدة يستمر النيل في فيضانه بكميات كبيرة حتى شهر سبتمبر وفي بعض الأحيان حتى شهر أكتوبر حين يطغى النيل على البلاد التي لا تحميها الحواجز ولا الجسور . هذا وإن الأقاليم التي يأتي منها ذلك النهر العظيم كانت - على قدر ما وصل إليه علم قدماء المصريين - كبلادهم بلا مطر . ولذا فليس من العجيب أنهم كانوا يعتقدون في هذه الظاهرة التي لم يستطيعوا تفسيرها وقد تملكتهم رهبة خرافية ، ولذا نسبوا إلى نهر النيل صفات القدسية والألوهية . والنيل له منبعان . فهو يبع من بحيرتين عظيمتين في أواسط إفريقيا هما بحيرة البرت وفكторيا نيانزا ، حيث يصل محيط دائرة الأخيرة إلى ٨٠٠ ميل .

هذه البحيرات هي مستودع الأمطار الساقطة في محيط تلك المنطقة . وهي تتخذ شكل بركة عظيمة في أقاليم جبلية يستمر فيها المطر أكثر من ستة أشهر في العام حيث ترتفع بحيرة فكتوريا نيانزا إلى أكثر من ثلاثة أقدام بسبب هذه الأمطار ، فهي المعين الذي لا ينضب ، بل الخزان الطبيعي الهائل الذي يمد النيل بالمياه بانتظام عجيب . هذا وإن مياه بحيرة فكتوريا تصب في بحيرة البرت نيانزا ، ويعتبر مخرج بحيرة البرت نيانزا بحق بداية النيل ، كما توجد طرق بالأراضي المنخفضة ، تغمرها المياه إبان الفصل المطر حيث تضيف إلى المياه المخزونة كميات كبيرة .

ويُعزى فيضان النيل السنوي إلى الأمطار التي تنزل بالمناطق الجبلية بلاد الحبشة ، تلك التي تكون النيل الأزرق والمعبرة . فالأول منها يصب في النيل الأبيض عند الخرطوم والثاني يصب في النيل على بعد ٢٠ ميلاً جنوبي النيل

الأزرق .. هذان الرافدان يمدان النيل بالطمي المخصوص للترية ، كما يفعل الحجر الأصفر بنهر المسوري . وفي فصل الجفاف ييدوان لك نهرين صغيرين ، وعلى الأخص العطبرة الذي يكاد يكف عن جريانه ، ولذا يبدو لك في كثير من مواقعه مجرى صخرياً رملياً جائفاً تعترضه في بعض الأحيان بركة عميقة يعيش فيها التمساح وعجل البحر .

كما يرد إلى هذه البرك حيوانات الحرتية والفيل والنمر والأسد واللختزير البرى لتطفيء ظمأها ، وفي الفصل المطر تصبح أنهاراً هادرة على جانب من العمق سريعة الجريان تجرف أمامها كميات كبيرة من التراب والرمال والأشجار . أما جنوبى نهر العطبرة فلا توجد فروع للنيل حتى ولا نهير صغير في طريقه إلى مصبها بالبحر البالغ طوله ١٦٠٠ ميل ، ومن جراء ذلك لا يزيد النيل كغيره من الأنهر زيادة مطردة في حجمه وهو في طريقه بعد ذلك إلى مصبها ، وعلى العكس من ذلك عندما يخترق النيل الأقاليم الصحراوية السودانية تقل مياهه تدريجياً بسبب الامتصاص والبخر ، كما تقل في مصر بسبب كثرة استعمالها للري ، إلا أن مياهه تصل إلى البحر خلال فرعين عظيمين ، يتسع كل منهما اتساعاً يكفى لتكوين نهر عظيم يحمل معه كميات هائلة من الرواسب الغرينية ، ومنذ زمن بعيد استغل الإنسان هنالك مهاراته في الانتفاع بهذه المياه بسخاء مسلماً أمره للعناية الإلهية .

ويقول « ستراابو » : إن العناية والاهتمام اللتين يوليهما الناس للنيل عظيمة جداً بحيث يجعلان العمل الدائب ينتصر على الطبيعة ، فالأرض خصبة بطبيعتها ، وبما تمتلكه من مياه تتوج كميات عظيمة من الفاكهة ، وكذا يفيض النيل ويرى مساحات كبيرة من الأراضي .

أما الكفاح الدائب فقد نجح في سد ما عجزت عنه الطبيعة ، حتى إنه في الفصول التي يفيض فيها النيل أقل من المعدل السنوي المعتمد ، يرى القسط الأكبر من الأراضي بواسطة القنوات والسدود ، كما هو الحال في الفصول

التي يفيض فيها النيل بشكل رائع .

وهذا يعطينا فكرة عما كان عليه الحال عند بداية العصر المسيحي ، ولكن نظام الري في مصر لم ينشأ مع عصر الرومان ولا مع أسلافهم المباشرين اليونان ، بل يرجع إلى تاريخ ربما كان قبل فجر التاريخ الفرعوني .

أما وفرة المحاصيل الزراعية في مصر فلا تفوقها وفرة محاصيل أي بلد آخر . ولهذا فإن المجهود الذي تتطلبه هذه المحاصيل يعتبر مجهوداً كبيراً نسبياً .

وما من أحد ، سوى هؤلاء الذين درسوا الموضوع دراسة خاصة لديه فكرة واضحة عن مقدار العمل والمجهود الضروري لرفع مياه النيل وتوزيعها في الوقت المناسب وبالكميات المطلوبة لكل فدان من الأرض المزروعة .

كما أن عمليات الري والحرث والزراعة وجمع المحصول تباشر غالباً في وقت واحد في حقول مجاورة لبعضها . ومن الواجب ري الأراضي عدة مرات قبل نضوج المحصول ، هذا وإن كميات مياه الري تتوقف على نوع المحصول ، فالأرز وقصب السكر يحتاجان إلى كميات كبيرة من المياه . أما القمح والشوفان والشيلم فتحتاج إلى القليل منها .

ويوجد في مصر حوالي ٨٥٠٠ ميل من قنوات الري الكبيرة منها حوالي ألفي ميل صالحة للملاحة وهذه تكون جهاز الشراعين العظيم للنيل لنقل مياهه إلى مختلف أنحاء البلاد ، بينما يوجد ٤٥ ألف ميل من القنوات الصغيرة تستخدم لتوصيل المياه إلى الأراضي لتسهيل عملية الصرف .

وتوجد كذلك سدود عظيمة ، ارتفاع الواحد منها حوالي العشرين أو الثلاثين قدماً ويبلغ عرضها ضعيفي أو ثلاثة أضعاف هذا الطول ، وهذه توجد على جانبي النيل وفروعه بالدلتا ، وذلك لحفظ المياه في أماكنها أثناء فيضان النيل .

وفي الوجه القبلي توجد مئات الأميال من الجسور الثانوية من نفس نوع

جسور الدلتا ، وأخرى أفعوانية الشكل تجرى مختفرة الوادى . كما توجد حواجز صغيرة عديدة في مختلف أنحاء البلاد .

كل هذا يفي بالغرض الهام الذي يرمى إليه جهاز الري العظيم هنالك - وسواء أقيينا نظرة على هذا الجزء الذي صنعته يد الطبيعة أم ذاك الذي فعلته يد الإنسان فإننا نجد جهازاً سرياً ليس له نظير في كماله وعظمته ، وأنه ليسد حوالي ثمانية ملايين من الأنفس والدواب بالمياه الغزيرة ، كما تمد كافة الأرضي المحيطة به بالخصوصية . وبدون هذا النظام لا يمكن الحصول على برميل واحد من السكر أو مكيال من القمح أو رطل واحد من القطن - فالترابة نقية ومياه النيل جنوبى النيل الأزرق والعطبرة ممتلئة بالطمي الذي يكسب الأرض قوة . وعندما يزال هذا الطين بالتقطرir تصبح هذه المياه شهية مغذية لا تضارعها مياه أخرى في صحتها ولذتها - ونفس هذا القول ينطبق على مياه نهر المسوري بأمريكا لنفس الأسباب .

وفي كلتا الحالتين تقipض المياه بسرعة ثلاثة أميال في الساعة فتغطي مساحة كبيرة من الأرضي متممة في ذلك عملية التطهير .

هذا وتحتوى الرواسب التي توزع على الأرضي عن طريق عمليات الري المتكررة على نسبة مئوية كبيرة من كربونات الكالسيوم وأكسيد الحديد وكربونات المغنيسيوم . وهي كافية للغاية للاحتفاظ بخصوصيتها وإن كانت الأرض التي يتم تسليمها كذلك تتبع محصولاً أوفر . وهذه الرواسب تأتى بكميات كبيرة بشكل يجعل التطهير القنوات أمراً لا بد منه .

وتطهير القنوات الكبيرة يحتاج إلى مجهد مائتي ألف عامل على الأقل لمدة ستة شهور في السنة .

هذا وإن المياه العالية تضر بالجسور حيث تحمل معها كميات كبيرة من الأتربة ، ولذا فهي في حاجة إلى ترميمات مستمرة .

وعندما تنخفض المياه في شهور أبريل ومايو يونيو ترى الأهالي قائمين يصلاح الجسور وتطهير القنوات . وهذه العملية تتم حتى الآن بطريق التسخير وتعرف بالسخرة ، تلك التي وجدت في مصر منذ أيام الفراعنة حيث كانت تؤخذ الأهالي من القرى الريفية « رجالاً ونساءً وأطفالاً » إلى مسافات بعيدة للعمل بدون أجر مدة تتراوح بين العشرين أو الثلاثين يوماً أو أكثر بحسب مقتضيات العمل - وإنك لترى الآلاف من الأهالي متجمعين في مسافة لا تزيد على ثلاثة أو أربعة أميال وهم يعملون فوق الجسور ويطهرون القنوات .

وهذه الأعمال جميعها يؤديها آدميون فعلاً . وهم يعملون كالنحل تحت إشراف ملاحظين قد وقفوا بجانبهم ويدهم السوط - فالشباب منهم يقلبون الأرض بالمعاول ويمليئون المقاطف التي يحملها النساء والصبيان على رءوسهم فوق تلك الجسور المائلة للسدود والقنوات .

وفي عصر حفر قناة السويس لم يزود عمال السخرة بالمقاطف التي اعتبرت من الكماليات ، بل استبدلوها بتشبيك أذرعهم خلف ظهورهم ، فكانوا يصعدون الجسور العالية في أشكال مقوسة ثم تستقيم ظهورهم عند القمة عندما يدعون أحمالهم تسقط على الأرض - وكان الآلاف من هؤلاء يمدون أثناء الاستعمال بهذا العمل الضخم .

وعند تنفيذ نظام السخرة هذا كان ملاحظ العمل يسرع في معاقبة المهمل المتوازي من العمل صغيراً كان أو مسناً ، ذكراً كان أو أنثى .

وإذا لم يسر العمل بسرعة كافية ترضي حاكم المديرية أو مساعديه كان الملاحظ نفسه هو الذي يأخذ دوره في الجلد بالسياط ، كما كان يحدث أيام موسى « وكان الموظفون الذين يشرفون علىبني إسرائيل والذين عينهم موزعوا العمل التابعون لفرعون كثيراً ما يضربون » . وكان الملاحظون هم مشايخ القرى التي كان الأهالي يقيمون بها . وهم مسؤولون عن ضرائبهم وعن القيام بتصنيفهم المفروض عليهم من العمل . هذا والسائح الذي يبقى بمصر حتى

شهري مايو ويونية يمكنه أن يشهد المناظر الجديدة التي تمثلها هذه الكتل البشرية ، المتراسة من العمال من كلا الجنسين ومن مختلف الأعمار بملابسهم الغريبة (وهم غالباً عراة الأجسام) ، وأسلوبهم المعروف في العمل . فهم ينامون على الأرض في أماكن عملهم حيث تغطى الأرض بكتل بشرية . وإذا كان هنالك في الأماكن المجاورة شاطيء رملي جاف فهم يعتبرونه نعمة كبيرة ! ذلك لأنه لين ناعم يناسب أجسامهم ، تلك الأجسام المنهكة القوى التي احتملت مشقة العمل وشدة الحرارة . أما في ليالي فصل الصيف الحارة فيجدون في هذا الشاطيء فرائضاً لهم - زد على ذلك أن الجو منsett جاف وتضيء قبته السماوية الزرقاء عشرات الآلاف من المصايب السماوية حيث يستريحون من عنائهم وينامون كفayıتهم كغيرهم من أبناء البشر والمحظوظين - أما فيما يتعلق بالغطاء ليلاً فينفس ملابسهم التي يرتدونها نهاراً ، وقد يكون الغطاء بطانية في بعض الأحيان - ثم يستيقظون في الفجر المبكر ، وهم لا يحتاجون إلى وقت لعمل زينتهم في الصباح . وبعد ذلك تكتفيهم قطعة من الخبز السن وجرعاً من ماء النيل لإفطارهم . وبعد هذه الوجبة البدائية العاجلة يقادون بسرعة إلى العمل .

وتعتبر القنوات التي تظهر عن طريق الخدمة العامة هي الشرائين الأصلية التي توصل المياه من النهر إلى الأراضي المجاورة لريها . وعند هذا الحد يبدأ عمل ملاك الأرضي ، هذا وأثناء استمرار الفيضان تسهل عملية ري الأرضي ، ولو أن إقامة الفتحات والسدود وحفر المصارف والتطهير وتوزيع المياه تحتاج إلى مجهدات كبيرة شاقة .

ولولا السدود لطفت المياه أثناء الفيضان على جميع أنحاء البلاد - وفي جزء كبير من الوجه القبلي وفي حيز محدود من الدلتا لايزال طغيان المياه على الأرضي متوفراً - فتظهر المملكة عندئذ في كثير من أماكنها بمظهر البحيرة العظيمة المركبة بالجزر العديدة التي تتكون من قرى الفلاحين التي تميزها مجموعات من أشجار النخيل . هذه الجزر الريفية يتصل بعضها بعضها بواسطة

السدود أو بواسطة جسور عالية تقام على طول القنوات . تلك الجسور التي تقام من التراب الذي يتراءكم من عمليات على ممر السنين . ثم تبدأ المياه في الانحسار تدريجياً وتعد الأرضي بجهود شاق حيث تبذر وتزرع . ثم ينبت الحب في التربة الدافحة وتترعرع وريقاته الصغيرة - وهناك تُغطي الحقول في نهاية الخريف أو في بدء الشتاء بالخضرة اليابعة . وسرعان ما تحتاج الأرض إلى مزيد من المياه . فإذا كان النيل والقنوات لا تزال ممتلئة فإنها تطلق على الأرضي كما هو الحال في الري الأول ، وإذا كانت منخفضة جداً فيجب رفعها بالطلمبات أو بأي وسيلة أخرى . وفي أغلب أماكن الدلتا تحفظ المياه بواسطة القنوات في مستوى أعلى من مستوى الأرضي خلال الجزء الأكبر من السنة . إلا أن رفع المياه بالطلمبات أو بأي وسيلة أخرى يبدأ في بعض المناطق بعد الفيضان بشهر واحد أو شهرين ويستمر حتى يفيض النيل في الصيف المقبل . ولري المحصول الثاني بصفة عامة يجب رفع المياه بنفس الوسيلة .

هذا وإن انخفض النيل عند القاهرة يبلغ قدره ٢٥ قدماً وعند طيبة ٣٨ وعند أسوان ٤٨ قدماً - وفي وقت التحرير ينخفض النيل في بعض الأماكن إلى ٣٠ أو ٤٠ قدماً عن حافة الشاطئ فإذا لم تصل المياه عن طريق القنوات من مستوى أعلى من النيل يجب رفعها كل هذه المسافة لري الأرضي .

والري بالطنبور أو الطلمبات يستمر في بعض المناطق أغلب أيام السنة وما يزيد على نصف الأرضي تُروى بعض هذه الوسائل ردحاً من الزمن . وإذا كانت المياه تحتاج إلى رفعها ٢٠ قدماً فوق مستوى شواطئ النيل ، كما هو الحال في ٣٩ الوجه القبلي أثناء فصل الشتاء فإنها تروى عادة بالشادوف - والشادوف جهاز بسيط يتكون من دلو يتصل بأحد طرف الشادوف بجريدة نخل بواسطة حبل يقابلها في الطرف الآخر كتلة من الطين تعمل كميزان وهذا الدلو المصنوع من الحصير أو الجلد أو نسيج الصوف يعلق عادة في حلقة - والجريدة قصيرة ترتكز على قضيب أفقى منصوب على عمودين قائمين من سطح الأرض - بهذه الوسيلة يمكن رفع المياه إلى حوالي ٨ أقدام بسرعة عجيبة .

وعندما ينخفض النيل إلى درجة كبيرة قد يحتاج الري في بعض الأحيان إلى أربعة أو خمسة شواديف الواحد فوق الآخر لرفع منسوب المياه إلى مستوى الأرضي المطلوب ريها . ويبلغ متوسط الارتفاع أثناء فصل الجفاف بالوجه القبلي حوالي ٢٥ قدمًا ، فالمياه ترتفع عادة مثل هذه المسافة بواسطة خمسة شواديف حيث يشتغل أحدها منفرداً والأخرى تعمل مزدوجة - فيرفع الرجل المياه من النيل مباشرة بواسطة الشادوف الأول إلى ارتفاع حوالي ٤ أو ٥ أقدام حيث تفرغ المياه حوض قد تُحْفَر على الشاطئ ، وعلى جانبه رجلان كل بشادوفه لرفع المياه إلى حوض ثان ثم رجلان آخران لرفع المياه إلى حوض ثالث ، وهكذا حتى تصعد المياه إلى الارتفاع المطلوب حيث تسير إلى مسافة ميل أو أكثر في بعض الأحيان بواسطة القناطر المنشأة على الجسور المنخفضة . وإذا كانت المياه تحتاج لرفعها إلى ٢٥ قدمًا فإن تشغيل خمسة شواديف تشغيلًا مستمرًا لمدة ٤٨ ساعة يكفي لري فدان واحد . وهذه العملية يجب أن تكرر ثلاث مرات على الأقل لكل محصول . وعليه فالعمل اللازم لري فدان واحد يستغرق ٧٢ يومًا لمدة عشر ساعات يومياً .

أما المحاصيل التي تحتاج إلى كمية كبيرة من المياه كالقطن والأرز وقصب السكر فإنها تزرع في المناطق التي تحتاج إلى جهد أقل من حيث الري . وفي بعض الإقطاعيات الكبيرة تستعمل الطلمبات البخارية ولكن الوقود د وهو الفحم يجلب من إنجلترا وهو غالى الثمن بحيث لا يمكن تعميمه حيث تجد أجراً العمل زهيداً جداً . وكان هناك حوالي ٤٠٠ طلمبة بخارية في عام ١٨٨٠.

وعندما ترتفع المياه بواسطة الشادوف أو بأي عملية يدوية أخرى فإن الحد الأدنى للعمل اللازم للفدان الواحد هو ١٥ يومًا والحد الأقصى لا يقل عن ١٠٠ يوم . ولما كان الأجراً زهيداً جداً فإن مساحات كبيرة من الأرضي تروى بهذه الطريقة .

وفي عام ١٧٨٣ بالرجوع إلى السجلات الرسمية وجد في أربع مديريات بمصر ٨٠٥٣٦ عاملًا من العمال الزراعيين بأجر يبلغ متوسطه من ٥/٨ إلى ٦/٢ من السنة يوميًا . وكان يزيد الأجر على ١٠ سنتات في اثنين من المديريات فقط . أما متوسط الأجر لهذه الطبقة فقد كان ١٢/١ سنت يوميًا . ويجب ألا يفهم من ذلك أن العامل كان يتناول غذاءه كما هو الحال في مزارع الولايات المتحدة ، ذلك أن العامل يمون نفسه بنفسه . ومع ذلك فقد كانت الأجر المذكورة آنفًا هي الأجر الكامل للعمل .

وبالرغم من هذه الأجر فلم يكن للعامل عمل مستديم فقد كان يؤجر باليومية بحسب ما يتطلبه العمل كما كانت تفرض عليه ضريبة شخصية تبلغ قيمتها أجر عشرة أيام إلى خمسة وعشرين يومًا كل عام . هذا وأن المتوسط الحالي لأجر العامل ما بين ١٠، ١٥ سنتًا يوميًا بينما زاد ثمن الطعام زيادة نسبية .

أما عن وسائل الري الأخرى سوى تلك التي ذكرت آنفًا فالساقية هي الآلة التي تستخدم أكثر من غيرها ، فالساقية يشيع استعمالها بالوجه البحري حيث يوجد بها ما يزيد على ٥٠٠٠ ساقية وهي آلة بدائية مصممة على مبدأ الحلقة المتصلة . وهي تدار بواسطة الثيران أو البقر أو الخيل وبعض الأحيان بواسطة الجمال أو الحمير وترفع المياه بواسطة قواديس من الفخار قد ربطت إلى سلسلة لا طرف لها تدور حول عجلة رأسية .

وهذه الآلة تستعمل عادة لرفع المياه من الآبار الكبيرة التي لها عيون متصلة بالقنوات ، ففي منطقة الدلتا تقف المياه عادة فوق التربة على نفس مستوى مياه نهر النيل في نفس البقعة . هذا وإن العين الكبيرة التي ليس لها أي اتصال مباشر بإحدى القنوات أو النيل تنتج كمية كبيرة من المياه تكفى لري قطعة صغيرة من الأرض .

الفصل الرابع

أسرار النيل

لإبان إقامتي في القاهرة أقيمت بمناسبة فيضان النيل أعياد واحتفالات كثيرة يرجع أصلها إلى الأزمنة التي كان النيل فيها لا يزال سراً من الأسرار الخفية ومحلاً للتقديس والاحترام . ففي ليلة يونية سقطت دمعة الآلهة لإيزيس من السماء إلى نهر النيل مسببة فيضانه كما كان يعتقد المصريون القدماء ، والواقع أن النيل كان يبدأ فيضانه السنوي في هذا التاريخ من كل عام . هذه الليلة - ولو أن حفلاتها كانت أقل بهجة من العام الماضي - فقد احتفل بها هؤلاء الأهالي المقيمين على ضفتي النيل ومعهم أصدقاؤهم الذين ساهموا معهم في هذه الاحتفالات التي أقيم فيها عديد من الطقوس الخرافية .

وفي أعقاب هذا التاريخ سرعان ما يصبح ارتفاع مياه النيل ملموساً للناظرين على طول النهر . وفي كل صباح يمر المنادون في مختلف أنحاء المدينة بشوارعها المزدحمة وأزقتها الضيقة معلنين في صوت عال العلامة التي وصلت إليها مياه النيل بناء على التقرير الرسمي الذي يكتبه الشيخ القائم بمهمة مقاييس النيل .

ومن أهم الاحتفالات التي شاهدتها كان قطع الخزان الذي كان يقام كل عام في فصل التحرير على قناة « الخليج » التي كانت تتد مد مدينة القاهرة بـ المياه قبل حكم إسماعيل باشا وقبل مد شبكة من أنابيب المياه . وكانت هذه القناة تتد عدداً كبيراً من الأهالي بـ المياه الشرب حتى وقت قريب - هؤلاء الذين كانوا

يفضلون في شربهم النظام العتيق معتقدين اعتقاداً خاطئاً بأنه أصبح لهم من النظام الحديث . كانت القناة عميقه الغور وتجري مبتداة من مصر القديمة في مواجهة جزيرة الروضة مخترقاً الجزء القديم من المدينة الحالية . ويقال إن عمرو ابن العاص قائد أمير المؤمنين هو الذي أنشأها بعد غزوه لمصر في عام ٦٤١ بعد الميلاد بقصد توصيل النيل بالبحر الأحمر - ولقد أوصلها حتى أصبحت على مقربة من بوسطة حيث اتصلت بقناة قدية تصب في البحيرات المرأة ومنها إلى البحر الأحمر .

وتنتهي هذه القناة - فيما عدا ذلك الجزء الذي يخترق مدينة القاهرة - ثم تصب بعد القاهرة مباشرة في تلك الترعة الكبيرة التي توصل المياه العذبة إلى قناة السويس عند الإسماعيلية ثم بعد ذلك إلى السويس . هذه القناة القصيرة التي تمد مدينة القاهرة بالمياه كانت دائمة الجريان بسبب عمليات التطهير المستديمة - ولقد كانت تجف عدة شهور من كل عام - وفي حالة الفيضان كانت تملأ الصهاريج الضخمة المقامة على جوانبها على طول القناة حيث تنقل المياه إلى المستهلكين بواسطة السقاين طوال أيام السنة . وإنك لتشاهد السقاين يسيعون المياه بصفة مستديمة في الطرقات وكذلك يهبونها للمارة بدون مقابل أو مقابل زهيد ، كما يتراوي للشارب . وكانت تابع من القرب غالباً أو الأواني الفخارية (القلل) في بعض الأحيان ، وفي كلتا الحالتين تقدم المياه في أكواب نحاسية تضرب إحداها في الأخرى لتحدث رنيناً شديداً يلفت الأنظار .

وقبل سفري إلى أوربا في أول صيف قضيته في القاهرة دعاني محافظ المدينة إلى حضور احتفالات قطع الخزان ، وكان ذلك حوالي منتصف أغسطس عندما يفيض النيل إلى درجة تضرر بالمحصول . ولقد كان يحتفل بهذا الفيضان بفرحة حقيقة تبدو في غالب الأحيان على وجوه الطبقة العامة في أعيادهم الصالحة بفيضان النيل .

ولقد أقيم الاحتفال الرئيسي في الصباح المبكر عند رأس القناة بمصر القديمة حيث استيقظ أهالي مدينة القاهرة عن بكرة أبيهم قبيل الفجر ، فكنت ترى الأولاد يحملون الأعلام وينضمون إلى المنادين الذين يعلنون أنباء السارة - أنباء فيضان النيل العظيم .

قطعت مع رفافي ثلاثة أميال ، وقد اخترقنا مختلف الأحياء العاشرة حتى وصلنا إلى السد عند مدخل مصر القديمة - وما يعرف الآن عن مصر القديمة أنها هي تلك البلدة الصغيرة المقاومة حول حصن بابليون الذي أنشأه الرومان في مصر ، وكان حصنًا شاسعًا يعسكر فيه جنود الرومان لضمان خضوع مصر لروما ولأباطرة بيزنطة حتى فتحها عمرو بن العاص بعد حصار طويل . ولقد كان هذا المكان يسمى بالفسطاط في أوائل العصر الإسلامي . ولازال توجد جدران هذا الحصن المتهدمة ومعها الجزع الهام من المدينة الحالية بما في ذلك عدد من المنشآت والكنائس والأديرة القبطية .

وعند وصولي إلى السد وجدت زحاماً شديداً من الأهالي يبلغ الآلاف من أفراد الطبقة العامة قضوا هناك ليتهم - ولقد كانت الخيام مقامة على طول شواطئ النيل والقناة - وكانت القوارب تروح وتغدو محملة بالأهالي في ذلك الفرع الصغير من النيل الذي يفصل جزيرة الروضة عن الشاطئ الأصلي .

ولقد كان سرادق الحكم الذي دعيت إليه مقاماً على شاطئ القناة مباشرة فوق السد - وقد بني أمام الأفريز يستوى مع حافة المياه . وكان يقوم بحراسة هذه السرادقات الجنديون رافقوا المحافظ ، وكان يشغلها هو وأعوانه وبعض الأوربيين . ومن هذا الأفريز كنت ترى منطراً عاماً على الشاطئ الغربي للنيل لجزيرة الروضة بأسوارها المرتفعة ، وحدائقها الغناء ، ونخيلها ، ومقاييس نيلها . وخلف ذلك على مسافة بضعة أميال في الجانب الآخر من الوادي كنت ترى الأهرامات وقد حجبت عنا منظر مآذن الجامع وقبابها كما حجبت عنا أبراج الكنائس القبطية وأسوار أديرة مصر القديمة .

هذا وإن مظلات بائعي الحلوي والفاكهه والخبز وغيرها من المأكولات التي تشاهد عادة في أيام الموسام والأعياد كان يؤمنها زحام شديد . ولقد كان رنين الأطباق بأيدي السقاين الذين لا ينقطعون عن تلك الأماكن ، والنغمات المختلفة للموسيقى البلدي ، وأصوات القاهرةين ، والصدى العام لهذا الزحام الشديد بغير شك أكبر مظاهر الفرح والسرور الذي يشبع غريزة كل أعرابي محب للجلبة والضوضاء وإن كان لا يفوق جلبة اليوم الرابع من شهر يوليو بالولايات المتحدة الأمريكية .

وقد كان عدد كبير من الرجال يستغلون ليلاً في حفر هذا السد من الجهة البحرية حاملين التراب في محاقيب إلى البر . وكانوا يعملون في احذار وبكل احتياط ، بل وعلى أهبة الاستعداد لترك العمل عند سماعهم أول إنذار ، فما كفا لنتظر طويلاً حتى انفجرت المياه مناسبة مكتسحة أمامها كل ما يعترضها من حواجز منهمرة بقوة هائلة إلى القناة حيث تغمرها حتى يصل مستواها إلى مستوى النيل تقربياً .

هنا لك ظهر محافظ المدينة على حافة الأفريز وبذر قروشاً جديدة في عرض المياه قيمة الواحد منها خمسة سنتات ، ظاهراً من الفضة والواقع أنها خليط من المعادن . في تلك اللحظة يخلع الكثير من الأعراب كسامعهم البسيط ثم يقفزون إلى الماء بحثاً عن العملة . وبالبعض منهم غير قادر على مقاومة التيار والبعض الآخر كان يندفع بسرعة السمسكة إلى القاع جالباً معه تلك القطع الفضية اللامعة - وفي لحظات قليلة كنت ترى القناة قد ملئت بالرجال يسبحون فيها ويتنازعون من أجل مكان في هذا الزحام المحتشد .

وعند قطع السد يكتسح التيار أحياناً بعزم الرجال وقد يكون سبباً في إغرائهم ، ولو أن الكثير منهم بارع في السباحة . وكان إلقاء العملة الفضية في الماء عادة قديمة بقيت دون غيرها من العادات . وقد استمرت هذه العادة لترضي اعتقاد الناس الخرافى بأن لها أثراً عظيماً في جلب فيضان النيل .

وفي حديث لي مع المحافظ في مناسبة مشابهة أخبرني أن مسألة التخلص عن عادة إلقاء النقود في النيل كانت موضوع نظر ولكن لم يرغب أحد من المحافظين أن يأخذ على عاتقه مسؤولية إلغاء هذه العادة علماً منه بأنه إذا جاء الفيضان منخفضاً على أثر ترك هذه العادة سيعتبرها الكثيرون السبب في انخفاض مياه النيل ، وهكذا تتأثر عادته ونفوذه بين عدد كبير من الناس . وكانت قناة الخليج قد ملئت حديثاً وستصبح الاحتفالات بقطع السد من الآن فصاعداً لا يذكرها إلا التاريخ ونقلأً عن أقاويل المسلمين كان الأقباط قبل فتح عمرو بن العاص مصر يقدمون في هذا المكان صحيحة لاله النيل هي عبارة عن عذراء جميلة يلقى بها في النيل كل عام - ولكن لم يثبت صحة هذه الأقاويل ، ذلك أن بعض الكتاب قرروا أن الصحية التي كانت تلقى في النيل إنما هي صورة عذراء لا عذراء حقيقة . وبالفعل لم يحصل شيء من هذا القبيل في موسم الاحتفالات التي حضرتها .

ويمجد أن مللت القناة شرعت القوارب التي أخذت أبيه زيتها ، تبحر من النيل إلى القناة ، وهم المحافظ وحاشيته بالانسحاب وأخذ الجمهور ينتشر في مختلف الجهات . ولقد ذكرت جزيرة الروضة التي تقع على مقربة من القناة - وهي الآن تزار لمشاهدة مقاييس نيلها المشهور . والشائع عند العرب أن آبنة فرعون قد وجدت موسى على شاطئ هذه القناة بين هذه الأعلام ، مما يزيد من أهمية هذه الجزيرة كما يوجد على هذا الشاطئ « شجرة موسى » و « شجرة القدس مندوره » . ذلك الرمز المقدس الذي غرسته فاطمة بنت النبي ﷺ ولقد عمرت هذه الشجرة أجيالاً طويلاً وهي لاتزال قوية شهية . والاعتقاد السائد أن لها قوة عجيبة في شفاء المرضى ، تبرئ الأurg وتجعل الأعمى مبصرًا - هذا ولم تكن قاعدة مسلماً بها أن كل زائر متبعده كان ينشر ملابسه فوق فروع هذه الشجرة يشفى مرضه وعاهته إلا أن هذه الحقيقة لم يكن لها أي تأثير على شهرة هذا النطاسي البارع ، وأن واحداً من كل عدة آلاف من الكاثوليك المتعبدين الذين يزورون معابد اللورد ، يدعى بأنه قد

استفاد صحيحاً من الزيارة على أن هذا لم يمنع مئات الآلاف من المهاجرين المعتقدين في قدسيّة هذا المكان من زيارته سنوياً حيث يعتقدون أن العذراء قد ظهرت فيه للراعية دوبر ناديت سوبيروس فإذا كانت أغلبية المستهرين الذين يعيشون في هذا الجيل المثقف تعتقد في هذه الأماكن المقدسة هذا الاعتقاد فمن ينكر على العربي المسكين السلوى التي يستمدّها من مثل هذه الخرافات .

ويبلغ طول جزيرة الروضة التي تأخذ شكلاً مستطيلاً حوالي 2 ميل ، ويبلغ عرضها ميلين عند المنتصف ، وهي محاطة بسور مرتفع ولم تخصن إلا مرة واحدة . وقد كانت هذه الجزيرة ملجاً للأقباط عندما فدوا حصن بابليون الذي كان متصلًا بجسر من الزوارق - وبعد هذا الارتداد شرعوا في المفاوضات مع الفاتح عمرو بن العاص وأخيراً عقدوا شروط التسلیم - هذا ولقد عوملوا بكل إنسانية وسمح لهم باسترداد أموالهم ، والواقع أن الكثير رجعوا باتباع النبي وذلك لإراحة أنفسهم من حكامهم البيزنطيين الظالمين ، ولقد كانت الجزيرة في أول أمرها مصيفاً للاجئين بسبب برودة هوانها أي مصيفاً لعائلات بعض الباشوات القاهريين الذين كانوا يملكونها ، وقد ازدانت بالحدائق الغناء المليئة بنباتات المنطقة الحارة كالبرتقال والليمون والموز والحناء وقد علّتها جميعاً أشجار التخيل - وشجرة الحناء هي تلك الشجرة التي يصنع من أوراقها طلاء الحناء الذي كان يستعمله المصريون منذ زمن بعيد في طلاء أظافرهم وأيديهم ، ويقع مقياس النيل في الجزء العلوي من الجزيرة - ولقد عبرت النيل في زورق حتى وصلت إلى سلم حجري ، وما أن صعدت إلى أعلى حتى وجدت نفسى أمام حديقة قد رصفت مراتها بالحجارة الصغيرة في أشكال زخرفية ، وبعد تجوال قصير بين الأشجار والأزهار قادني المشرف على الجزيرة إلى هذا المقياس العجيب لارتفاع النيل وانخفاضه ولكن أي سر في هذا الاختراع البسيط لتحديد عمق مياه النيل ؟ إنه بُر على شكل مستطيل كبير ذي جدران مبنية من الحجارة يبلغ طول كل جانب منه ٥ ياردات ، في وسطه عمود مثمن الشكل قد نقشت عليه كتابة بالخط الكوفي . ويخرج من قاعه ممر

يؤدي إلى النيل ، والواقع أن عدداً قليلاً جداً حتى من بين المتعلمين العرب يعرف قراءة الخط الكوفي . والشخص الوحيد في مصر الذي كان يجيد قراءته كان رجلاً إنجليزياً تخصص سنين عديدة في دراسة العملة الإسلامية ، ولكن السر لم يكن في الكتابة المنقوشة على العمود وعلى جوانب البئر بل كان في الآيات القرآنية ، ومن العجيب - كما ظهر لنا - أن النزول اليسير جداً من أهالي القاهرة كان يمكنه أن يعرف فيضان النيل بالضبط .

هذا وإن انخفض النيل عام ١٨٧٧ الذي لم يسبق له نظير قد هيأ لنا الأسباب التي يصح أن نتخذها أساساً لأنخر التنتائج حيث إن أكبر ارتفاع ممكن الحصول عليه في هذا العام هو سبعة عشر ذراعاً معمارياً ، وثلاثة قرارات . وطبقاً للتقارير الرسمية الخاصة للاثنتين والخمسين سنة السابقة التي أمكن الحصول على التقارير الخاصة بها كان هذا الانخفاض في فيضان النيل أقل من أي انخفاض آخر حدث خلال هذه المدة بثلاثة أقدام وثلاث بوصات ، وأقل من متوسط الفيضان بعشرة أقدام تقريباً .

لقد قدر المختصون أن ٥٠ ألف فدان من الأراضي التي تقدر بربع أراضي الوجه القبلي لم يستطع ريها ، وبطبيعة الحال كان لابد من تركها بلا زراعة . ولقد علمت أن التقارير الرسمية لم تكن كافية لإعطاء مقاييس صحيحة . ولما كنت أريد أن أقدم تقريراً صحيحاً للمستر افارتز Mr. Evarts وزير الخارجية في ذلك الحين عن هذا الحدث الهام فقد باشرت الحقائق المضبوطة بنفسى .

ولقد طلبت هذه المعلومات من الجنرال ستون الذي كان بصفته رئيساً لموظفي الخديوى يرأس وزارة الحرية بالقاهرة ، يحفظ بسجل لفيضان النيل وانخفضه سنين عديدة مستخلصاً أرقامه من القوائم التي كانت تنشر يومياً في الجريدة الرسمية .

وبالفعل كان قد أعد خرائط للرجوع إليها في الشئون العسكرية قائمة على

أساس هذه المعلومات التي كانت تبين ارتفاع مياه النيل عن كل شهر لعدة سنين ، ولقد وجدت أنه لا يعرف شيئاً عن مقياس النيل فيما عدا أن ارتفاعه حوالي ٢١ بوصة ، وأنه يعتقد أن كل التقارير مبنية على هذا الأساس . إلا أنني طلبته من محافظ العاصمة حيث إنه المختص بمقياس النيل ، فأجابني بأنه شخصياً ليس لديه أي علم بكيفية قياس فيضان النيل وأن هذه الأسرار لا يعرفها إلا الأسرة التي تختص بمقياس النيل ! وقد تبين لي من حديث جرى مع شريف باشا وزير الخارجية إذ ذاك أنه هو ذاته لا يفقه شيئاً عن هذا الموضوع .

هذا ولقد أشيء مقياس الروضة منذ قرن من الزمان طبقاً لما يراه بعض الكتاب ويحتمل أن هذا النظام الحالي يرجع إلى أبعد من ذلك . ولقد ورث ذلك الأبناء عن الآباء بحق الميراث الشرعي في الأسرة التي أنيط بها واجب قياس فيضان النيل وانخفاضه - ويحلف كل شيخ اليمين على أن يقوم بواجباته متكتماً .

وبعد البحث والتحري عشر ترجماتي على كتاب عربي قديم مستعملأً على قائمة بالحقائق التي تأكّدت منها فيما بعد - ولقد نشر هذا الكتاب منذ مائة عام على أثر نزول البعثة العلمية الفرنسية أرض مصر ، تلك البعثة التي اكتشفت الخدعة التي كانت تنطلي على الناس .

فمن الوجهة النظرية كانت الأرض التي لا يمكن ريها بالفيضان الطبيعي للنيل أو بطريق القنوات في حالة ارتفاع مياه النيل مغفاة من الضريبة . ولكن القرار بالنسبة للأرض التي تدفع عنها ضريبة لم يكن متروكاً لدافع الضريبة ولا للسلطات المحلية الدنيا ، بل تفصّل في هذه المسألة القرارات الرسمية عن فيضان النيل - وفي حالة انخفاض فيضان النيل تحدد الضريبة المناسبة لهذا الانخفاض .

وفي عهد الفراعنة كان يوجد بمقياس مقياس للنيل بل ومقاييس أخرى في

نقط مختلفة على شاطئ النيل .

هذا وإن السجلات المحفوظة عن فيضان النيل كانت العوامل الفعالة في تحديد مقدار الضريبة في ذلك الوقت كما هو الحال في وقتنا هذا . ولقد كان الكهنة الذين يمثلون الطبقة المتعلمة ، والمفروض فيهم أنهم واضعوا كل هذه العلوم . أقوى حصانة من الملك - فقد كانوا يحتفظون بسجلات النيل ويقدرون الضرائب التي يخول للملك الحق فيها ، وذلك لأن يتشاور القسيس مع الملك مجتمعين كما يتشاوران فيما يختص بضروريات بيت المال مع مراعاة التكتم ، فإن الدوافع التي تتطلبها السرية ظاهرة للعيان .

أما الحقائق التي تأكّدت منها فهي أن ذراع مقياس النيل هو ٢١ بوصة وربع بوصة ، وأن علامة الصفر على المقياس هي سبعة ذراع تحت علامة متوسط انخفاض المياه ، وذلك لأن النيل إذا ارتفع في القاهرة إلى ١٦ ذراعاً بليدياً أي تسعه ذراع فوق علامة المياه المنخفضة فإن الناس تتوقع أنفسهم إلى مقدار الزيادة الضرورية للفيضان . ولتهدة خواطر الجمّور يعد النصف ذراع على أنه ذراع كامل وبذلك يدخل في الحساب زيادة سريعة . وعندما يصل الفيضان إلى ٢٣ ذراعاً معماريًّا ، تصبح هناك الكمية الكافية من المياه اللازمة لإنتاج أكبر محصول . وإذا استمر النيل في فيضانه فإنه يخشى من فيضانه وتحطيمه للجسور والخسائر الناتجة عن ذلك . وعند ذلك يعودون إلى استعمال المحد الأقصى وهو ١/٤ ٢١ بوصة - وهذا الأمر يتفق مع العرف السائد لدى الجمّور وهو « بشر ولا تنفر » .

والعامل الأصلي لزاولة الاختلاف في مقياس النيل إنما هو خاص بتحديد ٥ الضريبة . ولذا فإن السر في استمرار هذه العملية والغموض الذي يحيط الأمر كله فيما يتعلق بطاقة داعي الضرائب ليس له أي غرض آخر . ولكي تفهم إلى أي حد تسلط الجهل على هذا الموضوع الحيوي بالنسبة لكل إنسان يجب أن نتذكّر أن عدداً قليلاً جداً من الأهالي يعرف القراءة والكتابة وأنه في

حكومة مطلقة كهذه قلما يهتم المتعلمون وقلما يتدخلون في مسائل من المفروض أنها من الامتيازات الخاصة بصاحب السلطان أو من يخولهم السلطة .

هذا وإن مقاييس النيل قد أصبح أمراً سهلاً حتى إنك إذا سألت أي متعلم في مصر عن المقاييس الذي أتى به النيل لم يجرب منهم واحد في الألفين مع أنهم يتحدثون دائمًا عن عدد الذراعات المعمارية لفيضان النيل والخفاذه . ومدى ما يهتمون بمعرفته إنما هو ما ينشر عن وصول النيل إلى ٢٣ ذراعاً معمارياً ، ذلك القدر الكافي لإنتاج أكبر محصول وهو الفيضان المرغوب فيه . ولقد كان الفيضان في عام ١٨٧٧ أقل من متوسط الفيضان السنوي بخمسة أقدام ويقل عن أكثر الفيضانات انخفاضاً منذ الاثنين والخمسين عاماً السابقة بعشرين بوصة .

هذا وإن السنة التي بدأ فيها الفيضان ينخفض عن المعتاد في ذلك الوقت هي سنة ١٨٣٣ وأن التنتائج السيئة لفيضان عام ١٨٧٧ الذي جاء منخفضاً تظهر لنا الأهمية البالغة للفيضان العادي للنيل .

ويقول هيرودوت في حديثه عن النيل « إذا لم يرتفع النيل زيادة قدرها ١٥ أو ١٦ ذراعاً على الأقل فإنه لا يفيض على البلاد » وقد أشار إلى المقاييس المقام في مفيس على مسافة عشرة أميال من جزيرة الروضة . وبعد ذلك بخمسمائة أو ستمائة عام أي في عصر حكم الرومان كانت الحالة تستلزم هذا الارتفاع .

ومن بين الرسوم العديدة التي كانت على العملة المصرية في ذلك الحين كان إله النيل . ويتمثل هذا الإله راقداً على الأرض مسحوباً بيده عنقوتاً من العنبر وعلى مقربة منه تشاهد تمساحاً أو فرس بحر . ولقد أضيف حرفان يونانيان إلى هذه العملة عندما ارتفع مقياس النيل إلى ١٦ ذراعاً معمارياً في السنة التي صكت فيها هذه العملة . ويمثل الحرفان الرقم ١٦ دالين بذلك لى أن العام كان عام خير ويسر . ويحتمل أن يكون مقياس الذراع في ذلك الوقت

مائلًا للدراع الحالي . فإذا كان الأمر كذلك فإن ارتفاع المياه المطلوب لغمر الدلتا يمثل الرقم الذي ذكر سابقاً .

الفصل الخامس

الصيام والحج إلى مكة

من أمنع المناظر التي يشاهدها الأجنبي في القاهرة هي منظر الحجاج المسافرين إلى مكة والمدينة المنورة من كل عام - أي رحيل قافلة الحجاج وعودتها وما يلحق بها من أفراح .

ويسبق هذا شهر رمضان المقدس الذي يبدأ فيه سفر الحجاج حيث يعدون أنفسهم للقيام بهذا الواجب المقدس - شهر رمضان هو ذلك الشهر التاسع من شهور السنة العربية - ويشتمل على ثلاثة أيام خصصها المسلمون لفريضة الصيام . ولو أن المسلم متراخ في القيام بالفروض الرئيسية الدينية إلا أنه شديد التمسك بالصيام المفروض . فربما يتنع عن الزكاة ويفرط في فريضة الحج أو في الاشتباك في حرب مع الكفار ولربما ينسى القيام بالخمس صلوات في أوقاتها المعلومة ولكنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يفرط في صوم رمضان . وإنه ليعتقد أن القرآن قد أنزل على محمد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان معظم - ذلك الشهر الذي تفتح فيه أبواب السماء ويلبي الله فيها دعوات التائين ويغفر لهم خططياتهم .

هذا هو الشهر الذي أنزل فيه الوحي على محمد وبعث فيه بالتوراة إلى موسى وبالإنجيل إلى عيسى . وتشتمل السنة الهجرية على اثنى عشر شهراً قمرية أو ثلاثة وأربعة وخمسين يوماً . ولها ثلاثة أعوام كبيسة كل ثلاثة

عاماً حيث تزداد السنة الكبيرة يوماً واحداً على معدل الأيام السنوي .

ولذا فـأي تاريخ هجري ثابت إذا ما نسبناه إلى تقويمنا الإفرنجي وجدنا أنه يأتي عادة مبكراً عن السنة الإفرنجية بأحد عشر يوماً تقريباً . وتحتختلف السنة القبطية عن السنة العربية ، فالسنة القبطية لاتزال مستعملة عند اليونان وتبدأ عادة في اليوم الثاني ٥٣ عشر من شهر يناير ، وكأن هذا لم يزد مسألة التواريخ بمصر تعقيداً - ذلك أن الحكومة إبان قيام نظام المحاكم المختلطة كانت تتبع التقويم الجريجوري الذي كان يستعمل في وزارة المالية والمحاكم المختلطة ، كما كان يستعمله الأوربيون .

كل هذه النظم كان يستعملها الأفراد على اختلاف جنسياتهم ودياناتهم .

فالليوم العربي يبدأ من غروب الشمس والشهر العربي يبدأ من وقت ظهور الهلال . ولإثبات أول يوم في رمضان يجب رؤية الهلال عملياً . وحقيقة ظهوره يجب أن تقرر بعد المغرب بقليل . وهذا الأمر ليس بصعب في جو صاف كجو مصر ، حيث يخرج الرجال إلى التلال العالية خلف القلعة وبمجرد أن يشاهدو تاماً الهلال من فوق جبل ليبيا يقفلون راجعين . ولا بد من إثبات ذلك كتابة ، بل لا بد من صدور قرار بشأنه وإعلانه على أصحاب المقامات العالية الذين يجتمعون بمنزل القاضي .

وسرعان ما تطلق المدافع من القلعة . وتتحرك المراكب في مختلف أنحاء العاصمة مصحوبة بالموسيقى معلنة بدء صيام رمضان في كل مكان .

وفي طليعة فجر اليوم الثاني يعلن المنادى الصيام في كل حي وعند بزوغ الشمس تسمع صوت المؤذنين من المآذن من مختلف أنحاء العاصمة « ها قد بدأ الصيام » .

وصيام المسلمين هو في الواقع الأمر الامتناع عن الطعام والشراب والتدخين ما بين شروق الشمس وغروبها طوال مدة الصيام ، ولا يعفى من الصيام إلا

المرضى والجنود في ميدان القتال .

وبسبب قصر فصول الشتاء في مصر يأتي شهر رمضان في فصل الحرارة سنين متتابعة . هذا وإن الامتناع عن الطعام والشراب في أيام قد أشتد فيه الحر والجفاف طوال شهر كامل من شهور الصيف ليعتبر تضحيه عظيمة . وهذا الامتناع عن الطعام والشراب يؤثر في حالة الأهالي الطبيعية حيث تشاهد عليهم توعك المزاج من جهة العمل وسرعة التأثر والانفعال الذي يسبب المخالفات في بعض الأحيان .

ويعرض صيام النهار بafطار الليل ، وإنه لمن المؤلم أن يشاهد الإنسان في بعض الأحيان وهم يلاحظون غروب الشمس بفروغ صبر في يوم قد طال أمده واشتدت حرارته . وعندما توشك الساعات المضنية من النهار على الانتهاء يتذمرون في صمت مطبق دوى المدافع التي تطلق من القلعة معلنة أن الصيام قد انتهى ، حينئذ تشتعل السجائر وبعد البلح والفاكهه وتكثر الطلبات على حمالى المياه حيث إن الظمام هو أول ما يجب إطفاؤه في مثل هذه اللحظة ، هنالك يلقى العامل عدته ويقفز سائق العربة من عربته والجمال من فوق جمله ، والكل يتذمرون بفروغ صبر جرعة من ماء النيل المقدس .

وعندئذ يأتي الإفطار حيث ينبعس كل شخص فيما أعد الله له من نصيب . في رمضان توجل الأعمال الشاقة إلا أن المقاهي والمطاعم تصبح في أشد حالات رواجها ، وتزدان الطرق بالأنوار وتصبح الموسيقى العربية والإفرنجية في كل مكان وتبادل الأحاديث والأغاني حتى الهزيع الأخير من الليل ، وقبيل الفجر بساعة تسمع صبيحة المآذن مؤذنة بالإعداد للصيام وعندئذ تعد أكلة الصباح المبكر أي السحور وهي الوجبة الهامة في شهر رمضان ، تلك التي تعارض مع وائد الشرق في جعل وجبة الصباح المبكر بسيطة إلى أقصى حد ممكن .

ولأنها لثلاثون يوماً طويلة إلا أن مدفوع القلعة يعلن أخيراً انتهاء الصيام -

وفي صباح اليوم التالي لانتهاء الصيام الموافق أول شوال وهو الشهر العاشر من السنة الهجرية تبدأ أيام العيد الثلاثة ويعرف : بـ العيد الصغير - وهو موسم الزيارات والمقابلات والخلافات وتقديم الهدايا للأطفال والخدم ، وارتداء الثياب الجديدة .

وفي يوم العيد يسمح الخديوي بالمقابلات مبتدئاً من الساعة السادسة صباحاً حيث يقابل ضباط الجيش - بد ذلك يتقدم الزوار على اختلاف درجاتهم بترتيب قد أعد من قبل فيبدأ مقابلة رؤساء المصالح وكبار الموظفين ثم رجال الدين فرجال القضاء الأهلي فمثلي التاجر فالأعيان والوجهاء فأصحاب المقامات على اختلاف درجاتهم ثم قضاة المحاكم المختلفة ، وأخيراً حوالي الساعة الحادية عشرة يتقدم إليه مثلو الدول الدبلوماسيون . وهم دون غيرهم الذين يحظون بشرف الجلوس بين يدي الخديوي حيث تقدم إليهم القاهرة ويدخنون في الشوبك ويتبادلون الحديث مع سمو الخديوي ويقدمون له التهاني المناسبة حلول العيد .

وعقب حلول العيد الذي لا تهمل فيه التقاليد الدينية تعد العدة لسفر الحجاج الذي لابد منه في اليوم الثالث والعشرين من الشهر . وتحمل قافلة الحجاج أردية جديدة في كل عام تسمى بالكسوة ، وهي أبسطة فخمة تغطي بها جدران الكعبة الخارجية في كل عام . وما الكعبة إلا بناء صغير يقع داخل السور بمكة المكرمة ذلك الذي يطوى بين جدرانه الحجر الأسود المقدس . وتصنع الكسوة عادة من الحرير الأسود المشجر وتوشي بالذهب وتزين بالأيات القرآنية . وتصنع عادة بالقاهرة ، وهي تستمد فخامتها من تلك الحقيقة التي تقرر أن الحكومة المصرية إنما تكلفها ٢٣٠٠ دولار . هذا وإن مصاريف الحج التي تنفقها الحكومة المصرية إنما تزيد على ٣٣٠٠ دولار أي مبلغًا يساوى ضعف المبلغ المقرر للمدارس القائمة تحت الإدارة الأولية على وجه التقريب . وتصنع هذه الكسوة من قطع صغيرة ترسل فوراً بعد العيد الصغير إلى مسجد الحسين لحياكتها بعضها بعض وعند الانتهاء من أجزاء

الكسوة توصل بها حاشية عريضة فاخرة وستار يعلق على باب الكعبة . كما تأخذ القافلة معها رداء من القماش المزخرف لاستخدامه غطاء مقبرة إبراهيم عليه السلام .. وكذلك بعض القطع الأخرى المصنوعة من القماش الأخضر الملوث بالذهب والحرير على اختلاف ألوانه لوضعها داخل الكعبة . كما ترسل الكسوة من دمشق لتغطية مقبرة محمد عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة ، كما تأتي قافلة ثالثة من بغداد - والقوافل الثلاث ترحل من مدنها في وقت واحد على وجه التقريب حيث تدخل حدود الصحراء العربية العظيمة بعد بضعة أيام ، وتسير جنوبًا حتى تصل إلى مكة بعد حوالي ٤٠ يوماً .

وتختلف المناظر والاحتفالات بالقاهرة في شكلها العام عند سفر الحجاج من كل عام اختلافاً يسيراً حيث ترسل الدعوات الرسمية إلى الممثلين الأجانب بالحضور . وسألوا لك ما شاهدته في إحدى المناسبات . يصل الضيوف المدعوون في الصباح المبكر إلى قصر محمد على بالقرب من القلعة حيث تبدأ القافلة بالرحيل . هنالك كنت تشاهد فرقاً من مختلف طبقات الجيش قد اصطفت ، كما تتنظم الجماعات الدينية المختلفة - في الأماكن المجاورة - في موكب كبير .

هذا وقد أعد للخديوي أو من ينوب عنه سرادق من القطيفة الحمراء والذهبية اللون وكذلك للوزراء وفضيلة القاضي والمفتى وبعض الشخصيات الكبيرة من العسكريين ورجال الدين ثم الملكين . وكان سمو ولی العهد توفيق باشا يمثل الخديوي . لم يحضر الخديوي إسماعيل بنفسه هذه الحفلات الدينية العامة بل كان يمثله فيها توفيق الذي كان يعتبره المؤمنون أكثر إيماناً من أبيه . وعندما تولى توفيق الحكم استمر في حضور كل مناسبة من هذا القبيل . وعند وصول سموه اتخذ مقعده في وسط السرادق - محظياً بالموظفين والمدعوين - وسرعان ما تقدم الجزء الذي كانت فيه الكسوة محمولة من الموكب فوقف الجمل أمام سرادق الخديوي . هنالك تقدم سمو الأمير وأمسك الجمل من مقدمة حيث سلمه إلى فضيلة الشيخ أمير الحج . وبهذا العمل يكون قد أولى

ثقة إلى أمير الحج و منحه السلطة على جميع من معه .

والحمل ما هو إلا محفة على جانب من الأبهة والفاخامة ذات قمة هرمية عالية قد زينت بأبهى الزخارف ، وهي مغطاة بقماش موشى بالذهب وقد نقش على كل من جانبيها جزءاً من القرآن - وهذه المحفة تحمل الآن كرمز للملكية ولقد كانت تصنع في أول الأمر خصيصاً لنساء الخلفاء اللاتي كن يقمن بالحج - ويقال إن الحمل إنما ظهر لأول مرة في عهد الملكة الجميلة الحكيمة « شجرة الدر » التي أدت الحج سنة ١٢٥٠ ميلادية في محفة فخمة محمولة على جملين ، واستمرت المحفة تصبح الحجاج سنوياً إلى مكة منذ قرون وهي تعتبر مقدسة بالنسبة للمسلمين البسطاء الذين يزجون بأنفسهم في الزحام لمسها والتبرك بها . أما البعير الذي يحمل الكسوة فيزين بأخر زينة ويقود القافلة في الصحراء ، بل ويصبح مقدساً إلى حد ما ، فلا يصبح استخدامه لأي غرض آخر بل يستمر مخصوصاً لحمل الحمل ما دام قادرًا على ذلك .

ثم يعقب الحمل شيخ غريب الشكل وهو قائد الجمال الذي يصاحب الحجاج في كل عام . ولقد كان شيخاً عريئاً متين البنية ، شعره مضفر طويل وجسده عار حتى خصره ويستطيع جمله تماماً تارة إلى الخلف وأخرى إلى الأمام بعينيه المسبليتين كأنما هو في نشوة روحية . يعقب ذلك الحجاج كل على جمله وفي بعض الأحوال أسر كاملة بكافة لوازمهما وخيمها وبعض المواد الضرورية لرحلة الصحراء . ولقد كانت الجمال مزداناً بمختلف الزينات وسعف النخيل وإذا كان شعرها الخشن الطويل قد ابيض من تأثير الشمس فإنه يسترد لونه الطبيعي النحاسي بواسطة استعمال كميات كبيرة من الحناء .

والقسم الرئيسي من الموكب المختص بتكريم الحجاج عن طريق اصطحابهم خارج المدينة كان يمثل الطليعة متقدماً الموكب بأسره مخترقاً الشوارع الضيقة للأحياء الوطنية بالمدينة متوجهها نحو باب النصر . بوابة الخروج التي تبعد حوالي ٢ ميل عن مقر القلعة . ولم أنظر شيخ السناني الذي يسير على مقربة من

المؤخرة وهو يسير نصف عار كشيخ الجمال . ويشبهه من حيث خشونة المظهر وغرابته ويكتفى جمله العالي وقد أحيط بسلام قد ماثلت بعدد كبير من القطط ذاهبة لأداء فريضة الحج المقدس . وهي تطل على الجماهير حيث تقابل بالتهليل والفرح ويبدو عليها أنها تدرك ذلك الامتياز الذي يفضلها على بقية بنى جنسها من السنانير . في مثل هذا اليوم كانت توقف جميع الأعمال حيث تقفل الحوانيت والمحال الكبيرة وتزدحم الشوارع بالألاف من الأهالي في أحسن ملابسهم . هنالك يقفون على جانب الطريق الذي يمر منه الحجاج حتى إنك لتشاهد النساء يندمجن في هذا الزحام .

وقد كان هذا الحي الوطني من مدينة القاهرة بشوارعه الضيقة ومبانيه الأنique المنسقة على الطراز العربي أكثر إثارة للاهتمام من غيره ، وعلى الأخص في تلك الفترة التي يمر بها موكب الحجاج حيث تزداد المباني بأبهى المظاهر إذ رفعت بجانب فروع التخييل الأعلام والبيارق على اختلاف أنواعها وأشكالها . ولقد كانت الأسطح والمنافذ مكتظة بالأهالي من كلا الجنسين رجالاً ونساء ومن مختلف الطبقات والأعمار وقد تاقت أنفسهم لمشاهدة الموكب أثناء مروره . بل لقد كان المنظر على الجانبين منظراً عاماً لوجوه البشر المفعمة بالسرور وقد لفت أجسادهم بأفخر الثياب الشرقية .

ثم تركنا طريق الحجاج مارين بشارع جانبي مسرعين إلى البوابة الخارجية للحصول على منظر لذلك الجزء من الموكب الذي كان قد سبقنا فإذا بنا نشاهد فصائل من الجنود المشاة والسواري تتوجه إلى خارج المدينة بالصحراء . ولقد كان يتقدم كل قسم من أقسام الموكب فرقة من الموسيقى وقد امتطى رجالها ظهور الجمال ، كما شاهدنا رجال القضاء ورجال العسكرية وغير ذلك من الشخصيات البارزة ما بين ملكية ودينية بملابسهم الرسمية الفاخرة ونياشينهم المذهبة . والكثير منهم كان مصحوباً بحرسه في زيه الرسمي ، ولقد كانت هناك طوائف من الدراويش كل طائفة تختلف باختلاف لون عمامتها ، فمنها الأزرق والأخضر ومنها الأبيض والأحمر وقد حملت الأعلام والبيارق

المزدانة بأجمل الزخارف وقد اشتغل البعض منهم بنوع مخصوص من العبادة حيث كانوا يتلون صلاتهم وهم يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار وقد أصبحوا في حالة دينية شبه جنونية ، وآخرون كانوا يأكلون الشعابين ويبتلعون قطع الرجاج ويثنون على أطراف السيف الحادة ، وآخرون يرشقون أسياحاً من الحديد في وجوههم فتخترقها من خد إلى آخر .

وي ينبغي أن نضع في اعتبارنا أنهم كانوا يقومون بهذه الحركات تحت ستار الدين ، زاعمين أن الضر لا يصيبهم بعجزة من السماء . وكان من بينهم رجال أنصاف عراة مدججون بالسيوف وطوائف أخرى ملكية على اختلاف صنوفهم ، فمنهم راكبو الخيل والمحمير ومنهم راكبو الجمال من العرب المدججين بالرماح والدروع بأرديةتهم المزركشة يتخللهم عدد من الجنود .

هذه كانت بعض معالم ذلك الطابور الطويل من المؤمنين الذي استغرق أكثر من ساعتين لمروره من باب النصر .

هذا وإن هؤلاء الذين كانوا يقومون بالحج إنما كانوا يعسكرون خارج المدينة بالصحراء - هنالك يقضون يومين أو ثلاثة في عمل الترتيبات الأخرى والاحتفالات الدينية ، فكان الدراوיש الذين يذكرون ويرقصون ويولولون يواصلون كل ليلة طقوسهم العجيبة . وهكذا كانوا يشجعون ويشيرون مشاعر هؤلاء الذين كانوا على وشك القيام بتلك الرحلة الطويلة الخطيرة إلى المدينة المقدسة للقيام بذلك الواجب المقدس الديني الذي تهون من أجله كل تضحية لدى كل مسلم حقيقي ، والحج يعتبر تضحية فعلية ، ذلك بأنه بسبب الأمراض المعدية التي تنتشر عادة في مكة ، بل بسبب الحرمان مدى تسعين يوماً بالصحراء يخفق الكثير من الحجاج في العودة . وإنك لترى مكة ورمאל الصحراء المتدة في الطريق المؤدية إليها قد بعثرت بعظام البشر من المؤمنين .

وأول يوم من الرحلة يسرون ببركة الحج التي تبعد مسافة عشرة أميال .

هذا ويرافق الدراويش القافلة حتى هذا المكان حيث يقضون الليلة الأخيرة في الذكر والتعبد ، ثم يعقب ذلك وداع الأقارب والأصدقاء فالرحيل .

هذا وعند ترك القاهرة متوجهًا نحو الشرق يجد الإنسان نفسه في طريق صحراوية تسمى « درب الحاج » تخترق قنال السويس على مقربة من أطلال « أرسينو القديمة » وتبعد عن السويس شمالاً بعشرة أميال وعند ذلك يستمر قليلاً إلى الجنوب الشرقي عبر شبه جزيرة سيناء حتى يصل إلى رأس خليج العقبة ، ثم يسير الطريق على مقربة من شاطئ الخليج وشاطئ البحر الأحمر حتى يصل إلى مكة . وهذا الطريق صحراوي رملي تكتنفه الصخور والنباتات الخضراء في بعض جهاته . وفي مكة تلتقي القوافل الثلاث بالحجاج الذين أبحروا عن طريق البحر الأحمر من بلاد العجم والهند وتركيا وولايات أفريقيا الشمالية بما في ذلك مصر حتى رسوا في جدة على مسافة يومين سفراً من المدينة المقدسة . وبلغ مجموع عدد الحجاج الذين يجتمعون من مشارق الأرض وغاربها حوالي ١٠٠ ألف حاج في الغالب . وبعد تأدبة المراسيم الدينية العادية في مكة ، تلك التي تصل أبهتها وفخامتها إلى حد ليس له نظير يتوجه الحجاج نحو الشرق حوالي ست ساعات وذلك لصعود جبل عرفات .

وهنا ، طبقاً للعقيدة المحمدية ، أعد إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل لا إسحاق للذبح .

وال المسلمين يعتبرون إسماعيل أباً للجنس العربي . فهناك بعرفات يتسلق الحجاج جبل عرفات ، ويقضون به ليلة . وفي اليوم التالي وهو العاشر من الشهر الثاني عشر الهجري يضطرون بکبش كبير لإحياء لذكرى التضحية التي قام بها إبراهيم تنفيذاً لأمر ربه كما يفسر العلماء . في تلك الليلة على سفح جبل عرفات تقوم مذبحنة كبيرة للخراف ويحتفل بهذا اليوم ، يوم التضحية ، في جميع أنحاء العالم الإسلامي .

وهو لاء الذين ليس لهم القدرة على شراء كبش أو لحم من أي حيوان يحل

ذبحه يتلقون العون من هم أوفر منهم حظاً . ويوم التضحية هو يوم العيد الأكبر ، عيد القربان الذي توزع فيه الصدقات على الفقراء والهبات على الخدم والأزياء الجديدة على الأطفال ، وهو يوم المقابلات الخصوصية والرسمية وتبادل التهاني وإقامة الأفراح والحفلات وبالاختصار يحتفل به كما يحتفل بعيد آخر رمضان .

هذا وتستغرق القافلة ستين يوماً في العودة ، حيث تسير ببطء إلى المدينة لزيارة قبر النبي ﷺ وقضاء مدة طويلة بالحجر الصحي على مقربة من السويس . ثم تسير حتى تصبح على مقربة من القاهرة في آخر صفر ، وهو الشهر الثاني من العام الجديد حيث يلتقي الحجاج على مسافة من المدينة بأقاربهم وأصدقائهم وقد أحاطت بهم الموسيقى ومظاهر الأفراح . فتسمع حينذاك دوي الطبل وغيره من الأدوات الموسيقية الوطنية وطلقات البنادق ، كما تسمع نواح وعويل النساء والأطفال الذين أتوا للترحيب بأزواجهن وأبائهم فيجدون مكانهم في الموكب خاليًا . وبعد البقاء معسكرين خارج المدينة حتى يحل ميعاد الاحتفالات الختامية تدخل القافلة المدينة بنفس الموكب والمظهر الذي رحلت به .

كما أن الكسوة التي كانت قد سافرت مع القافلة تحل محلها الكسوة والأغطية القديمة وتقطع إلى قطعها الأصلية وتوزع على المساجد والمشايخ بمثابة آثار مقدسة . ويدخل الموكب المدينة عند البدء في الاحتفالات الدينية التي تقام بمناسبة مولد النبي محمد ﷺ في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول وهو الشهر الثالث من العام الهجري . ويجتمع في هذه المناسبة عدد كبير من مختلف الهيئات الدينية ، وعلى الأخص من الدراوיש من مختلف أنحاء الديار المصرية ، وعندئذ تظهر القاهرة في أبهى حلتها . وتستمر الاحتفالات بمولد النبي إلى الحادى عشر من شهر ربيع الأول عند الاحتفال « بالدوسة » .

وتكتظ الشوارع بالأهالى في أبهى حلتهم يتوسطهم بعض الأجانب من

الرعايا والسياح كما تشاهد في الاحتفال بولد النبى صفو طولية من الأكشاك عامرة بمختلف الألعاب وأشهى الأطعمة من خبز إلى كعك وقهوة وبطيخ وشمام إلى غير ذلك من الفواكه والماكولات ، كما تكثر في ذلك الحين أنواع الملاهي الوطنية ، كالموسيقى والشاعر (في المقاهي) والمراجيع واللعب بالعصا - هنالك تمر الجماعات من الجند والمواكب من الدراويش تقدمهم الموسيقى وتظللهم الريات والأعلام الزاهية الألوان .

ويعقب حرارة النهار مساءً جاف جميل . ويبدو أن كل الناس قد خرجن إلى الشوارع . وكانت مظاهر الفرح بادية في أجل مظاهرها . ولقد كانت الحوانيت والأكشاك مزدادة بالأنوار ، و كنت تسمع الشعراء والمنشدين في كل منعطف من المنعطفات ، وترى الدراويش يحملون المصايبع المختلفة الألوان ، وعربات الحرير تمر بسرعة تتقدمها المشاعل البراقة يحملها حملة المشاعل الذين يهربون صائحين : « افسحوا الطريق » ولقد أعدت أماكن فسيحة ضربت فيها خيام ضخمة لكل طائفه من الطوائف الدينية . هنالك كان يطوف في مختلف أنحاء هذه الأماكن عدد غفير من الكتل البشرية آباء الليل وأطراف النهار ، كما كنت تشاهد الدراويش الراقصين وهؤلاء الذين يعرفون باسم المداحين ، يقومون بعملية الذكر بلا انقطاع مهذبين بذلك نفسية المسلم وباعثين التسلية والإشراق في نفس الأجنبي . ولقد قضينا الليالي الثلاث الأخيرة في مشاهدة اللعب بالنار وهو فن قد برع فيه العرب .

هذا وإن حيوية الكتل البشرية المتحركة ، والسرادات المضيئة وقد فتحت من أحد جوانبها حيث ترى الدراويش بحر كاتهم الإيقاعية ، والأنوار والزهور المعلقة على أجيال مختلفة الأطوال والارتفاع ، وكل طائفة يميزها لونها ، كل هذا إلى جانب الشموع الرومانية والصواريخ وغير ذلك من مختلف الألعاب النارية يحدث منظراً غاية في الروعة . وكان الحاضرون يمثلون مختلف الطبقات - وكان الأمير ولد العهد في سرادقه محوطاً بكبار الموظفين وأعضاء أسرته الذكور . وكان يمر عدد كبير من العربات الفاخرة تحمل حريم الخديوي

وقد ارتدن أحدهي الثياب وتسربن بمحاجب خفيف ، إلى جانب حريم الباشوات والجاليات الأجنبية . هذا وقد اختلط المزارعون بالعمال والصناع ، كما اختلطت الطبقات الغنية بالفقيرة ، كما ظهر هنالك السائح المتنقل على حماره أو على قدميه أو في عربته ، كل بحسب مزاجه وماليته . ومن بداية الاحتفال بالمولود النبوى ، ذلك الحفل الطويل المدى ، إلى نهايته لا يمكنك أن تلحظ أي ضعف أو فتور في حماس الناس ، وعلى كل فقد كان ينتهي عادة بفصل ختامي يحيل تلك الرواية الطويلة الممتعة إلى مأساة محزنة تاركة أثرا سيناً في نفوس المسلمين والمسيحيين على السواء . ويعزى ذلك إلى أسباب مختلفة .

الفصل السادس

الدوسة والدراوיש

إن كلمة « الدوسة » تعنى « الخطوة » ومعناها الأصلي : الدهس بالأقدام .

وكان الحفل يشتمل على دراويش « السعدية » ممتطين خيولهم فوق عدد كبير من المرىدين ، هؤلاء الذين ينطحون أرضاً راقدين على بطونهم ووجوههم متتصقين ببعضهم .

وقبل ظهيرة الحادى عشر من الشهر يجتمع دراويش الرفاعية ، الذين يعتبرون « السعدية » طائفة منهم على مقربة من مسجد الحسين حيث ينضم إليهم آخرون أشد منهم تعصباً ويقيمون حفلاً يحضره عدد لا يقل عن عدة آلاف . وكان شيخ السعديين من الدراويش بعد تمضية ليلة في الصيام والطقوس الدينية استعداداً للقيام بمعجزة النهار ، يمتهن صهوة جواده وينضم إلى الموكب ، ثم يسير معه حتى يصل إلى المخيم حيث يتظره عدد كبير من الناس يبلغ الخمسين ألفاً أو يزيد .

وكان على جانب الميدان على يسار المدخل صف طويل من الخيام . وكانت أبعد خيمة من الداخل هي خيمة شيخ الطرق الذي يصدر الأوامر الدينية ، ثم يلي ذلك خيمة الخديوى التي كان ينزل فيها سمو الخديوى توفيق باشا وصاحبـه . أما الثالثة فكانت خاصة بكتاب الأوربيـن ، أما بقية الخيام فكانت خاصة بالدرـاويش . وأما هذه الخيـام طـريق يـبلغ اتساعـه حـوالـي ٣٠ قدـماً

قد أعد لمرور المواكب . وقد اصطف الجند أمام هذه الخيام لمنع ضغط الجمهور عليها .

هناك ينزل المتطوعون المستشهادون في الساحة العمومية أمام الخيام ومعهم عدد مساو لهم من الدراويش حيث يكون مع كل رجل تابعه . وعندما يصل رئيس كل فرقة أمام خيمة شيخ الدراويش يقف على الفور ، ثم ينطبع من معه من الرجال ٦٥ البالغ عددهم حوالي ٤٠٠ على الأرض في شكل زاوية قائمة مع خط سيرهم وروعتهم متوجهة نحو السرادقات ، وقد رقدوا ملائقيين لبعضهم على قدر المستطاع . وكانوا يرتدون ملابسهم العادية وهي زي أفقر الطبقات ، ولاشك في أنهم كانوا يمثلون الطبقة الدنيا ، وهي أشد الطبقات تعصباً . وكانوا يرتدون ملابس فضفاضة مثبتة في الوسط بحزام أو حبل ، عراة الأقدام والأيدي . ولقد كان الخادم يظل جالساً عند رأس كل منهم أثناء مرور الحيل من فرقهم - هذا ويأخذ التنظيم البدائي لهؤلاء الرجال حوالي نصف أو ثلاثة أرباع ساعة من وقت وصول الموكب حيث كانوا يرقدون على وجوههم وكانت الجناد تصد الكتل البشرية المتزاحمة ، وكل يريد مكاناً في المقدمة .

وفي مواجهة ذلك كان يوجد عدد كبير من العربات الخاصة بحرم العائلات في مقدمة الصفوف ووراءهن عربات الأجانب والجالية الأجنبية الذين كانوا مضطرين إلى الوقوف على مقاعد عرباتهم ليشاهدو ما يدور هناك . وفي وسط هؤلاء وخلفهم كنت ترى جميرا من الناس لا يستطيعون التقدم إلى الأمام .

هذا وإن أجسام المتعبدين المخدوعين عند تجمهم وانتظامهم في صعيد واحد يكونون طريقاً ملتوياً يسير فيه الشيخ المقدس الذي تصل قداسته إلى درجة أن النبي يحمى من الضر هؤلاء الذين انبطحوا على الأرض لكي يطمئن بأرجل جوارده . وإذا عرف بطريق الصدفة أن أحدهم قد أصيب فإن ذلك يعزى إلى نقص في الإيمان .

هذا وعند إعطاء الإشارة يبدأ الأتباع على طول الخط المتعدد والآلاف المحتشدة من المؤمنين يصيرون : « الله ، الله - لا إله إلا الله وهم يؤكدون ويعدون مقطع الكلمة الأخيرة حتى إنك لا تسمع شيئاً سواها ، وفي النهاية الأخرى كنا نشاهد رجلين قد تحركا جنباً إلى جنب يمشيان على الأجسام وقد حملوا الأعلام الخضراء المكللة برعوس الرماح وكان يتقدم الشيخ خلفهما مباشرة على جواداً مقوداً برجلين حيث يسيرون مسرعين على طول الخط بين صيحات الذكر وهي « الله ، الله - لا إله إلا الله » تلك الصيحات التي تuala بالتدريج واحتللت بصيحات الجماهير حتى أصبحت تحاكى الزثير المنقطع النظير . ولقد كان الشيخ رجلاً كبيراً مرتدياً عمامة خضراء وقد لف جسده بعباءة ذات لونبني فاتح ربطة من وسطها بحزام .

وكان مغمض العينين يتمايل على جواده بحركة تناسب مع سير ذلك الجواد بشكل يتفق مع حالة هؤلاء الذين يستغرون في غيبوبة دينية . ولقد كان يسير يسنده رجلان من الجانبين بأيديهما منعاً له من السقوط . وكان الراقدون على الأرض لا يبدون حراكاً ، يقوى من عزيمتهم الابتهاج بذكر الله الذي كان يحميهم نبيه مظهراً قوته للكافرين . وعندما كان يتقدم الشيخ بجواده على طول الخط كانت تصاحبه دفعة قوية من الرحام تسد الطريق من خلفه . ولست أدرى هل كان ذلك معداً بواسطة المنظمين أم لم يكن من المستطاع كبح جماح الناس .

ولقد كانت البقعة الممتدة أمام سرادقنا خالية تماماً من الجمهور وعندما اقترب الجواد كنت قد اتخذت مكاناً على مقربة من التابعين الذين يجلسون عند رعوس الرجال . ولاحظت أن الخيل في الشرق تسير هادئة تحت أسرجتها . أما هذا الجواد فقد كان حسب عادته متمنياً على الرهونة مبيطراً على النمط الشرقي بحدوة مستديرة تغطي السطح الأسفل لحافره . ولقد مر مسرعاً يخطر في مشيته ذات اليمين ذات اليسار تنزلق أمامه تارة بين الرجلين المبطعين على الأرض وتارة أخرى تصطدم بأجسادهم وأطرافهم بكل عنف

وشدة . وعندما كانت الجماهير تسد عليه الطريق من الخلف كان يصدها المنظمون للحفل حيث ترتد إلى الطريق المجاور لسراقات الدراويش . وفي أقل من دقيقة لم تكن لترى شخصاً واحداً راقداً على الأرض . وكانت تخفى حقيقة الإصابات عن الناس .

ولقد اندلعت وسط الزحام مسرعاً على إثر مرور الجواد لأول وهلة شائياً مصاباً قد قام من بين الراقدين ضاحكاً كأنما كانت أفعوبة لا إصابة وآخر كان محمولاً في حالة إعياء ينزف الدم من أنفه وفمه .

وهذا هو ما أمكنني الحصول عليه من المعلومات وسط هذا الزحام وتلك الجلبة . كما شاهدت أن البعض قد قاموا دون أي إصابة عدا رجلين لم يقدر أحدهما على اخفاء ما ألم به من ألم من جراء جرح أصابه ، بينما فقد الآخر قواه وكأنما قد فقد معها الحياة - وظننته أصيب في عموده الفقري ، ولكن السرعة التي كان الجمهور يتحرك بها لم تتع لى الفرصة لمشاهدة حقيقة هذه الإصابات .

والبعض كان يعتقد أن انساناً لم يصب في كل هذه الحركات العنيفة وأن النبي ﷺ هو الذي حفظهم وحمهم عن طريق المعجزة . ولقد كان هذا هو الاعتقاد السائد عند الأغلبية الساحقة من المسلمين . أما الأقلية فقد كانت تعتقد بل وعلى يقين أن عدداً كبيراً يصاب في كل عام وأن إصابة البعض منهم كانت ميتة . ولقد نشرت إحدى الصحف الأوروبية المحلية في عام ١٨٧٩ أن عدد المصابين من بين هؤلاء المتبعدين النبطحين على الأرض كان حوالي الثلاثمائة وخمسين رجلاً . ولكن هذا كان بلا شك مبالغًا فيه ، إذ أنه لم يكن من المستطاع معرفة عدد المصابين حتى على وجه التقريب .

ولقد كانت الأجسام مرصوصة ملتصقة ببعضها بشكل يثير الدهشة حيث كان الجواد يتحرك فوقها بخطوات واسعة . وكان تقريري في ذلك الوقت أنه لا يمس أكثر من واحد من كل ثلاثة أو أربعة أشخاص . وعلى كل فقد كانت

النتائج مروعة مما أثبت أن عملية الدوسة يجب اعتبارها من المعتقدات البربرية والخرافات الدينية التي توارثها هذا الجيل .

ولقد أردت أن أتحفز من عقيدة المسلمين الحقيقة على آثر مشاهدة منظر من هذه المناظر بأن وجهت السؤال إلى « حسن » الذي كان لا يعدله إنسان في إيمانه ، فأخبرني صراحة بأن ما من إنسان يصاب في هذه المناسبات ، وإنها ضرب من المعجزات ، حتى أنه لا يشعر بالخوف في أن يلقى بنفسه أمام الجواب ما دام يعتقد أنه لن يصاب . فقلت له إنك مخطيء فيما تعتقد ورويت له ما شاهدت فجفل بسبب ثقته فيما أقول . ولكنني شاهدت أن عقيدته بالرغم من تأثيرى عليها ما فتئت قوية .

وفي اليوم التالي حضر « حسن » وطلب مخاطبتي - وقال انه قد التقى بشيخ كبير من علماء المسلمين يثق فيه تمام الثقة ، ولقد أخبروه بأن البعض قد أصيب في عملية الدوسة كما قُتل البعض الآخر وأن الدوسة لم تكن ركناً من أركان الدين الإسلامي . ثم قال : إن الدوسة ما هي إلا عملية قديمة لطائفة من الدراويش المتعصبين ، تلك العملية التي أضرت بتعاليم الدين الإسلامي . وكان هذا هو رأي الطبقات المتعلمة بما في ذلك علماء الأزهر - جامعة القاهرة العظيمة . هذا المعهد هو محور التربية الإسلامية والمنبع الرئيسي الذي تصدر منه العقائد الصحيحة للدين الإسلامي إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، وما شاهدته أن معتنقى الدين الإسلامي أكثر عدداً من أي دين آخر وأن عددهم في ازدياد مستمر .

ولحسن الحظ أن الدوسة أصبحت - على الأقل في القاهرة - أثراً من آثار التاريخ . تلك المدينة العجيبة سوف ينقصها من الآن فصاعداً إحدى وسائل التسلية ، وعلى الدين يشغفون بمشاهدة المناظر الدامية أن يقنعوا أنفسهم بمشاهدة مصارعة الشيران في إسبانيا .

ولقد شاهدت آخر عرض للدوسة بمصر في شهر فبراير سنة ١٨٨٠ حيث

أصدر الخديوى أمراً عاجلاً لمشايخ الطرق الذين يديرون دفة هذه العملية لإيقافها مع غيرها من العادات الأخرى مثل ابتلاع الشعابين والزجاج ، وغرز الإبر والمسامير الكبيرة في الخندود والأنف والأذرع وفي مختلف أجزاء الجسم ، والسير على حد السيف إلى غير ذلك من أعمال الشعوذة - تلك الأعمال الشائنة التي كانت تشاهد حتى هذا الوقت في الاحتفالات الدينية التي كانت تعتبر معجزات عند بعض المتعبدین المتعصبين .

ولقد كان الخديوى توفيق باشا وأعضاء مجلس وزرائه هم المسئولين عن إلغاء مثل هذه العمليات الشائنة . والحقيقة إن إيقاف هذه العملية الذي تم دون معارضة جدية كان دليلاً على تقدم الوعي الأخلاقي .

فقد رغب الخديوى في إلغاء عملية الدوسة مؤيداً في رغبته هذه من الوزراء وشيخ الإسلام الذين قرروا بأنه لم ينص عليها في الدين الإسلامي كما أنها ضد تعاليم القرآن على خط مستقيم رغم أن أحداً منهم لم يجرؤ أن يتحمل مسئولية هذا الإجراء المتطرف .

وفي سنة ١٨٨٠ حصلت عدة أحداث ساعدت الخديوى توفيق على تحقيق رغبته في الإلغاء . فقد قضى الله بوفاة الشيخ الأكبر للدراویش وهو الشيخ البكري ، وكذلك الشيخ الذي كان يتقدم الدراویش على جواده ، وكلاهما كانوا معارضين بشدة لأى تدخل في التقاليد الدينية القديمة . كما أن الجواد الذي كان يدوس المتعبدین في عملية الدوسة قد أصابه مرض عضال قبيل الاحتفال بمولد النبي بأيام قلائل هذه الحوادث المتعاقبة أثبتت صحة تفاؤل الخديوى توفيق لزعماء الخرافات الدينية الذين سرعان ما رضخوا دون إبداء أي معارضة لقرار إلغاء الاحتفال بعملية الدوسة .

والواقع أن الأصل في عملية الدوسة مجهول لدى الجميع . وكل ما سمعته في القاهرة عن هذه العملية هو ما كانت ترويه الأساطير بأنه في القرن العاشر من الهجرة مُنع رجل من رجال الدين عند عودته من الحج بمكة

إلى القاهرة خارج أسوار المدينة بحججة أنه لم يقم بأي دليل يثبت ما له من الكراهة التي تخول له المركز الذي كان يشغله .

وقد قيل حينئذ : إنه إذا كان يستحق المركز الذي هو فيه فليقم دليلاً مظهراً لكرامته . وحينما استثارته الاتهامات جمع عدداً كبيراً من الزجاجات ووضعها ملائمة لبعضها على الأرض ثم امتطى صهوة جواده وسار فوقها دون أن تكسر واحدة منها . ولقد كان من بين المترجين على هذه التجربة عدد كبير من النساء اللاتي ألقين بأطفالهن أمامه مسوقين بتلك التجربة التي يشاهدها بأعينهن جهازاً فمر بجواده من فوقهم دون أي إصابة – هناك فتحت له أبواب المدينة . وعند دخوله من الأسوار أخذ الناس يلقون بأنفسهم أمامه وهو يسير على أجسامهم بجواده . فلم يصب أحد وتكررت المعجزة بعد ذلك في كل عام حتى أصبحت ركناً معترفاً به في الاحتفالات الدينية التي تقام عقب رجوع الحجاج من مكة من كل عام . هذا وأن الاعتقاد السائد عن الدوسة لدى الكثيرين هو أنها استمرار أو تقليد لعادة قديمة يغلب الظن فيها أنها من أصل هندي .

ولقد رأيت أن الديانة الإسلامية خليط عجيب من مختلف الأديان التي كانت معروفة إذ ذاك لـ محمد ، فقد مزجت فيها الديانة اليهودية والمسيحية بكل مهارة مكونة نظاماً عدل بحيث يلائم الخلق الذي انتشرت بينهم دعوته – نظاماً كان الإعجاز من أهم عناصره الجوهرية ، كما أن العادات الوثنية التي لم يحررها القرآن استمرت متبعة .

فما كان لزعيم ديني أن يحصل على شهرة فائقة دون قوة إيمان الجمهور في قدرته على إثبات المعجزات ، ولذا فإن أي احتفال على شاكلة الدوسة وغيرها من العادات التي كانت مغروسة في نفوس الناس الذين أصبحوا مسلمين فيما بعد ، كان يتقبلها الأتباع المتعصبون عن طيب خاطر . أما عن الديانة الإسلامية فهي خير من الوثنية التي حللت محلها . ولا يقل أتباعها في

اعتقاداتهم الخرافية عن عدد كبير من أمثالهم في الديانة المسيحية ، كما أن مظاهر اعتقداتهم الخرافية ذات طابع أقوى من تلك التي تنتشر في الديانة المسيحية ، وأهل الشرق في تمسكهم بهذه العقائد إنما يدللون على تحكم هذه العقائد فيهم .

أما فيما يتعلق بعامل التعصب فهو مشترك بين جميع الأديان ويظهر جلياً عند المسلمين من الدراوיש البالغ عددهم الآلاف : فهم نساك ورهبان الشرق - غير أن عدداً بسيطاً من طوائفهم العديدة هو الذي يجعل الدين شاغله الروحاني الوحيد .

والأغلبية فيهم متزوجون ، فمنهم الصناع والتجار وصغار المزارعين الذين يساهمون في الاحتفالات الدينية في مواعيدها المعروفة لديهم ، وعلى الأخص في يوم الجمعة ومواعيد الأعياد الكبيرة . وبعض منهم يحترف التسول ويتحذى من حضور الاحتفالات الدينية عملاً له - وهم صانعوا المعجزات في المواكب .

وتسمى التدريبات الدينية للدراوיש باسم « الذكر » وما هي إلا ابتهال توقيعى متصل إلى الله مصحوباً ببعض الحركات التي تقوم بها الجماعة في حركة واحدة وصوت واحد . ويستمر هذا الذكر ساعات دون انقطاع وفي الغالب لا تزيد مدة على خمس وعشرين دقيقة أو نصف ساعة . هذا وإن حركة بعض الدراوיש كانت تمتاز بالدوران بسرعة وتسمى « الدوامة » أو رقصة الدراوיש .

ولقد حازوا درجة التفوق فيها ، فهم يدورون على قدمهم الأيسر ساندين أنفسهم بلمس الأرض بذات اليدين حيث يقومون بحوالي خمسين أو ستين لفة في الدقيقة الواحدة مصحوبة بوضع رشيق لكل من الجسد والأذرع قلما يفوقه أربع الراتصين .

وتنحصر حركة بعض الطوائف في تحريك الرأس من اليمين إلى الشمال أو إلى أسفل وأعلى دلالة على الخشوع والخنوع ، وفي بعض الأحيان يقومون بحركة يمليون فيها بأجسامهم إلى الأمام ثم إلى الخلف بقدر ما تستطيع من ميل ، يمليون برؤوسهم إلى الأمام حتى الركبة ثم يرتدون إلى الوراء حتى تكاد رءوسهم تلمس الجزء الأسفل من جسمهم . وتستمر الجماعة على هذه الحركة منادين في صلاتهم بكلمة « الله الله لا إله إلا الله » ويطلق الأجانب على هؤلاء الدراويش وغيرهم الذين يقومون بأنواع مماثلة من الذكر اسم « الدراويش المولولين » .

والبعض منهم يقومون بابتها لهم جالسين أو مكفين على صدورهم والكل يقومون بصلواتهم وقد أغمضوا أعينهم إلى تلك الدرجة التي يفقدون فيها وعيهم بل وتعريهم حالة من النشوء الدينية . ويجب ألا يستدل من على أن الدراويش ليسوا مخلصين في عبادتهم ، بل هم قوم مؤمنون بالقرآن وأتباع مخلصون للنبي (عليه السلام) .

الفصل السابع

رحلة إلى جبل سيناء

تعتبر شبه جزيرة سيناء جزءاً من القطر المصري ، ويقوم السائحون في بعض الأحيان بزيارة الجبال المقدسة التي بسيناء حيث تبدأ الرحلة عادة من السويس على ظهور الجمال ، وهو الطريق العملي الوحيد لهؤلاء الذين لا يلقون أي عنون رسمي خاص . وتستغرق هذه الرحلة فترة ثلاثة أسابيع منها 16 يوماً في قطع الطريق الصحراوي . فإذا ما استئجرت الجمال والمرشد فإنها لا تحتاج بعد ذلك لأكثر من بضعة أيام .

ويجب أن يؤخذ لهذه الرحلة الزاد الكافى عدا الخبز فإنه يمكن الحصول على بعضه عند الوصول إلى سيناء . وفي هذه الضرورة كان الرهبان يمدون المسافرين بالأرز والعدس والبلح ، ولكن أثناء هذه الزيارة لم يمكننا الحصول على الخبر السن . وفي فصل الجفاف لا يمكن أن تجد المياه العذبة إلا في مكائن أو ثلاثة على طول الطريق ويجب أن يؤخذ منها كميات كافية من هذه الأماكن . ولكي تتأكد من السماح لنا بالدخول الدبر يجب أن نحمل معنا خطابات من دير أهل سينا في القاهرة .

وبدلاً من أن تأخذ الطريق العادى اتخذت جماعتنا طريق البحر من السويس إلى الطور وتبلغ هذه المسافة ١٦٠ ميلاً ، ثم بعد ذلك إلى سيناء على ظهور الجمال . ولقد اختصر لنا هذا الطريق رحلتنا الصحراوية إلى مسافة ثمانية أيام ذهاباً وإياباً إلى البحر . وكان معنا خطابات من شريف باشا إلى محافظ السويس لتمهد لنا طريق المرور ، وأخرى إلى محافظ الطور لإعداد الجمال لنا .

وبدون هذه الخطابات كان من العسير علينا أن نسلك هذا الطريق ونحصل على هذه الجمال .

ولقد كانت الجماعة تتكون من الجنرال لورنج ، وهو ضابط سابق من ضباط الحلفاء ، والمستر إدوار فنديك ومترجم القنصل « حسن » وأحد الطهاة ، وخادم أسمى اللون .

ولقد أخذنا معنا خيمتين وما يلزم من الأسرة والبطاطين واللحوم الناضجة والفاكهه وكذلك الأسلحة الضرورية واللوازم الشخصية بالسكة الحديد إلى السويس .

وعندما تركنا القاهرة كنا نعتقد أن سفرنا إلى طور سيناء سيكون على ظهر سفينة كانت قد أعدتها الحكومة لنقل الكابتن برتن وبعض العمال إلى أرض مدين على الشاطئ الشرقي لخليج العقبة للبحث عن معدن الذهب . ولقد أبلغ الكابتن المذكور الخديوي بأنه قد وجد ذهبًا في تلك المنطقة في طريقه إلى مكة قائلا : « إن الإنجيل قد تنبأ بهذا الاكتشاف » .

ولقد اقتنع الخديوي بذلك وأعد له حملة بحرية قوية للقيام بهذه المهمة وكانت هذه إحدى الحالات الكثيرة التي كان الأجانب يحتالون فيها على الخديوي إسماعيل . وكانت النتيجة الوحيدة لهذه الرحلة الباهظة التكاليف هي اكتشاف بعض كبريتور الحديد والقليل من النحاس دون سواه . هذا ولقد تأخرت السفينة عن موعد قيامها حتى أصبح من المحم علينا أن نحصل على قارب للقيام برحلتنا .

وبعد المساعمات الطويلة التي لابد منها في التعامل مع العرب أعد لنا مركب حمولته خمسة وعشرون طنًا . وكان يلزم لنا يومان للاستعداد للرحلة . ولقد قضينا بعض هذا الوقت في زيارة آبار موسى وعين موسى التي تقع على الطريق الصحراوى المؤصل إلى سيناء ، وعلى مسافة ثلاثة ساعات من السويس .

ولقد عبرنا مياه قناة السويس القليلة الغور في قارب صغير ثم أخذنا الحمير بعد ذلك . بعد عبور القناة وجدنا أنفسنا في آسيا على حافة صحراء شاسعة المدى حيث كنا نرى جنوباً وشرقاً سهولاً واسعة وقد تخللتها التلال والجبال المجردة من النباتات وقد صبغت بلون أصفر قاتم يبعث على الملل . ولقد كان ذلك آخر يوم من شهر نوفمبر حيث كانت كافة النباتات قد جفت بفعل فصل الصيف الطويل الشديد الحرارة . وسرعان ما هبت رياح شمالية نشيطة أحاطتنا بسحابة من الغبار . وكان البحر الأحمر عن يميننا أو بعبارة أصح خليج السويس المتفرع منه ، حيث تبلغ سعة الخليج في هذه النقطة أميالاً قلائل ولكنه عميق تشع من مياهه زرقة السماء - ويقع على مقربة منه وعلى طول خط المياه جبل عتاقة الذي يبلغ ارتفاعه حوالي ٣٠٠٠ قدم مجردة من كل نبات وماء . ولم يكن على يسارنا إلا الصحراء التي تحف بها الجبال لمسافات بعيدة .

وتحتوى عيون موسى على ماء آسن أجاج والبعض منها على سطح الأرض والبعض الآخر على قمم الرواى على شكل مخروطات ناقصة . وأكبر عين فيها تمثل بركة يبلغ عرضها حوالي ١٥ قدماً . وكانت عند زيارتنا لها محاطة بحديقة قد ازدادت بشجر التخيل وجوز الهند وكأنها واحة صغيرة . هذه هي العيون التي قيل عنها إنها تستمد عذوبتها مياهها من فرع شجرة أراه الله لموسى .

ولطالما شاهدنا أكواحاً بنيت من الطين يسكنها العرب الذين يزرعون بقاعاً محدودة من الأرض . وأغلب الربى العامرة بآبارها المائية كانت قليلة نادرة فوق أرض الصحراء ، إلا أن إحداها كانت تلفت الأنظار بسبب اتساع رقتها وارتفاعها الذي يبلغ ثلثين قدماً - ولقد كانت منسقة تماماً التنسيق في منظرها العام تعلوها بركة ماء قليلة الغور لا تزيد عن ٥ أو ٦ أقدام حيث تنحدر مياهها من مختلف جوانبها . هنالك وقفت على القمة لاكتشف اليابس الذي يحتمل أن يكون مصدراً لهذه المياه التي تتد تلك العين ، فلم يقع نظري إلا على « جبال الراحا » التي تبعد من ١٠ إلى ٢٠ ميلاً نحو الشرق ، ومنها تتد الصحراء تدريجياً نحو الغرب حتى تصل إلى البحر على بعد ميل أو ميلين من تلك الجبال .

وكانت عبارة عن كتلة صخرية أو رملية جامدة تكونها المياه الجيرية باختلاطها بالرمال التي يجرفها التيار ، كما أن المياه التي تنحدر على جوانبها تجمع جزيئات الرمال حيث تتجمد وتزيد من حجم الريوة .

ولقد أوضح عالم من علماء الجيولوجيا أخيراً أن عنصر التجمد في الريوة إنما هو قشرة كلسية لحشة شفافة وجد منها عشرات الآلاف في الماء . ومهما يكن من ذلك العنصر الذي يجمد الرمل ويحيطه صخراً فإن من الظاهر الجلى أن الريوة تكونت وما زالت تكون بنفس الوصف الذي ذكرناه .

وطبقاً لما ترويه الأساطير ، هذه هي البقعة التي اجتمع فيها بنو إسرائيل بعد مرورهم بالبحر ، المكان الذي ألقى فيه موسى عليه السلام نشيد النصر مع تلاميذه من بنى إسرائيل - وبهذه المناسبة حملت مريم الرسولة أخت هارون الدف في يدها وخرج وراءها جميع النساء بدفعهن مفرادات راقصات .

وكان لابد لنا من الإلقاء من السويس في صباح اليوم الثالث من حصول التعاقد ، ولقد تأخرنا كما هي العادة عند الأعراب . وقبل أن نعد أنفسنا كانت أشعة الغروب قد اختفت وكان يهب علينا ريح شمالي شديد هو الذي يغشى البحر الأحمر في ذلك الفصل من السنة . هذا وقد حضر قنصلنا إلى السويس مع بعض أصدقائه لتوديعنا . وكان على وشك الرحيل لو لا أن الكابتن قد حضر إلى وطلب إرجاء الرحيل حتى الصباح خوفاً من اشتداد الريح علينا في تلك الليلة .

هذا هو ما كنت أتوقعه ، فالكلمة الشائعة في مصر دائمًا هي « بكرة » وبعدأخذ ورد تحركنا من الميناء . ولقد كان الطقس جميلاً رائعاً والنجوم ساطعة إلا أنه لم يكن هنالك قمر وكان الجو رطبًا بارداً ، والرياح تستجمع قواها ، ولم تبد أن رحلة الليلة تبشر بالخير سواء من حيث الراحة أو النوم . في ذلك الأوّان كانت الزوابع على غير العادة . وكان البحر الأحمر

بسبب ما استقر على جوانبه من الصخور المرجانية في متنها الخطورة على المراكب الشراعية الكبيرة المسافرة إلى الهند والبلاد الشرقية عن طريق رأس الرجاء الصالح ولقد كان هذا الجانب من البحر ضيقاً . وعندما كنا نسير في أثر السفن التجارية التي تمر بقناة السويس كانت الحراسة لنا قائمة كما يجب . فشكراً للريح وشكراً لحركة القارب المستمرة ، ولذا لم يكن أمامنا خطر يذكر ، رغم الحراس الغافلين أثناء نوبتهم .

ولقد كان البحارة العرب على جانب من الحرص ، والخوف ويخشون أقل المغامرات - فقد كانوا لا يبعدون بقواربهم الصغيرة عن الشواطئ - حتى إنهم إذا ما وجدوا البر الهادئ المطمئن لجأوا إليه وقضوا ليتهم عليه .

هذا الطريق البحري كان هو الطريق التجاري الوحيد المؤدي إلى الشرق على مر العصور ، ولقد كانت سفنه حتى عصر اكتشاف السفن التجارية الحالى تنافس الجمال « سفن الصحراء » .

أما من جهة القارب الذى كان يقلنا فلم يكن خيراً من تلکم القوارب التي بعث بها سليمان مع خدم « هoram » في رحلاته إلى « تارشيش » لاكتشاف الذهب والفضة والعاج والبخور والمعادن النفيسة ، ولا خيراً من تلکم التي أرسلتها الملكة « حتشبسوت » في حملتها المشهورة إلى بلاد ببط ، ولا خيراً من تلکم التي كان يستخدمها الفراعنة والبطالمة والرومان والعرب الذين غزوا مياه هذه البلاد على التوالى .

قضينا ليلة شاقة ، ولكن ما إن أصبح الصباح حتى صفا الجو وسرنا في رحلتنا على ما يرام . وكان قاربنا خفيفاً وقللاً عنه المثلثة كبيرة الحجم ، ورياح الشمال لا يزال قوية ، فلم نكن لنرى سحاباً بل أشرقت الشمس على الجبال ساطعة دافئة حيث أظهرت لنا وجوه البحارة لأول مرة ... ولقد كان القبطان والبحارة عراة الأقدام والسيقان بقمصان قطنية زرقاء قد ربطت من الوسط بحزام - كان هذا هو رداءهم الخارجي - كما كانوا يرتدون طاقية الرأس

وعمامتها العادبة . وخففت حرارة الشمس تلك الرطوبة التي طفت على ما لدينا من بطاطين وملابس ، كما أراحنا من إعياننا وأعاد إلينا نشاطنا فنajan القهوة الذي أعد على موقد كنا قد أحضرناه معنا .

وكنا نشاهد في بحر النهار تلك السلالس الجبلية على جانبي الطريق ، كما كانت الباخر تصادفنا من وقت لآخر . وقبيل غروب الشمس بقليل ظهرت لنا تلك القرية المعروفة باسم « الطور » ، ظهرت لنا بخياليها ، وسرعان ما رsonsنا في مينائها ، ومن السويس إلى الطور على جانبي البحر لا ترى إلا صحراءات لا نبات فيها ولا ماء اللهم إلا التزير اليسير من النباتات الشتوية . فإذا ما أصيّبت سفينتك بالغرق على هذه الشواطئ فهيا بهم أن تجد على طول الشاطئ وجة واحدة من الغذاء أو جرعة ماء .

وبينما كان الرجال ينصبون الخيام ويعدون الغذاء استدعيت الحاكم وقدمت له الخطاب الذي نحمله معنا من شريف باشا وأبديت له رغباتنا ، فقال لي إنه يوجد مخيمان للأعراب لا يبعدان كثيراً عن المدينة وأنه سيرسل اليوم رسولًا يطلب منهم العدد المطلوب من الجمال .

والطور ميناء طبيعي تحيط به الصخور المرجانية ويمثل المرفأ الوحيد للسفن في هذا الخليج بجانب ميناء السويس . ولا تدعو أن تكون قرية صغيرة قد بنيت منازلها من الطين . ولقد أعددت لأن تكون محطة للحجر الصحي عند عودتهم من جدة ، ميناء مكة .

ويباشر عملية الحج كل مسلم طيب النفس ولو مرة في حياته يتوجه فيما إلى تلك المدينة المقدسة « مكة » . هذا وإن الجزء الأكبر من سكان البحر الأبيض من مراكش إلى تركيا يعتقدون عقيدة الإسلام ولذا يقوم بفرضية الحج عدد كبير جداً منهم في كل عام ، وأغلب هؤلاء الحجاج يفضلون الحج بطريق البحر عن طريق الصحراء .

ولقد حدث مراراً أن حجاج الهند والعمجم قد نزلوا إلى مكة ومعهم مرض الكولييرا أو بعض الأمراض الأخرى الخطيرة ، تلك التي تغلغلت في مصر وبعض دول أوروبا بشكل مخيف ، ولهذا السبب أصبح حجز الحجاج في السنين الأخيرة ببلدة الطور أمراً لابد منه . وذلك لفحصهم طبياً وحجزهم هناك متى رأى القسم الطبي ضرورة لذلك .

وفيما عدا هذا فإن الطور ليست إلا بلدة صغيرة خاملة .

وعند عودة الحجاج من مكة ترسو السفن في مينائها حيث ينصب عدد كبير من الخيام في رمال الصحراء على مقربة من شاطئ البحر . ويقيم في هذه الخيام الآلاف من المغاربة والعرب والترك من مختلف أنحاء مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر وسوريا وتركيا ، ويقوم الجنود المصريون على حراستهم . وترتدى هذه الجنسيات المختلفة والقبائل المختلفة رداءً خاصاً يسمى «البرنس» . وهو رداء فضفاض . كما يرتدون على رءوسهم العمامات . ولكن بالنسبة لللون الرداء وميزاته الأخرى فتوجد في الغالب أنواع متضاربة بحيث تزيد من بهاء المنظر .

هذا وإن الرهبان في سيناء قد يتولون عهدة استيراد المؤن وتوزيعها وبأيديهم عهدة أحراش النخيل الواقعة على مقربة من القرية . كما توجد هناك ينابيع وفيرة المياه تروي بياتها الحدائق الفناء ، إلا أن هذه المياه غير كافية لإطفاء ظمآن الحجاج ، ولذلك فإنهم كانوا يسدون هذا النقص ، في الأيام السالفة ، بيات ترد إليهم من السويس ، ولكنها تصلهم الآن مقطرة مرشحة .

وفي الصباح التالي وجدت عند مجيشى من الخيمة جماعة من البدو تتظربنا بجمالها ، ولقد قضينا طوال النهار في اختيار أجود الجمال والمساومة عليها وعمل بعض الاستعدادات الأخرى . وتحتختلف جمال الصحراء في جنسها عن الجمال الشائعة الاستعمال في مصر ، فهي أخف وأسرع وأسهل خطى ، بيد أنه يجب اختيارها بدقة حيث إن الراحة التامة في أي حال رحلة صحراوية

توقف إلى حد كبير على الجمل الخفيف الحركة السهل القياد .

وأثناء النهار كان لدينا الوقت الكافي للتنزه على طول الشاطئ حيث كنا نجتمع كعية كبيرة من الأصداف والمرجان ونأتي بها معنا في القارب ، فالبحر الأحمر غني بأصدافه الجميلة الرائعة .

ثم تحركنا خارج البلدة حوالي الساعة الرابعة صباحاً . ولقد كان معنا تسعة جمال وحمار واحد ، وكان يصحب كل جمل أحد الجمالين ويصحب كل حمار مكارى . ولقد حملنا ب مختلف لوازمنا من أوتاد وقوائم للخيام وأسرة حديدية مطوية وكراسي للجلوس عليها وكافة أدوات الطبخ وغير ذلك من المؤونة الازمة بما فيها بعض الطيور والدجاج . ولقد خصصت أربعة من الجمال للمتاع والباقي للركاب .

أما بالنسبة للرياح الشمالى السائد في تلك المنطقة وما يترب عليه من صعوبة العودة بطريق البحر فكان لابد للقارب من أن يرتد إلى رأس أبي زنيمة (حوالي منتصف الطريق إلى السويس) ليتظرنا هنالك وكلمة «Ras» معناها رأس بارزة من الأرض ، ورأس أبو زنيمة إنما هو ذلك الرأس الذي يرسوا خلفه السفن لتتقى شر الرياح الشمالية . وكان لابد للقارب أن يسير حوالي اثنى عشر يوماً حتى يصل إلى هذا المكان ، ولكننا إذا لم نجد القارب عند وصولنا كان لابد لنا أن نصل السويس على ظهور الجمال . ولذا كان ينبغي علينا أن نشحن المؤونة الكافية لمدة تزيد على أسبوعين .

ولقد تقدمت جمالنا في نظام هندسي على مسافات بعيدة ، بحيث يخيل للناظر إليها أنها قافلة كبيرة ، ولقد سرنا نحو «أم سعد» على مسيرة ساعة في اتجاه الشمال الشرقي حيث وضعنا رحالنا وقضينا الليل هناك .

في ذلك المكان توجد عين من الماء العذب محاطة ببعض التخيل وقطعة صغيرة من الأرض المترزة التي تروي بماء العين . وكانت هذه آخر بقعة

حضراء رأتها أعيننا قبل وصولنا إلى حدائق سيناء .

وفي اليوم التالي في ساعة مبكرة كنا في الطريق ، وقد أضفنا إلى متابعنا قرب الماء المصنوعة من جلد الماعز ، وقد علقناها في رقاب الحمال وجعلناها تستند على صدورهم ، كما كان معنا « زمام » لمياه الشرب كنا قد أحضرناها من القارب ، وذلك لأن المعروف عن الآبار الارتوازية أن مياهها ليست للذيدة شهية كمياه النيل ، إذ لا تخلو من الأملاح المعدنية التي تغير من طعمها وتجعله غير مقبول .

بدأنا وقتئذ رحلة شاقة عبر الصحراء التي ترتفع تدريجياً والتي يمتد سهلها وراء جبال « العراة » الواقعة على الشاطئ والتي تمتد شمالاً من الطور حوالي ٤٥ ميلاً ، وتمتد جنوباً بمحاذاة الشاطئ ٤٥ ميلاً نحو الجزء الجنوبي من شبه جزيرة طور سيناء . وفي مواجهة الطور يبلغ اتساعها حوالي عشرين ميلاً ، وتحد شرقاً بجبال سيناء . وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة في الرمال وجدنا الصحراء قد غطت بأحجار صغيرة تزداد في الحجم كلما تقدمنا حيث نصل إلى أقصى درجة في الحجم عند سفح سلسلة الجبال .

وفي عام ١٨٦٣ زار عباس (والي مصر) جزيرة سيناء ، ولمس الحاجة إلى إنشاء طريق من بلدة الطور إلى الجبل المقدس . ولكنها اغتيل في العام التالي ولم يتم إنشاؤه . وكل ما في الأمر أنهم أزالوا الأحجار عن قارعة الطريق الذي كنا نسير فيه . ولقد كان هذا تحسيناً من التحسينات الهامة حيث كان الحجر يغطي الأرتبة في كثير من الأماكن فيعرقل سير الجمال .

أما من الوجهة الجيولوجية فإن الأرض التي تقوم عليها هذه الصحراء إنما هي أرض طباشيرية ترجع إلى العصر الثلاثي .

وبعد الشاطئ الذي كنا نسير بجواره لم تقع أعيننا على نبات أو حيوان ، ومن الغريب أنها لا تمطر هناك حوالي ثمانية شهور . والنباتات النادرة الوجود

التي تنمو في الصحراء قد اختفت أو جفت وذوت ، فلم تكن لترى حيواناً أو طائراً ، أو حشرة ، أو وريقة نبات تقطع هذه الوحشة المطلقة ، ولم تكن ريح الشمال كافياً لإثارة الرمال ، ولكن حرارة الشمس وضوؤها الساطع المنعكس من الصحراء والسهل المنطبع المغطى وقد كساه اللون الأحمر واللون الأسود بفعل حرارة القرون والأجيال ، وتلك السلسلة الجبلية ذات الصبغة الصفراء التي كنا نقصد سفحها قبل أن ينتهي النهار ، كل هذا إنما كان سبباً في ارهاقنا طوال رحلة ذلك اليوم . ولقد كانت الجبال المحمولة تقطع ميلين أو ميلين ونصف ميل على أرض الصحراء في الساعة .

وتعلمت كيف أتماشى التعب الذي يتسبب عن تلك الحركة البطيئة غير المنتظمة في سير الجمل ، تلك التي تلقى بجسم الراكب إلى الوراء وتدفع به إلى الأمام بصفة مستديمة وبحركة متعبة . ولذا كما نضع اللفائف الخفيفة على جانبي السرج مغطاه بالبطاطين التي نظمت بشكل مقعد مسطح مريح يساعد الراكب على الجلوس في أي اتجاه شاء . فإذا ما شعرت بالتعب حشت الجمل على السير مسرعاً ، وإذا ما قطعت مرحلة كافية بعيدة عن القافلة ترجلت وانتظرت وصول الآخرين . ولقد رأيت أن عدوم الجمال أكثر راحة من سيرها البطيء .

وصلنا سفح الجبال قبل الليل بقليل ثم استأنفنا السير حوالي ساعتين في طريق منخفض ضيق قد غطته الصخور يسمى « وادي حبران » حتى عثينا على طريقنا على عين مائية وضعنا عندها رحالنا وكانت على وشك أن تجف ، بل كانت مياها أول مياه وجدناها في طريقنا إلى سيناء . وكان على مقربة منها بعضأشجار التخيل المتوقفة عن النمو ، وقد كان المر ضيقاً إلا أن به الاتساع الكافي للمرور . وكانت صخور الجرانيت التي تكتنفه ترتفع ارتفاعاً فجائياً إلى علو شاهق .

واستأنفنا الرحيل في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي في نفس هذا

المضيق ، حتى بعد الظهر ، وكان الطريق سهلاً إلا أنه وعر المسالك في بعض الأماكن ، وقدنا الممر إلى كتل كبيرة من الجرانيت مهدت أماكن منها لأقدام الجمال العريضة . وكانت الجمال تمر في هذا الطريق الوعر المسالك بكل تؤدة وثقة . وفي بعض الجهات هذا الممر كان منظر الراكب على ظهر جمله يتصور للإنسان خطيراً واهماً ، ولكن الواقع أنه لم يكن ثمة خطر .

وبعد الظهر بقليل لمحنا طيراً يكاد يكون هو المخلوق الحي الوحيد الموجود في هذا الطريق . على أنه توجد فصائل مختلفة من الحيوانات في هذه الجبال ، إذ يقال إن الأرنب واين آوى والملك الوحشى والضبع والفهد من سكان هذه المنطقة ، ولكنها نادرة لا تكاد ترى .

سرنا في الوادي بعد ظهيرة ذلك اليوم حتى وصلنا إلى وادي الجاوي ثم الوادي الذي يليه ويسمى بوادي « سولاف » وهو طريق من طرق الجمال العادية المؤدية إلى السويس . وعند ملتقى هذين الطريقين ، وقع نظرنا على عدد من الأكواخ الحجرية القديمة لا يعرف لها أصل . وتسمى « النوميس » (منازل الناموس) عند البدو ، وكان يلتجأ إليها الهاريون من بنى إسرائيل من مرض الطاعون الذي ينقله الناموس كعقاب لهم من الله وكانت هذه الأكواخ على شكل دائرة منحرفة يبلغ قطرها ما بين ١٥ ، ٢٠ قدماً . وكانت مبنية على الوضع الآتي : جدار سميك يقام عمودياً لحوالي ثلاثة أقدام ، ثم ينسحب إلى الداخل حتى يكون سقفاً دائرياً به فتحة من الوسط مغطاة بحجر مستطح .

في هذه البقعة كنا على ارتفاع يزيد على ثلاثة آلاف قدم من صحراء « الكاع » وكانت قمم الجبال تشاهد من كل جانب . وإلى الغرب خلفنا مباشرةً كان يرتفع « جبل سربال » رمزاً مقدساً للمسيحيين القدماء ، ذلك الجبل تمثل فيه قداسة سيناء ، والكثير من العلماء ما زالوا متخصصين لنفس الرأي الذي يقول بقداسة هذا الجبل بناء على أدلة قوية .

ولقد وجدنا أنفسنا أمام قطعة أرض مهياً لوضع رحالنا ليلاً وهي هضبة

رمليّة تكسوها بعض الأشجار الشوكية وكثير من نباتات الصحراء الجافة ، فوضعننا رحالنا وأرحنا جمالنا بما كانت تحمله من أثقال وتركتها ترعى العشب والكلأ ، وإذا بالخيام قد ضربت فوراً كما أعد الغداء ، ولقد جمعت كميات كبيرة من النباتات الجافة والأشجار والجذور الميّة الكافية لبقاء النار ليلا ، ثم أعدت المائدة في أكبر خيمة .

وكان الغداء من أفخر ما يكون ، حيث تناولناه بشهية منقطعة النظير - شاكرين الفضل لأيام هذه الرحلة وهواء الجبل الجميل العليل - ولقد أشعلت نار كبيرة حيث أحضرنا الجمال وجعلناها تبرك حول النار في شكل دائرة وروعسها متوجهة نحو الداخل وسيقانها مطوية تحتها كما هي الحال مع فصيلة الجمال . ولقد أعطى كل جمل من الفول الذي استحضر من السويس ، كما قدم للجمال بعد ذلك بعض الفروع من أشجار الشوك . أما الأعراب فقد تناول كل منهم وجبه من الخبز السن والعدس وبقايا مائدة الغداء . ولما كان عملهم اليومي قد انتهى وقاموا بكافة الاستعدادات الخاصة بالليل ، جلس هؤلاء الرجال أبناء الصحراء حول النار على الرمال على شكل دائري .

ثم بدأ البعض منهم من أرباب المواهب يقصون الروايات والحوادث التي تشبه قصص ليالي العرب التي تسر الأطفال . ولقد استمرت الرواية ، حتى منتصف الليل حيث كنت أسمع تهليلهم بالاستحسان (الله .. الله .. الله ..)

واحتفظت النار بقوتها إلا أن الإعياء كان قد أخذ منهم مأخذة فاستولى النوم عليهم ، الواحد تلو الآخر . هذا وفي الهزيع الأخير من الليل كان دوى الأصوات قد سكن واستقر المسافرون في خيامهم ، وقد عم الصحراء سكون الليل الرهيب .

هذه العزلة والوحدة إنما تولدان شعوراً غريباً ، فهو لاء الأعراب إنما يعيدهون إلى ذهن الإنسان البطاركة القدماء الذين كانوا يعيشون في دورهم الصحراوية

بعيداً عن المناطق والأماكن المزدحمة بالسكان ، وقد أحبطوا بعائلاتهم وقطعنهم فقط منعزلين عن العالم حتى إنهم أصبحوا على اتصال وثيق بالطبيعة ومالك الكون .

ويبلغ عدد هؤلاء البدو حوالي الخمسة الآلاف بدوى يسكنون جزيرة سيناء ويعرفون باسم الطور (ساكنى الطور) . ولقد كان الاسم القديم للجزيرة « توت » فاشتق منه اسم الطور الذى شاع استعماله . يعيش هؤلاء الأعراب على المحاصيل البسيطة التى تتجدد الواحات كلبن الجمال والماعز والغنم ، وما يتناوله من السياحة أجزأا للجمال التى تحمل لهم المدد من السويس والطور إلى الدبى فى سيناء ، كما تحمل أحجار الطواحين وغيرها من الأدوات من سيناء إلى مصر ، كما يستخدمهم بعض الناس أحياناً بحملهم على حدود الدلتا ، وقد تناح لهم فرصة يبع أحدها ، إلا أن لديهم عدداً قليلاً من الغنم والماعز لا يعرض للبيع غالباً ، وهم يعيشون فى الخيام اللهم إلا بعض الأكواخ المقاومة على مقربة من الطور أو في واحة فيران ، التى مررتنا عليها عند عودتنا إلى البحيرة .

يوجد فى تلك الأماكن قطع صغيرة من الأراضى المتزرعة وأحراس النخيل الموزعة ملكيتها على عدة أشخاص يقيمون بعيداً عن تلك المنطقة . هذا ولا يخلو كل بدوى من أن يمتلك ولو شجرة نخيل واحدة ، كما يشتهر هؤلاء البدو بالأمانة حيث يقال إنه ما من أحد منهم يجرؤ على اختلاس بلع الآخر أثناء غيابه .

وكانت القبائل المختلفة التى يطلق عليها اسم « الطور » تحمى رهبانها منذ قرون ، وبالتالي كان لهؤلاء الرهبان الفضل على أطفال ورجال هذه القبائل فيما يقدمونه من غذاء إلى العجزة منهم والمرضى والطاععين فى السن غير القادرين على إقامة أود أنفسهم .

وعند وصولنا إلى محطة الرحيل وجدنا « حسن » مريضاً وحرارته مرتفعة ، فأعطيته نباتاً صحرائياً فشفى في اليوم التالي ، ومن ثم استأنفنا الرحيل . وأصبح

حسن بعد ذلك يعتقد تماماً في مقدراتي الطيبة .

وأعد عند ذلك طعام الإفطار حيث تناولناه بسرعة ، ثم حلت الخيم وحزمت الأسرة بعد تنظيفها من حشرات الصحراء كما فكت عقال الجمال وحملت كافة لوازمنا ثم امتطى كل جمله ، وتحركت القافلة في طريقها .

وكان طريقنا بمحاذاة سفوح الجبال . وعند الظهيرة تركنا وادى سلاف ، وعندما ألقينا آخر نظرة على الطريق المؤدى إلى جبل سربال دخلنا « نقب الهواء » وكان لا بد لنا عند ذلك من صعود حوالي ألفى قدم لمسافة خمسة أميال . هنالك كان المنظر قفراً موحشاً بشكل لا يمكن وصفه حيث ترى جبال الجرانيت قائمة على الجانبين بصخورها المهشمة على ارتفاع ما بين ثمانمائة وألفى قدم . ولقد كان هذا الممر الوعر الضيق الذي تتعذر منه سيول الشتاء مغطى بالصخور الضخمة المتصلة اتصالاً وثيقاً بصخور الجبال . وكانت هذه الصخور تغطي الطريق تاركة في كثير من الأماكن مسالك ضيقة لمورر الجمال . وفي طريقنا كان يقع نظرنا على شجرة قد وقف نموها وقليل من البذات ، فكانت تخفف من حدة منظر ذلك الممر الجبلي المرتفع الوعر .

ولقد قام المسيحيون الأوائل بفتح طريق الجمال بين تلك الكتل الصخرية الضخمة ، والواقع أنه عمل شاق ، فقد أزيلت بعض الصخور ووضعت صخور أخرى إلى جانب صخور لكي يقيموا طريقاً فوق بعض الكتل التي لم يكن بإزالتها .

وقد كان هذا أقصر الطريقين بجانب ذلك الجبل الضخم الذي ارتفع في بعض الأماكن إلى سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر . وكان على مسافة بعض الأميال شمال غرب سيناء . ولقد استمرت الجمال تحرك أقدامها بكل حرص حوالي ساعتين ونصف ساعة من الزمان . وعند وصولنا إلى القمة كنا على ارتفاع ميل فوق سطح البحر ، وعند مدخل ذلك السهل المتسع « سهل الراحة » .

الفصل الثامن

جبل سيناء

على حين فجأة وعلى غير ما كنا ننتظر وجدنا أمامنا منظراً رائعاً للغاية ، فقد كان أمامنا سهل يبلغ اتساعه ما بين ربع ونصف ميل ، ويبلغ طوله حوالي ميلين . وهو ينحدر بالتدريج إلى قاعدة « رأس الصفصاف » وهي عبارة عن جدار صخري عار ظهر أمامنا فجأة وقد ارتفع في الفضاء حوالي ألف قدم . يمثل هذان الجبلان الجزء الهام من سيناء ، وتبعد قمة كل منها عن الأخرى حوالي ميلين تقريباً .

وعلى اليسار من هذه المجموعة يوجد وادي الدير وفي أسفله « دير سانت كاترين » بجدرانه العالية وحدائقه وأشجاره ، وفي مواجهة هذا الدير على الجانب الآخر من الوادي الضيق توجد سلسلة جبلية تبلغ نفس الامتداد ويبلغ ارتفاعها نفس ارتفاع جبل سيناء .

وعلى يسار سهل الراحة يوجد جبل الأسقف ، وإلى اليمين يوجد « جبل الغبطة » .. كل هذه الجبال إنما هي كتل صخرية عارية من الحجرانيت . والمفروض أن تلك الهضبة الرملية القفرة العالية المستقرة عند أقدامنا وسط جدران ذلك الجبل المحيط بنا كانت معسكراً للإسرائييليين قبل الجبل المقدس .

ذلك الجبل الذي ظهر أمامنا كان مسرحاً لمظاهر الجلالة الإلهية ومحطة ميلاد الشرائع الربانية ، كما شاهد قصف الرعد ووميض البرق و « الرياح العاتية التي مزقت الجبال وفتت الصخر أمام الرب » .

وعند وصولنا إلى الدير قدمنا ما لدينا من الخطابات فكان اللقاء بكل ترحاب ثم دعينا إلى الداخل ونصبت الخيام في الحديقة المخاطة بأسوار عالية ، ولقد بقى الجمال والأعراب في الخارج معسكرين في الصحراء حتى آن وقت الرحيل . وتشغل هذه الحدائق بضعة أفدنة ، وتروى في فصل الصيف الطويل العديم المطر من خزان يملأ عادة في فصل الشتاء . وتقع في سطح الجبل وقد سورت من جانبها الأعلى بجدار لحمايتها من السيول التي تسببها أمطار الشتاء . وهي تكون واحة صغيرة تسر رائحتها الزكية كل ساعي عابر للصحراء ، كما تنتج الخضر على اختلاف أنواعها من الفاكهة ، وتنتج البرتقال والسفرجل واللوز والبرقوق والليمون والتين والرمان .

كما ترى هنا لك العنب والكرم تسلق الأسوار وعددًا من أشجار السرو الطويلة التي تفيء الناس بظلاتها إبان فصل الصيف .

وكان الجو مكفهراً بعد ظهرة ذلك اليوم ثم أظلمت السماء تماماً بعد غروب الشمس ، وعند المساء جاءتنا راهب عند خيامنا ليقول لنا إن رئيس الدير أرسله يدعونا للمحضور إلى الدير ليلاً قائلاً إنه يتحمل أن تمطر قبل الصباح . كان هذا التغيير يتطلب نقل أسرتنا وكل ما يلزمنا إلى مقر الدير داخل الغرف ، وهذا ما لم نكن نميل إليه . وبعد المشاورات قرأينا على البقاء في خيامنا مع توجيه شكرنا إلى رئيس الدير على رعايته وعطافه .

وحوالى الساعة الثانية استيقظنا على إثر دوى الرعد ثم أخذ القصف يلي القصف وينتقل من جبل إلى جبل ، وكان الصوت يرتفع ويشتدد نتيجة تردداته بين الصخور العالية المحيطة بنا ، وقد أصبحت خيمتنا مضيئة كما لو أشرق عليها النهار . وعند خروجنا من السرادق شاهدنا أروع مظاهر الطبيعة ، فقد كانت السماء ملتهبة ، وخيوط الأشعة تضرب في كل اتجاه بين الصخور مضيئة تلك الجبال والوديان بشكل رائع . أعقب ذلك قصف رعد شديد اهتزت له الجبال كأنما كانت على وشك أن تنشق وتتفتت . ولقد كان

صدى هذا الدوى والاهتزازات شديداً رائعاً فى أول الأمر كدوى الصخور الساقطة على جانب الجبل .

هذا وإن زوابع الرعد لها تأثير على النفس ، وعلى الأخص في سن الطفولة ، فالبرق والريح العاصف والمطر ومثل تلك المناظر الرائعة تظل عالقة بالذاكرة .

على أننى لم أشهد في حياتي أشد وحشية وأروع قوة من رعد طور سيناء حيث يتلاطم قصبه بين جوانب الجبال وكأنه سيطير بقعمها ويلقى بصخرها بين ما حولها من الوديان .

هناك عادت بي الذاكرة إلى ذلك المنظر الشامل المقدس الذي ذكر في التوراة منذ ٣٢٠٠ سنة عندما كان الرعد والبرق والسحب الكثيف يطغى على تلك المنطقة الجبلية « عندما نزلت روح الله المقدسة تحيط بها النار ويكللها الدخان وزلزلت الأرض والجبال جميعاً » .

أعقب ذلك مباشرة هبوب الريح وسقوط المطر وإذا هنا نسمع زفير السيول المندفع على جانب الجبل ونرى الأرض وقد غمرتها المياه . أما خيمتنا فقد بدأت تخضع لقوة العاصفة رغم متناثرها . وكان حسن والبسنانى يحاولان بمطارقهما ثبيت الخيمة في مكانها .. وكانت الساعة الثالثة حيث دقت أجراس الدير تدعى الرهبان إلى الصلاة . وكان البلل قد غمرنا والواقية الوحيدة لنا على وشك أن تزول .

بدأنا عند ذلك نفكر فيما إذا كان من الأفضل لنا قبول دعوة رئيس الدير ، إلا أن « الجنرال لورنج » تمسك تمسكاً شديداً بيقائه في الخارج . ولكن رئيس الدير لم يهمل شأننا ، فقد أرسل لنا راهباً ليجدد الدعوة قائلاً : إنه يخشى احتمال سقوط الجدار التي كنا نعسكر تحته . وهذا ما ألمّمنا البت في الرحيل والانتقال إلى الدير وسط العاصفة الهوجاء .

وفي الصباح كانت كل الجبال بيضاء ناصعة وقد غطيت بطبيعة رقيقة من الجليد . وإذا بالصيف الطويل الحار قد تبدل شتاء ، فبقينا بالدير يومنا الأول في راحة ودعة تامتين ، نشاهد كل ما يشير الاهتمام .

ولقد كانت جبال شبه جزيرة سيناء تعتبر مقدسة قبل عهد موسى بزمن طویل ، وقد ظلت كذلك حتى الوقت الحاضر عند الكثير من الناس . ومنذ عصر المسيحية الأولى وربما في القرن الأول منها شرع المتعبدون والنساك يقيمون في تلك الجبال والوهاد من تلك المنطقة الصحراوية الغابرة ، فقد أقاموا بعض المباني الحجرية الصغيرة ونحوها الغرف في الصخور وبحثوا عن المغارات الطبيعية ليعيشوا فيها معيشة النساك .

ولقد ازداد عددهم حتى وصل في العصور الوسطى إلى ما لا يقل عن ستة آلاف نسمة من هؤلاء المتعبدين بين تلك الجبال . ولقد كانوا يسرقون ويقتلون بأيدي الأعراب . ولكن تلك الاضطهادات لم تقلل من غيرتهم وحميّتهم الدينية . كما أنها لم تمنع غيرهم من المهددين الجدد من شغل أماكنهم ، وفي كثير من الأحوال كانوا يفرون من الاضطهادات داخل حدود ديارهم وقد تسلطت عليهم الفكرة الدينية المنتشرة في مختلف المالك الأوربية وهي حياة العزلة والقدسية . هذه الصحاري الجبلية الموحشة بتاريخها الحافل بالمعانى المقدسة كانت الملاجأ المفضل لدى هؤلاء الأشخاص الذين يميلون إلى مثل هذه الترعة الدينية . ولقد قل عدد الرهبان منذ زمن بعيد حتى أصبح عددهم اليوم لا يزيد على أربعين راهباً يقيمون في شبه الجزيرة وعلى أنه لا تزال توجد بقايا معابد وأديرة وكهوف كانت تسكن قبل ذلك في أماكن مختلفة بين هذه الجبال . وتوجد هذه المعابد في الوديان العالية وبعض الأحيان في صخور لا يمكن الوصول إليها . ومنذ زمن بعيد كان الكثير من الرهبان يتخدون محل إقامتهم على مقربة من جبل سيناء ، وانتحلوا له اسم « حورب » أو « جبل الشريعة » .

وفي عام ٥٣٠ بعد المسيح أنشأ الإمبراطور جستينيان كنيسة في سيناء محاطة بحصن لحماية الرهبان الذين كانوا يعيشون في عزلة بتلك الكهوف الطبيعية والصناعية ، كما أنشأت الإمبراطورة « هيلانة » عند موقع « الشجرة المختففة » برجاً وكنيسة داخل أسوار الحصن ، وكان الموقع الحقيقي « للشجرة المختففة » غير معروف ولكنه اكتشف أخيراً بمعرفة ناسك تقوى كان قد أتاه أحد الملائكة في منامه ، ويقال إن قلعة جستينيان هي مقر الدير الحالي وهي تحتل ما يزيد على الفدان من الأراضي التي تشغله الآن مباني الدير وأبياؤه .

ولذلك لترى على الأسوار الجراثينية السميكة العالية قباباً بهيجاً ورياضاً في حياء تهيء للرهبان صيفاً رطباً عليلاً ، كما ترى منافذ قديمة تطل على تلك المنطقة وعددًا قليلاً من المدافع التي لا جدوى منها ولم يكن يسمح للأعراب بالوجود داخل الأسوار ، وحتى وقت قريب لم يكن يسمح للزوار بالدخول إلا من باب قد أعد لذلك يبلغ ارتفاعه حوالي ٣٠ قدماً عن سطح الأرض . وكان يوجد وقت زيارتنا باب جانبي ضيق للغاية يفضي إلى حديقة موصلاً إلى أرض المباني . كما كان يوجد نفق تحت الأرض يوصل إلى مبنى الدير بالحديقة .

ولقد دمرت بعض مباني هذا الدير مارياً بسبب الحريق ثم أعيد بناؤها مع إحداث بعض التغييرات والإضافات التي تستلزمها حياة القساوسة هنالك . وبهذا الدير مجموعة من المباني قد وصلتها متاهة مكونة من عدة ممرات صغيرة لا بد للسائح أن يقوده أحد فيها . ولقد لاحظنا أن مباني هذا الدير ومحفوياته مثيرة للاهتمام ولكنها ليست مغربية إذا قارناها بمبانيها .

وكانت الكنيسة التي أنشئت في نفس العصر الذي أنشئت فيه القلعة - على الطراز الروماني ضخمة رائعة - وبها أعمدة من الجرانيت بين مراتها . وتضم هذه الكنيسة عدة كنائس صغيرة وهياكل وزخارف لا عدد لها ، وآثار من الموزاييك ، ترجع إلى القرنين السابع والثامن ، كما تضم شمعدانات ومصابيح بالمئات وكثيراً من الهدايا الثمينة التي منها هدايا كاترين قيصرة روسيا

والإسكندر الثاني . كما توجد بها آثار مقدسة منها جمجمة ويد سانت كاترين الفيلسوفة التي نفذ فيها حكم الإعدام في الإسكندرية عام ٣١٢ بعد الميلاد ، وهي التي حمل الملائكة جسدها منذ ثلاثة عقود بعد استشهادها ، ومن تلك المدينة إلى قمة جبل كاترين ، وللتدليل على هذه الحقيقة كثيراً ما يشير الرهبان إلى منخفض في أرضية معبد قديم مقام على قمة ذلك الجبل ، مؤكدين أنه حدث بواسطه ذلك الجسم في المكان الذي وجد فيه . هذا وأنه تتواجد عدة معجزات فوق هذا الجبل المقدس تكفي لكتابه مجلدات .

وفي معبد « الشجرة المحرقة » طبق فضي ينال على المكان الذي استقرت فيه الشجيرة ، كما أشار الملوك إلى القش ، كما يوجد فوقها هيكل به مصايير معلقة تضيء على الدوام .

وعند الدخول من الكنيسة إلى هذا المعبد يجب أن تنزل بضعة سلاليم مما يدل على أن المعبد قد احتفظ به كأنه الأصلي وأن الكنيسة وغيرها من المباني أعلى من المنشآت التي أقيمت من قبل ذلك . ويشاع أن هذا المعبد هو أقدم مبني في هذا الدير والبعض يقول أن تاريخ إنشائه يرجع إلى عصر الإمبراطورة هيلانة .

وقبل أن تدخله لا بد أن تخلع نعليك كما كان يفعل موسى عليه السلام ، وذلك لأن الرهبان كانوا قدكسوا أرضيته بأبسطة فاخرة . ولقد أزيح الطبق الفضي إكراماً لنا تاركاً فتحة في الأرضية حتى يمكننا أن نرى بالضبط المكان الذي تستقر فيه الشجيرة : « ولقد ظهر له الملوك في شكل لهب من النار من بين الشجيرة حيث نظر فرأى النار تشتعل في الشجيرة دون أن تقدر » .

كما يوجد هنا ذلك مسجد صغير على مقربة من الكنيسة يقال إنه قد بناه الرهبان ليحوّلوا دون تدمير الدير في عصر غزو مصر ، على يد العاشر العثماني السلطان سليم ، وهو يشتمل على مئذنة واحدة ، ولكنه لا يحتوى على شيء يثير الاهتمام .

وبالدير مكتبة بها مجموعة قيمة من الكتب التي تشتمل على المئات من الكتابة القديمة باللغة اليونانية والعربية والفارسية والسورية واللغات الأخرى ، وقد زخرف بعضها زخرفة جميلة ، ولقد اشتهرت هذه الدار بأنها تحوى أكبر مجلد للإنجيل يرجع إلى القرن الرابع . ويوجد هذا المجلد الآن في سانت بطرسبرج كان قد اشتراه إمبراطور روسيا الإسكندر الثاني .

وتقع مقابر القسسين والرهبان الذين قضوا نحبهم في سيناء على مقربة من وسط هذه الحدائق ، وتتصل بالدير بسرايديب مظلمة تحت الأرض حيث يوجد قبران ومعبد صغير ، ففي الأول منها بقايا الرهبان العاديين ، حيث توجد كتلة كبيرة من العظام والجماجم في كومة والعظام الأخرى في كومة أخرى ، وفي القبر الثاني منها بقايا القسسين والمطارنة والقديسين في توابيت بسيطة . كما يوجد عدد قليل من الهياكل بجوار الجدران .

وعلى باب هذا القبو يوجد الهيكل العظمى لقسيس الضريح ، سانت ستي芬 - الذي مات سنة ٥٨٠ ورأسه مغطى بقبعة من القطيفة البنفسجية وقد لف هيكله بعباته .

وكان عدد سكان هذا الدير عند زيارتنا له حوالي ثلاثين من الرهبان والقسسين . ويقوم الرهبان بمهام الإنشاء والتعمير بما في ذلك الطهو والنظافة والغسيل إلى غير ذلك من صنع الملابس وإصلاح المباني . كما يعملون كمرشدين للسياح الذين يقومون بزيارة تلك المنطقة النائية التي يعيش فيها الرهبان عيشة الزاهد في الحياة .. غذاؤهم الرئيسي هو الخبز السن والخضر والفاكهة . وهم لا يشركون معنا في تناول لحم أو خمر - وفي حالة صيامهم الطويل يمتنعون عن تناول اللبن والزيت - وهم تابعون للكنيسة اليونانية ويقومون بأداء الصلوات والطقوس ثماني مرات كل أربع وعشرين ساعة ، حيث يكلف كل قس منهم بالحضور مرتين على الأقل أثناء النهار ، ومثلهما أثناء الليل .

ومن العسير أن يفهم الإنسان تلك الغيرة والحمية الدينية التي تحمل رجالاً أشداء على هجر منازلهم وأولادهم ليقضوا حياتهم في ذلك المكان القفر النائي ، ولأنهم ليخضعون هنالك لنظام شديد يشبه في شدته نظام السجن على وجه التقرير ، وليس لديهم أية متعة من متع الحياة أو أى مطعم من المطاعم الدينوية ، وهم لا يأملون إلا أن يقضوا حياة طبيعية على نسق واحد مضيفين بذلك عظامهم بعد الوفاة إلى تلك الأكواخ المتراكمة على بعضها في مقابر الرهبان .

هذا وإن عناءهم اليوم يسيط إذا قارناه بعناء تلك الأيام التي كان الجبل فيها عامراً بالرهبان ، فهم يقايسون في الحياة مشجعين غيرهم ، بدلاً من أن يশطروا هممهم ، ليحلوا محل المتوفين منهم وليأخذوا على عاتقهم القيام بأعباء المهمة نفسها ويتحملوا الحرمان نفسه الذي احتمله أسلافهم من قبل .

الفصل التاسع

ارتفاع جبل سيناء

في اليوم الثاني قمنا بصعود جبل موسى المعروف لدى الرهبان « بجبل الشريعة ». ومؤخر الدبر يوجد مرتفع فوق الجبل يطلق عليه اسم « درج الحجاج » وقد صفت كتل ضخمة غير منتظمة من الجرانيت مختلفة الأحجام ، لكي تكون سلما ، وفي الأجزاء الوعرة من هذا المرتفق البالغ ارتفاعه قدمان في بعض الأحيان يضطر الإنسان إلى التسلق والقفز - وهي عملية شاقة كصعود الهرم إذ يبلغ ارتفاعه أربعة أمثال الهرم - فلا بد من ثلاث ساعات من الجهد الشاق لصعود الجبل المترمس حتى يصل إلى قمته . ويقال إن هذا الطريق قد أنشئ في القرن السادس أو القرن السابع ، ومع حاليه السيئة لا يزال صالحًا للاستعمال ، وهو يصل بشكل منحرف على جانب الجبل في ظرف نصف ساعة إلى عين باردة تباع من تحت صخرة جرانيتية هائلة . وطبقاً لما يرويه الأعراب ، كان موسى عليه السلام يروي من هذه العين قطuan « جثرو » ، ولذا فقد سموها « عين موسى » ، هذا وإن ما يشيع على السنة الرهبان هو أن مياه هذه العين إنما تفجرت تلبيه لصلوات قيس طاهر في وقت كانت فيه عيون الدير قد جفت ، وأن عين موسى الحقيقة التي كانت تروي ظلماً قطuan « جثرو » إنما كانت تقع على مقربة من الدير .

ولما لم يكن هناك أى إلهام منسوب إلى قس طاهر أو أى مرسوم صادر من الكنيسة يحسم المسألة الهامة ، فإن السائح له الحرية في أن يصدق إحدى

الشائعتين الإسلامية والمسيحية ، هذه العين تدر مياهاً عذبة ، ولها أن تفخر بأنها قد أمدت بياها في هذه المنطقة الصحراوية إما موسى أو ماشية جثرو أو الرهبان الأطهار .

وب مجرد أن استرخنا بضع دقائق وأخذنا نصيينا من مياه تلك العين المقدسة عاودنا السير والتسلق فوق ذلك المر الذي سار عليه الحجاج لعدة قرون . لم تكن هنالك حاجة إلى أماكن هادئة للراحة ، ففي وقت قصير كنا أمام كنيسة مهداة إلى العذراء مريم ، وهي بناء صغير قد بني من الحجر الجبلي . ولا نزاع في أن هذا المكان قد خلد ذكرى تلك المعجزة وكل الكتب تؤيد ذلك ، وليس لنا إلا أن نرضخ لصدق هذه الرواية .

هنالك في عصر من العصور المظلمة الأولى كان مرض الطاعون الذي تحمله البراغيث قد انتشر في ناحية الدير وأصبح لا يطاق حتى أن خيرة القسس هنالك وأقوام عزيمة قد هجروا صوامعهم وفروا إلى الجبل . في هذا المكان بالذات قابلت العذراء المقدسة أفراد ذلك الموكب الحرير وأمرتهم بالعودة ، ووعدتهم بإغاثتهم ، فأطاعوا كمسيحيين آخيار ، وعند عودتهم وجدوا أن معذيبهم قد اختفوا ، وسواء بقيت هذه البراغيث بعيدة عنا أو لا فإنني لا أستطيع أن أقيم الدليل على ذلك حيث إننا كنا ننام في أسرتنا ونتخذ كافة الاحتياطات ضد هذا المرض الفتاك .

ولقد وصلنا صعودنا حتى وصلنا إلى برج ضيق يوجد به منحنى وعر تقيه بوابة ، وعلى مسافة منها بوابة أخرى ، هنالك أثناء قدوم الحجاج يتجمع القسس في ذلك المكان ليتلقو الاعترافات ويقدموا العشاء المقدس .

وصلنا بعد ذلك إلى سهل صغير كسته الحضرة وقامت في وسطه شجرة سرو ضخمة هائلة على مقربة منها عين ماء . وكان هذا المكان محظوظاً بصخور جرانيتية ضاربة إلى الحمرة قائمة على شكل كتل حجرية ضخمة وأقبية عالية . وبعد تسلقنا بعض الصخور كبيرة وصلنا إلى مبني حجري صغير يوجد به معبدان

«أليجا» و «أليشع» ، وكذلك الكهف الذى كان يسكنه الأول منها عندما فر هاربا من جيزابيل (هنا لك قام فأكل وشرب وظل معتمدا على هذا الطعام أربعين يوما وأربعين ليلة حتى وصل إلى «حورب جبل» الإله حيث وجد هنا لك كهفا فاقام فيه) .

ولقد قمنا بسلق الجبل فى مدة تزيد على ساعتين وكان الجنرال «لورنخ» يسير بمساعدة خادمه الأسمى ولكن قواه قد انهكت فبقى فى المؤخرة على مسافة منا ، إذ كان من العسيرة على رجل مثله مبتور الذراع بلغ من العمر أربعة أذرع أن يتسلق مثل هذه الصخور الجرانيتية الضخمة . و كنت أخاف أن تنزعج أرواح الرهبان الراحلين التى ما زالت تطوف هذه الأماكن المقدسة ، ولما كان حسن بدبينا لم يتعود الرياضة البدنية فى طقسها الحار فقد أخذ يكافح وهو يتألف ويزمجر حتى أصبح عاجزا عن إخفاء تعبه وإعيائه بسبب هذا التسلق العنيف .

وإذا بنا قد وصلنا إلى ارتفاع يساعدنا على الإشراف على مناظر جذابة من الجبال الخبيطة بنا إذ كنا عند بضعة أميال على الجانب الآخر من وادي الليجا كانت تقع «سانت كاترين» أعلى نقطة فى شبه جزيرة طور سيناء حيث ترتفع عن البحر بحوالى ٨٥٠٠ قدم .

والى الغرب على مقربة منا يقع أخدود طويل يصل جبل موسى برأس الصفصافة ، وحينما وصلنا صعودنا على جبل موسى شاهدنا على مقربة من قمته منخفضا من الجرانيت الصخرى يعد لدى المسلمين أثرا لحمل «محمد» الذى ركبه عند زيارته المعجزة لجزيرة سيناء ، كما رأينا على القمة معبدا صغيرا ومسجدًا قد بنى وسطه بقايا دير قديم . وفي أسفل هذا المسجد كانت توجد مغارة يقال إنها المكان التقليدى الذى كان يقيم فيه موسى على الجبل : « وكان موسى يسير وسط سحابة حتى يصل إلى الجبل حيث يقضى أربعين يوما وأربعين ليلة ، وكانت هنا لك فتحة فى صخرة على مقربة من ذلك المعبد

الصغير حيث كان يقف ذلك المشرع العظيم حين مرت به الروح الربانية : ولسوف تمر حين يمر بك مجدى ولسوف أضعلك في شق في الصخور وأسترك بيدى حينما أمر بك ٤ .

لقد كان الجو صحوا والريح باردة ، وكانت الجبال ما زالت مغطاة بالجليد عدا تلك الصخور المائلة التي لم يكن بها ما يحتمل استقرار هذا الجليد . أما المنظر العام لهذه المنطقة فكان موحشا قفرا عبارة عن سلاسل جبلية متباقة وراء بعضها في كل اتجاه من اتجاهات البوصلة تقريرا .

ولم نكن لنرى واديا واحدا في تلك المنطقة المحيطة بنا فقد كانت الجبال تحجب عنا مناظر الوديان .

وكان على الجانب الشرقي من جبل موسى منحدر وعر يبلغ طوله حوالي ألف قدم ، ولكن لم يكن هنالك مكان أو مجال يسمح لجموع الإسرائيليين أن يتلقوا فيه أو يشاهدو تلك المناظر التي وصفها الأنجل . ولقد هبطنا هذا المنحدر في تؤدة حتى نستطيع التمتع بالمناظر الجميلة الجبلية الأنيقة الممتدة ذات الشمال وذات الغرب .

وفي الصباح التالي كان الجنرال لورنج قد ضاق ذرعا بتسلق الجبل فقرر بقاءه في الدير ، كما أراد المستر « فانديك » أن يزور جبل كاترينا وطلب أن يرافقه في ذلك حسن فجهزا نفسيهما وخرجوا في ساعة مبكرة ، أما أنا فقد امتنع جملأ مع قس كمرشد لنا متوجهًا إلى رأس الصفيصافة .

كان هذا القس يونانيًا في حوالي الثلاثين من عمره يزيد طوله على ستة أقدام وعلى وجهه وقوامه سيماء الجبابرة . ولقد سرنا نحو الجنوب الشرقي إلى وادي شعيب الذي يمتد من دير « وادي الدير » ثم ينحدر بالتدريج نحو الجنوب الغربي أولًا ثم إلى الغرب مارًا بالطريق الذي تركناه في يومنا السابق عند ذلك السهل الصغير الذي تظلله شجرة السرو . هنا أرسل الجمل مع

الجمال إلى الدير ، وواصلنا السير على الأقدام ، في طريق وعر على المنحدر الشمالي للسلسلة الصخرية التي تصل قعدي الجبل ببعضهما . ولقد مررتنا في طريقنا على بقايا ذلك المعبد القديم (معبد « يوحنا المعمدان ») وعدة كهوف كان يشغلها بعض القسسين ، كما وجدنا صهريجاً قدبياً ، ولقد وصلنا بالتدريج إلى معبد « حزام العذراء المقدس » حيث كان يوجد بعض الأشجار التي من بينها شجرة الصفصاف التي سمي الجبل باسمها « جبل الصفصافة » .

وتقول الأساطير إن موسى عليه السلام قد قطع عصاه من هذه الشجرة المباركة . والحقيقة أن هذه الأسطورة لا تتفق مع قصة الإنجيل في شيء ولم يكن لعمر هذه الشجرة أى تأثير يضعف تلك العقيدة العميماء عند المؤمن الساذج ، وبسبب نكبة ما لم يكن من الميسير صيانة هذه العصا التي كانت دليلاً شاهداً على معجزاته . ولسوف نرى فيما يلى كيف ضرب الصخرة بعصاه . وقد يشقينا ذلك من إلحادنا هذا ، وقد قضينا ما يزيد على ثلاثة ساعات في مسيرنا من الدير ولم يبق أمامنا إلا مرتفع قصير وعر للوصول إلى قمة جبل الصفصافة . وجدنا أمامنا هنالك بعض الدرج ولكننا اضطررنا بعد ذلك للزحف على جانب الجبل المائل . وعند وصولنا إلى القمة حصلنا على ما نروم من المناظر عن طريق وقوفنا على شق صخرة متسع قد أحكم رتاجه بقوس أحكمت بنائه يد الطبيعة . ولقد كان تحت أقدامنا على بعد ألفي قدم سهل الرهبان الذي قررنا فيه يوم وصولنا . هنالك ألقينا نظرة على هذا الجبل الشامخ بواجهته العمودية . ولقد أصبح السهل بمنظره الكامل تحتنا بجباله الشامخة التي تحيط به من كل جانب .

وبغض النظر عن المشاكل التاريخية كان المنظر العام لهذه البقعة رائعًا مهيبًا . أما تلك الموضوعات التاريخية فهي : هل كان حقيقة هذا هو « جبل الشريعة » ؟ هل كان هذا الوادي وتلك السهول المنبسطة أمامنا مزدحمة يوماً ما بمعسكرات الإسرائييليين الذين رأوا وهم يتطلعون إلى المكان الذي كان نصف

فيه مجد الله وعزته كنار ملتهبة فوق قمة ذلك الجبل ؟ .

إن الكثيرين من علماء اللاهوت يعتقدون في صحة ذلك ، أى صحة كونه جبل الشريعة على خلاف ما تحمله إلينا أساطير الرهبان .

هذا وإنني لا أقصد أن أبدى رأياً بشأن العقائد الخاصة بجزيرة سيناء ، تلك التي كانت تشغله باليسوعيين ، وإنما أريد أن أستعرض هنا كلام أحد الدين اعتقدوا في أن هذا المكان إنما كان مسرحاً للمشاهد التي وردت في كتاب الخروج والرحيل : « هنا تقع أرض سهلة تكفي لعسكرة الشعب بأجمعه حيث يقوم في وسطها الجبل الذي يستطيع أن يقترب منه ويسمى الخامن والشجاع كما تشرف منه قمة يمكن أن ترى منها السحب الكثيفة وميض البرق وكل ما حولنا إنما هو من مشاهد الطبيعة الثابتة التي لا تتغير ، فهناك الجبال وهناك الوهاد والوديان التي كان يرعى فيها بني إسرائيل ، هناك القمم العالية التي طالما ظلت بالغمam لتختفي وجه الله عن أعين القوم المذهولين ، تلك السحب التي أثارها وميض البرق والتي ردت صدى ذلك الصوت المروع المنبعث من السماء الذي نادى بمجيء الله جل وعلا » .

والي جنوب المكان الذي كنا واقفين فيه أكمة مستديرة ورارية من الحجرانيت الرمادي الضارب إلى الحمرة وقد ارتفعت فوقنا حوالي مائتي قدم وعلى قمتها كومة مخروطية الشكل من الأحجار المفككة التي تدل على أن البعض قد زار هذا المكان ، فوجدت أن لا داعي للاقتراب منه ، ولكن سرعان ما حاولت الصعود وقد دفعتني رغبة كبيرة للوصول إلى أعلى نقطة في تلك المنطقة .

ولم يكن مرشدى اليونانى يجيد أى لغة استطيع فهمها اللهم إلا بضع كلمات من اللغة الفرنسية . ولقد نجحت فى أن أعلم منه أن كومة الحجارة المخروطية الشكل إنما أقامها رجل انجليزى يدعى كابتن « بلمر » .

لقد سأله عما إذا كان من الممكن أن تصعد فأواماً برأسه قائلاً : « السيدة

الأمريكية » وعن طريق الإشارات أمكننى أن أفهم أنه صعد مع هذه السيدة . وهكذا دخل فى نفسى الشجاعة فلم أبال بالبرد ولا الريح الشديدة ولا الجليد الذى انتشر فى كثير من أزقة الجبل ، بل سعيت معه للوصول إلى القمة غير مبال بأى خطر أو عقبة تعترضنا فى الطريق .

وتسلقنا زاحفين على جانب حافة الجبل للوصول إلى قمته . هنالك جلس الراهب الذى يرافقنا وخلع نعليه وأومأ إلى بحركة فهمت منها أن أخلع نعلى كذلك فتركنا وراءنا ووصلنا الصعود إلى القمة وهو حافى القدمين وأنا مرتد جوربى .

ولقد اعتاد الرهبان كما اعتاد الأهالى أن يطأوا هذا المكان حفاة الأقدام وقد يرتدون فى بعض الأحيان صنادل أو أحذية لتسلق الجبال ، ولكنهم يشعرون بالراحة عند سيرهم حفاة الأقدام . وهم يثقون فى قوة أقدامهم وفى مقدرتهم على تسلق الصخور بمهارة تامة . هذا وإن التغيير فى حالي أو جد الشك فى مقدرتى على الصعود . ولقد قادنا الراهب وتبعته فى ذلك على قدر المستطاع فوق تلك الصخور الجرانيتية الحادة محاولاً الاحتفاظ بتوازنى دون أية دراية بما يحيط بي أو بالمكان الذى أنا ذاهب إليه .

وبورنا فوق الحافة كنا على الجانب الغربى الخارجى للجبل حيث وجدنا أنفسنا فوق طريق ضيق كالرف الذى لا يزيد اتساعه على الثنتي عشرة أو أربع عشرة بوصة ، ويسير محازيا للصخور . هنالك أحد المرشد بيدى وقادنى دون أن يسمح لي بلحظة أتصور فيها تلك الهوة السحيقة المروعة البالغة حوالى ثلاثين فدانًا حتى نهاية هذا الطريق حيث كان هناك ارتفاع حوالى أربعة أقدام . ولقد تسلق بخفة وثبات عجيبين وقادنى وراءه حتى وصلنا إلى الربوة الجرانيتية التى كنا نراها من أسفل الجبل على بعد بضع مئات من الأقدام من القمة .

وكان الطريق ما زال مائلاً ولكن ليس به عقبات تذكر . فى تلك اللحظة بدأت أتحقق تماماً من الموقف . وقد مررنا تحت ذلك الرف الضيق حيث رأينا

منحدراً يكاد يكون عمودياً يبلغ طوله ١٥٠ قدماً كما هو ظاهر لنا . وكانت الرياح تهب بشدة أثناء صعودنا إلى القمة وقد بلغت شدة الرياح متتهاها حتى إنها كانت تضطرنا إلى الوقوف في أماكننا أو الجلوس أثناء لفحات الريح الشديدة ، ذلك لأن أقل زلة قدم أو فقدان للتوازن أثناء مرورنا بهذا الممر الضيق بجانب الصخور إنما كان يطير بنا من هذا الارتفاع الخيف إلى تلك الوهاد السحرية . ولقد كانت الصخرة القائمة فوق ذلك الممر عمودية تقربياً وهي الممر الوحيد الذي يمكننا أن نمر منه إلى المرتفع الذي كان فوقنا .

تقدمنا نحو القمة التي لم تكن إلا كوماً من الحجارة كما لم تكن المناظر خيراً من تلك التي مرت بنا - ولقد كنت أفكراً باهتمام في أمر النزول فوق ذلك المنحدر المائل المؤدي إلى حافة الهوة ، حيث ينزلق الإنسان من واجهة الصخرة إلى الممر الضيق .

ولقد عرفت بالتجربة أن تسلق الصخور المائلة أسهل بكثير بل وأقل خطورة من نزولها . ففي حالة النزول يجب أن تنزل بظهرك دون أن تستطيع أن ترى مقر وضع قدمك وفي هذه الحالة لم يكن هنالك شيء يمكنك أن تمسكه بيديك . وأخيراً عدت إلى نفسي لأرى أي طريق آخر يصلح للنزول ، وتساءلت فكان الرد هزة من الرأس . وعندما اقتربنا من حافة الجبل أصبح ميئل الصخور أشد من ذي قبل حتى لست بدأت في الزحف ، وكانت مضطراً إلى الجلوس ، وفي هذا الوضع كنت قريباً من المكان الخيف . أما الراهب فقد سبقني وزحف نازلاً بكل سهولة واعتداد بالنفس اعتداد القطة بنفسه في هذا البروز الصخري الضيق حيث وقف مستعداً لمعاونتي . وعندما اقتربت منه بدأت أزحف ولم يكن يسندي إلا بقبضة يده .

وقد كان وادي الليجا وسهل الراحة متدينين أمامنا على مسافة ألفى قدم تحت أقدامنا حيث كنت جالساً على حافة الصخور وقد أمسك بي الراهب اليوناني كالطفل الذي لا حول له ولا قوة .

ولست بحاجة إلى القول بأن الرعشة قد تملكتني وأن حلقى كاد ينسد . ولقد مضى الآن شهرين عديدة ولا يزال موقفى فى تلك اللحظة على حافة تلك الصخرة المنحدرة مقتربة بذلك الوادى الفسيح والجibal المحيطة بنا صورة حية عالقة بداكرتى . وكلما تذكرتها أصابتني رعشة حتى إنتى أثناء كتابتى الآن يتملكتنى إحساس غريب .

ولقد حاول الراهب أن يطمئننى ويساعدنى على النزول إلى ذلك المرء الضيق المتند على جانب الصخور ولكنى لم أستطع ، وأخيراً ضممنى إليه وأمسكتنى بهدراعيه حيث سار بي في المرء بكل ثبات حتى النهاية حاملاً إياى وكأنه يحمل طفلاً حتى زال الخطر .

وفي كل هذه الظروف كانت تصحبنا خفة رياضية هىئات أن يكون لها نظير ، ولو أن وزنى لا يزيد عن ١٥٥ رطلًا . وإذا كان قد قادنى بشيء من المرح إلا أنه في الحقيقة قد أنقلدى من هذا الموقف ببطولة يستحق عليها الثناء .

وبعد أن تبعنا بما قمنا به من تسلق ومخاطرة أثناء النهار بدأنا نبحث عن أحذيتنا ثم نزلنا من الجبال مباشرة إلى وادى الدبر . ولقد كان هرماً وعرماً إلا أنه قد أتحفنا بكثير من المناظر لتكوينات صخرية مروعة . عاد بعد ذلك كل من المستر فانديك وحسن في وقت متأخر من ذلك المرتفع الوعر لجبل كاترينا .

الفصل العاشر

واحة فيران والعودة إلى البحر

استمر الطقس متغيراً ومنذراً بعواقب وخيمة . ولما كان فصل الشتاء متقدماً (فقد كنا في أوائل ديسمبر) استقر رأينا أن نُعد أنفسنا للعودة - هنالك ظهرت صعوبات لم تكن متنبطة . وإذا ببعض الأعراب قد وصلوا إلينا معلين أنهم أتوا ليتردوا بنا إلى البحر عن الطريق الشمالي . ويظهر أن تلك المنطقة كانت مقسمة بين الأعراب فالبعض منهم كانت مهمته حمل البضائع في الشمال والبعض الآخر يقوم بحملها في الجنوب من شبه الجزيرة ، وبعد لغط مرتفع وعراك بين العرب ، لعب فيه الجنرال لورنج دوراً كبيراً بهراوته تم الاتفاق على إعداد أحسن جمال لنا بدلاً من الجمال الأخرى . وب مجرد أن قدمنا التبرعات اللازمة للدير ودعنا هؤلاء الرهبان الأتقياء مع إبداء أسفنا في عدم إمكاننا البقاء بينهم لدراسة تلك الأماكن التي يعتبرها السواد الأعظم من المسيحيين أكبر مسارح لأهم الحوادث في تاريخ الديانة المسيحية .

ولقد أرسلنا الجمال التي تحمل أمتعتنا إلى وادي الشيخ - مستبقين معنا مرشدنا الراهب الأمين - ذلك الوادي الذي كان يتصل بوادي غرب الدير . سرنا بعد ذلك في اتجاه مضاد لنقطة الاتصال هذه متوجهين نحو مقر رأس الصفصافة ، المكان التقليدي الذي كان يجتمع فيه بنو إسرائيل . وهنا أمكنهم لمس الجبل ومشاهدة ما حدث فوق قمته ، وهنا نزل موسى عليه السلام حيث وجد العجل الذهبي الذي أعده الناس ليعبدوه من دون الله . هنا ألقى موسى

غضباً بلوح الوصايا العشر « من يده فسقط مهشماً أسفل الجبل .

هنا حدد القس الأماكن المختلفة المتصلة بتاريخ الإنجيل والتي كان من بينها تلك الفتحة في الصخرة التي كانت تستخدم قاتلها لصب الصورة الممهورة .

وعندما اقتربنا من هذه النقطة استطاعت أن الحظ بالنظر إلى واجهة الصخور التي تقع فوقنا مباشرة مدى ذلك الدوار الذي يعتري الإنسان بسبب روعة ارتفاع هذه الصخور التي كانت مسرحاً للمغامرة التي خضناها في اليوم السابق حيث توجد الصخرة بفتحتها وقد غطتها القوس الطبيعي .

وعندما قطعنا مسافة طويلة في ذلك الوادي حول سفح الجبل وصلنا إلى تلك الصخرة « الينبوع العجيب وهي « صخرة حورب » ، تلك الصخرة الجرانيتية الضاربة إلى الحمرة البالغ ارتفاعها حوالي عشرة أقدام والبارزة من بين الصخور ، حيث يجري في وسطها عرق فسفوري مائل تجري فيه شقوق أفقية صنعتها عصا موسى عليه السلام عندما ضرب الصخرة بها فتدفقت منها ينابيع المياه .

وإننا لم نعرف مصدر هذه المعجزة إلا عن طريق الأساطير اليهودية . ولقد أكد لنا الرهبان أن الصخرة قد رافقتبني إسرائيل في جولتهم وعادت أخيراً إلى مكانها في سفح الجبل المقدس « ولذلك كانوا يشربون من هذه الصخرة الروحانية التي تبعتهم : تلك هي روح المسيح » .

في هذه المنطقة ، كما في غيرها من المناطق التي مررنا عليها ، كنا نشاهد على الصخور آثاراً من الكتابة القديمة . وقد أخذنا نتعقب خطانا بعد أن أعفينا المرشد من مهمته وتعقبنا أثر الجمال التي كانت تحمل أمتعتنا حتى لحقنا بها عند الظهيرة . ثم اتخذنا طريقنا نحو الشمال الشرقي ثم نحو الشمال حوالي عشرة أميال واتجهنا بعدها نحو الغرب مخترقين ذلك الممر الضيق المسمى باسم « الواتية » مستأنفين السير في ذلك الطريق .

ووصلنا السير في نفس الوادي حوالي يومين ولكن نزولنا كان يبطء . وكانت توجد بعض الجبال على جانبي الطريق يرتفع البعض منها في صخور مائلة ضخمة . وكانت الأماكن المقدسة ظاهرة من بين الصخور ، أما الخضراء فكانت نادرة الوجود . هنالك تكون مجرى عظيم من المياه في ليلة عاصفة . وقد سببت المياه بعد انحسارها وجود كثير من الأماكن الزلقة .

وكانت الجمال ثابتة الأقدام هيئات أن تزل سواء كانت ذلك بين الصخور أو في الصحراء الرملية . ولكن أينما توجد الأماكن الزلقة ، وعلى الأخص الرلق الناشيء من المياه الطينية ، إذا ما زلت قدم جمل فيها يسقط بسرعة عجيبة وقوة هائلة . وفي اليومين الأولين من رحلة عودتنا مررتنا ببعض التجارب من هذا النوع حيث كانراكبمنا وما لديه من الأمتعة يظل باقياً بين الوحل والطين في حالة حرجة للغاية . وكانت ترى « حسن » ، ذلك الرجل الممتليء ، وقد لفه الوحل هو وجمله وصناديقه وأعمدة خيامه . وجدنا بعد ذلك مكاناً جافاً رملياً لوضع رحالنا . وفي اليوم الثاني كنا على مقربة من واحة فيران عند الظهيرة ، تلك الواحة الواقعه في واد سحيق ، قامت الجبال على جانبيه . هنا اخترقنا طريقاً مغطى بشجر « الطرفاء » - تلك الشجيرة التي تنتج المن والتي يغلب على فصيلتها صغر الحجم . وهي لا توجد في غير هذا المكان . هنالك تقوم حشرة بعمل شقوق صغيرة في جذع هذه الأشجار ولبها حيث تسيل منها قطرات من السائل تسقط وتتجف في الرمال فتكون صمغاً ، ومن ثم يجمع الرهبان في سيناء هذا الصمغ ويضعونه في صناديق صغيرة للبيع ويشارع أن هذا الصمغ له مميزات طبية خاصة .

ولقد وصلنا واحة فيران بعد الظهيرة . وقد سمعت وقرأت كثيراً عن خصوبية هذه الواحة ، وتوقعت أن أجده فيها جنة عدن الحقيقية ولكن خاب ظني . ومع أن زيارتنا هذه كانت في آخر فصل جفاف طويل ولم يكن في ذلك الوقت الذي يمكن مشاهدة خضرتها الجميلة - إلا أنني ملت إلى الاعتقاد بأن شهرتها قد نشأت عن الفارق الكبير بينها وبين ما يحيط بها من الأراضي الرملية .

في واحة كهذه ، مهما بلغ صغر رقعتها الخضراء يرحب السائع الظمآن بأقل شيء ولو نخلة واحدة أو خصلة من العشب ، إذ إنه يعرف على الفور أنه قد أصبح على مقربة من الماء بل إن رائحة الخضرة تكون بالنسبة له متعة عظيم .

ولقد كانت الدهشة تعتري المسافرين في فلسطين عندما كانوا يسمعون أن هذه الأرض الجافة الصخرية القاحلة يطلق عليها اسم « أرض اللبن والعسل » .

وقد أبدى بعض الكتاب رأيهم في ذلك وهو أن هذه الأرض كانت أكثر خصوبية عما عليه في الوقت الحاضر ، فقد كانت بلا شك تصلح في بعض الأوقات للزراعة أحسن من أي أوقات أخرى . ولكننا إذا نظرنا إلى حالتها الطبيعية لرأينا أنه لا يعقل أن تكون مشمرة في الأزمان الغابرة أكثر مما عليه في الوقت الحاضر ، فما كان يتوفّر من هذه التربة ، عدا القليل من المرعى ، كان يرجع ، كما هو الحال الآن ، إلى كثرة العمل والري الصناعي . والواقع أنه بالنسبة للمتجولين في الصحراء المتعطشين إلى الماء الذين لم يستنشقوا البتة غير هواء الصحراء والذين لم تقع أعينهم على حقول خصبة نضرة لم تكن هذه الواحة في نظرهم إلا أرضاً تفيس لبناً وعسلاً .

و « فيران » واحة كبيرة ولكنها لا تزيد عن مائتي فدان من الأرض الصالحة للزراعة . وهي واد عميق ضيق يبلغ اتساعه حوالي ٣٠ ياردة . وتكتنفها من الجانبين جبال عالية ، كما يخترقها جدول دائم يجري في وسطها حتى يختفي بين الصخور . وينبع هذا الجدول في فصل الشتاء الغزير المطر من سفح جبل سيناء ويسير في الطريق الذي جئنا منه حيث يفيض في بعض الأحيان على الوادي بضع ساعات . وفي غير هذا الوقت يفيض هذا الجدول من منابع أخرى على بعد خمسة أميال من هذه المنطقة حيث تتواردى بعد ذلك . والمطر ليس مستديماً في تلك المنطقة حتى يكون ذا أهمية في زراعة هذه الأراضي التي تروي بالطنبور أو الشادوف من ذلك الجدول .

كما يوجد في هذا الوادى عدد كبير من النخيل الذى يوجد بأحسن أنواع الشمر ويتلکها العرب الرحيل الذين ينزلون واحة فيران .

ولقد شاهدنا في ذلك المكان أعریقاً ينسج قماش خيمته بمساعدة زوجته على الطريقة البدائية الأولى . وعندما كان يتنهى من قطعة النسيج كانت لاتريد على عشرة أو اثنى عشر قدماً . وكانت سدة النسيج تربط من أطرافها إلى أوتاد صغيرة مثبتة في الأرض حيث كان يلف الغزل على عصا ويمرر من بين خيوط السدة التي كانت تفصل عن بعضها بواسطة طاقم خشبي يتحرك باليد وذلك بعد إدخال خيوطها في كل خيط من خيوط الغزل . ولقد كانت خيوط الغزل تضم إلى بعضها بواسطة خطاف من العظم .

وكانة واحة فieran تحتوى على عدد كبير من الخيم والقليل من الأكواخ . ولقد حاولنا شراء كبش صغير أو بعض الدجاج ولكننا لم نستطع الحصول على شيء .

وقد قالت لنا أعرابية إن لديها دجاجة للبيع وعند البحث عنها لم تتمكن من الحصول عليها . وكان المنظر العام المحيط بنا رائعاً للغاية ، فقد كانت جبالها العارية بصخورها المتباينة الأنواع وأبراجها الشامخة القائمة على تلك القمة المستطيلة لجبل سربال والتي تطل على ذلك الوادى الضيق الذي يمتد على مسافة أميال إنما تمثل منظراً قل أن يضاهيه في صورته وروعته منظر آخر في جبل سيناء .

وكانت الصخور تتكون من الحرانيت الأحمر الجميل تتخللها عروق من الفوسفات المختلفة الألوان الذي يشع بيلوره من حجر الكوارتز وغيره من الأملام المعدنية الأخرى .

في هذه المنطقة يوجد كثير من آثار الأديرة القديمة المتهدمة ، كما تشاهد العديد من النقوش القديمة على الصخور . ويرجع ذلك إلى الحقيقة التي يفقدها

القوم وهي القائلة بأن جبل سرمال هو جبل سيناء الذي ذكر في الإنجيل .

ولقد كانت واحة فيران حتى القرن الخامس مركزاً لنفوذ الكنيسة المسيحية في جزيرة سيناء بل ومقرًا لختلف المظاهر الأسقفية . ولم يكن يمكن أن ترى صوامع في أي مكان آخر أكثر عدداً من تلك التي يقيم فيها الرهبان بين تلك الجبال .

وكانت واحة فيران مدينة للعمالقة في قديم الزمان ، ويشاع أنهم هم الذين حاربوا في هذا الوادي قوم موسى ، فقد خرجوا لملاقاة بني إسرائيل دفاعاً عن هذه البقعة المحدودة المساحة التي لا يجف عنها الماء وسط تلك الجبال الصحراوية ويطلق على الواحات اسم « جزر الصحراء » . وهي لاتشبه الجزر بالمعنى الصحيح في ظهورها فوق محيط الصحراء كما تظهر الجزر فوق محيط الماء .

وتوجد دائمًا الوديان أو البقاع المنخفضة بالصحراء حيث توفر الرطوبة التي يقوم عليها النخيل الذي يرسل جذوره البالغ طولها عشرون أو ثلاثون قدماً للبحث عن الغذاء ، وحيث توفر المياه الكافية لري قطعان الغنم وري بقعة محدودة من الأرض . وفي بعض الأحيان تونخذ المياه من الآبار العميقة أو من العيون أو من الجداول التي تجري لمسافة محدودة ثم تخفي بعد ذلك كما هو الحال في واحة فيران .

ولا يعني التعريف : السهول الرملية الواسعة التي تطلق على هذه الأماكن أنها صحراء ، كما يمكن أن يستنتج من هذا التعريف ، بل تتكون من التلال والوديان والتلوج المرتفعة الممتدة على مسافات وكذلك من المنخفضات العميقة وسلسل الجبال الشاهقة . ولكن يطلق عليها صحاري لأنه لا يوجد بها مطر ، وإذا وجد فهو غير كاف لنمو النباتات فيها .

ولكي تفهم ماهية هذه الصحاري يكفيك أن تنظر إلى حالة بلادنا إذا

ما أصبحت بلا مطر ، فإذا ما انقطع المطر بضع سنين فلابد من توقف نمو النباتات ، بل ولا بد من أن تجف العيون والمجاول والأنهار العظيمة ، وتخفي معها الخضراء من الوجود .

أما قمم الجبال فإنها تصبح مجردة من كل خضرة كما تسود صخور الجبال العارمة وحصى السهول والوديان من تأثير حرارة الشمس الحرقـة . وحيثـنـدـ سـوـفـ نـرـىـ فـيـ الـمـانـاطـقـ الرـمـلـيـةـ فـقـطـ الرـمـالـ المـتـحـرـكـةـ ،ـ أـمـاـ فـيـ الـأـمـاـكـنـ الـأـخـرـىـ فـلـنـ تـجـدـ إـلـاـ سـهـوـلـاـ صـحـراـوـيـةـ قـاحـلـةـ لـاـ شـجـرـ فـيـهـاـ وـلـاـ مـاءـ .ـ وـلـقـدـ أـخـبـرـنـيـ الدـكـتـورـ شـوـينـفـورـثـ Dr, Schweinfurthـ الـرـحـالـةـ الـعـظـيمـ الـذـيـ قـضـىـ أـعـوـامـاـ فـيـ صـحـراـوـاتـ أـوـاسـطـ وـشـمـالـ شـرـقـيـ أـفـرـيـقـةـ لـدـرـاسـةـ عـلـمـ الـنـبـاتـ الصـحـراـوـيـ إـنـهـ لـمـ يـرـ الـبـتـةـ مـثـلـ هـذـاـ السـهـلـ الرـمـلـيـ الشـاسـعـ الـذـيـ لـيـسـ لـهـ نـظـيرـ اللـهـمـ إـلـاـ فـيـ جـنـوبـ الـجـزـائـرـ .

وبـجـرـدـ أـنـ قـضـيـنـاـ بـضـعـ سـاعـاتـ فـيـ وـاحـةـ فـيـرـانـ اـسـتـأـنـفـنـاـ الـمـسـيرـ حـتـىـ عـسـكـرـنـاعـلـىـ مـسـافـةـ قـصـيـرـةـ مـنـهـاـ بـالـقـرـبـ مـنـ الـحـصـوـةـ :ـ الـاـسـمـ الـذـيـ يـطـلـقـ عـلـىـ أـوـلـ بـقـعـةـ مـنـزـرـعـةـ عـلـىـ مـقـرـبـةـ مـنـ وـاحـةـ فـيـرـانـ مـنـ الـجـهـةـ الـغـرـيـبـةـ .ـ وـبـعـدـ ظـهـيرـةـ الـيـوـمـ التـالـيـ وـصـلـنـاـ إـلـىـ مـنـاجـمـ الـفـيـرـوزـ الـقـدـيـمـةـ فـيـ «ـ مـغـارـةـ »ـ فـيـ وـادـيـ مـغـارـةـ وـوـادـيـ الـكـهـفـ .ـ وـلـقـدـ قـمـنـاـ بـرـحـلـتـنـاـ نـهـارـاـ فـيـ وـديـانـ قـاحـلـةـ عـمـيقـةـ الغـورـ مـكـوـنـةـ مـنـ صـخـورـ مـتـنـوـعـةـ الـأـلـوـانـ مـلـفـتـةـ لـلـأـنـظـارـ .ـ وـفـيـ بـعـضـ الـأـمـاـكـنـ كـانـ الـجـوـانـبـ الـمـنـحدـرـةـ لـلـجـبـالـ مـشـقـقـةـ بـحـالـةـ تـشـبـهـ مـنـظـرـ الـجـدرـانـ الـمـصـدـعـةـ الـتـيـ أـصـبـحـتـ عـلـىـ وـشـكـ الـانـهـيـارـ .ـ وـلـقـدـ كـانـ نـشـدـ الـرـاحـةـ خـلـالـ أـيـامـ رـحـلـتـنـاـ مـاـ كـانـ نـلـاقـيـهـ مـنـ وـحـشـةـ تـلـكـ الـجـبـالـ وـالـوـدـيـانـ الـقـفـرـةـ فـيـ خـيـمـتـيـنـ مـنـ خـيـمـ الـأـعـرـابـ .ـ وـقـدـ حـاـولـنـاـ فـيـ تـلـكـ الـلـيـلـةـ شـرـاءـ حـمـلـ وـلـكـنـ عـبـئـاـ حـاـولـنـاـ ،ـ فـقـدـ اـدـعـىـ الـعـربـ أـنـ ذـئـبـاـ قـدـ زـارـهـمـ الـلـيـلـةـ الـمـاضـيـةـ وـاـخـتـطـفـ عـنـزـاـ صـغـيـرـةـ .

ولـمـ تـكـنـ مـنـاجـمـ «ـ مـغـارـةـ »ـ تـسـتـغـلـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ إـذـ لـمـ تـقـعـ أـعـيـنـاـ هـنـالـكـ عـلـىـ كـوـخـ أـوـ خـيـمـةـ أـوـ أـيـ كـائـنـ حـيـ فـيـ ذـلـكـ الـمـكـانـ الـذـيـ كـانـ حـافـلـاـ بـالـنشـاطـ

في يوم من الأيام . ولقد ظهر لنا من الكتابة الهيروغليفية المنقوشة على الصخور أن هذه المناجم كانت تستغل بمعرفة الفراعنة منذ ستة آلاف سنة . وكانت الكتابة الهيروغليفية عن سنفرو ، وهو أول ملك عظيم في عهد الأسرة الرابعة الفرعونية ثم عن خوفو مؤسس الهرم الأكبر . ولقد تعاقبت عليها الفراعنة وجددوا فيها العمل مدى ٢٥٠٠ عاماً . وكانت أكواخ الحجارة الصغيرة وآبار المناجم تدل على ضخامة الإنتاج في تلك المنطقة . وقد كان الحكم عليهم من المجرمين والعبيد والأسرى مسخررين في العمل بهذه المناجم - حيث تؤخذ كنوزها إلى مفيس وطيبة ليتمتع بها الفراعنة وأتباعهم ، وكانت الصخور خليطاً من الجرانيت والطوب الأحمر الرملي ، وإنك لنجد كسراً صغيرة من الفيروز تغشى ذلك الحجر الأحمر الرملي وهي ملساء وقليل القيمة . كما تجد بلورات صلبة تبين لنا بعد إزالة قشرتها أنها فيروز أزرق براق من نوع فاخر ، ويمكن استخراجها من الصخورة بمطواة ، ولقد شاهدت الكثير من البقع الزرقاء إلا أن كل ما استخرجته من الفيروز كان ناعماً عديم القيمة اللهم إلا إذا كان لأغراض بسيطة . في تلك الليلة عسكرنا بالقرب من هذه المناجم - ولقد جاءنا بعض الأعراب يحملون إلينا الفيروز ، وفعلاً اشتريت منهم ما ظهر لي أنه ذو قيمة . وكان من بينها عدة قطع قمت ب搣قطيعها فيما بعد حيث ظهر لي أنها من نوع جيد . ولقد أعددت للاستعمال كحلي فكانت لها قيمتها بين أفراد العائلة التي قدمت لها على سبيل الهدايا التذكارية . ولم يحصل أي تغيير في لونها الأزرق الصافي الجميل . أما القطع الباقية فقد وضعتها ضمن مجموعة من المعادن .

وكان معدن النحاس يستخرج بكثرة من هذه المناجم حيث كان يحمل إلى مصر في عهد الفراعنة . وبجانب النقوش المصرية القديمة يوجد الكثير من الكتابة السيناوية الشبيهة بغيرها من الكتابات المنحوتة في مختلف أنحاء شبه جزيرة سيناء . كما توجد في تلك البقعة بعض آثار قديمة وجد فيها نوع من الأسلحة المصنوعة من حجر الصوان .

واستأنفنا الرحيل في الصباح متوجهين إلى البحر في واد قد أحاطت جوانبه بالصخور الحجرىة الحمراء . ولم نر مطراً منذ عاصفة الجبل المروعة التي هبت في أول ليلة وصلنا فيها جزيرة سيناء وكانت على ارتفاع ١٢٠٠ قدم فوق البحر حيث كان الطقس منعشَا دافئاً أثناء النهار مناسباً بالمعسكر ليلاً . وكانت الساعة حوالي العاشرة قبل الظهر عندما وصلنا إلى تلك القمة حيث وجدنا أنفسنا فجأة أمام ذلك المعر الوعر « بحر نقب » البدوية أو بحر حد السيف ، الذي نزلنا منه إلى البحر فوراً ، ويقع خلفه على مسافة بعيدة نحو الشمال رأس أبو زينة . حيث كنا ننتظر وجود القارب المعد لنا هناك . ولقد حاولنا أن نمتد ببصرنا لنراه ولكننا لم نشاهد غير تلك البقعة الرملية المتعددة على مسافة بعيدة في البحر . وكان لابد لنا من المسير ساعتين فوق هذا السهل وساعتين آخرين على الشاطئ الرملي كان لابد أن نجد أنفسنا عند غايتنا المصودة .

و عند نزولنا إلى البحر شاهدنا سلسلة من التكوينات الصخرية الجيولوجية تختلف عما قبلها في طبيعتها وتلتف الأنظار . هذا وقد تركنا المنطقة الحجرىة والمر المكون من الحجر الرملي الملون . وكان المتحدر سريعاً ، وعند مرورنا من واد إلى آخر كنا نشاهد سلسلة من المناظر الصخرية من مختلف الأشكال والألوان الجذابة .

وفي بعض العصور حينما كانت الجبال الحجرىة تهدف بها من أتون باطن الأرض كانت تتكون الشقوق التي يبلغ اتساعها ما يزيد عن عشرة وخمسة عشر إلى عشرين قدماً في الصخور الأولى للمنطقة ، ثم ملأت هذه الشقوق بالمقدوفات البركانية المنصهرة التي كانت عندما تدب فيها البرودة تتحول إلى أنواع مختلفة من الصخور النارية .

وقد كان أغلبها مسوداً بفعل الشمس ويشبه الشظايا البركانية . وتمتد هذه الصخور شمالاً وجنوباً ، وهي أصلب من الحجر الرملي .

وبمرور الزمن ذوى النوع الأخير تاركاً الصخر الأكبر احتمالاً بارزاً فوق سطح الأرض . وكان يبلغ ارتفاع هذه العروق البارزة في بعض الأحيان عشرين أو ثلاثين قدماً ، وإنها تمتد على مسافة أميال على مدى البصر متخللة الوديان وفوق سفوح الجبال ، وهي تبدو بمظهر الجدران الكثيفة ، على أنه لم يكن هناك صخرة واحدة أو اثنان . بل كانت هناك صخور متعددة من هذه التكوينات .

وهي تأخذ شكل القصور والمعاقل والمحصون ، وكان من الصعب على الإنسان أن يعتقد أن أمامنا عملاً ضخمة من صنع بني الإنسان .

هناك كنت ترى صخوراً وقماً ومناظر غريبة غير عادية ، بل وصخوراً من مختلف الأشكال والألوان . هذه الألوان المتلائمة إنما كانت تنجم عن المواد المعدنية التي يشتمل عليها ذلك الحجر الرملي وعن درجات الحرارة المختلفة التي كانت تتعرض لها .

والحقيقة إن الصخور التي من هذا النوع في الشكل والتكون المتداة على مسافات شاسعة والعارية تماماً إنما تكون منطقة تثير اهتمام الجيولوجي وتخليب لب المسافر . هذا وإن التسهيلات المتيسرة والمشاهدات تكاد تتوفّر في مختلف المناطق الجبلية لتلك الجزيرة .

أما من جهة جمالنا البالغ عددها عشرة يراقبهم نفس العدد من الجمالة فقد تحركت ببطء إلى مرات الجبل السفلي مخترقه ذلك السهل الرملي الصخري على طول الشاطئ - وعندما أصبحت الشمس على وشك الغروب وراء الجبال على الجانب الغربي للبحر كنا قد وصلنا إلى رأس أبو زنيمة ، هنا كان القارب والبحارة العرب في انتظار وصولنا - وهذا هو المكان التقليدي الذي عسكر فيه بنو إسرائيل ، على مقربة من البحر .

هناك عقدنا مجلسنا عاجلاً لتقرير ما إذا كنا نستأنف المسير بالقارب أو

بالجمال أربعة أيام حتى نصل السويس و كان الرياح مستمرة في الشمال . وقد عمل البحارة ثمانية أيام متواصلة حتى وصلوا إلى هذا المكان ، وذلك لأن القبطان كان قد أخبرنا بأن الأرض في هذه المنطقة إنما تغمرها تسائم البر ليلاً وإننا يمكننا أن نصل إلى السويس مبكراً بواسطة القارب دون الجمال .

على أنه لم يكن هناك منزل واحد أو خيمة واحدة في ذلك الفصل من السنة ، بل ولا مياه مقبولة الطעם في تلك المنطقة . وكان طريقاً مطرد النسق شاقاً على طول الطريق .

ولذا وطدنا العزم على أن نسلم أنفسنا للبحر والبحارة . ولقد أنزل الجمالية حمولة جمالهم وقبضوا أجورهم حيث أسرعوا إلى الرحيل إلى منازلهم الصحراوية ، وفي بعض دقائق احتفوا في الظلام الذي كان يحيط بنا . هنالك أعددت النار . وبعد تناول الغداء ركبنا القارب بكافة معداتنا ثم أبحرنا . وكان البحر هادئاً والطقس موائياً ، ولكن بمجرد أن جاوزنا المنطقة هب علينا ريح شمالي عاصف وهاجت أمواج البحر وماجت حتى عُكِرت على ذلك القارب الصغير صفو المسير .

ووصلنا السير في البحر على قدر المستطاع وسط هبوب الريح حتى الساعة الثانية صباحاً عندما أصبحنا على مقرية من الشاطئ الغربي فأدرنا دفة القارب إلى الجهة الشرقية الشمالية متظرين أن نقطع عشرة أميال خلف هذه النقطة شمالاً من المنطقة التي أبحرنا منها . ولقد قاومنا الأمواج وصارعنها حيث كان يتطاير علينا رشاش الماء طول الليل حتى وجدنا أنفسنا عند الفجر على مسافة قريبة جنوب المرفأ المقصود وعلى مقرية من جدار صخري مرتفع ، إذ لم نكن على مقرية من الشاطئ . وكان الريح يشتدد كلما قرب الصباح ، ولم يكن لنا بد من المسير أمام الرياح .

وعلى إثر تناولنا طعام الإفطار في ميعاد متأخر ألقينا المرساة في نفس المكان الذي أبحرنا منه في المساء السابق .

هذا ولو كانت معنا الجمال لكننا قد هجرنا البحر وركبنا سفن الصحراء .
وأخيراً بعد ثلاثة أيام بلياليها ، وبعد عدة خبرات مختلفة مع كل من الريح
والأمواج وصلنا السويس .

هذا وإن السفن المجهزة بمعدات حديثة لا تجد مشقة كبيرة في مقاومة الريح
في تلك المنطقة البحريّة ، ولكن الأمر ليس يسيرًا بالنسبة لقارب يرجع إلى عهد
القديس بول .

ولو أننا قد وصلنا سالمين إلا أنها قد قررنا بالإجماع ألا نقوم برحالة في
منطقة البحر الأحمر بعد ذلك على مركب شراعية . كانت الرحالة بجزيرة
سيناء ثقافية متعدة ، وكانت في الواقع رحلة صحراوية كافية لدراسة حالة تلك
السهول الواسعة وشيئاً عن حياة ومعيشة سكانها البدو .

إننا لم نر شيئاً من تلك الحياة الوحشية القاسية ، حياة الصحراء التي كانت
دائماً موضوعاً للروايات التي يلذ للسياح أن يتحدثوا عنها ويزوروها في ذلك
قصصاً عجيبة . الواقع أن العرب العصاة للقانون لا وجود لهم إلا في
الكتب . ولقد تأكّدت من هؤلاء الدين قاموا برحلات صحراوية واسعة
ونخالطوا الأعراب شهوراً واستصحبوا خادمًا واحدًا منهم لم يكونوا
معرضين للخطر أكثر من تعرضهم له في البلاد الأوربية . وقد أضافوا إلى ذلك
قولهم إنهم لم يظهروا شيئاً من الملبس أو النقود التي تثير غريزة الجيش حيث إنه
لا يخلو الحال من عرب لصوص كما هو الحال عند بعض المسيحيين الأشرار
الذين قد تسول لهم أنفسهم السلب والنهب . هنالك قد تقوم حروب بين
القبائل ليقتصوا للسرقات وبعض الأخطاء ، كما توجد عصابات في بعض
الأماكن تقطع الطريق ، وهؤلاء هم الذين يعيشون على النهب والسلب ،
سلب العرب الآمنين وكذلك الأجانب العزل الذين يتلقون بهم في الطريق
بطريق الصدفة . وربما كان هؤلاء هم الشواذ الذين لا يمكن اعتبارهم أسوأ من
قطاع الطرق عندنا في البلاد الغربية - مثلهم في ذلك مثل اللصوص . عندنا

مدن الولايات الشرقية .

والعرب بصفة عامة قوم على جانب من الهدوء يعيشون في فقر مدقع في حالة شبيهة بالجحاعة ، وحين يلتقطون كسرة من الخبز أو العظام المتبقية من السياح على الرمال فإنهم يتهمونها بشرابه ، ووجبة كاملة تعتبر لديهم متعة نادرة .

هذا وإن الخمسة آلاف عربي المقيمين بجزيرة سيناء لا يستطيعون العيش على ما تنتجه زراعة كل فدان من الأرض ترويه مياه العيون أو الآبار أو على ما تنتجه الحيوانات التي تعيش في الجبال ، بل لا بد لهم من غذاء يجلب لهم من مصر ينصب أغلبه على القمح والذرة العوينة .

هنا يتساءل الإنسان كيف كان حال بني إسرائيل أنفسهم أثناء إقامتهم القصيرة بتلك المنطقة لو لم تزود إقامتهم بالغذاء الذي نزل بأعجوبة . لا يوجد أي دليل يرهن على أن طبيعة هذه المنطقة قد تغيرت من الوجهة الطبيعية أثناء الخمسة آلاف سنة الأخيرة ، فشبه جزيرة العرب أرض صخرية رملية وليس بها الأمطار الكافية التي تغير من طبيعتها الصحراوية .

وبالنسبة للقصة التي وردت في الإنجيل فإن بني إسرائيل كان يزيد عددهم على مليونين . ومن الصعب أن يفهم الإنسان كيف كان حتى واحد في المائة من هذا العدد يعتمد في حياته على محاصيل هذه المنطقة . وفي فصل الحفاف كانت كمية المياه مثل هذا العدد الجسيم من الناس غير كافية بالمرة . حتى إنه إذا دخل هذه المنطقة السيناوية ألغان من الناس وانقطع عنهم الماء من مصر وغيرها من البلاد الأجنبية كما كان الحال مع الإسرائيليين فلا بد وأن يموت أغلبهم جوعاً . ولذا فإن مسألة الخروج كلها بالنسبة للذين لا يعتقدون في العناية الإلهية لا يزال الغموض يكتنفها .

الفصل الحادى عشر

بحيرة المنزلة وجنة الطيور المائية

أثناء حرارة الصيف التي تشتد في أواخر مايو قمنا برحلتنا الطويلة عن طريق بحيرة المنزلة إلى صان وهي موقع مدينة « زون » التي ذكرت في الإنجيل والتي أطلق عليها اليونانيون اسم « تانيس » نظراً للوقت اللازم لها والصعوبات التي تعرض الوصول إلى هذا المكان . كان هنالك عدة طرق يحتاج كل منها إلى عتاد من الخيام والمئونة والجمل والقوارب والمتجمين . واختارت الطريق المتوجه إلى المنصورة فدمياط ببحيرة المنزلة ، وقد ذهبت من الإسكندرية إلى المنصورة مسافة حوالي ١٥٠ ميلاً بالسكة الحديد . هذا الطريق من أوله حتى طنطا يشبه الطريق الموصل إلى القاهرة ذلك أنه من طنطا إلى المنصورة يخترق أخصب أرض بالديار المصرية .

وكانت الأرضي وقت انخفاض النيل مشقة بفعل الرياح الجنوبيه الحارة الجافة وبفعل الشمس المدارية الشديدة الحرارة فيما عدا تلك الأرضي التي كانت قد رُويت منذ وقت قريب . وكانت سحب الغبار ترافق كل قطار متحرك ، وكانت العربات بحالتها المتهدمة مغلقة التوافد على قدر المستطاع بحيث لم تكن في حاجة إلى تجديد الهواء . وبعد الركوب ببعض ساعات كان من الصعب عليك أن تعرف لون السائع الطبيعي . ومع أن الذباب ، ذلك الوباء المستديم وغيره من الحشرات الصغيرة المؤذية كانت تعكر صفونا ، إلا أن السرور والمرح كانوا يغمراننا في حالة الرحيل بالسكة الحديد على طول الطريق

في هذه المنطقة الفريدة .

كان المنظر العام عبارة عن سهل ممتد ولكن كنت ترى مناظر مختلفة لحياة الفلاح المصرى التي لا تفقد سحرها قط .

ولقد وصلنا المنصورة عند الغروب منهوكى القوى من حرارة الشمس والأتربة ومشاهدة المناظر المختلفة طوال النهار . وكانت المحطة على الجانب المواجه للنهر من المدينة ، وكان الطريق الوحيد لعبور النهر ، إنما هو طريق القوارب الصغيرة مع أنه كان يوجد في هذا المكان في القرن الثالث عشر أيام الصليبيين جسر محصن تمام التحصين ، وقد عثرت على مأوى مريح في منزل القنصل المفوض للولايات المتحدة إبراهيم داود .

والمخصوص ولو أنها مدينة يبلغ تعداد سكانها ٣٠ ألف نسمة إلا أنها خالية من الفنادق وتقع على الشاطئ الأيمن من فرع دمياط على مسافة ٦٠ ميلاً من مصب النيل . وهي مدينة يرجع أصلها إلى القرون الوسطى . ولقد عرفها التاريخ بتلك المعركة الهامة التي خاضها لويس التاسع ملك فرنسا . وسرعان ما هزم الصليبيون في نفس المكان وأخذ لويس التاسع أسيراً . ويقال إن هذا النصر لل المسلمين هو الذي سمي هذا المكان باسم « المنصورة » أي المتصر أو ميدان النصر . وفي الصباح التالي أعدت الخيام والحرس والملونة وغيرها من مستلزمات الرحلة حيث عبرنا النيل واستأنفنا سياحتنا بطريق السكة الحديد إلى دمياط بعد خمسة أميال من البحر وعلى مقربة من بحيرة المنزلة . ودمياط التي كانت في وقت من الأوقات مدينة فاخرة وميناء مصرىاً هاماً هي الآن في حالة انحلال .

ولقد أنشئت الحاجز الرملية عند مصب النيل بحيث لا يمكن المرور لغير السفن ذات الغاطس الخفيف ، ولذا انتقلت تجارتها إلى الإسكندرية ويورسعيid . هذا وإن المآثر العديدة للمدينة وقباب جوامعها ومبانيها العالية الممتدة على شاطئ النيل لا تزال تضفى عليها منظراً رائعاً له أهميته .

ويشهد فن العمارة الذي يتمثل في مبانيها المتهدمة ببرخاء وثروة أيامها الأولى . وتعداد سكانها يبلغ حوالي ٤ ألف نسمة ويردها سنوياً بعض مئات من القوارب الصغيرة التي تأتي من سوريا وببلاد اليونان . ولها أسواق هامة منظمة تمام التنظيم بل وتجارة في الأرز مربحة ، ذلك الأرز الذي يزرع في تلك المنطقة من القطر ، كما تتجز في الأسماك من البحيرة المجاورة « المنزلة » . وكان لابد من قارب وقبطان وبحارة للقيام برحالة نقطع فيها حوالي أربعين ميلاً على بحيرة المنزلة . ولم تكن القوارب والرجال متوفرة هنالك ولكنني عرفت بالتجربة أنه لابد من وقت كاف لإعداد جميع ما يلزم للقيام بهذه الرحلة . إلا أنه بضمان مكتب المحاكم وبنشاطه وحصافة التابع المخلص الأمين حسن أعد لنا قارب بعد ظهيرة اليوم التالي .

هنالك دعيت للإقامة بمنزل أحد أعيان المدينة حتى أعددت على الشاطئ الحيام والثونة وقارب شراعي كبير للاستعمال إذا دعت الحاجة إليه . وعندما أعد كل شيء وركبت السفينة لاحظت انحرافاً ظاهراً في مزاج البحارة الذين ينشرون القلاع للرحيل . فكنت ترى أصواتاً عالية وإشارات تهديد تبدو جدية بالنسبة لشخص لا يعرف شيئاً عن أخلاق وعادات هؤلاء القوم . ولقد علمت أن البحارة لم يكن لهم رغبة في الرحيل إلا باكروا ، أي « بكرة » .

وما كان من الضروري الرحيل فقد أصررت على الإقلاع . وبعد مزيد من الحديث المرتفع وإشارات التهديد ، كما لو كانوا على أهبة القتال ، هدا روّعهم فجأة ونزل الجميع إلى القارب حيث نشرت القلاع وشاهدنا على الفور ذلك الشاطئ الرملي المنخفض والمناير والقباب شيئاً فشيئاً .

وكان برفقتي رجل مثقف من أهالي المنصورة يعرف البلد ويتكلم القليل من الفرنسية ، ثم حسن والقططان وأربعة من البحارة . وكان البحارة يرتدون زي الفلاحين فكانوا حفاة الأقدام عراة السيقان يرتدون ذلك القميص الخارجي القطني الأزرق اللون وعلى رءوسهم القلنسوة والعمامة . وكان القبطان يمتاز

بقميصه الأبيض ، وتضع العمامة من ثلاث ياردات من الشاش الأبيض الرفيع حيث تطوى وتلف ثلاث مرات حول الرأس فوق اللبدة (الطاقية) ويدس أطرافها بين لفة العمامة واللبدة بشكل ثبت معه العمامة فوق الرأس ثبيتا عجيبة .

وإن هذا الطاقم البهيج للرأس هو أهم رمز لزي الفلاح حيث إنه يقيه حرارة الشمس ولفحاتها وهو زyi رأس الفلاحين العادي ، ولذا لم أعهد اضربة شمس واحدة أثناء وجودى بمصر .

وكانت الشمس عندما أبحرنا على سطح البحيرة على مقربة من الأفق الغربي مصحوبة برياح جنوبية غربية شديدة . وفي المساء ساد الظلام الحالك . ولما كان هنالك جزر كثيرة منخفضة وأماكن قليلة الغور فقد ألقينا المرساة طوال الليل . وبعد ذلك سرعان ما جاء قارب آخر من نفس حجم القارب الذي كنا نركبه وألقى برساته على مقربة هنا .

وعندئذ علمت أن المحاكم قد أرسل لنا هذا القارب ليصحبنا وبطبيعة الحال على نفقتى . ولم أفهم الغرض من هذا القارب الإضافي ولكن لما ثبتت لي أن البحارة الجدد ذوو نفع لى وأجرهم معقوله لم أبد أي تذمر . ولما كان المحاكم على دراية تامة بحالة البحيرة واتجاهات الريح فقد استنتج أن زيادة البحارة معنا أمر واجب منعا للأخطار .

استأنفنا بعد ذلك الرحيل عند أول شعاع من الفجر حوالي الساعة الرابعة من الصباح التالي . وكان الريح الجنوبي لا يزال قويا حتى إن القوارب سارت بسرعة وكأنها في سباق . وكانت زوارق مفتوحة تبلغ حمولتها ثلاثين طنا ذات قيعان مسطحة لا تسير إلا في المياه الضحلة ، ولها أشرعة عريضة يخيل للناظر إليها على مسافة أنها طيور ضخمة بأجنحة مُخدودة محلقة فوق سطح البحيرة .

ولقد كان الصباح جميلاً والسماء صافية . هذا وإن اللون القرمزي الداكن الذي كان يحيط بقرصى الشمس والضوء الأصفر الذي يسير في ركابها ، وذلك الطقس الهدىء الجميل الذي لا تشويه أثرية جعل من ذلك الرحيل في الصباح المبكر منظراً ممتعاً وآية في الجمال . وأجمل من ذلك أنه لم يكن هناك أمواج مع أن الريح كان شديداً بحيث كان يمكن أن يغير من حالة البحر . أما البحيرة فقد كانت غير منتظمة شكلاً ، ولكنها كانت حوالي أربعين ميلاً في الطول وعشرين ميلاً في العرض ، وتغطى مساحة حوالي ثمانمائة أو ألف ميل مربع . وأنها لقليلة الغور على قدر امتدادها حتى ليقال إنه يمكن للإنسان أن يخوضها من جانب إلى آخر لولا قاعها الموحل . ولقد كان عمق المياه فيها ، كما رأيت ، حوالي ثلاثة أقدام ، أما على مسافة عدة أميال من الشاطئ فكانت أقل من ذلك بكثير ، وعلى العموم فمياهها ضحلة للغاية . وفي وقت فيضان النيل تكون أعمق غوراً حيث يغمر الفيضان الكثير من الجزر الرملية وال حاجز الرملي الضيق المتخلص الذي يفصل ما بين البحر والبحيرة .

هذا وإن قاع البحيرة مغطى بطبقة كثيفة خشنة من الأعشاب التي تنمو في أغلب نواحيها إلى ارتفاع يبلغ بضعة أقدام . وتوجد بعض بقايا المباني القديمة في هذه الجزر وسط البحيرة . ويشار إلى أن الجزء الأكبر من سطح البحيرة المغطى الآن بالماء كان في الأزلة القديمة يشبه قاع بحيرة مريوط ، غنى بثروته الزراعية . وبسبب قلة غور مياه البحيرة وقاعها المغطى بالحشائش فإن الريح المستمر الشديد بدلاً من أن يحرك الأمواج ويحرك المياه من أحد جوانب البحيرة إلى الجانب الآخر ، تختفي المياه الضحلة ، كلما اتجهت إلى الشاطئ الواقع في اتجاه مهب الريح .

وتند مياه الشاطئ إلى البحيرة حيث ترتد بعد ذلك بحسب تغير اتجاه الريح . ولذا فإن التغير الحادث لمياه الشاطئ يغطي بعض الأحيان ميلاً أو ميلين . وكلما كان القارب يتحرك بهدوء وبسرعة فوق تلك المياه المليئة بالأعشاب ، كان السمك يقفز من تحت مقدمة ذلك القارب ، مما يدل على كثرته .

ولقد مررنا ما بين المطيرية (الواقعة على رأس من الأرض متداً من الغرب إلى البحيرة على بضعة أميال) وبين مجموعة من الجزر تتدلى مواجهتها من جهة الشرق . هناك شاهدنا رجالاً يخوضون في الماء على مسافة بعيدة من الشاطئ يصيرون السمك بشباكهم ، وكانت قواربهم على مقربة منا .

المطيرية هي بلدة الصيادين : فكلها سمك وصيد سمك وليس لديهم حرفة سواها .

هذا وإن مهمة الآباء قد انتقلت إلى الأبناء من جيل إلى جيل منذ قرون ، وربما منذ فجر العصور التاريخية الأولى . وسكان هذه البلدة ومن حولهم من سكان شواطئ البحيرة يكونون سلالة من الصيادين . ولهم وجوه محدودبة ، وحدود بارزة العظام وأفواه شامخة وأعين صغيرة ، يتم شكلهم عن الجمود بخلاف شكل المصري الأصيل الذي يتم عن الرقة والظرف . ويقول علماء الآثار المصرية إنهم من أصل سامي ويرى بعضهم أن أصلهم يرجع إلى الهكسوس أو الرعاة .

ويرجع هذا الرأي إلى وجه الشبه بين الهكسوس القدماء حيث يشاهد هذا الشبه على تماثيل الهكسوس وغيرها من التماثيل وعلى الأنصاص الموجود منها بمدينة « صان » وأهالي المنزلة من الصيادين . وهناك مثل شائع في هذه المنطقة هو أن من يحترف الصيد لأول مرة يبقى صياداً على الدوام . ويحترف هذه المهنة حوالي أربعة آلاف رجل ، وليس لديهم أي حرفة أو عمل آخر بجانبها . وقد فرضت هذه المهنة عليهم بسبب الموقع والظروف المحيطة بهم مثلهم في ذلك مثل الفلاحين الروس واضطراهم إلى الاشتغال سابقاً بزراعة أراضيهم .

والشخص بالصيد في هذه البحيرة يحصل بمعرفة الحكومة وبلغ قدره حوالي ٣٠٠٠٠ دولار سنوياً وذلك أن العقد كان يتضمن سابقاً الخدمات الإلزامية للصيادين مقابل نسبة معوية بسيطة من النقود التي يحصلها هؤلاء الصيادون من بيع هذه الأسماك ، وأنه لم يمكن القول الآن أن هذا العمل ليس

ملزماً للصيادين ولكنهم مضطرون للاستمرار في مزاولة نفس العمل على أساس نفس النسبة المئوية ، وذلك لإقامة أودهم .

هذا وإن حق الصيد في أغلب المياه المصرية لابد وأن تحصل عليه ضريبة تتناسب مع كمية السمك التي يمكن صيدها . وإذا ما صيد السمك في أي مكان بدون تصريح يؤخذ الصياد إلى السلطة المختصة ، ويلزم بدفع غرامة تساوى أضعاف الضريبة التي تدفع للحكومة .

وبحيرة المنزلة ليست مشهورة بسمكها فحسب بل هي جنة الصياد الماهر ، فهي مزدحمة بطريقها المائية على اختلاف أنواعها ، وهي كثيرة جداً حتى إنه لا يمكن إحصاء عددها ، إذ أن هذه البحيرة هي أول مياه داخلة في الأرض تصل إليها الطيور عند رحلتها من الشمال عابرة البحر الأبيض أو مجتازة البحر من الغرب إلى الشرق .

هذا وإن جو هذه البحيرة الهادئ الجميل ومياها الضحلة وسمكها الكثير وغير ذلك من وسائل المعيشة يجعلها مشتى جميلاً لكافة أنواع الطيور المائية التي يبقى الكثير منها بهذه البحيرة طوال أيام السنة .

هناك تشاهد الطيور الوفيرة الفارعة تخوض في الماء كطير البشروش بريشه الأحمر المتوج وملك الحزین واللقلق وأبو حديج والرهو . وكل هذه الطيور يدل وجودها هناك على قلة عمق هذه المياه . أما البجع والأوز المصري والأوز العراقي والحوصل الأبيض الرشيق فإنه يسبح فوق سطح الماء وسط غيره من الطيور الصغيرة في كبريات وعظمة في الأماكن الأعمق غزواً . كما أن هناك أسراباً من مختلف أنواع البط كلما يخلو منه مكان من شواطئ هذه البحيرة .

وتقول السلطات المختصة إن الطيور المائية في هذه البحيرة تستهلك يومياً ما لا يقل عن ٦٠٠٠ رطل من السمك بجانب غيره من الأطعمة ، وهي كثيرة جداً لدرجة أن المياه تغطي بها فعلاً في أماكن كثيرة ، وذلك خلال

الشتاء وحتى شهر مايو . وتبعد للناظر إليها على مسافة وكأنها جزر منخفضة ، كما تبدو عندما ترتفع في الفضاء وكأنها سحب تغطي السماء .

منذ عدة سنوات كانت الملايين من الحمام تبني أعشاشها في تلك الغابات العظيمة الواقعة شمال نيويورك . وكانت كلما طارت كل صباح للبحث عن الطعام تغطي السماء لمدة ساعة أو ساعتين ، كما يحدث ذلك عند عودتهم في المساء . وقد شاهدت في بحيرة صغيرة تقع شرق مدينة المكسيك وعلى مقربة من السكة الحديد المؤدية إلى « بوينلو » و « فيراكروز » ، شاهدت أعداداً وفيرة من البط كانت تغطي المياه لمسافة بعيدة .

ويعتبر تجمع أسراب كبيرة من الطيور في الأماكن غير الآهلة بالسكان أمراً مألوفاً . وفي بحيرة المنزلة يعتبر هذا الميل للتجمع من جانب هذه المجموعات الغفيرة من الطيور منظراً رائعاً . ذلك أن عددها الكبير واختلاف أنواعها وجمال ريشها ليكون منظراً لا يعتبر فريداً فحسب بل لا نظير له من حيث أهميته لعلم الطيور . ويوجد لكل مجموعة من هذه الأسراب قائد من بينها يحدوباقي حذوه في كل حركاته ، فلا يرتفع طير فوق الماء إلا إذا فزع قائهم إلى الطليعة ، وفي اللحظة التي ينشر فيها جناحيه ويصبح صيحة يحلق السرب كله في الفضاء . ويعتبر حق الصيد للطير كحق الصيد للسمك ، أي لابد من التصريح به ، والصيد بضرب النار منوع في القوارب إلا أنه يمكن التصريح به للأجانب بصفة عامة . ويحترف صائدو السمك اقتناص الطير كذلك بواسطة الشباك وبوسائل أخرى مختلفة يمكن بها الحصول على أكبر عدد ممكن من الطير .

وهناك طرق بدائية وغاية في الغرابة لصيد الطيور تتمثل فيما يلي : يعد واحد من الأهالي خوذة لرأسه تغطيها تماماً على شكل طائر ، وتصنع في بعض الأحيان من قشرة بطيخة وتحتار عادة الليالي المضيئة وخاصة عندما يكتمل القمر ، ثم يخفى نفسه تماماً ما عدا رأسه التي تستتر داخل الخوذة القائمة على

شكل طائر فوق الماء ، وعندما يتأكد عن طريق فتحة في الخوذة من مكان قائد السرب يقترب منه بكل مهارة حتى يمسك به من سيقانه ثم يسحبه تحت الماء ويذبحه على الفور . فإذا ما فعل ذلك بكل خفة ورشاقة لمنع الطير من الصياح أمكنه اقناص السرب بأكمله طيراً بعد طير بنفس الطريقة . ولكن إذا بدر أقل صياح من قائد السرب سرعان ما يلوذ الآخرون بالفرار .

وفي بعض الأحيان تشاهد خنازير برية ذات حجم كبير وجاموس في المستنقعات المجاورة .

ولقد كنا نقلع بسرعة طيلة الصباح ، وكنا نضطر إلى تغيير مجرى اتجاهنا من وقت لآخر إذ أن طريقنا كان تجاه الجنوب وفي الغالب ضد الريح . وذلك بعد أن مررنا بالمطيرية . وكانت المياه قليلة الغور في بعض الأحيان . وقد رسينا حوالي الساعة العاشرة صباحاً ، وكنا لا نزال على مسافة عدة أميال من الشاطئ الذي تتخلله المستنقعات ومن مدخل المجرى القديم لأحد فروع النيل كان علينا أن نسير فيه بضعة أميال . واستفسرت عمما يجب عمله عن طريق حسن فأجبت بأنه يجب الانتظار حتى يتغير اتجاه الريح . ولم يكن هذا مشجعاً حيث إن الريح في مثل هذا الفصل من السنة قد يهب من الجنوب لعدة أيام . ولكي ننتظر ريحًا يهب من الشمال معناه أن نبقى كما كنا لمدة عشرة أيام . ولم أدرك كذلك كيف يمكن لهذا التغيير أن يساعدنا .

وربما كانت هذه الظاهرة الجوية تبدو لسكان هذه البحيرة ظاهرة يومية بسيطة ومعروفة جيداً بحيث لا تحتاج إلى إيضاح . ولو أنك سألت هذه الطبقة من العرب عن بعض الحقائق يندر أن تلقى إجابات صحيحة . لم يكن هناك باعث سيء ، إنما كانوا يردون عليك في أدب الشرقي بإجابة يعتقدون أنها سوف تدخل السرور على نفسك . وقد أحاطت القبطان علماً بأنه يتعين على أن تكون في الإسكندرية في ميعاد معين فاقتصر أن يسیر بالقارب نحو الغرب الذي يغلب الظن في أن المياه في هذا الاتجاه كذلك أكثر غوراً .

وحيثند أمسك بحار بطرف حبل طويلاً في يده وعمود قصير في اليد الأخرى ثم خطا فوق مقدمة السفينة ونزل في الماء حيث تقدم إلى الأمام بضع خطوات ساحباً الحبل وراءه ملقياً العمود في قاع البحر . هنالك بقى مسماً بالعمود في مكانه ، وأخذ الرجال القائمون فوق سطح القارب يسحبون الطرف الآخر من الحبل ، فأخذ القارب يتحرك ببطء فوق القاع الملبد بالعشب نحو المكان الذي فيه العمود ، وتقدم البحارة على هذا المنوال إلى الأمام ، ولكننا لم نحرز سوى تقدم بسيط .

أما القارب الثاني فقد تركنا في الصباح المبكر وتوجه إلى المطرية لاستحضار خبز للبحارة الذي دفعتهم الحاجة إليه ، كما علمت حينند ، إلى المناقشة الحادة التي جرت عند وقت رحيلنا . وفي حوالي الساعة الخامسة عشرة ظهر هذا القارب متوجهاً إلينا ولكن من جهة الغرب حيث كنت أظن أن المياه أعمق غوراً . وعندما وصل إلى المكان المواجه للنقطة التي رسينا فيها ألقى برساته وضم الرجال الشراع ثم قفزوا بركابهم الملؤدة بالخبز إلى قارينا . ولم نكن بحاجة إلى معجزة لكي يجعلهم يسيرون فوق المياه .

بهذه القوة الإضافية تحركنا أسرع من ذي قبل . ولقد تجمع الرجال بعد ظهر ذلك اليوم على سطح القارب ليتناولوا وجبتهم من الخبز الجاف حيث كان لا نزال على بعد ميلين من الشاطئ . وبعد أن انتهوا من الغداء بدأوا يباشرون عملهم بكل همزة . وكانت الساعة حوالي الثانية عشرة ظهراً ولم نكن قد قطعنا أكثر من ميل منذ أن تحركنا من الشاطئ في تمام الساعة العاشرة . وكان الريح قد توقف تماماً قبل الظهيرة . وعلى حين فجأة هب نسيم خفيف من الشمال أخذ يشد بالتدريج . وكان يبدو أنه نسيم بحري عادى ، ذلك الذي هب من البر عبر البحيرة - أي حوالي عشرين ميلاً - ومن ثم نشر الشراع وخاض الرجال الماء ، أربعة على كل جانب ، وأضعفين أحجامهم بجانب القارب دافعين به إلى الأمام . حينند ملىء الشراع بالهواء ، وبفضل الريح وقوة الرجال بدأنا نتحرك . وتقدمنا ببطء في بادىء الأمر ولكن ما لبثت الريح أن اشتدت .

وفي ظرف نصف ساعة صعد الرجال فوق القارب ، الواحد تلو الآخر وسرعان ما سرنا بسرعة معقوله .

وبعد زمن وجيز دخلنا مجرى النيل الضيق المترعرج وكنا نسير فيه بسرعة لا يأس بها ، وكانت المياه قليلة الغور والشواطئ منخفضة ومسطحة لدرجة أن الأمواج التي كان يحدثها قارينا كانت تغطي الشواطئ لمسافة بعيدة . ولم يمض وقت طويل حتى وجدنا أنفسنا جانحين فوق الأرض مرة ثانية . وبمساعدة ثمانية مناكب قوية وبمساعدة الرياح الشمالية سرنا فوق تلك المياه الضحلة ، ولكن سرعان ما وجدنا المياه قليلة الغور إلى حد لا يسمح لقاربنا الكبير بالتقدم . هنالك أمكننا إخراج القارب الصغير ووضعنا فيه الخيمة والماء الغذائية واصلنا سيرنا في النهر .

وفي المساء وصلنا إلى سد هو عبارة عن حاجز مقام عبر مجرى النهر القديم لكي يحتفظ بالمياه التي تصفي من القنوات لكي تستعمل في الري . ولم يكن هناك سوى كمية قليلة من المياه على جانبي السد ، ولم يكن من المستطاع المرور في أي الجهتين ولذا نصبنا خيمتنا وأعددنا غدائنا .

الفصل الثاني عشر

زون القديمة

شرعنا في المسير إلى صان في فجر اليوم التالي على ظهور الحمير التي حصلنا عليها من القرية المجاورة . ولقد استغرقت هذه الرحلة ساعتين فقط . وكانت الأرض منخفضة تخللها المستنقعات وتمررها مياه الفيضان . هذه الأرضي المغمورة ب المياه المستنقعات لا تصلح للزراعة ولكنها تنبت الأعشاب الطويلة التي لها بعض الفائدة إذ أنها تكون المراعي الدائمة الوحيدة في مصر . وكانت هذه المنطقة تنبت ورق البردي بكميات كبيرة إلا أنه اختفى كلية بعد ذلك . ونفس القول ينطبق على معاصريه من التماسيح وعجول البحر التي انسحبت من مصر إلى شواطئ النيل الأزرق والأبيض . ولقد كانت صناعة ورق البردي لها أهمية كبيرة في مصر لأمد طويل . فقد بدأت منذ أوائل حكم الفراعنة واستمرت حتى عصر الخلفاء ، وفي عصر اليونان والروماني كانت مصر تصدر هذه السلعة إلى مختلف جهات العالم المتدين وتحصل على إيرادات ضخمة من وراء تصديرها .

وقد خصصت أراضي الدلتا الرطبة - التي كانت تغطي في الماضي بهذه النبات - اليوم لزراعة الأرز والتيلة والقطن . وعلى سبيل الذكر قد اشتققنا كلمة Paper من « بايرس » وكلمة Bible من الكلمة اليونانية « بيلوس » .

وكان نبات البردي يستعمل في أغراض شتى غير الورق الذي كان يكتب عليه الالسماء ، إذ كان يستخدم في حشو ما بين ألواح سفنهم ، ولعمل الشراع

والجبال . كما استخدم المصريون أسلاكاً من ورق البردي لإنشاء جسر يعبر عليه جيش « زركسيز » . وحينما هبت عاصفة وحطمت هذه الأسلام ، إلى جانب الجبال البيضاء التي كان يصنعها الفينيقيون من القنب . قام المصريون بإنشاء جسر آخر من القوارب . وفوق هذه القوارب كانت تمتد الأسلام من شاطئ إلى آخر وهي مسافة طولها $\frac{7}{8}$ ميل ، وكل سلك مصنوع من حبلين من القنب وأربعة حبال من البردي . وفوق هذه الأسلام التي تدعمها القوارب أنشيء الطريق الذي عبر عليه جيش زركسيز والذي كان قوامه ٢٠٠٠٠ رجلاً إلى أوروبا في سبعة أيام . وكان الجزء الأسفل لنبات البردي يستخدم أيضاً كغذاء .

هذا وتحدد موقع مدن الدلتا القديمة بالآكام التي ترتفع على مستوى الأرض في بعض الأحيان بثلاثين أوأربعين قدماً والتي تمتليء بقطع « الشقاقة » الأثرية التي تختلفت عن الأجيال المتابعة التي كانت تسكن هذه الأماكن .

وتمتاز آكام زون أو تانيس الأثرية بارتفاعها وامتدادها الذي يغطي حوالي ميل مربع . ولقد أجريت عدة حفريات واستخرجت آثار عديدة قيمة . وأهم هذه الآثار من الوجهة التاريخية هي آثار الهكسوس أو الملوك الرعاة .

وهذه الأرضي التي أجريت فيها عمليات الحفر في موقع المعبد العظيم محاطة بآكام يبلغ ارتفاعها عشرون أو ثلاثون قدماً .

وكانت مباني المعبد محاطة فيما مضى بسور طوله ٣٤٠٠ قدم وسمكه سبعون قدماً وارتفاعه خمسة وأربعون . وحينما نلقى نظرة علي تلك المنطقة الآن نرى كتلة مختلطة من الحرائب وعدداً كبيراً من قطع المسلاط والأعمدة والتماثيل وقواعد التماثيل وأجزاء من جدران متصدعة . ومعظم هذه الآثار مبني من الحرانيت الأحمر . وهناك بعض الكتل الحجرية السوداء أو ذات اللون القاتم ، كما يوجد إلى جانبها قطع من الحجر الرملي . أما الحجر الجيري الذي بني منه المعبد منذ زمن طويل فقد وجد طريقه إلى القماش التي يتلوكها أهل البلد .

وكلما توجد مدينة محاطة بالأسرار التاريخية القديمة كمدينة زون وكانت عاصمة للوجه البحري إبان عصر الهكسوس أو الملوك الرعاة ، أو على الأصح « الملوك الرحـل ». وبعد طردتهم من مصر عادت مملكة واحدة تحكمها حكومة واحدة . ثم جاء بعد ذلك ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، سيتي وابنه رمسيس الثاني (سيزوستريس) وسيتي منفتح الذي يفترض أنه « الفرعون الذي خرج إبان حكمه الإسرائيليون من مصر » ، واتخذوا من زون إحدى عواصمهم ، إذ كانت عاصمتهم الأخرى في طيبة .

وكانـة هذه المدينة تقع على فرع النيل الشرقي وفي الجزء الشمالي الشرقي من مصر ، غير بعيد من حدودها الشرقية . ونظراً لموقعها أصبحـت مدينة تجارية عظيمة ، كما كانت ملتقى ونقطة بداية الحملات العسكرية العظيمة التي خرجـت من مصر في تلك الأيام واحتـاجـت غرب آسيا ، وكانت نتيجة هذه الغزوـات جزـية سنوية تدفعـ على شـكل ثـروـات ضـخـمة من العـبـيد والـعـاجـ والـذـهـبـ والـفـضـةـ والأـحـجـارـ الـكـرـيـةـ والـحـيـوانـاتـ الـمـسـائـنـةـ .

وكانت مدينة هامة ذات آثار عديدة أيام حكم الهكسوس . وكان لها معبدـها الفـخمـ في عـصـرـ رـمـسيـسـ الثـانـيـ ، كما كانت مـسـلاتـهاـ وكـثـيرـ منـ المـنـشـآـتـ الـأـخـرـىـ الضـخـمـةـ مـصـنـوـعـةـ منـ الجـرـانـيتـ . ولـمـ يـكـنـ يـقـلـ عـدـدـ الـمـسـلـاتـ عـلـىـ جـانـبـيـ الطـرـيقـ الـمـؤـدـيـ إـلـىـ الـمـعـبدـ الـعـظـيمـ عـنـ عـشـرـ مـسـلـاتـ . وقد حـطـمـ عـدـدـ مـنـ هـذـهـ الـمـسـلـاتـ ، كـمـاـ أـنـ هـنـاكـ أـعمـدةـ وـتـمـاثـيلـ مشـوـهـةـ مـلـقاـةـ عـلـىـ الـأـرـضـ فـيـ الـمـكـانـ الـذـيـ أـقـيـمـتـ فـيـ بـادـيـءـ الـأـمـرـ . أما الآثار الأخرى لمـديـنـةـ زـونـ ، وـمـنـ بـيـنـهـ التـمـاثـيلـ الـتـيـ يـشـبـهـ بـعـضـهـاـ تـمـثالـ أـلـيـ الـهـولـ ، وـهـيـ التـمـاثـيلـ الـتـيـ بـقـيـتـ بـحـالـةـ جـيـدةـ ، فـمـنـ الـمـمـكـنـ رـؤـيـتـهاـ فـيـ الـقـاهـرـةـ أـوـ فـيـ مـتـاحـفـ أـورـباـ .

وـحتـىـ فـيـ الـعـصـرـ الـغـابـرـ أـيـامـ الـأـسـرـةـ التـاسـعـةـ عـشـرـةـ ، كـانـتـ زـونـ مـديـنـةـ قـدـيـمةـ بلـغـتـ مـنـ الـعـمـرـ أـكـثـرـ مـنـ أـلـفـيـ عـامـ . ولـقـدـ أـعـيدـ بـنـاءـ مـعـبـدـهـاـ فـيـ عـهـدـ رـمـسيـسـ الثـانـيـ الـذـيـ يـرـجـعـ تـارـيـخـهـ إـلـىـ الـأـسـرـةـ السـادـسـةـ عـلـىـ الـأـقـلـ ، أـيـ مـنـذـ ٣٣٠٠ـ سـنـةـ قـبـلـ

الميلاد . ولابد أن هذه البلدة قد أنشئت على أثر الفيضان الشهير ، كما أن الإشارات العديدة التي وردت في الإنجيل بشأنها تزيد من أهميتها التاريخية بالنسبة للشعوب المسيحية :

« بنيت عبرون قبل زون في مصر بسبع سنوات » « ولقد أتى بأشياء عجيبة أمام ناظرِ آبائهم في أرض مصر ، في أرض زون » ، « كيف خلف أماته في مصر ، وحقق معجزاته في أرض زون » « لقد أصبح أمراء زون جماعة من الحمقى » ، « إذ أن الأمراء كانوا في زون » ، « ولسوف أجعل باثروس أرضاً قفراً ، ولسوف أشعل النار في زون » .

هذه الأرض ، أرض النور والخيرات ، والذي سميت بأرض رمسيس كذلك ، كانت مقرًا لانحصار يوسف وأحفادهم . كانوا قوماً من الرعاة ، ولذا يتحمل أن يكون قد وقع اختيار يوسف على هذه الأرض يعمل فيها نظيرًا للائتمتها مع طريقة حياة قومه ، وأنه كان يمكنه الإقامة فيها دون أن تنشأ عداوة من جانب المصريين الذين كانوا يعتبرون « كل راع رجستا » .

ولقد اختلفت الآراء بالنسبة إلى المكان الذي استقر فيه الإسرائييليون أثناء إقامتهم في مصر . فهو لاء الذين يتمسكون بنظرية مرورهم بالفعل من المكان الذي يعتبر الآن جزءاً من البحر الأحمر يقولون إن هذا المكان في أقصى الجنوب ، بينما يعين آخرون ذلك المكان في أقصى الطرف الشمالي الغربي من البلاد .

وتدل القرائن الأثرية واللغوية على أنه من المحتمل أن يكونوا قد احتلوا الجزء الأكبر من الإقليم الواقع في شمال الدلتا وشرق فرع دمياط من النيل عندما أصبح عددهم كبيراً . ويشمل هذا الإقليم أخصب الأراضي المصرية إنتاجاً ، وكان كافياً لإقامة مليون نسمة ، ولقد أصبح الجزء الأكبر من هذه الأرضي صحراء غطتها المستنقعات بعد أن كانت من أغنى الأرضي زراعة .

وكان يوجد بالمنطقة المجاورة لبحيرة المنزلة أراضي وطبيعة رطبة تنتج الحشائش الرديئة التي تتغذى عليها الماشية . وكانت تحد شرقاً بالصحراء التي تنتج من النباتات في كثير من الأماكن في فصل الشتاء ما يكفي لتغذية عدد محدود من الماعز والأغنام . وكان يبلغ عدد ذرية يعقوب (إلى جانب زوجات أبنائه) وقت نزولهم مصر ستة وستين نفساً . ولقد أقاموا خيامهم في بقعة صغيرة من الأرض الخصبة المجاورة للصحراء مثلهم في ذلك مثل أعراب الوقت الحاضر ، كما أنهم ضموا إليها جزءاً من الأراضي الرطبة المجاورة للبحيرة ، وكان هذا بالنسبة إليهم اختياراً موفقاً ، فهي حديقة فيفاء وكان هذا هو الواقع إذا قورنت هذه الأراضي بالأراضي الصخرة الوعرة التي هاجروا منها . كانت هذه الأرض ملائمة تماماً لحياة الرعاعة ، ولحفظ قطعانهم التي أحضروها معهم ، ولو أنها لم تكن مرغوبة لدى المصريين .

وبلدة زون ، وإن لم تكن في أرض الخيرات ، إلا أنها كانت تقع على حدودها ، كما كانت المدينة الرئيسية في هذا الجزء من الدلتا . أضعف إلى ذلك أن رمسيس الثاني منحها اسمه ، كما يتضح من النقوش الهيروغليفية على الآثار الموجودة في خراطتها ، وهو ذلك الملك الذي يعتبر من أشد حكام الفراعنة صرامة في معاملته للإسرائيликين ، ولا بد أن زون كانت أحد المسارح الرئيسية لهذا العدوان . « ولذا عينوا عليهم رؤساء لكي يثقلوا كواهلهم بالعمل ، ولقد قاموا ببناء مدن عاصمة لفرعون ، بيتمون ورمسيس » .

وقد أقيم الجزء الأكبر من آثار زون خلال حكم رمسيس الثاني ، وكانت الكتل الحجرانية الضخمة المطلوبة للعمل تقطع بالآلات حادة من محاجر أسوان وتنقل لمسافة تبلغ حوالي سبع مائة ميل حيث تتحت وتوضع في أماكنها بواسطة المساجين والعبيد في مصر .

وليس هناك من شك في أن الإسرائيликين كانوا يستخدمون في هذه الأعمال كما كانوا يسخرون في أعمال أخرى أقل من هذه . ولقد خرجن من

البلاد وقد درسوا فن الكتابة بطريقة التحت ، كما كان يزاولها المصريون وهكذا تمكنا من تدوين شرائع موسى على ألواح حجرية . ويمكن رؤية ألواح من نفس النوع وترجع إلى نفس العصر في متحف القاهرة .

وعندما نلقى نظرة على الآثار المتهدمة التي لاتزال في صان أو على بعضها الذي احتفظ بكتابه في متحف القاهرة أو على غيرها من الآثار الفخمة لذلك العصر فإننا نتصور أننا نشاهد عظمة الإنشاء ورشاقة التنفيذ والبناء ، بل ومهارة الصناعات اليدوية لتلك الأجناس السامية نتيجة للجهود التي كان يطلبها منهم رؤساء العمل المعينون من قبل الفراعنة .

كانت زون عاصمة ذلك الجزء من مصر الذي حكمه الهكسوس في عصر سيدنا يوسف ، وربما كانت المدينة مقراً لإقامته في ذلك العصر الذي كان يخدم فيه فرعون ، وإذا كان الأمر كذلك فلابد أنه « أعد مركبته هناك وتوجه بها لمقابلة أبيه إسرائيل » في الطريق الرئيسي المؤدي إلى سوريا ، وعند عودته قدم أباه إلى الملك العظيم .

وفي منطقة زون شاهد فرعون - الذي خرج الإسرائييليون أثناء حكمه - الأعمال المدهشة التي قام بها العبرانيون ، نتيجة للأعمال العدوانية التي قام بها هو وأبوه . وهنا اجتمع الشعب المصطهد متائباً للرحيل ، وهنا أظهر فرعون ضعفه وقد أبدى موافقته على الرحيل ، حينما دخل في نفسه الرعب بتنفيذ أحكام الإله . وحينما بدا أن الخطر قد زال سحب موافقته مرة أخرى . ومن هذا المكان كذلك شرعاً أخيراً في الهروب فأعد فرعون « مركبته المائة » و « أحد يقتفي أثرهم » .

وكل ما يعرف عن مصر أثناء السبعة القرون السابقة على غزو قمبيز عام ٢٢٥ ق.م وتدميره للجزء الأكبر من الآثار إنما هو سوء الطالع والهزيمة وعزل الملوك الضعاف كما هو مدون في تاريخ الغزاة الذين ألحقوا بهم الهزيمة . ما أهمية صان اليوم بعد أن كان لها كل هذا التاريخ الجيد الحافل بجمالها

وعظمتها وأهميتها الاقتصادية والتجارية؟ كان الحد الغربي للمدينة يوماً ما نهراً عظيماً قد غشت مياهه الأشعة، وغصت شواطئه بضوضاء الحياة التجارية، فكنت ترى الكتل الضخمة من الحجارة التي نقلت من سيناء وقد رصها عدد غفير من المساجين والعبيد، بينما كانت الجماهير المحتشدة تصعد إلى السفن وسط هذه الأعداد المصطفة ورهبة الموظفين الملكيين.

كانت مدينة قوية تزدان بعظمة آثارها المنقوشة وتفوق غيرها من المدن ثروة وقوة. ولكنها اليوم ليست سوى قرية صغيرة قدرة بائسة يقيم فيها الصيادون الذين يتعمون إلى نفس الجنس الذي يتنمّى إليه صيادو بحيرة المنزلة. حتى مساكن المشايخ، التي تعتبر أفحى مساكن القرية، ما هي إلا مساكن متواضعة، أما المساكن الأخرى فهي خصاص ذات أرضية غير مفروشة. ولقد ملأ نهرها بالروابض وحلت محله الآن مياه راكدة لتلك القناة التي تستخدم في الري والصرف. وتعرف باسم قناة صالح الحجر. وهي تمر في أراض مغطاة بالمستنقعات ينمو فيها الغاب ونباتات المستنقعات.

وتتمثل تجارة هذه المدينة في قارب صياد يأتي من وقت لآخر، كما حل محل الحياة الصالحة ودوامة الأعمال السابقة فيها سوق يقام في الأسبوع مرتين لبيع الأسماك التي يتم صيدها من القنوات إلى المزارعين في القرى المجاورة.

أما عظمتها في فن العمارة وفخامتها وروعتها فقد دفت تحت أنقاضها، وليس هناك معنى أعمق من تلك العظيمة المتهارة والسلطة الزائلة التي لا نظير لها في أي مكان آخر، كما أنك لا تجد انهاياً تماماً كهذا يترك أثراً كبيراً في النفس. ولا يستطيع إنسان أن يضرب مثلاً كهذا على وقوع القدر المحظوظ الذي ينتظر كل أعمال الإنسان.

عدنا إلى المعسكر بعد الظهيرة، فاعتربنا الدهشة عندما وجدنا القارب الكبير الذي تركناه، على مسافة بضعة أميال من الحجرى القديم في اليوم السابق. وحينما استفسرنا عن الأمر علمنا أن الريح قد استمر يهب من الشمال

حيث رفع منسوب المياه بشكل ساعد البحارة على المسير إلينا . وعندما قمنا بفحص المكان وجدنا أن منسوب المياه أعلى بكثير من الليلة الماضية . وكان الشاطئ بحالة لا يسمح للمياه أن ترد من أعلى .

ولما أصبح كل شيء على أبهة الاستعداد ربط حبل في أعلى الصارى وبدأ اثنان من البحارة ، بدلاً من ثمانية ، برفعان الحبل على أكتافهم سائرين بمحاذاة الشاطئ ساحبين القارب من ورائهم . وعندما اقتربنا من البحيرة تحول المجرى إلى الشرق حيث أتيحت لنا الفرصة أن نستفيد من اتجاه الريح . فصعد الرجال إلى سطح القارب ونشر الشراع ، وعند غروب الشمس كنا فوق مياه البحيرة على نفس الطريق الذي سرنا فيه في اليوم السابق بكل تؤدة وصعوبة . وأصبحت المياه غزيرة في هذا الجزء ، فأقلعنا بمحاذاة القارب الراسي الذي تركناه وراءنا ، ومن ثم وضعنا بحارته فوق ظهره وواصلنا رحلتنا . وفي صباح اليوم التالي ، حوالي الساعة العاشرة ، شاهدنا ذلك الشاطئ الرملي المنخفض الذي يقع بالقرب من مدينة دمياط ، والذي ركبنا منه ، واستمر الريح يهب من جهة الشمال وكنا نظنه أول الأمر نسيم البحر . وكان نسيماً لا يساعد على السير ، ولكنه لم يصل إلى قوة العاصفة . ومع هذا أصبحت المياه ضعيلة بينما كانت مياه البحيرة غزيرة في الليلة التي أبحرنا فيها . ولم نكن نبعد عن مكان وصولنا سوى أربعة أميال . وبعد جهد شاق وبعد السحب والرفع بنفس الطريقة التي اتبعناها على الجانب الآخر من البحيرة لم نصل إلى مقصدنا إلا في وقت متأخر بعد الظهر .

الفصل الثالث عشر

طريق الخروج

لقد قدمنا وصفاً دقيقاً عن سياحتنا حول بحيرة المنزلة لنبين تأثير الريح على مسافة كبيرة من المستنقعات القليلة الغور التي تحيط بمدخلها وجوانبها ، وذلك نظراً لما قد تقدمه لنا من عون في توضيح قصة التوراة الخاصة بمرور بنى إسرائيل من البحر الأحمر .

إن هبوب الرياح القوية المستمرة بعيداً عن شاطئ بحر أو بحيرة يرفع دائمًا من منسوب المياه بمحازاة الشاطئ ، ولكن انحسار وعودة المياه التي على طول الشاطئ إلى درجة تقرب من تلك التي نشاهدها (فيما عدا حالة المد) هي ظاهرة غير معروفة في أي مكان آخر . والسبب في ذلك هو قلة غور المياه وجود الأعشاب التي تمنع السحب . ويبدو أن هذه الظاهرة لها تأثير قوى على النظرية التي قال بها بروجش بك (بروجش باشا فيما بعد) أخيراً بشأن نقطة الرحيل والطريق الذي سلكه الإسرائييليون أثناء الخروج .

ولقد حددت هذه النظرية البقعة التي رحلوا منها في زون أو صان التي وردت في النقوش باسم رمسيس - وهي التي يرجح أنها رمسيس التي ذكرت في التوراة . ومن ثم اتجه الطريق شرقاً غير بعيد من بحيرة المنزلة إلى سكوت ليتم وبقعة تقع بـاي حاجيروت في مواجهة أفاريس (بـعل زيفون) ما بين ميجدول والبحر الأبيض المتوسط .

وقبيل حفر قناة السويس كانت ببحيرة المنزلة تتد شرقاً أكثر مما هي عليه في الوقت الحاضر ، فقد كانت في أول الأمر تتد إلى البلوز ، أي أبعد من حدتها الشرقي الحالي بخمسة عشر ميلاً ، وعلى ما يحتمل في ذراع ضيق بمحاذاة الشاطئ إلى داخل بحيرة سيربونيس .

ولقد شقت القناة في الشاطئ الرملي على البحر الأبيض في الموقع الذي توجد فيه بورسعيد الآن ، ثم تستمر جهة الجنوب ثمانية وعشرين ميلاً في بحيرة المنزلة ومستنقعاتها . هذا الجزء من البحيرة يبلغ عمق المياه فيه من قدم إلى ثلاثة أقدام .

ولقد حفرت القناة بواسطة الكراكات حيث تكونت شواطئ ضخمة من الأتربة على الجانبين قطعت وصول مياه النيل التي ترد إلى البحيرة من قنوات الري . ونتيجة لذلك أصبحت المنطقة الواقعة شرق القناة صحراء تتخللها في بعض الموضع مستنقعات لا يمكن عبورها . كما أنه لا يوجد سكان بالمرة في منطقة شرق القناة ، أما موقع المدن القديمة والأماكن المحسنة فلا تحدد أمكنتها إلا عن طريق الخرائط الموجودة .

وكانت أفاريس (بعل زيفون) تقع شرق بلوز وعلى بعد خمسة وعشرين ميلاً شرق القناة . أما باى - حاجيروت فكانت أبعد من ذلك بمسافة قصيرة ، وتقع على مقربة من الطرف الغربي لبحيرة سيربونيس . كانت هذه البحيرة تتد في الأزمان الغابرة حوالي ٥٠ ميلاً شرق هذه النقطة حيث كان يفصلها عن البحر الأبيض برزخ رملي ضيق لا يزيد اتساعه على بضع مئات من الياردات . وتبلغ المسافة بين بحيرة السيربونيس وبين فرع دمياط حوالي سبعين ميلاً حيث يوجد برزخ رملي ضيق مماثل للبرزخ السابق كان يفصل بين البحر من جهة وبين البحيرات والمستنقعات من جهة أخرى حتى وقت إنشاء القناة .

ويوجد غرب بورسعيد برزخ رملي مماثل بين البحر الأبيض وبحيرة المنزلة .

وكان الطريق الرئيسي العظيم أو طريق القوافل من مصر إلى سوريا يأتي من الجنوب الغربي مارًا بِجِدُول وبعل - زيفون ، ويعبر هذه المستنقعات بالقرب من باى - حاجيروت عند الطرف الغربي من سيربونيس ، ثم يستمر شرقاً على شريط الأرض الذي يقع بين البحر وهذه البحيرة مارًا بِجِبَل كاسيوس الذي يبعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً باى - حاجيروت . وكانت كل هذه البحيرات والمستنقعات الضحلة تستمد مياهها من النيل ، كما كانت مليئة بالحشائش والغاب وغيرهما من النباتات المائية . هذا ولم يحاول بروجش باشا أن يثبت في مذكراته الأخيرة مكان الكارثة التي حاقت بجيشه فرعون على وجه الدقة ولكنه أشار إلى أنها قد حدثت - إذا كانت نظريته سليمة - على مقربة من أقصى الطرف الغربي من بحيرة سيربونيس أو في مكان ما على هذه البحيرة . وكانت باى - حاجيروت « ملتقى الخلجان » - أو كما تدل الكلمة في معناها « مدخل الخلجان » - تقع على الطريق إلى سوريا ، كما كانت تقع على مقربة من نقطة عبور المستنقعات من وإلى شاطئ البحر . وكان القدماء يعتبرون هذا المعبر وبحيرة سيربونيس في غاية الخطورة ، وإذا صدق قولهم ، فإن جيوشاً يرمي بها قد ضلت وقدت في مستنقعاتها الغادر .

وكان مصب الفرع الثاني للنيل يقع إلى الغرب قليلاً من مدينة بورسعيد الحالية ، كما كان يقع الفرع البلوزى عند مدينة بلوز . ويقول سترا豹 « إن بين المصبين الثانيي والبلوزى توجد مستنقعات ممتدة كبيرة يقع في وسطها كثير من القرى . ولقد كانت بلوز نفسها محاطة بكثير من المستنقعات يطلق عليها البعض اسم باراثرا Barathra أي الحفر المائية والمستنقعات . وتقع على بعد أكثر من عشرين قضيباً (والقضيب يزيد قليلاً على الميلين) من البحر . ويبلغ محيط دائرة هذه المنطقة عشرين قضيباً . ولقد اشتقت اسمها من الوحل الذي يغمر المستنقعات . في هذه المنطقة يصعب الدخول إلى مصر ، أي من الجانب الشرقي المتوجه ناحية بلاد الفينيقيين وجنوب فلسطين ، وعلى الجانب الذي تقع عليه بلاد العرب المتاخمة لها ، تلك البلاد التي يمر خلالها الطريق إلى مصر .

ويقول ديودورس في معرض الحديث عن الحملة التي قام بها أرتاكسيرس أحسن على مصر سنة ٣٤٩ قبل الميلاد .

عندما وصل إلى البحيرة العظيمة (سيربوينس) ، نتيجة لجهله بهذه الأماكن .

فقد جزءاً من جيشه في المستنقعات التي تعرف باسم باراثرا . ولكن حيث إننا قد تحدثنا في الكتاب الأول عن طبيعة هذه البحيرة والأشياء الغريبة التي تحدث هناك فلا حاجة بنا إلى تكرار هذه الأشياء . وبعد أن عبر هذه الخلجان وصل إلى بلوز عند مصب الفرع الأول للنيل حيث يصب في البحر .

وهكذا وصف ديودورس لهذه البحيرة :

« إن المناطق الواقعة شرق مصر محدودة جزئياً بالفرع البلوزي ، ومحاطة جزئياً بالصحراء والمستنقعات التي تسمى باراثرا . وتوجد بحيرة تقع بين سوريا ومصر وهي ضيقة للغاية ولكنها عميقة لأقصى درجة إلى حد يثير الدهشة ويبلغ طولها مائتي فرلونج^(١) ويطلق عليها اسم سربون (سربونيس) . وإذا ما اقترب شخص منها يجهل طبيعتها فإنه يصل دون رجعة ، ذلك لأن القناة ضيقة للغاية ، ومحاطة بأكوام ضخمة من الرمال التي تلقيها الرياح الجنوبية - التي تهب باستمرار - في البحيرة فتغطى المياه وتكتسبها لون الأرض الجافة ، حتى إنه ليس من المستطاع تمييزها عنها ، ولذا فالكثيرون من كانوا يجهلون طبيعة هذا المكان وضلوا الطريق قد هلكوا جميعاً ، ذلك أنه عندما يطأ الإنسان الرمل يهبط ويهوى من تحته شيئاً فشيئاً ، وكأي خداع شرير ، يغري ويخدع هؤلاء الذين يطأونه حتى يفوت الوقت . وحينما يرون الخطر الذي يحتمل أن يقعوا فيه يشرعون في مساعدة بعضهم البعض ، ولكن دون أي أمل في العودة أو تجنب الخطر ، وذلك لأنه عند هبوطهم في الخليج يفقدون المقدرة

(١) الفرلونج يساوى ١/١ ميل أو ٢٣٠ يارد .

على السباحة حيث توقف الأوحال كل حركة من حركات الجسم ، كما لا تكون لديهم المقدرة على الخوض إلى خارج المستنقعات بسبب عدم وجود شيء ثابت يرکون إليه لهذا الغرض . كما أن اختلاط المياه بالرمال يغير من طبيعة كليهما حتى إنه ليتعسر التجديف أو المرور بالقوارب فوقها . وعند وصولهم إلى هذا المضيق دون أي احتمال للمساعدة من أحد يغوصون مع الرمال إلى قاع الخليج عند حافة المستنقع ، ويطلق على هذا المكان المناسب لطبيعته اسم باراثروم .

هذا الوصف لاشك مبالغ فيه ولكنه يعطينا مع غيره من كتابات المؤرخين القدماء فكرة عن حالة البحيرة والمستنقعات والرمال اللينة في هذا الطريق الممتد ما بين مصر وسوريا . ويشير ميلتون Milton إلى هذا المكان الخطير في الآيات التالية من ملحمة « الفردوس المفقود » :

خليج عميق يشبه ذلك المستنقع السريوني

ما بين دمياط وجبل كاسيوس العتيق

حيث غاصت جيوش برمتها

ومن النادر جدًا أن يكون قد مر أوروبي من هذا الطريق في الأزمنة الأخيرة . ولقد قام مسْتَر جريفيل ج. تشستر Greville Chester برحلة في شهر فبراير سنة ١٨٨٠ تحت إشراف (صندوق اكتشاف فلسطين) . ويقول في تقريره بشأن بحيرة سيربوينس :

« لقد حاولت مارًا أن أقترب من البحيرة لأغمس يدي في مياهها ولكن عبثًا حاولت . ذلك أنه عندما كنت أقترب من الرمل الغادر وأصبح على مسافة ثلاثة أو أربع ياردات سرعان ما يهوي تحت ثقلِي فأضطر إلى الانسحاب خوفًا من أن يتلعني الوحل من تحتي . »

وفي مخطوطات التوراة القديمة كانت الكلمات التي ترجمت بالبحر

الأحمر هي (يم سوف) وتعنى (بحر السوف) والكلمة العبرية (سوف) كما يقول اللغويون ، تعنى « الأعشاب والبوص وسمار الحصر ونبات البردى » وهي تشير إلى منطقة صالحة للملاحة مغطاة بالنباتات المائية مثل بحيرة المنزلة ، وكانت تطلق على البحيرات والمستنقعات الواقعة في شمال شرق مصر ، كما يقول بروجش باشا ، وهو حجة في اللغات المصرية القديمة ولغات الأقطار المجاورة . وقد صنعت تابوت موسى من السوف ، أي من السمار والبردى .

وكان البحر الأحمر يعرف في وقت خروج بنى إسرائيل باسم (يوما كوت) و (يوما سكوت) ولكنه لم يعرف باسم يم سوف في أي حقبة من الحقب . وفي الإنجليل الألماني الحديث يعرف في الشرح الهامشى باسم « بحر الأعشاب » .

وكان المرحوم الدكتور فانديك المدرس بالكلية الأمريكية بسوريا من أعظم الباحثين العرب وأبرزهم . وتستخدم ترجمته للإنجيل في جميع البعثات البروتستانتية في البلاد التي تتكلّم العربية . وقد أخبر مؤلف هذا الكتاب خلال حديث له في هذا الشأن أنه تتبع النسخة القديمة فوجد أن (يم سوف) قد ترجمت إلى العربية بكلمات معناها (بحر الأعشاب) أو (بحر البوص) رغم أن مسألة مرور الإسرائيلىين بأى طريق آخر سوى طريق البحر الأحمر لم تكن قد أثيرت في ذلك الوقت .

وقد أصبح من المعروف جيداً أنه في الموضع الذي تذكر فيها الكلمة البحر بمفردها في القصة أو الحديث فإنها تعنى البحر الأبيض المتوسط . وإذا أخذنا من التوراة كلمة (البحر الأحمر) لن يكون هناك شيء تقوم عليه النظرية القائلة بمرور بنى إسرائيل من هذا البحر المعروف بهذا الاسم ، وتصير لنا الحرية في تحديد أي طريق تدل عليه الحقائق . هذا والبحر الأحمر يتميز بميائمه الصافية العميقه دون أي نباتات عشبية أو بوص أو سمار .

ولذا افترضنا أن بروجش محق في تحديده للمواقع التي ذكرت في التوراة

فإن المصريين يكونون قد لحقوا ببني إسرائيل حينما كانوا معسكررين على مقربة من باى - حاجيروت، (الدخل إلى الخلجان) «ما بين ميجدول والبحر» (الأيض).

ولقد كان هذا المكان يبعد قليلاً عن غرب الطرف الغربي لبحيرة سيربينيس وعلى مقربة من «الأماكن الخطرة» أي الخلجان أو الحفر التي ذكرها الجغرافيون القدماء . ولقد كان من العسير الاقتراب منها حتى في هذه الأيام التي انقطعت عنها مياه النيل عدة سنين ، إذ أن من الصعب الاقتراب من آثار بلوز القديمة .

وتعتبر تجارة مстер تشستر في زيارة هذا المكان عملاً ببطولياً نادراً قلما يحاول القيام به إنسان ، كما أن وصفه المستنقمات المترامية الواقعة في الشرق على مقربة من البحيرة تؤكد إلى حد ما الأقوال التي وردت في كتابات ديدورس الذي يقول : «إن سطح المستنقع الذي يمتد لمسافة أميال كان مغطى برمائ جارفة كانت تغوص فيها الأقدام كما تغوص في كعكة .. لقد غصت حتى ركبتي تقربياً في الوحل » .

وكانت البحيرات الضحلة ، كما ينت سابقاً ، ممتدة على طول الساحل وكان هناك ذراع أو فرع من هذه المياه الضحلة يمتد شرقاً من البلوز إلى المنطقة المسماة « بالخلجان » وهي الموضع الوحيد الذي يمكن العبور عليه من الداخل إلى شاطئ البحر . ولما كان فرعون يعلم بالموضع الذي لجأ إليه عبيده الفارون فقد قال : « لقد وقعوا في أحبولة الأرض » ذلك أن الصحراء كانت في الجانب الذي كان يقترب الجيش منه ، وكان البحر أو المستنقع في الجانب الآخر .

وحينما شعر بنو إسرائيل بأن الجيش يتبعهم « تملّكهم الفزع » ، و « تضرعوا إلى الله » ثم « مد موسى يده فوق البحر ، وجعل الله البحر ينحسر بواسطة ريح شرقية قوية هبت طوال الليل وأحالـت البحر أرضـاً يابـسة تشقـ المياه » .

. ولو أن رياحاً شرقية قوية هبت طوال الليل وكانت قد حركت مياه ذلك الذراع الضيق جهة الغرب وكانت قد خلفت أرضاً يابسة فقط إذ كانت المياه ضحلة بطبيتها في هذا المكان . ولم يكن هناك مكان في البرزخ فيما عدا المكان الذي يقع بمحاذاة شاطيء البحر الأبيض لا تستطيع رياح شرقية أن تحدث فيه هذا الأثر . ولم يكن من الممكن في أي من الأماكن التي ذكرت بعد ذلك ، فيما يختص باكتشاف الأماكن التي يحتمل مرور الإسرائليين منها - وأحدها يقع بالقرب من شالوف جنوب البحيرة المرة الكبرى والآخر يقع بين هذه البحيرة وبحيرة التمساح - لم يكن من الممكن أن تحدث رياح شرقية مثل هذه النتيجة ، إذ إنه في كلتا الحالتين كانت تهب مباشرة عبر جزء ضيق من المياه .

ولم يكن ثمة سبب في استخدام عبارة : « جعل البحر ينسحب بواسطة ريح شرقية قوية » ، إذ لم يكن لهذا الريح أثر فعال في إحداث هذه النتيجة ، كما لم يكن له أي أثر في المياه الشديدة الغور في ذراع البحر الأحمر الذي يمتد إلى السويس حيث يحدد مفاسرو التوراة ، حتى وقت قريب ، مكان مرور بني إسرائيل .

أما العبارات ، « وانشققت المياه » ، و « وكانت المياه جداً لهم على يمينهم وعلى يسارهم » ، ومثل هذه العبارات يمكن تفسيرها بسهولة . ولو أنه لم يكن تفسيرها لما أصبح لها أهمية كبيرة في أذهان هؤلاء العلماء الذين يدركون طبيعة اللغات الشرقية المليغة بالمجاز ، كما يدركون الطريقة التي يعبر بها الناس عن أنفسهم .

حينما جرفت الرياح الشرقية تلك المياه من الفرع الشرقي لتلك المساحة المائية الكبيرة عند لوز التي تعتبر الآن كذراع لبحيرة المنزلة ، أمكن لبني إسرائيل ، الذين لم يكن لديهم عربات ينتقلون بها ، أن يختاروا المكان المناسب ويرروا منه سالمين ، فقد كانت المياه منشقة في موقع كانت فيها ضحلة

لدرجة أنها تركت مكاناً يابساً يمكن العبور منه .

« وكانت المياه جداراً لهم » تعنى ببساطة أنها كانت وسيلة دفاع لهم لا سداً مرتقاً في وجههم . ويسبب هذه المياه ، بل بسبب قياعها الموجلة ذات الرمال اللينة ذات اليمين وذات الشمال ، لم يستطع المصريون أن يقتربوا من كلا الجانبين . وهكذا كانت هذه المياه بالنسبة للإسرائيлиين جداراً يدافع عنهم .

وفي الصباح الباكر توقفت الرياح عن الهبوب وبدأت المياه في الرجوع .

ولقد تعقب المصريون المزودون بقوة قوامها ستمائة عربة ثقيلة صغيرة بني إسرائيل ليلاً حيث ضلوا الطريق في الظلام ووقعوا في خطر الأوحال والمستنقعات الفادرة الواقعة في « الخلجان » ، وقد نزع الله عجلات عرباتهم فأخذلوا يجرونها في صعوبة ومشقة ، ثم عاد البحر إلى قوته ، أي إلى العمق الطبيعي للمياه ، فغلب المصريون على أمرهم وقضى عليهم كجيش منظم .

ووصف نزع العجلات وصعوبة جر هذه الأدوات الحربية الثقيلة إنما ينطبق على جيش قد تلطخ بالأوحال أكثر مما ينطبق على جيش قد غالب على أمره بواسطة كميات هائلة من المياه تساقط عليه مما تجمعت في كلا الجانبين حتى وقت نزول الكارثة . كما تصوره دائمًا القصص والمواعظ الدينية القديمة .

وقبل وصول المصريين كان الإسرائيлиون قد عبروا مرحلة الساحل الرملي ما بين البحر والبحيرة عند الطرف الشرقي حيث كان هناك حصن في الأرمنة القديمة . وحينما واجهتهم هذه العقبة أو حينما شاء ألا يروا عن طريق فلسطين كان لابد لهم أن يرتدوا إلى الجنوب ويعبروا البحيرة في بعض أماكنها الضحلة . في هذه الحالة كان لابد من حدوث نفس النتائج التي تخضبت عن هبوب الرياح الشرقية على مكان رحيلهم .

وكانت بحيرة سيربونيس في بدايتها تمثلت منذ عهد بعيد من مياه فرعى

النيل البلوزى والثانى يحيى حيث كانت بطبيعتها بحيرة جافة لا تحتوى إلا على بعض المستنقعات . وفي حوالي عام ١٨٧٦ توجه بعض صيادى بحيرة المنزلة إلى تلك المنطقة الصحراوية الموحشة والخالية تماماً من السكان وحفروا بها قناة من البحر الأبيض إلى مقر البحيرة القديمة عند طرفها الشرقي بقصد استعمالها بحيرة للصيد . كان هذا المكان في الأزمان الغابرة منفذًا للبحر كما هو الآن بالنسبة لبحيرة المنزلة . أما بحيرة سيربونيس فقد عادت إلى مجاريها بعد أن جفت زمناً طويلاً ، وهي بحيرة يبلغ طولها حوالي أربعين ميلاً ، كما يبلغ عرضها في بعض الأماكن حوالي خمسة أميال . وهي ضحلة للغاية كغيرها من البحيرات الواقعة على الشاطئ .

ولقد أرسل تشنستر إلى الخارج للحصول على حقائق تثبت خطأ نظرية بروجش باشا التي أذهلت بعض مدارس اللاهوت القدية وجلت من عدد كبير من المواقع الدينية التي كانت تعطى صوراً حية عن ابتلاء مياه البحر الأحمر العميقه الغور لجيش فرعون ، جعلت من هذه المواقع قصصاً لا قيمة لها . وعلى كل فإن الحقائق التي أوردها تؤيد رأي بروجش فيما يختص بالطريق العام الذي سلكه الإسرائيليون في الخروج .

لم يتتظر بنو إسرائيل إعادة تنظيم القوات المصرية المغلوبة :

« وهكذا أتى موسى بنى إسرائيل من البحر الأحمر « يم سوف » وخرجوا إلى صحراء شور^(١) وساروا ثلاثة أيام في القفار ولم يعشروا على ماء ». وشور هذه تعنى جدار بينما إيتام هي عبارة عن قلعة . ولذا فإن صحراء شور أو إيتام هي صحراء الجدار أو القلعة . ويقول بروجش إن هذه الصحراء تقع في الشمال الشرقي من مصر حيث تصيل بحيرة سيربونيس بالطرف الشرقي من بحيرة المنزلة ، ولكن لم يعرف أي جزء من الصحراء الممتدة إلى الشرق أو المجاورة للبحر الأحمر بهذه الأسماء . كما يقول إن الغرض من كتابته هو « أن يلفت نظر الناس إلى النتائج التاريخية التي ترتب على سجلات الآثار والكتابات الموجودة على ورق البردى والتي تتعلق بهذا الموضوع » .

ولقد وجهت انتقادات عديدة إلى بحث بروجش الخاص بطريق الخروج . ومن النتائج التي ترتب على فحص هذا الموضوع ومناقشته أن كل الأشخاص المختصين الذين درسوا هذا الموضوع على ضوء الاكتشافات الحديثة قد أقلعوا تماماً عن النظرية القديمة القائلة بمرور بنى إسرائيل خلال أي بقعة من البقاع التي تكون البحر الأحمر الآن .

وي يكن الاعتراض على أي طريق من الطرق المقترحة . وعلى كل فإن أي طريق من الطرق الأخرى مؤيد كذلك بأسانيد مقنعة كتلك التي أوردها هذا الباحث المخلص المنصف . ولا يوجد ما يجزم بأن طريق الخروج المذكور في التوراة هو طريق بيتم ، وهي المدينة التي قام بينائها بنو إسرائيل لرمسيس .

فهذه المدينة تقع في أقصى الجنوب بحيث لا تتناسب الطريق المزعوم . ولقد عثر على كلمة بي - توم أو بي - أتوم . وتوم أو أتوم كان إلهًا ، وهو إله الشمس الذي كان يعبد في هليوبوليس وفي كل الجزء الواقع شرق الدلتا .

(١) أو كما ذكر في السفر الثالث والثلاثين صحراء إيتام .

وكلمة بي معناها المسكين أو البيت ، ولذا فإن بي - توم وبي - أتوم أو بيتم تعنى بيت توم . وحيثما كان يعبد توم كان هناك بيت توم ، فالعبارة كانت تستخدم بنفس الطريقة التي كان يستخدمها الناس في البلاد المسيحية عند قولهم « بيت الرب » ، وقد تكون المدينة التي تتحدث عنها هي مدينة بيتم التي ذكرت في الإنجيل ، أو قد تكون مكاناً كان يعبد فيه توم أي مبني أو مكان أقيم للرب .

هذا وإنني لم أقم بسرد الحقائق الرئيسية التي ذكرها بروجش باشا ، كما لم أقصد إبداء أي رأي فيما يتعلق بطريق الخروج ، وإنما أشرت فقط إلى الحقائق الضرورية لإظهار علاقة هذا الموضوع بزيارتني لبحيرة المزلة . ولقد قمت بذلك نظراً لأنني لم أثر على أي إشارة في مختلف الكتابات لأنحسار ذلك الخط الساحلي العجيب وعن تلك الأذرع الجافة لتلك البحيرات الضحلة الملبدة بالأعشاب بسبب هبوب رياح قوية بصفة مستمرة . ومن الواضح أن الموضوع لم يجذب انتباه بروجش باشا فقط . ولكن ما من شك في أن الحقائق التي قام بسردها تعتبر ذات أثر هام فيما يتعلق بمسألة طريق الخروج ، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار القصة الواردة في الإنجيل .

وكل الطرق الأخرى تحتاج إلى الافتراض بأن خليج السويس في ذلك الوقت كان يمتد شمال نقطة انتهاء الحالية . ولسنا نملك الدليل على هذا ، وليس هناك من أساس معقول يمكن أن نبني عليه هذا الافتراض . ولو فرض وجود مثل هذا الامتداد لكان امتداداً مباشراً نحو الشمال ، وفي هذه الحالة أي مفعول كانت تقوم به الرياح الشرقية في إظهار تلك النتائج الواردة في القصة المقدسة ؟ وأي سبب يمكن إبداؤه في تفسير هذه الكلمات : « لقد جعل الرب البحر يرتد بسبب رياح شرقية قوية طيلة تلك الليلة » ؟ زد على ذلك أن هذا الذراع من البحر لا بد أنه كان مالحا لainت الأعشاب لضرورة لتكوين بحر من الأعشاب « يم سوف » .

هذا ولا يمكن اعتبار مسألة طريق المتروج محلولة . وعلى كل فإن الاعتراض الوحيد على الطريق الشمالي هو الاعتراض المبني على افتراض اكتشاف موقع بيتم . أما الادعاءات الأخرى الخاصة بالطرق الأخرى ، فليست مبنية على افتراضات بعيدة الاحتمال فحسب بل هي محل اعتراضات أخرى لا يمكن الإجابة عليها .

ولقد طلب من المستر وليام هـ . فاندريلت William H. Vanderbilt أن يرأس الاكتتاب ولكنه تطوع بمحض إرادته أن يقوم بكلفة النفقات الالزمة للقيام بهذا العمل - وبعد تبادل بعض الرسائل مع المستر ديكسون عن المبلغ المطلوب لذلك قبل المستر « فاندريلت » كتابة العقد مع المستر ستينز لهذا الغرض . ولم تمض ثمانية أيام على نشر التصريح الخاطئ حتى أرسل المستر ستينز الخطاب التالي إلى وزارة الخارجية بواشنطن .

نيويورك في ١٥ أكتوبر سنة ١٨٧٧ .

إلى السيد المحترم ممـ . افارتس وزير الخارجية .

سيدي ..

أتشرف بأن أرفق طيه نسختين من الخطاب الموجهاليوم إلى سمو خديوي مصر بشأن موضوع المسلة التي تشرفت بلفت نظركم إليها أمس .

أرجو أن تتملكم بإرسال نسخة منه إلى قنصل الولايات المتحدة بالإسكندرية مصحوبة بالتعليمات الالزمة لانتظار مثل المستر ديكسون المذكور في الخطاب حاملاً معه نسخة من الخطاب ، وعند وصول هذا المندوب أن يصحبه إلى حضرة الخديوى أو يتبع أي طريقة أخرى مناسبة لكي يشهد على صحة الخطاب وعلى صحة حامله .

المخلص

توقيع هنرى جـ. ستينز

وعند تسلم هذا الخطاب وجه إلى مستر افارتس وزير الخارجية الرسالة التالية ونسخة من خطاب مستر ستينز ، ونسخة أخرى من الخطاب الذي اقترح تقاديمه إلى سمو الخديوى .

وزارة الخارجية ..

واشنطن في ١٩ أكتوبر ١٨٧٧ ..

رقم ٨٥

السيد المحترم أ. أ. فارمن .. الخ

سيدي ..

تلقت الوزارة خطاباً من المستر هنري . ج. ستبنز مدير مصلحة المتنزهات العامة لمدينة نيويورك فيما يختص بال المسلة التي ترغب حكومة الخديوي في إهدائها لمدينة نيويورك بالشروط المناسبة لنقلها وإقامتها في أحد الميادين العامة . ولقد ضمن المستر ستبنز في خطابه نسخة من خطاب سوف يقدم الأصل إلى الخديوي عن طريق مثل معتمد من المستر ديكسون المهندس الموكول إليه عملية نقل المسلة المعروفة ب المسلة كليوباترا إلى إنجلترا ، وهو يطلب الإذن من هذه الحكومة في تقديم هذا الخطاب .

وهذه نسخة من خطاب مستر ستبنز ومحفوبياته . وبالنظر إلى تحقيق هذه الخدمة العامة فإنك مكلف باستخدام كل الوسائل الممكنة لتحقيق الرغبة التي أهداكها مستر ستبنز في خطابه .

خادمكم المطيع

امضاء م. افارتس

المرفقات : خطاب مستر ستبنز إلى مستر افارتس المؤرخ ١٥ أكتوبر سنة ١٨٧٧ مع مرافقاته .

نسخة من خطاب المستر ستبنز المقترح إرساله إلى الخديوي

إلى سمو الخديوي ..

إن السرور العظيم الذي عم العالم المتدين إزاء خبر انتقال المسلة المعروفة

باسم « مسلة كلوباترا » إلى الجلالة تحت رعاية حكومة سموكم قد أثار في الولايات المتحدة الأمريكية وعلى الأخص لدى أهالي مدينة نيويورك شغفًا عميقاً زاد منه التلميح لشعب مدينة نيويورك عن طريق مستر ديكسون الذي يقطن في لندن بأن سموكم سوف تنتظرون بعين العطف إذ قدم طلب خاص ب المسلة أخرى معرباً عن سمو إرادتكم النبيلة وعواطفكم الصادقة بإهداء مدينة نيويورك المسلة المناظرة لها القائمة الآن بالإسكندرية لإقامةها في أحد الميادين العامة العظيمة . وأملاً في أن مثل هذا الطلب سوف يقابل من سموكم قبولاً حسناً فإن أحد كبار أعيان نيويورك قد أبدى رغبته في تمويل هذا المشروع بكلفة اللوازم الضرورية له فيما يتعلق بنقل هذه المسلة عبر المحيط الأطلسي ووضعها في الموقع اللائق بها . وذلك لتبقى شاهداً ينطق بلسان روح حكم الحرة المستبرة التي أشرفتم بها على أعمال المملكة الجليلة القديمة التي استؤمنتم عليها بما أوتيتم من سطوة ونية صادقة نحو أحدث الدول العظيمة في العالم .

ولقد طلب مني هذا المواطن الكريم الذي يسعى للمصلحة العامة والذي أتحدى عنه بصفتي مديرًا لإدارة المتزهات العامة بمدينة نيويورك لعدة سنين ، طلب مني أن أتقدم بهذا الطلب الرسمي عن طريق معالي وزير خارجية الولايات المتحدة ، وذلك لكي أبلغ سموكم أنه إذا كان يسركم أن تعتمد نقل المسلة وإقامتها هنا فإنني على استعداد لأن أوكل مستر جون ديكسون في الحال لكي يباشر العمل . ولأنى لعلى يقين بأن سموكم ستسمح لي بأن أقول لكم إن إنجاز مثل هذا العمل سيحييه كل فرد من أفراد نيويورك ، بل كل شعب الولايات المتحدة ، كدليل جديد على الحكم والكياسة التي تبديها سموكم في رعاية هذا المشروع القوى الذي ربط البحر الأبيض والبحار الهندية ، وكرابطة جديدة تثير الاهتمام وتربط بين جمهورية الولايات المتحدة بحكومة سموكم وبالشعب المصرى وملكته .

ولي الشرف في أن أكون خادم سموكم المطبع ..

توقيع : هنرى ج. ستبنز

نيويورك في ١٥ أكتوبر سنة ١٨٧٧

هذا ولقد أذهلتني رسالة الوزير . فلقد بلغنى ما نشر في نيويورك خاصة بال المسلة ولكنني كنت أدرك أن المسألة جديدة تماماً في مصر . ولذا أرسلت في الحال الرسالة الآتية إلى المستر افارتس ، كما أرسلت إليه في نفس الوقت خطاباً خاصاً ووضحت فيه اقتراحاتي الخاصة بالوسائل الواجب اتباعها في هذا الموضوع :

رقم ١٩٦

وكالة الولايات المتحدة وقنصليتها العامة ..

القاهرة في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٧٧

إلى السيد المحترم وليم م. افارتس وزير الخارجية

واشنطن د. س.

سيدي ..

أتشرف بأن أحيطكم علماً بأنني قد تسلمت رسالتكم رقم ٨٥ التي تتضمن نسخة من خطاب المستر هنري ستبنز مدير إدارة المنتزهات العامة لمدينة نيويورك المرسلة إلى سمو الخديوى وكذلك نسخة من الخطاب المرسل من نفس الشخص إليكم بشأن المسلة المقامة في الإسكندرية والمرغوب نقلها من الإسكندرية إلى نيويورك .

وعند وصول وكيل المستر ديكسون لن أعد أن استخدم ، حسب تعليماتكم ، كل الوسائل الممكنة لتنفيذ رغبات مستر ستبنز .

وعلى كل فإنني أخشى أن تكون هناك معارضة جديدة إزاء نقل هذه المسلة من الإسكندرية ولو أن الخديوى يرغب شخصياً في إرضاء رغبات أهالى مدينة نيويورك إذ أنه لا يفكر في رفض هذه المatura لهم . هذا وقد كانت المسلة التي نقلها الإنجليز ملقاة منذ سنين ومغطاة بالرماد ، بل كانت عديمة القيمة

لدى أهل مدينة الإسكندرية . أما المسلة القائمة الآن والأثر المعروف باسم « نصب يومي » فهما الآثار الباقيان في المدينة ولهمما أهمية كبرى لدى السائحين .

ولذا كان من العسير الحصول على مسلة الإسكندرية فمن الأفضل أن تقدم طلبنا خاصًا بأحد الآثار الموجودة بالأقصر أو الكرنك .

أما المسلة الشبيهة بهذه المسلة والتي نقلها الفرنسيون عام ١٨٣٣ وأقاموها في باريس في ميدان الكونكورد فكانت تقع على بعد خطوات قليلة من شاطئ النيل بمدينة الأقصر . كما توجد مسلتان آخرتان عند الكرنك ، على بعد ميلين جنوبى الأقصر وعلى بعد خمسين خطوة من شاطئ النيل . وأمر نقل إحدى هاتين المسلتين قد يكون عملياً . وفي حالة الفشل في الحصول على المسلة القائمة بالإسكندرية فلا أقل من أن يأخذ المهتمون بالأمر في نيويورك في اعتبارهم هذه المسألة .

ولي الشرف في أن أكون خادمكم المطيع ..

توقيع : أ. أ. فارمن

وفي نفس الوقت كان المستر ديكسون قد أحاط علمًا بالخطوات التي ستستخدمها الأطراف المعنية بنيويورك والعمل الذي ستقوم به وزارة الخارجية . ولقد أدهشتني الكيفية التي استخدم بها اسمه .

فلقد ذكر اسمه مباشرة في خطاب مستر ستبنز الذي اقترح تقديمه إلى الخديوى على أنه لمح بأن سموه قد يقبل إهداء مسلة إلى مدينة نيويورك . هذا ولم يخاطب المستر ديكسون الخديوى البتة في هذا الموضوع كما ذكرنا سابقًا . و كان ملماً بالأمور الدبلوماسية وآداب السلوك بحيث يدرك أنه لا يليق به كمواطن إنجليزى له صفة شخصية فحسب أن يطلب من الخديوى صنيعًا بالنيابة عن مواطنى أي دولة ، حتى ولو كانت دولته .

ولو كان لدى الخديوى أي نية لإصداء صنيع إلى شعب الولايات المتحدة لما لمح بهذه الحقيقة إلى أحد رعاياه دولة أخرى بدلاً من التلميح بها إلى الممثل المعتمد لهذه الدولة لدى حكومته . ولقد اتخد المستر ديكسون إجراءات عاجلة لإبلاغ الأطراف المعنية في نيويورك بخطفهم ، وخشية أن أقوم بتنفيذ التعليمات التي تلقيتها من وزارة الخارجية كتب إلى الخطاب التالي :

1 - لورانس بولتن ه شارع كانون

لندن أ. س.

١٦ نوفمبر ١٨٧٧

إلى جناب القنصل العام للولايات المتحدة

مصر ..

سيدى ..

أعتقد أنه قد وافتكم رسالة من السيد الوزير مستر افارتس يطلب منكم فيها التأكد من حكومة سمو الخديوى عما إذا كانت مستعدة للموافقة على نقل إحدى المسلاط إلى الولايات المتحدة ، وتقوم بإهدائها لهذا الغرض .

كل هذا لا غبار عليه ولكن اسمى قد اقتنى بهذه المسألة كما لو كنت متعهداً لتوريد المسلاط لدى سموه !! وإنى لأعتقد أن هذه المسألة قد بنيت على ملاحظة عابرة بأنه إذا كانت الولايات المتحدة ترغب في إحدى المسلاط فإننى أظن أنه من الممكن الحصول على واحدة . وقد تعهد مستر فاندربرلت بالقيام بكافة المصارييف .

ولذلك لترى أن رسالة مناسبة من وزير خارجية الولايات المتحدة قد توفي بالغرض المطلوب ، إلا أن اسمى أو اسم أي شخص آخر لا ينبغي أن يذكر .

ولقد كتبت إلى الولايات المتحدة موضعًا اقتراحاتي ، ولسوف تصلك رسالة معدلة . وفي هذه الأثناء لو استطعت الحصول على إحدى المسلطات كان بها ، ولكنني أتوسل إليك ألا تذكر اسمى على أننى أنا الذي اقترح هذه الفكرة . لسوف يسرنى أن أتعاون معكم في المشروع الجديد بيد أن سمو الخديوى قد عاملنى بكل احترام لدرجة أنه لا يمكن معها أن أسمح لنفسى ، مهما كان الشمن ، أن أجاذف بالإساءة إليه ، وهو الأمر الذى أخشى أن تحدثه الرسالة المشار إليها .

ولى الشرف أن أكون خادمكم المطيع ..

توقيع : جون ديكسون

ولقد تسلمت خطاب مستر ديكسون . الذي أرسلت نسخة منه إلى المستر افارتس . عقب إرسال خطابي إلى المستر افارتس في ٢٤ نوفمبر . كما انتظرت أن تصلكى تعليمات أخرى ولكننى لم أتلق أية تعليمات أو اتصال بهذا الموضوع من أي مصدر .

وعند تسلم رسالة المستر ديكسون المرسلة إلى السلطات المختصة في نيويورك صُرِفَ النظر عن مسألة المسلة برمتها . ولقد باد صمت عميق بعد نشر هذا الموضوع في الصحف في أكتوبر سنة ١٨٧٧ ، فلم يشر إليه بعد ذلك في أي صحيفة من صحف نيويورك لمدة سنة ونصف سنة ، وحتى بعثت برسائل في مايو سنة ١٨٧٩ إلى وزارة الخارجية أبلغها انتهاء المفاوضات التي أجريتها شخصياً بنجاح . ولم يصل المستر ديكسون أو وكيله أو نسخة من خطاب مستر ستبنز .

ولقد فحصت أثناء رحلتى مع الجنرال جرانت بالوجه القبلى تلك المسلة القائمة بالأقصر ومسلة الكرنك فيما يتعلق بإمكان نقلهما . وكان قرارى هو أن المسلة الوحيدة التي يمكننا الحصول عليها من مصر إنما هي المسلة الكائنة بمدينة

الأقصر . ولم يكن ليفكر أحد في نقل المسلة الموجودة بهليوبوليس التي أقيمت قبل مسلة كلويباترا بنحو ألف عام والقائمة في مكانها الأصلي . وهي أثر قائم يدل على موقع تلك المدينة الشهيرة في الأزمان السالفة ، مدينة زون .

هذا وأكبر المسلتين بالكرنك هي أكبر مسلة معروفة في الواقع وتقع في المكان الذي وضعتها فيها حتسبسot منذ ثلاثة آلاف وأربعين سنة ، وتقع المسلة الصغرى على مقربة منها ، وهي مسلة تحتمس الأول الذي نقلت مو咪اؤه إلى متحف القاهرة . وهذه المسلة قد كسر أحد أركانها ، كما أنها كانت مشقوقة بشكل لا يسمح بنقلها دون تضررها لضرر آخر . أما المسلات الأخرى في مصر ، فيما عدا تلك التي تهشمـت ، فهي مسلة الإسكندرية ومسلة الأقصر .

ولقد أخبرت الجنرال جرانت عن الرسالة الخاصة بالحصول على إحدى المسلات وطلبت منه إبداء رأيه في موضوع محاولة الحصول على إحداها ، ذلك لأن أهالي نيويورك قد ضربوا صفحـاً عن التفكير فيها ، فأجابني بأنه لا يرى مانعاً من أن أجـد للحصول على إحدى هذه المسلات إذا كان هذا ممكـناً .

وفي ٤ مارس تحدد ميعاد مقابلتي مع الخديوي في قصر عابدين لعرض المسألة عليه . وكنت أعرف أن طلبي لن يرفض بطريق مباشرـ، فإن أهل الشرق وعلى الأخص الطبقات المستبررة فيه على جانب كبير من الأدب وليس لديهم الطريقة الانجليـسوـكسونـية العامة في المعاملات . ونادرـاً ما يكون رفضـهم بـاتـاً في أي طلب أو مـسـأـلة . وتقضـى الجـامـلة في معـالـمة مـثـلـ دـوـلـ الـأـجـنبـيـةـ أنـ يؤـخـذـ طـلـبـهـ فيـ الـاعـتـبارـ وـأـلاـ يـتـلقـىـ إـجـابـةـ سـرـيـعةـ ماـ لمـ تـكـنـ إـجـابـةـ مـلـاثـمـةـ .

ولقد أحـطـتـ سـمـوـهـ عـلـمـاـ بـأنـ الشـعـبـ فـيـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ يـرـغـبـ فـيـ الحـصـولـ عـلـىـ إـحـدـىـ الـمـسـلـاتـ الـقـدـيمـةـ مـنـ مـصـرـ وـأـنـ رـجـلـاـ ثـرـيـاـ مـنـ نـيـوـيـورـكـ عـلـىـ استـعـدـادـ تـامـ لـلـقـيـامـ بـكـافـةـ مـصـارـيفـ نـقـلـهـاـ وـإـقـامـتـهـاـ فـيـ تـلـكـ الـمـدـيـنـةـ .

ثم ذكرت مسلة باريس ومسلة لندن ورغبة الجمهور الملحة في نقل إحدى هاتين المسلطتين إلى عاصمة ديارهم . ولقد أوضحت إبان المناقشة أن أمتنا كانت صغيرة وأن ما تقوم به من الأعمال حديث العهد ، ولذا فإن أثراً واحداً من الآثار المصرية سوف يكون له قيمة أكبر في الولايات المتحدة عنها في إنجلترا وفرنسا . ولفت النظر إلى مسلة الإسكندرية على أنها أنساب المسلطات للشحن ، ثم أضفت قائلاً إن إذا كان سموه سيطوق عنقنا ب مثل هذه الهدية فإنه ليس لنا أن نقبل أية مسلة يقع اختيار سموه عليها .

ولقد وجدت أن المسألة حديثة العهد بالنسبة للخدبوى إذ اعتبرته الدهشة عند سماعه الاقتراح لأول مرة . وعلى كل فقد قال ، بعد توجيهه عدة أسئلة وإبداء عدة ملاحظات ، إنه يسره كثيراً أن يحقق رغباتي وأن يعمل ما في طاقته لارضاء شعب الولايات المتحدة . وبدا لي أن المسألة قد دخلت في طورها الجدى . أما فيما يختص بمسألة الإسكندرية فلم يفكر في ذكرها وذلك بسبب معارضته أهالى المدينة في إزالتها إلى أي مكان آخر ، فلم أذكرها بعد ذلك في حضرة سموه ولو أنها كانت هي المسلة التي أعطيت لنا أخيراً . وعندما استأذنت الخدوى في الانصراف قال لي إنه من الممكن لفت نظره إلى الموضوع في وقت آخر مقبل .

وأرسلت في الحال رسالة إلى المستر افارتس أبلغه بالموضوع وتاريخ هذه المقابلة . ولقد جرت محادثات أخرى مع الخدوى بشأن هذه المسألة دون أن نتوصل إلى نتائج محددة . وبعد ذلك بفترة وجيزة كنت حاضراً وليمة عشاء لدى الخدوى بقصر عابدين ، وفي هذه المناسبة صدرت منه أول إشارة بالموافقة على المسلة . وكان عدد الحاضرين يبلغ ما بين ثلاثين وأربعين شخصاً من بينهم المسيو فريديناند دلسبس . وبعد تناول العشاء أخذ المدعوون يتجادلون أطراف الحديث في جماعات . وكان الخدوى الذي كان يتنقل من مكانه على الدوام ييدو عليه أنه في حالة نفسية أحسن مما كان ييدو عليه عادة في أيام الضائقة المالية المخزنة . فاقترب مني ودعاني إلى الجلوس ، وكانت أول كلامات يوجهها

إلى : حستا ، يامستير فرمان ، أو ترغب في الحصول على مسلة . فأجبت بأنه يسرنا كثيرا الحصول على واحدة .

ثم أخذنا نتجاذب أطراف الحديث في الموضوع لبعض دقائق دون أن يهدى سموه أقل إشارة تفصح عن نواياه ، وجاء شخص لينضم إلينا فنهضنا ثم افترقنا بعد ذلك بقليل .

وبعد ذلك بيضع دقائق كنت أتحدث مع الميسيو دلسبس . وكان هذا قبيل إقدام الخديوي على تكوين لجنة تحقيق لمعرفة صافي الإيرادات الدولة بقصد تحديد سعر الفوائد التي يمكن دفعها للدين العمومي . وكان هناك نقص ذريع في محصول الشتاء في حيز كبير من الوجه القبلي ناشئاً عن انخفاض النيل الذي لم يسبق له نظير في السنة الماضية . وكان هذا هو السبب في استحالة دفع الفوائد بسعر ٧ على دين يقرب من مائة مليون جنيه مصرى ، وكان هذا هو رأى الخديوي . ولذا دعا سموه الميسيو دلسبس لرئاسة اللجنة . ولقد انضم إلينا الخديوي أثناء محادثنا . والتفت الميسيو دلسبس نحوه وكرر عليه ما كنت قد ذكرته عن أفضل الطرق لتحديد قيمة الإيرادات ، إلا أن سموه لم يسمع أو بعبارة أخرى لم يرغب في أن يناقش هذا الموضوع ، فقطع المناقشة بقوله « إن المستر فارمن يرغب في الحصول على مسلة » . فأجاب الميسيو دلسبس فوراً . وكان محدثاً لبقاً مودباً ، حسن الطبع ، سريع الإجابة - « إن ذلك سيكون شيئاً رائعاً بالنسبة لشعب الولايات المتحدة » . وبعد برهة من التردد أضاف الخديوي قائلاً : « إني لا أرى مانعاً من إعطائهم واحدة وأن ذلك لا يضرنا في شيء ، ولوسوف يكون شيئاً عظيم القيمة لديهم » . ولقد قضى الميسيو دلسبس في مصر مدة طويلة حتى أصبح يعد نفسه واحداً من أهلها . ولذا عندما كان يتكلم عن الشعون-المصرية كان يقول « نحن » و « شئوننا » . ثم قال الخديوي ببساطة : « إننى أفكرا في المسألة » ثم استدار لكي يتحدث مع شخص آخر كان يقترب منا .

وحيينما قمت بزيارته لتناول العشاء على مائته بعد يومين أو ثلاثة ، ذكرت مسألة المسلة مرة ثانية ، فقال سموه إنه قد عزم على أن ينحنا واحدة ، ولكن ليست مسلة الإسكندرية ، ثم أضاف قائلاً إنه سيعمل اللازم للحصول على المعلومات الضرورية ، ثم يخبرني بعد ذلك بقرار . هنالك دعا سكرتيره الخاص فوراً وكلفه بكتابه مذكرة إلى بروجش بك الذي أصبح فيما بعد بروجش باشا يطلب فيها قائمة ببيان جميع المسلاط الباقية في مصر مع إبداء الرأي في أي المسلاط يمكن الاستغناء عنها . وحيينذا شكرت سموه بحرارة . وحيينما كنت على وشك الانصراف قال لي إنه في خلال وقت قصير سيحصل بي سكرتيره لكي يخبرنى أي المسلاط سوف يمكننا الحصول عليها .

ولم تمض أيام قلائل عقب هذه المقابلة حتى أقيم حفل استقبال وحفلة راقصة في القصر . وتقابلت مصادفة مع بروجش باشا ، وبعد أن تبادلنا بعض الكلمات قال لي في لهجة عاتبة : « إنني أعلم أنكم تحاولون الحصول على مسلة نقلها إلى نيويورك » . فأجبت : « ولم لا ، إن هناك واحدة في باريس ، واحدة في لندن ، ويرغب شعب نيويورك أن يكون لديه واحدة كذلك » فأجابني : « إنك ستخلق شعوراً عدائياً ضخماً ، ذلك أن كل علماء أوروبا سوف يعارضون هذا العمل . ولقد طلب مني الخديوى أن أوافيه بعلومات عن المسلاط الباقية في مصر وأن أبدى رأيي في المسلة التي يمكن الاستغناء عنها . ولقد أرسلت بالفعل وصفاً شاملًا للمسلاط القائمة في مصر ، ولكننى لن أعين واحدة منها يمكن أخذها خارج القطر ، إذ إننى أعارض فكرة نقل أي واحدة منها .

ولما كنت لا أرغب في الدخول في مناقشة بشأن هذا الموضوع فقد أجبت بطريقة ودية إن الأمر ليس بذات أهمية كبيرة ، وإن ثمة عدداً كبيراً من المسلاط في مصر ، وإن نقل إحداها لن يزيد أو ينقص من الأمر شيئاً . فأكيد لي إننى سوف ألاقي كثيراً من العنف والعداء . وكان هذا هو بدء المعارضة التي تسببت في تأخير الوفاء بالهدية التي استقر رأي الخديوى عليها ، عاماً كاملاً .

ولو كانت هذه المعارضة صادرة من بعض المصريين ذوى المراكز الذين يحق لهم أن يبدوا رأيهم لكنه قد توقفت في الحال عن بذل مجهودات أخرى في هذا الشأن بدافع الذوق والمحاملة . ولكن هذه المعارضة كانت صادرة من الأوروبيين المقيمين في مصر بصفة مؤقتة والذين مهما كانت آراؤهم ومهما كانت استنتاجاتهم مبنية على أساس سليمة لم يكن لهم أي حق في حماية مصر ضد الولايات المتحدة ، ولذا لم يكن لآرائهم أي اعتبار . الواقع أنه كان يعتبر عملاً خاصاً بيننا وبين مصر . ومادامت لم توجد هناك معارضة من جانب مصرى حقيقي فلم أشعر بأى التزام نحو هذه المعارضة ولم أتورع عن استخدام كافة الوسائل الممكنة للتغلب عليها .

وقد أحاطنى القنصل العام الإنجليزى علمًا بأن المسلة القائمة بالأقصر ، وهي المسلة التي كنت أتعشم في الحصول عليها ، تخص شعبه هو ، ثم أكد أن هذه المسلة قد أعطيت لهم في نفس الوقت الذي أعطيت فيه المسلة القائمة بياريس إلى فرنسا ، وأعلن أنه يطالب بها وأنه يتعرض على نقلها بواسطة أي شخص آخر . وقد اعترف القنصل العام أنه لم يعرف أنه ينبغي عليهم أن يأخذوها ، ولكنه أصر على حقه في أخذها . وقد قال لى الخديوى فيما بعد إن مسلة الأقصر قد منحت بالفعل إلى الإنجليز في نفس الوقت الذي منحت فيه زميلتها إلى فرنسا ، فلم يأخذوها من مكانها ، ولكنهم يعترضون الآن على أن يأخذها أي إنسان آخر . ونظراً لهذه الظروف لم يكن من الملائم التدخل في هذا الأمر . وكان هذا تعقيداً جديداً وغير متظر بالنسبة لهذه المسألة . ذلك أن مسلة الأقصر قد منحت إلى الإنجليز بواسطة محمد على منذ خمسين عاماً ، وذلك لأنه لم يكن يود خلق أي شعور بالاستياء بسبب هديته لفرنسا . ولم تقبل هذه الملحقة في ذلك الوقت ، ولم تكن هناك نية في أخذها . وفي هذه الأثناء قبلت مسلة أخرى ونقلت إلى لندن . وكان من الواضح أن الإنجليز طالبوا بهذه المسلة . مسلة الأقصر . لكي يمنعوا ببساطة نقلها إلى الولايات المتحدة .

الفصل الخامس عشر

إهاد المسألة

مضت أسابيع دون أن تصلنا مذكرة من الخديوي ، على أنني علمت في هذه الأثناء من سكرتيره الخاص بأنه لم تعين مسلة بعد لإهدائها إلى الولايات المتحدة ، والسبب في ذلك هو أن بروجش بك لم يجد بعد رأيه فيما يتعلق بالمسألة التي يمكن الاستغناء عنها . وعرفت أنه قد قامت بعض الاعترافات الخاصة بالنسبة لكل مسلة ، وذلك لأن النفوذ الأوروبي قد تكتل ضدى ، وأن مطالبة الإنجليز بمسلة الأقصر لم يكن إلا نتيجة لهذا التكتل .

وذات مرة في ربيع ١٨٧٨ ذكر الخديوي هذه المسألة ، وتحدث عن مطالبة الإنجليز بمسلة الأقصر ، كما قال إنه لم يحدد بعد مسلة لنا . وإنه سيحددها في ميعاد ليس بعيد . إلا أنه اعترضت مصر صعوبات وأزمات في ذلك الوقت ، فقد حدثت مضائقات ومتاعب للخديوي بطرق شتى . ذلك أن المسيو دلسبيس كان يعلم أنه لا يستطيع أن ينصف مصر ، وأن يسر خاطر أصحاب البنوك بباريس في آن واحد ، ولذا سافر إلى فرنسا دون أن يباشر واجباته بشأن تكوين لجنة التحقيق . وعلى كل نظمت اللجنة ، وتكونت من أشخاص اختيروا على أساس أصحاب مصالح الأسهم ، وسارت أعمال اللجنة بسرعة كبيرة .

وكان من بين الإجراءات التي طالبت اللجنة باتخاذها طرد عدد كبير من موظفي الحكومة ، ومن أول الذين يستغنى عنهم هم الأميركيون الذين يعملون في الخدمة العسكرية للخديوي . ودون سابق إنذار أبلغوا بأن مدة خدمتهم قد

انتهت . وكانت لهم مبالغ كبيرة متأخرة لدى الحكومة .

وطالب البعض بالتعويض ، مما أدى إلى تعقيد علاقاتهم بالحكومة وجعل الوصول إلى تسوية لحساباتهم أمراً عسيراً . ولقد دعيت على الأثر لمساعدة مواطنى حيث وجدت نفسي فجأة أمام نزاع غير سار . ونظراً لسوء حال الديار المصرية والأزمات التي كانت تحيط بالخديوى نفسه لم يكن لديه وقت للتفكير في المسألة ، كما أنسى لم أطق أن أذكر شيئاً عنها . ولذا غادرت مصر في أوائل يولىة ، دون أن أذكر شيئاً عن الموضوع ، في إجازة بعد أن استأذنت في زيارة الولايات المتحدة .

وفي أوائل شهر أكتوبر ، قبل أن أسافر من نيويورك عائداً إلى مصر ببضعة أيام ، تقابلت مع المستر افارتس حيث قمت بإبلاغه عن نتيجة المفاوضات الخاصة بالحصول على مسلة . فقال أنه يسره كثيراً إذا أمكننى الحصول على واحدة وأنه على استعداد لعمل ما في وسعه لمساعدتى .

وعند وصولى إلى مصر في شهر نوفمبر وجدت تغييراً كبيراً في الشعون الحكومية . فقد شكلت وزارة جديدة كانوا يطلقون عليها اسم الوزارة الإنجليزية الفرنسية برئاسة نوبار باشا . وقد نظمت على أساس نظرية « المسئولية » . فالوزارة مسئولة طالما أنها تباشر سلطتها أمام الحكومة التي تتبعها ، ولكن المفروض أنها مسئولة أمام شخص أو مجموعة أشخاص . وكان المفروض أن تعمل هذه الوزارة مستقلة عن الخديوى ، كما تعمل الوزارة الإنجليزية مستقلة عن الملكة ، إلا أنه يوجد في إنجلترا برمان يسأل أمامه الوزراء ، على الأقل إلى الحد الذي يجب أن يحصلوا على تأييده أو يقدموا استقالتهم .

أما في مصر فلم يكن ثمة برمان ، بل كانت كلتا السلطتين التشريعية والتنفيذية مركزيتين في شخص الخديوى ، إلا أنه كان بمصر مجلس الأعيان ، يعقد في بعض الأحيان ليقوم بالتصويت على المسائل الخاصة بفرض ضرائب

غير عادلة . وقد عقد هذا المجلس في ديسمبر سنة ١٨٨٧ أو في بناء الذي يليه إلا أن الوزارة كانت تتجاهله ورفضت أن تقدم له تقريراً خاصاً بسير الأمور في وزارة المالية . وكان الوزراء ، حسب نظرتهم هذه ، مستقلين ولا يخضعون لأي قيد . وكما ظهر بعد ذلك لم يكن في مقدور أحد أن ينحيهم عن أماكنهم . وهذا ما ثبت على الأقل .

هذه كانت الوزارة التي كان لابد أن تأتي عن طريق المسألة إذا كان الخديوي فاقد السلطة كما قيل .

ولقد وصل مریت بك الذي كان يقضي الصيف في معرض باريس ، وكانت أعلم أنه يعارض إهداء المسألة بشدة . وكان في ذلك الوقت رئيساً لمصلحة الآثار وكان في وسع معارضته أن تعوق وتؤخر المفاوضات .

وعند وصولي إلى مصر قمت بالزيارة المعتادة للخديوي ثم اجتمعت به عدة مرات بعد ذلك دون أن أذكر شيئاً عن المسألة لعدة أسابيع . وأخيراً أظهر رغبته في إتمام منح الهدية ، ولم يتردد في أن يلمح إلى بما كنت أعرفه تمام المعرفة ، وهو أن موضوع المسألة إنما كان في يد الوزراء .

ورغم أن ثقتي بدوام الأمور على حالها ضعيفة إلا أنني انتهزت الفرصة في أن أعرض موضوع المسألة على معالي نوبار باشا الذي لم أره حتى وقت متاخر من وصولي إلى مصر . ولم يكن يحظى بعطف الخديوي وأقام في أوروبا منذ سنة ١٨٧٥ ، ثم استدعى ليرأس الوزارة القائمة بناء على طلب بعض الدول الأوروبية .

ووجدت أنه قد فهم المسألة سلفاً ، لا عن طريق الخديوي ، بل عن طريق هؤلاء الذين كانوا يعارضون في الهدية . وعلى كل فقد أخذ فكرة طيبة عن الموضوع ثم قال إذا كان الخديوي قد عبر عن رغبته في إعطائنا إحدى المسالات فإنه يعتبر أن الموضوع منته وأن ليس هناك ما يدعو إلى معارضة الوزراء لهذا

الأمر . ثم وعدنى أن يقابل الخديوى ويحيطه علمًا بما تم في هذا الشأن ثم ينفذ رغبات سموه . وعلى كل فقد أضاف قائلاً إنه إذا كان الموضوع جديداً وفيه مجال للمناقشة فإنه سوف يعارض في الأمر .

وقد أبلغنى بعد ذلك بمنتهى وجيزة أنه قابل الخديوى وأن سموه أخبره أنه أعطى وعداً بمسلة وأنه يرغب في الوفاء بوعده . ثم أضاف سعادته قوله أنه سيتخذ الوسائل الضرورية لتحقيق هذا الغرض .

وفي هذا الوقت قدم مريت بك مذكرة بالموضوع إلى مجلس الوزراء أظهر فيها معارضته شديدة فيما يتعلق بنقل آية مسلة من مصر وأشار بصفة خاصة إلى قداسة المسلاط الموجودة بالكرنك وهليوبوليس . وكانت هذه المذكرة وتصريحات مريت هي التي حددت فيما بعد أي المسلاط ينبغي أن تعطى لنا . ولاشك في أنه ظن أنه سوف تكون هناك معارضة كافية من مصادر أخرى بحيث تمنع نقل مسلة الإسكندرية ، وأن الإنجليز سوف يتولون أمر مسلتهم القائمة بالأقصر ، وأنه إذا استطاع أن يمنع اختيار أي واحدة من المسلاط الموجودة في الكرنك أو في هليوبوليس فإن المشروع سيتحقق تماماً^(١) .

هذا ولقد أبلغنى نوبار باشا في شهر فبراير أن الإنجليز قد طالبوا بمسلة الأقصر وأن مريت بك قد عارض في إزالة كل من مسلتي الكرنك وهليوبوليس وأنه - أي نوبار باشا - صمم على أن يعطينا المسلاط الموجودة في الإسكندرية وهي « مسلة كليوباترا » . ولقد أعد في نفس الوقت مذكرة سلمها إلى كاتبه لارسالها إلى وزير الأشغال العمومية الذي كان يمثل فرنسا في الوزارة يطلب منه القيام بكلفة الإجراءات اللازمة لتسليمها إلينا . ولست أعلم إذا ما كانت هذه الرسالة قد أرسلت أو لا ، ذلك أنه عقب ذلك بيومنين أو ثلاثة توالى

(١) قبل أن يعين مريت في الحكومة المصرية أخذ إلى باريس أجمل مجموعة من الآثار التي نقلت من مصر ، وقد حصل على أكبر جزء وأكثره قيمة من هذه الآثار عن طريق الضغط الدبلوماسي الشديد والتوالى وبالاحتفاظ بسرية الآثار التي عثر عليها أثناء المفاوضات ، وما رالت الجموعة التي يبلغ عددها حوالي سبعة آلاف قطعة موجودة في متحف اللوفر .

الأحداث التي ألت ب مصر في اضطراب شديد حمل نوبار باشا على الاستقالة .

ولقد فصل عدد كبير من الضباط والجنود المصريين دون تسلم باقي استحقاقاتهم المتأخرة ، وكانت توافينا في ذلك الوقت تفاصيل الماجاعة التي حدثت في الوجه القبلي إبان شهرى نوفمبر وديسمبر السابقين ، وكان الشعور العام قد اشتدت عداوته نحو ما عرف باسم الوزارة الأوروبية . ولقد بلغ هذا الاضطراب أشدّه في ١٨ فبراير عندما فاجأ الضباط المفصلون المستر ريفرز ولسن ونوبار باشا في أحد الشوارع وذلك عندما غادرا وزاراتهما متوجهين إلى منزليهما لتناول وجبة الغداء . ولقد طالب هؤلاء الضباط بمرتباتهم واستحقاقاتهم المتأخرة . وعندما رفضت مطالبهم عادوا بالوزيرين إلى وزارة المالية واحتجزوهما هناك حتى وصلت الأخبار إلى الخديوي الذي جاء بنفسه لنجدتهم . ولم يعد النظام إلا بكل صعوبة وبعد أن أطلقت عدة أعيرة نارية .

استقال نوبار باشا في صباح اليوم التالي . أما باقي الوزراء سواء منهم الإنجليزي أو الفرنسي فقد بقوا على حالهم مستثنين على حكماتهم ، وبعد ثلاثة أيام من المفاوضات الدبلوماسية أعيد تنظيم الوزارة ولكن بشرط أن يتولى الوزيران مقابلان الوزارة في الواقع . ولكن هذه الوزارة المعاد تنظيمها لم يقدر لها أن تدوم طويلاً . وكانت عجلات الخطر تدور كثيراً في مصر ، وعادة ما تقع الأحداث على غير انتظار . وإن مصر لتسمى بلد المفاجآت ، وهناك مثل شرقي معناه أن ما تحسبه مؤقتاً قد يدوم طويلاً .

وكان المفروض أن يدوم عهد الحكومة الجديدة . وقد تبدلت البرقيات بكثرة واستخدمت الكياسة الدبلوماسية لدولتين من أعظم دول أوروبا . وقد وضعـتـ الشروطـ وأـمـلـيـتـ بـغـرـضـ أـنـ تـضـمـنـ ثـبـيـتـ أـقـدـامـ الـوزـراءـ .

وحينما تم العمل ، كان المفروض أن هناك على الأقل نظاماً واحداً ثابتاً في مصر ، فقد كان المفروض أن تصبح الوزارة المعاد تشكيلها من الأوضاع الثابتة

في الأداة الحكومية . ولكن المثل العربي كان صحيحاً إذ أن هذا البناء الذي قام العمل فيه على مفاوضات شاقة استغرقت ثلاثين يوماً لم يقُل أكثر من ثمانية عشر يوماً . وفي السابع من أبريل حدث ما عرف باسم « قلب » الخديوي إسماعيل باشا .

ووجد إسماعيل باشا أنه من الضرور بعد ذلك من أجل سلامة البلاد أن تظل مقايد الحكم بيده ، ويكون وزارة كل أعضائها من المصريين ، فطلب أن يشكل شريف باشا وزارة جديدة يكون هو على رأسها . فحازت الوزارة الثقة وأصبح الخديوي رئيس الحكومة الفعلي والإسمى ، مما جعل الدوائر الدبلوماسية والسياسية في أوروبا يسودها حالة من الانفعال ، وكان أشدّها استياء من الخديوي دوائر باريس حيث كانت تطالب بخلع الخديوي عن العرش . وكانت معرفتي لشريف باشا تعود إلى وقت وصولي إلى مصر ، وكانت جميع الأطراف تشهد له بأنه رجل شريف ، على جانب من الأمانة والعدل ، لا يعرف المؤامرات أو المضاربات . وقد تلقى تعليماً أوروبياً لا يأس به . وبدأ حياته العملية ضابطاً في الجيش حتى وصل إلى رتبة أميرالاي ، ثم تقلب بعد ذلك في الوظائف الحكومية في مختلف وزارات الحكومة ، ولما كان يمتاز بالصراحة والإخلاص ، كان يتمتع بشقة الناس أكثر من أي شخص آخر كان في خدمة الخديوي .

ولم يمض وقت طويل حتى عادت الأمور إلى مجاريها في كل ما يختص بالحكومة المصرية حيث لم تبق أية صعوبات عدا ما كان يجري في باريس ولندن ضد الخديوي بما كان لهما من نفوذ واقتدار . أما في مصر فكان يمتلك الناس إحساس الكراهة ضد الحكم الأجنبي . وكان من نتائج هذا الإحساس أن تكون حزب في ذلك الوقت يسمى « الحزب الوطني » شعاره « مصر للمصريين » ، وكان هذا الحزب صغيراً في عدده ومت未成كاً في عمله إلى حد كبير ، ولكن شعور العداوة الذي يسود أفراده كان يتفق مع الشعور الوطني عامه .

في ذلك الوقت كانت بعض الحكومات الأوروبية تطلب الاشتراك في الحكومة المصرية وينافس بعضها البعض في التفوق في التنفيذ والسلطان . أما حكومة الولايات المتحدة فلم يكن لها أغراض سياسية تسعى وراء تنفيذها في هذا القطر ، فلم تدع لنفسها الحق في التدخل ، ونظرًا لهذه الظروف فإن المصريين كان يسودهم شعور طيب نحو حكومتنا وشعبنا .

وكان شريف باشا على علم بالمفاوضات الخاصة بالمسألة ، ولو أن الوزارة الجديدة قد شكلت على أساس نظرية المسؤولية كتلك التي حلّت محلها إلا أنه كان لدى من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد بأن سعادته لن يضع أية عراقيل في طريق تنفيذ الرغبات التي أبدتها الخديوي في هذا الشأن .

وبعد مضي شهرين على ما يسمى باسم « الانقلاب » هدأت الحالة السياسية وبدا لنا أن الدول الأوروبية قد أذاعت للنظام الجديد . وعندما سنتحت أول فرصة اقتربت على شريف باشا إنتهاء مهمة المسألة ، فقال لي إنه سينتهز أول فرصة للتتحدث مع الخديوي ، وأنه لابد من تنفيذ رغباته أيًّا كانت . وبعد ذلك بأيام قلائل عندما كنت في زيارته لغرض آخر أخبرني بأن موضوع المسألة قد تقرر واستقر فيه الأمر على نحو تحقيق مصلحتنا ، ولكنه يرغب في التحدث مع الخديوي بشأنها مرة أخرى . ثم أضاف أنه سوف يرى الخديوي ذلك مساء ولو أتي توجّهت في الصباح حوالي الساعة السادسة عشرة صباحًا لسوف يعطيني ردًا حاسماً . وفي اليوم التالي توجهت إلى الوزارة في الساعة المحددة حيث بلغت أن شريف باشا قد توجه إلى القصر مقابلة الخديوي .

وفي طريق عودتي إلى القنصلية توقفت لزيارة الباشا الذي كان يشغل وظيفة حامل الأختام وله غرف خاصة في أحد أجنبية قصر الخديوي . ولقد وجدت هناك اثنين من الأمراء هما أخي توفيق باشا . هنا لك دار الحديث بيننا وقدمت القهوة حسب العادة المتبعة في الشرق . وفي ظرف دقائق قليلة دخل شريف باشا . وبعد تبادل التحية تكلم قليلاً مع حامل الختم بلغته الخاصة .

وعندما شرع في الخروج دعاني لمرافقته بعد أن ودع الآخرين . ثم خرجنا معاً .

وعندما صافحت شريف باشا باليد لاحظت أنه كان متأثراً للغاية وارتبت في أنه ربما وصلت أخبار مثيرة من رئاسة الوزارة بياريس ولندن . وب مجرد وصولنا إلى القاعة بدأ سعادته الحديث معى قائلاً إنه يأسف لعدم وجوده بالوزارة لأنه تأخر لدى الخديوى بسبب أعمال هامة .

وكنا قد مررنا خلال قاعة طويلة ونزلنا السلم وكنا على وشك الانصراف من الباب الذي تنتظر عنده عرباتنا حينما قال الباشا :

« أظنك تفضل مسلة الإسكندرية ، أليس كذلك ؟ » .

فأجبت قائلاً إن هذه المسلة تقع في مكان يسهل معه نقلها عن المسالات الأخرى .

فأجاب الباشا : « حسناً ، لقد قررنا أن نعطيها لكم ... » .

وبعد أن شكرته قلت له إنه ينبغي أن يكون لدى شيء مكتوب يؤكّد منح المسلة لكي أقوم بإرساله إلى وزير الخارجية في واشنطن . وأضفت قوله إنه ولو أن الحديث كان يدور حول نقلها هدية إلى الولايات المتحدة ، كان من المفهوم أنها ستقام في نيويورك ، ولذا فكرت أنه من الأفضل أن تمنع لهذه المدينة مباشرة ، وإلا فلسوف يكون هناك بعض التعقيدات التي تحتاج إصدار قرار من الكونجرس .

فأجاب شريف باشا : « سنمنحكم المسلة ، وافعلوا بها ما تشاءون » ثم أضاف قائلاً : « اكتب إلي مذكرة توضح ما تود أن تفعل بها مبيناً فيها أن كل مصاريف نقلها سوف تتتكلّل بها الولايات المتحدة أو مدينة نيويورك نفسها إذا كنت تفضل ذلك ، ثم سلم هذه المذكرات إلى سكرتيرى العام وبلغه إعداد رد بشأن البث في موضوع الهدية حسب المقترفات التي تبديها ، ثم يحضرها إلى

للتتوقيع عليها . وبعد ذلك بساعتين سلمت إلى السكرتير العام لوزارة الخارجية خطاباً ، وأخبرته في الوقت نفسه بما قاله لي الباشا . وهكذا ترجمة الخطاب من الفرنسية :

« الوكالة والقنصلية العامة للولايات المتحدة بالقاهرة

١٧ مايو سنة ١٨٩٧

يا صاحب السعادة

« بالإشارة إلى المحادثات التي تشرفت بإجرائها معكم وأبلغتني فيها بأن حكومة سمو الخديوي قد عزمت على إهداء مدينة نيويورك مسلة الإسكندرية ، وصرحت بنقلها إلى هناك ، يسرني أن تتعطف بتأكيد منح هذه الهدية كتابة بصفة قاطعة ، ومن المفهوم أن نقلها سوف يتم على نفقه بعض مواطنى مدينة نيويورك » .

« واسمح لي أن أؤكد لسعادتكم مقدماً شكر حكومتيخار على استجابتكم للطلبات التي قدمتها لحكومة سمو الخديوي حسب التعليمات التي تلقيتها في هذا الشأن . وإنني لأعتقد تماماً أن الأثر التذكاري الذي سي nipple ويقام في مدينة نيويورك سوف يكون دائماً تذكاراً ورمزاً للصداقة الدائمة بين حكومتي الولايات المتحدة وسمو الخديوي » .

وتفضلاً يا سيادة القنصل العام بقبول فائق احترامي .

توقيع

أ. فارمان

إلى سعادة شريف باشا وزير الخارجية ورئيس مجلس الوزراء » .

وفي اليوم التالي تسلمت الرد الآتي الذي قمت بترجمته من اللغة

الفرنسية :

« القاهرة في ١٨ مايو سنة ١٨٧٩ إلى المستر فارمن القنصل العام
للولايات المتحدة

سيدي الوكيل والقنصل العام

أحاطت علماً بالرسالة التي تكرمت بكتابتها إلى يوم ١٧ مايو الجاري ،
ورداً عليها أحيطكم علماً بأن حكومة الخديوي قد أخذت في اعتبارها طلباتك
والرغبة التي أبديتها باسم الولايات المتحدة الأمريكية ، ووافقت على إهداء
مدينة نيويورك المسلة المعروفة باسم « مسلة كليوباترا » القائمة في الإسكندرية
لى شاطئ البحر .

هذا وستقوم السلطات المحلية بعمل اللازم لتسليم هذه المسلة إلى مثلي
الحكومة الأمريكية بل ستعمل كافة التسهيلات الخاصة بهذا الأثر التي ستتكلف
مدينة نيويورك بكافة مصاريف نقله طبقاً للشروط الواردة في رسالتكم .

هذا وإنه ليسعدني ياسعادة القنصل العام أن أبلغكم هذا القرار الذي يقضى
بنزع مدينة نيويورك العظيمة أثراً تذكارياً مصرياً له أهمية تاريخية حقيقة ،
ولسوف يكون تذكاراً آخر ورمزاً للصداقة التي دامت بين حكومة الولايات
المتحدة وحكومة الخديوي .

وتفضلوا ياسعادة القنصل العام بقبول فائق احترامي .

التوقيع

شريف

والواضح من هذه المذكرات أن المسلة أهديت مباشرة إلى مدينة نيويورك
وليس إلى الولايات المتحدة كما هو منقوش على أحد مخالب السلطان الذي
ترتکز عليه المسلة الآن .

وفي ٢٢ مايو أرسلت البرقية التالية إلى المستر افارتس .

« لقد منحت حكومة الخديوى مدينة نيويورك مسلة الإسكندرية المعروفة باسم مسلة كليوباترا » ثم بعثت كذلك برسالة في اليوم نفسه أرفقت بها نسخاً من المذكرات التي تبودلت بين شريف وبيني .

وهكذا ضمناً الحصول على المسلة ، ولكن تعقد الأمور في مصر كان مازال قائماً . ففي ٢٧ يونيو تنازل الخديوى إسماعيل عن العرش إلى نجله محمد توفيق باشا الذي نودى به في اليوم نفسه « خديئياً » على مصر . ولم تجر محاولة تأليف وزارة أوربية مرة أخرى حيث استمر شريف باشا على رأس الوزارة طيلة الصيف ، إلا أنه في أوائل الخريف تشكلت الوزارة المعروفة بوزارة رياض .

ولقد سارت المفاوضات النهائية التي أحرزت المسلة بمقتضاهما في هدوء تام بحيث إن أول نبأ يذاع على الجمهور في مصر بشأن الهدية ورد من نيويورك عن طريق الصحف الإنجليزية . ولم تذكر الجرائد المحلية شيئاً عن الموضوع ، ولكن بمجرد أن تشكلت وزارة رياض حاول البعض - تحت تأثير بعض الأوريين - أن يعكسوا عمل الحكومة الأخيرة . ولقد نظر الأمر مرتين أو ثلاث مرات في مجلس الوزراء ، وقامت بعض الصحف الأوربية التي تصدر في مصر بالتعليق عليه . وما تبين للوزراء أن المنحة قد تأيدت بالكتابة عن طريق تبادل المذكرات الرسمية قرروا فيما بينهم أن الوقت قد فات بالنسبة لاتخاذ أي إجراء في الموضوع .

ولقد وصل القومندان جورنجز في أكتوبر عام ١٨٧٩ لكي ينفذ عملية نقل المسلة ، وأصدرت الأوامر الضرورية للسلطات المحلية في الإسكندرية لتسليمها .

وعند تسلم رسالتى المؤرخة بتاريخ ٢٢ مايو المرسلة إلى الوزير افارتس والتي

أبلغه فيها بانتهاء المفاوضات بنجاح ، كتب إلى خطاباً خاصاً وكذلك رسالة رسمية في نفس الوقت بتاريخ ١٣ يونيو سنة ١٨٧٩ حيث قال فيها :

« أفيدكم بتسليم رسالتكم المؤرخة ٢٢ الحالي برفقاتها والتي تبلغ فيها الوزارة بأن المفاوضات قد تمت بشأن نقل المسلة المصرية إلى مدينة نيويورك وأن حكومة سمو الخديوي قد أهدت المسلة المعروفة باسم « مسلة كلبيوباترا » إلى هذه المدينة . وإنه لم يبعث سرور عظيم لهذه الحكومة أن تحوز في القريب العاجل مثل هذا الأثر التذكاري العظيم بفضل كرم الخديوي . ولذا فأنت مكلف بإبلاغ سموه أن الجميل الذي أسداه إلى هذه الجمهورية بتقديمه هذه الهدية إنما هو محل تقدير عظيم وإننا نشعر بأن عملاً وديًا كهذا لا يسعه إلا أن يقوى من أواصر الصداقة التي تقوم بين البلدين ، وأن يجعل ذكرى الخديوي دائمة يقدرها الشعب الأمريكي كل تقدير .

، هذا وقد اطلعنا على البيان التاريخي الذي شملته رسالتكم عن المسالات في مصر بكل اهتمام » .

وينبغي ألا يدخل في الحساب أن المسالات وغيرها من الآثار القديمة الموجودة في البلاد لا يقدرها المصريون المتعلمون حق تقديرها . بل على العكس من ذلك فإنهم يعرفون قيمتها ويقومون على حمايتها ويبدون غيرة عظيمة عليها . وإذا رأينا كافة الظروف ، فإن الخديوي لم يكن بوسعي أن يقدم دليلاً أقوى من دليل تقديم هذه المسلة على الاحترام الذي يكنه لحكومة الولايات المتحدة وشعبها .

كما أن لدى الدليل الكافي على الإعجاب الشديد الذي كان يديه الخديوي نحو أنظمتنا ، رغم أنه كان يعلم أن شيئاً من هذا القبيل يستحيل حدوثه في الشرق .

أما المسالات الأخرى التي نقلت من مصر فقد حصلت عليها الدول تحت

تأثير ظروف تختلف تماماً عن ظروفنا الحاضرة ، فقد نقل أغلبها على يد الغزاة من الرومان ، ولم يكن هناك بجوار مسلة كليوباترا غير مسلتين قد نقلتا في العصور الحديثة ، إحداهما إلى باريس والأخرى إلى لندن . أما الأخيرة منها فقد منحت إلى إنجلترا عام ١٨٢٠ في عصر كانت مصر تختلف تماماً الاختلاف عما هي عليه في الوقت الحاضر . زد على ذلك أن هذه المسلة ظلت قروناً طويلاً مدفونة تحت الرمال والقمامه . ولقد شوهدت كثيراً بحيث إذا قارناها بغيرها من المسلات وجدناها قليلة القيمة ، إلا أنها كانت تعتبر هدية تستحق أن تقدم لجلالة الملك جورج الرابع في مقابل المجاملات والهدايا التي تلقاها من محمد على باشا الذي كان والي مصر في ذلك الوقت .

أما تلك المسلات القائمة الآن بباريس فقد منحت إلى فرنسا بعد ذلك بعشرين سنة (عام ١٨٣٠) ، ولقد طلبت على أساس الخدمات التي قامت بها فرنسا للحكومة المصرية . وهذه المسلة كانت قائمة بالأقصر على مقربة من قرية صغيرة مكونة من الأكواخ المبنية بالطين ، وتبعد عن النيل ب نحو ستمائة ميل حيث يسكنها بضع مئات من الأهالى .

وعلى مقربة من هذه المسلة كانت هناك ثلاثة مسلات أخرى وبقايا كثيرة ضخمة من أروع وأهم الآثار الموجودة في العالم . وعلى كل ، كان من النادر أن يقوم الأوروبيون بزيارة هذا المكان في ذلك العصر ، ولذا كان إزالة إحدى هذه المسلات لم يكن بالحدث الذي يخلق أية معارضة ومع هذا فإن هذا الأثر كان يعتبر من أهم المعالم التي تزيّن مدينة باريس .

وفي خريف ١٨٧٩ تعرضت الصحف الأوروبية التي تصدر في مصر لموضوع نقل الآثار المصرية ، فعلقت أهمية كبيرة على حقيقة أن مسلتي لندن وباريس قد منحتا بسبب الخدمات التي أسدتها حكومات الدول التي أهديت لها هاتان المسلتان ، على حين أنه لم يكن هناك أي ادعاء بذلك فيما يختص بمنح مسلة كليوباترا إلى مدينة نيويورك .

وهذا دليل على أن الحافر لهذا الكرم إنما هو الإحساس العاطفي والاحترام المتبادل بيننا وبين حكومة صديقة مجرداً عن أي مصلحة شخصية تمس مصالحها الشخصية أو مصالح شعبها .

وبقيولها لهذه المسلة وضعت مدينة نيويورك في عنقها واجباً مقدساً نحو الأجيال المقبلة ونحو كل تلك الملايين من مواطني الجمهورية الذين سوف يقومون بزيارة العاصمة العظيمة في القرون القادمة . هذا الواجب هو صيانة الأثر الذي أؤمنت عليه . ولقد نقلت إلينا بعد أن مضى عليها خمسة وثلاثون قرناً من الزمان . وبعد كل هذه الأحداث التي مرت عليها لاتزال في حالة سليمة . وإنه لمن الإهمال الفاضح الذي يكون بمنابع تدمير طائش من جانب هؤلاء الذين في أيديهم حفظ هذا الأثر النبيل أن يتسببوا في أن يصيبيها أذى إن لم يبذلوا أقصى ما يمكنهم من العناية في سبيل الحفاظ عليها .

أما الأضرار التي أصابتها في رأى هؤلاء الذين تصدوا للدراسة الموضوع دراسة طفيفة فإنما ترجع إلى وجودها على مقربة من البحر مدة طويلة ، ولكن هذا الرأي بعيد عن الصواب وذلك لأن الأضرار التي أصابتها لم تكن في جوانبها المواجهة للبحر . ولقد لاحظت أن هذه العيوب إنما يرجع سببها إلى المواد القلوية التي تفرزها التربة التي كانت المسلة ملقاة فيها لأجيال عدة ، وقد تكون هذه الأضرار بسبب النار ، ومن المحتمل أن الإصابات الرئيسية في المسلة قد تسببت عن هذا العامل الأخير .

ومن المعروف جيداً أن حجر الجرانيت المصقول يقاوم كل المؤثرات الجوية في المناخ البارد أو الدافئ على حد سواء ، ولكن إذا ما زالت هذه الطبقة اللامعة وبدا السطح الخشن غير المصقول ، فإنها تتأثر ببعض المؤثرات الجوية الخاصة .

الفصل السادس عشر

نقل المسلة والرموز الماسونية

مسلسل كليوباترة عبارة عن ساق من الجرانيت الأحمر التي استخرجت من محاجر أسوان التي تقع عند الشلال الأول للنيل على بعد سبعين ميل من البحر الأبيض المتوسط . ويبلغ ارتفاعها حوالي ٦٨ قدماً وعشرون بوصات ويبلغ عرضها عند القاعدة ثمانية أقدام وبوصتين . ويستدق طرفها بالتدريج كلما اتجهنا إلى أعلى فتصل إلى ٦ أقدام وبوصة واحدة وتبلغ زنتها حوالي مائتين وعشرين طنًا ، وهي مقامة على شاطئ الإسكندرية على ارتفاع خمسين قدماً من سطح الماء أما قاعدتها فهي مدفونة في الرمال والأترية التي تكدرست على مر القرون .

وعندما كشف عن قاعدة المسلة كانت مستديرة بعض الشيء ، و تستند على دعامتين من النحاس على شكل « السرطان البحري » ، وكان هناك حجر تحت الركن الثالث ، أما الركن الرابع فكان لا يستند على شيء ، وقد ترك هذا بين المسلة وقاعدتها مسافة حوالي ثمانين بوصات وكان هناك اسفين حديدي رفيع متآكسد تماماً على قمة الدعامة الحجرية . أما طول كل من تلك الدعامتين فكان حوالي اثنتي عشرة بوصة إذا قيست من الخلف ، ويبلغ عرضها حوالي ست بوصات ، وارتفاعها حوالي ثمانين بوصات . ويزيد كل منها عندما تكون سليمة أكثر من خمسمائة رطل . وتحت قスピان مصنوعة من نفس مادة

الدعامتين في داخل المسلة والقاعدة . وكانت هذه القصبان تزيد على ثلات بوصات في العرض وتسع بوصات في الطول وهي تكون الأسياخ التي تساعد على ثبيت المسلة في مكانها ، وكانت هذه الأسياخ محاطة ومثبتة في أماكنها بعده الرصاص .

وكان هناك أصلًا أربع قواعد على هيئة « السرطان البحري أزال الأهالي منها اثنين طمعا في معدنهما ، على أن القاعدتين الآخرين كانتا قد شوهتا تشويها شديدا ، فقد أزيلت مخالب وسيقان أحد هذه « السلطانات » ، أما القاعدة الثانية قد احتفظت بساقي واحد هي الساق اليسرى ، على أنها لم تلبت أن كسرت عند وضع المسلة وضعاً أفقيا . ومن المحتمل أن هذه القواعد قد وضعت بصفة دعامتين لها عندما قام الرومان بإقامتها مرة ثانية ، ونظراً لاستدارة قاعدتها . ويظن أحد الكتاب أن شكل « السرطان البحري » قد وقع عليه الاختيار ارضاء لعوائد كل من المصريين والرومان .

وكانت هذه المسلة تقوم على كتلة صخرية من حجر جرانيت سيناء ، ويستدق طرفها كلما اتجهنا إلى أعلى بنفس النسبة التي صنعت بها المسلة تقريريا .

ويبلغ ارتفاع هذه الصخرة حوالي سبعة أقدام ، وتزن ثمانية وأربعين طنًا ، وقد بلغ ارتفاع الأساس الذي أقيمت عليه أربعة أقدام وتسع بوصات . وكان السطح السفلي لأول درجة من درجات المسلة يبلغ ارتفاعه ثمانية عشرة بوصة فوق سطح البحر .

وفي الوقت الذي أنشئت فيه مسلة الإسكندرية ، أي منذ حوالي ١٩٠٠ سنة كان سطح الأرض عند هذه النقطة تحت مستوى أسفل درجة لهذه القاعدة . وكانت الرمال والمحصى تغطي الدرجات السفلية لهذا الأثر التذكاري إلى ارتفاع يبلغ حوالي ١٧ قدما . وفي خلال تلك المدة كان هناك تغير ملحوظ في الارتفاع النسبي بين سطح الأرض والبحر . أما المقابر التي كانت

محفورة في الصخر والمطلة على البحر فقد غمرتها مياه البحر الآن وزالت بفعل الأمواج . وكان ارتفاع المسلة من أسفل درجة فيها ٨١ قدماً وبوصتين .

هذا ولقد منح القومندان جورنجز إجازة للقيام بمهمة نقل المسلة إلى الولايات المتحدة . وكان يصحبه الملازم سيتون شرودر وهو برتبة يوزباشي الآن ، وكذلك محافظ بلدة جوام السابق ، وكان مساعدًا له قيمته . ولقد أقيمت إنشاءات ضخمة في الولايات المتحدة لكي تساعد في إنجاز العمل .

وعندما انتهت الحفريات حول المسلة غلفوها بالألواح خشبية كما أعدوا لها عقرداً حجرية لكي تقوم عليها الإنشاءات التي تستخدم في وضع المسلة وضعاً أفقياً . وهذه الإنشاءات كانت تتكون من إطارات من الصلب على جانبين متقابلين من جوانب المسلة ، تشبه في شكلها العقود التي تستخدم في إقامة الكبارى ، كما ثبتت إلى جوانب المسلة صفائح ثقيلة بواسطة قضبان طويلة تتدلى من طرف إلى آخر . وقد امتدت أربعة أزواج من القضبان الثقيلة من الألواح إلى أسفل حيث تتصل بأطراف أحزمة ثقيلة تمر من تحت المسلة . وهذه الأحزمة كانت مزدوجة ومثبتة بالقضبان بواسطة صواميل . وعندما تحركت قاعدة المسلة بواسطة روافع الأثقال المائية مالت بثقلها على القضبان الحديدية ، ثم تأرجحت في وضع أفقى وهي تدور على محاورها كما يدور المدفع على محاوره .

وبسبب خطأ في تقدير وزن الأجزاء العليا والسفلى للمسلة وضفت المحاور منخفضة مما ينبغي ، مما جعل الجزء من المسلة التي فوقها أثقل من الجزء الأسفل ، ولذا عندما تحركت المسلة ، تأرجحت بسرعة جداً ، واصطدمت بقوة شديدة بالألواح التي أقيمت للاقاتها . ولحسن الحظ لم تصيب بأي كسر ولو أن الحشد الكبير من الناس الذي كان حاضراً أثناء العملية أصبح بذهول من جراء صوت تهشيم الألواح . وبعد إزالة القاعدة والأساسات أُنزلت المسلة تدريجياً بواسطة الرافع المائية ليتلقاها صندوق كان قد أعد لذلك .

وزج بالصندوق في البحر وسحب حول جزيرة فاروس القديمة حتى وصل إلى المياه . وهنا وضع في الباخرة « دسوج » في حوض جاف عائم وقد أغلق الحوض وسحبته منه المياه بواسطة الطلبات ، وأدخلت المسة إلى الباخرة خلال فتحة في جانبها على مقربة من مقدمة السفينة . وكانت الحجارة التي حرّكت عليها المسة مصنوعة من القضبان الحديدية الثقيلة استخدمت عليها كرات حديدية كبكرات تتحرك عليها المسة ، ولمنع آية إصابة تلحق بالمسة ولتغطية سطوحها غير المتساوية ، وضعت قضبان مشابهة مقلوبة تحت المسة فوق الكرات . وعند وصول الباخرة إلى نيويورك استخدمت نفس الوسائل التي استخدمت في الإسكندرية لإنزال المسة من السفينة وإقامتها .

ولم تبحر الباخرة « دسوج » من الإسكندرية إلا في يوم ١٢ يونيو عام ١٨٨٠ حيث استغرقت عملية إنزال المسة وشحنها حوالي ثمانية شهور بمساعدة مختلف الوسائل الحديثة التي أعدت سلفاً لهذا الغرض . وقد احتاجت إلى ستة شهور أخرى بعد وصولها إلى نيويورك لإنزالها إلى البر وإقامتها هناك .

ولذا ما قارنا هذا العمل بغيره من الأعمال التي كانت تنجذب على شواطئ النيل منذ ٣٥٠٠ سنة لعجزنا عن وصف ما يخالجنا من الدهشة لمهارة القدماء المصريين . هذا وإن أجمل مسلة وأروعها إنما هي المقاومة عند الكرنك ، وقد وزنها بضعف وزن مسلة كليوباترا . وطبقاً للكتابة الهيروغليفية المنقوشة على جدرانها ، فإن هذا النصب الحجري قد قطع من مرقده في أسوان ، ونقل لمسافة مائة وأربعين ميلاً ، ثم أقيم على القاعدة حيث تقوم حالياً . وكل ذلك في سبعة شهور . ويبدو أن العمل كان يجرى على عجل وذلك حتى يمكن لإقامة هذه المسة أن يخلد الذكرى السنوية لتوسيع الملكة . وإنه لا يسعنا إلا أن نستمتع عدراً لغرور وكبريات وأثره هذه المرأة العجيبة ، الملكة حتشبسوت من أجل هذا العمل الرائع ، كما هو مبين في هذه النقوش التالية التي قامت بحفرها على قاعدة المسة :

« هذا هو ما ألقنه للأحياء الذين سيعيشون في الأجيال القادمة والذين سيتساءلون عن الآثار التي أقامتها من أجل والدي .. حينما جلست على العرش في القصر كنت أفكّر دوماً في ذلك الذي أنجبني ، فأهاب بي قلبي أن أقيم له مسلتين من الكهرمان تصلان بقامتهما إلى عنان السماء قبل البوابة العظيمة التي تقع بين معبدى الملك تحتمس الأول العظيم .. وعندما يشاهدون آثارى بعد مرور الأعوام والسنين ويتحدثون عن أعمالى الحديدة فليحذروها أن يقولوا : لست أدرى ، لست أدرى لم افتقد العزم على أن تطلى هذه الآثار بالذهب ، فهكذا صنعت لكي أخلد اسمى ويعيش إلى الأبد . ولقد اقتطعت هذه الكتلة الفريدة الحجرية بناء على رغبتي ما بين اليوم الأول من الشهر الثاني من بيريت من السنة الخامسة واليوم الثلاثين من الشهر الرابع من شومو من السنة السادسة ، وهي مدة تبلغ سبعة شهور من اليوم الذي بدأ العمل في قطعها من الحجارة » .

على أننا إذا صدقنا السجلات القديمة لوجدنا أنه قد أنشئت مسلات في العصور الأولى تزن أضعاف أكبر المسلات الموجودة في الوقت الحاضر . هذا ويزن تمثال رمسيس الثاني المهشم المقام في طيبة حوالي ٩٠٠ طن تقريباً ، كما يورد هيرودوت ذكر أحد المعابد وهو معبد لاتونا في الساحة المقدسة في « بوطرو » وتبلغ مساحته حوالي أربعين ذراعاً مربعاً ، وهو « مصنوع من حجر واحد » كما يغطي سقفه حجر واحد يحيط به إفريز يبلغ ارتفاعه حوالي أربعة أذرع . ولقد شاهدت بنفسي حجراً واحداً اقتطع ولا يزال موجوداً بمحجر بعلبك يزن ألف طن . ويعتبر الجزء من الحائط الذي يشتمل على هذه الأحجار من الآثار المجهولة ، إلا أنه يحتمل أن يكون معاصرًا لبعض الآثار العظيمة في مصر التي تشتمل بقاياها على أحجار ذات أحجام ضخمة .

ولقد عرفنا من الرسوم القديمة والكتابة الهيروغليفية أن هناك تماثيل هائلة قد جرت على زلاقات ، كما أن هناك مسلات قد نقلت على قوارب في مياه النيل أو القنوات . أما الوسائل التي كانت تستخدم لوضع هذه المسلات العظيمة فوق قواعدها في دقة تامة ودون أن يصيب أطراف قواعدها الحادة أقل

تشويه ، فإنه أمر متزوك للحدس والتخيين كلية .

وكان المسلاط تصنع أصلًا بقواعد مسطحة ترتكز مباشرة فوق القاعدة . ولقد سقط الكثير منها إبان الغزو الفارسي وبقيت على الأرض حوالي خمسمائة عام حتى عصر غزو الرومان . وكانت مسلة كليوباترا مقامة أولاً في هليوبوليس ، ثم نقلت إلى الإسكندرية في عصر أوغسطس قيصر . وسواء كانت قائمة في هليوبوليس أو في غيرها فإن أركان قاعدتها كانت مهشمة حتى أن سطحها السفلي أصبح مستديراً بعض الشيء .

أما «السرطانات» المصنوعة من البرونز فيبدو أنها قد وضعت أسفل أركانها الأربعة حتى يمكن للمسلة أن ترتكز عليها في ثبات . ولقد اكتشفت هذه الأركان الأربعة القائمة على شكل «السرطان البحري» عام ١٨٧٧ على أثر الحفريات التي قام بها مستر ديكسون وقت نقل المسلة الشبيهة ب المسلة كليوباترا إلى لندن . ولقد وجدت نسخاً من الكتابة التي وجدت على الساق الباقي لأحد السرطانات في كتاب نشره الدكتور نيروتوسوس بل ، وهو أحد علماء الآثار بالإسكندرية ، ثم غطت الأتربة بعد ذلك السرطانات وقاعدة المسلة .

أما النقوش التي نشرت حينئذ ونقلها القومندان جورنجز فقد ضممتها في كتابه ونقشت على أحد السرطانات الموجودة الآن أسفل المسلة . وقد ورد فيها خطأ تاريخ إقامة المسلة في الإسكندرية على أنه السنة الثامنة من حكم أوغسطس قيصر ٢٣ - ٢٢ ق.م وذلك بدلاً من السنة الثامنة عشرة أي من ١٣ - ١٢ ق.م. ولقد أدى ذلك إلى الكثير من المناقشات بين علماء الآثار والمورخين في أوروبا وأمريكا نظراً لتبادر هذه التواريخ مع حقيقة تاريخية ثابتة ، وهي أن باريروس Barbarus (بوبليوس روبيرس Publius Rubrius) لم يكن حاكم مصر في ذلك الوقت ، رغم أنه ولد حاكماً على مصر بعد ذلك بعشرين سنة . وهذه الحقيقة ثبتت عن طريق كتابة يونانية

ووجدت على آثار جزيرة فيلة تقول : « إلى الامبراطور قيصر العظيم ، المنقذ ، والمحسن في السنة الثامنة عشرة . وقد أقيمت تحت رعاية بوبليوس روبيروس باربروس » .

وفي سنة ١٨٨٣ رفعت سلطات متحف الفن العاصمي Metropolitan Museum of Art الأمر إلى جامعة كولومبيا ، ثم رفعه عميد الكلية بدوره إلى أستاذ اللغة اليونانية أو جسوس س. بريام . وبعد بحث طويل مضن ، وبعد أن عجز الأستاذ عن التوفيق بين الحقائق التاريخية وبين النقوش التي نشرت ، أمر بأن تنطف ساق السرطان من الأكسيد الموجود عليه .

وبالإضافة إلى توضيح بعض الحروف اليونانية واللاتينية التي تبيّنت من القراءة اكتشف أن التاريخ في الكتابة اليونانية كان السنة الثامنة عشرة من حكم قيصر بدلاً من السنة الثامنة ، وكذلك فيما يختص بالكتابة اللاتينية . ويمكن ترجمة النص الذي وجد منقوشاً فيما يلي : « في العام الثامن عشر (من حكم) قيصر أقام باريروس (أو أهدى) (هذا النصب) على يد المهندس المعماري بونتيوس Pontius ».«

أما الكتابة اللاتينية التي كانت منقوشة على الجانب الداخلي من الخطاب فقد شوهرت وطمس بعضها تماماً ، وعلى كل فقد كان يمكن قراءة التاريخ وبعض الأجزاء الأخرى الضرورية . ويمكن ترجمة الكتابة اللاتينية على النحو التالي :

« في العام الثامن عشر (من حكم) القيصر أو جسوس ، أقام (هذا النصب) باريروس حاكماً مصر على يد المهندس المعماري بونتيوس ».«

وكان الأساس الذي أقيمت عليه قاعدة التمثال يتكون أساساً من كتل كبيرة من الحجر الجيري . وكان البناء كله الذي يقع أسفل القاعدة وفوق

السطح السفلي للدرجة السفلية مثبتاً بعضه ببعض بواسطة « قمطة حديدية » مغطاة بطبقة من الرصاص بنفس الطريقة التي تتبع لحفظ كيان الحديد الذي يستخدم لنفس الغرض في الوقت الحاضر . وكان الحديد من أجود صنف وفي حالة جيدة ، حتى في الأماكن التي تعرض فيها بعض الشيء للمؤثرات الجوية . وكان البناء بأكمله قطعة فخمة من المنشآت الفرعونية القديمة ، وقد دلت دلالة قاطعة على أن المهندس المعماري بونتيس يستحق حتى في هذه الأيام ، أن يتبوأ مكانه في الصنوف الأولى من مهنته .

ولقد وجدت بعض الرموز التي اعتبرها « الماسونيون الأحرار » اكتشافاً هاماً يتعلق بتاريخ طائفتهم ، ولكن آخرين غيرهم نظروا إليها من وجهة أخرى . وكانت الأساسات مصنوعة من حجر جيري ذي لون رمادي فاتح . فيما عدا أربع قطع منها .

وعند إزالة القاعدة وجد تحت ركناها الشرقي كتلة كبيرة مصقوله من جرانيت سيناء على شكل مكعب إلا أن اتساعها كان أقل من القياس الجانبي . وكانت حاضرة عند إزالة الطبقة الأولى من الحجارة . وكانت توجد أسفل هذا المكعب الجرانيتي مباشرة ، وعلى نفس مستوى الدرجة السفلية ، كتلة أخرى من الجرانيت قد قطع الجزء العلوي منها على شكل مسطحة البناء ، يبلغ ضلعها الطويل حوالي ٨ أقدام و ٦ بوصات وعرضه قدم واحد : سبع ونصف بوصة ، أما ضلعها القصير فيبلغ طوله حوالي أربعة أقدام وثلاث بوصات وعرضه قدم واحد وسبعين وثلاثة أرباع بوصة .

وكنت تشاهد بين أضلاع هذه المسطرة قطعة من الحجر الجيري الأبيض يبلغ طولها حوالي أربعة أقدام وعرضها مترين كما يبلغ ارتفاعها حوالي تسعة بوصات . وفي أحد جوانب هذه المسطرة من ضلعها القصير كانت توجد قطعة ثانية من الجرانيت ، مسطحة العلوي على جانب من الخشونة ، وتحتختلف زواياها عن بعضها تمام الاختلاف ، فليس ثمة توازن بين جنبين من

جوانبها . هذا وفي الجانب الآخر من الحجر المكون لهذه المسطرة كانت توجد كتلة كبيرة من حجر الجير بسطحها العلوي الواقع أسفل المسطرة بحوالي أربع بوصات ، وكانت مغطاة بطبقة رقيقة حجرية . وعند إزالتها وجد مسطرين من الحديد وثقل أو ميزان من الرصاص .

أما «المسطرين» الذي يشبه الملعقة المسطحة فيبلغ طوله ثمانين بوصات وعرضه في جزئه المتسع خمس بوصات ، وكان متراكضاً تماماً تأكسداً . وكان مقبضه يبلغ أربع بوصات في الطول ومن $\frac{3}{8}$ إلى $\frac{1}{2}$ بوصة في العرض . وقد حفرت مسافات في كتلة الحجر الجيري حيث كانت هذه الأشياء مطمورة في الأسمنت . هذه الرموز - المسطرة ، المسطرين ، الميزان ، الكتلتان الجرانيتية التي كانت إحداها غير مصقوله على حين أن الأخرى كانت مصنوعة صنعاً دقيقاً ، والحجر الأبيض ، ونسبة الأماكن التي وجدت فيها هذه الأشياء . يدعى بعض أعضاء «الإخوان الماسونيين» أن هذه الرموز دليل قوى على وجود طائفة من «الماسونيين الأحرار» في العصر الروماني ، انحدرت منها الطوائف الماسونية الحديثة . ولكن وجود كل هذه الأشياء فيما عدا المسطرين والميزان ، قد يكون بمحض الصدفة تماماً وأنه من المحتمل أن يكون العمال قد وضعوا هذه الأشياء في مثل هذا البناء الشهير كرموز تعبر عن مهنتهم دون الإشارة إلى أي طائفة من الطوائف المنظمة .

لقد كانت الإسكندرية مدينة كبيرة منذ ما يزيد على قرنين من الزمان . ولقد قامت الكثير من المعارك التي اشتعلت أوارها بين ربوعها وكانت سبباً في وجود الكثير من الخراب التي استعملت في المنشآت الجديدة ، كما يحتمل استخدامها في أساسات المسلة .

ولم يكن هناك شيء غير عادي بين تلك القطع المصنوع منها المسلة فيما عدا الحجر الذي كان على هيئة المسطرة ، فعندما استخرج هذا الحجر من مكانه سمه يبلغ حوالي خمس وعشرين بوصة ، وقد قطع منه الجزء الواقع بين

ضلعية إلى عمق تسع بوصات . هذه المساحة ملئت بأحجار أخرى بما فيها الكتلة البيضاء . وعندما عثر على هذا الجزء بادئ الأمر لم يكن برى منه إلا السطح العلوي ، أما الجزء الأسفل فقد كان متوازى الأضلاع قائم الروايا . وإذا نظرنا إليه بمفرده نستنتج أنه كان جزءا من حوض كبير (من فناء أحد المعابد أو القصور) من الأحواض التي كانت شائعة في العصر اليوناني الروماني ، وقد شطف أحد جوانبه مصادفة أو عمداً وترك القاع والجانب الآخر على طبيعته الأصلية ، وكان داخل حافة هذا الحوض - إذا كان حقيقة حوضاً - عند اتصالها بقاعه ثلاث خرزات . أما في الخارج عند القاع فقد تأثرت الحواف التي كانت حادة أصلاً . ولم يكن هناك في مظهر الحجر ما يدل على أنه اقطع على شكل مسطرة البناء بقصد وضعه في أساس المسلة . ولكن لما كان شكله مثل المسطرة حينما وضع في مكانه ثم ملئت المساحة الموجودة بين الأذرع فمن المحتمل أن يكون قد أوعز إلى العمال بفكرة إضافة المسطرين والميزان له .

الفصل السابع عشر

تاريخ المسلة والنقوش الموجودة عليها

يرجع تاريخ هذه المسلة إلى العصر الذهبي ل تاريخ مصر ، فقد استحضرت من محاجر سيناء وأنزلت في النيل حوالي ستمائة ميل حتى أقيمت في هليوبوليس إبان عصر تحتمس الثالث الذي يعتبر من ألمع وأشهر ملوك الفراعنة . وقد خصصت الأعمدة الوسطى من الكتابة المنشورة على المسلة لمدحه والثناء عليه .

هذا وقد قاد أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ، بعد أن طرد الهكسوس أو « ملوك الرعاة » الذين حكموا دلتا النيل لمدة خمسة قرون . قاد جيشه الظافر حتى بلدة شاروهين الواقعة على مقربة من حدود فلسطين الجنوبيّة التي أعطيت بعد ذلك لقبيلة سيميون ، هنالك أنشأ أحمس عدة تحصينات ليحمي بلاده من الغزاة ، وكان ذلك على الحدود الشرقيّة غير بعيد من خط قناة السويس الحالي ، كما أعاد الأمان داخل امبراطوريته وأخضع القبائل التوبيّة التي رفضت دفع الجزية . وعندما اقتنع بأكاليل النصر التي توجت رأسه وجه اهتمامه إلى إصلاح وتوسيع وتجميل المعابد التي أهملت أثناء حكم الأجانب الطويل المدى .

وكان تحتمس الأول هو أول من خلف أحمس وكان محارباً عظيماً حيث

امتدت فتوحاته إلى أبعد من فتوحات سلفه ، فقد قاد جيشه المظفر الذي اجتاح فلسطين وشمال سوريا إلى بلاد النهرين التي كانت تمرد من نهر ارورس الواقع فيما وراء الفرات ، ثم عاد إلى طيبة « متوجهاً بأكاليل الحجد » « محملاً بالغنائم » . وقد اغتنمت مصر على يديه بفضل فتوحاته وبفضل الثروات التي كان يجلبها بصفة مستمرة من سوريا ومن أقاليمه الجنوبيّة .

ولم يطل أجله فخلفه في الحكم ولده تحتمس الثاني الذي حكم مصر باسم حتشبسوت أخته وزوجته التي كانت الحاكم الفعلي . وكانت من ناحية أمها من أصل أقدس من أصل زوجها ، ولكن الأمر احتاج إلى معجزة عند ولادتها حتى يتضهر دمها من اللوحة التي ورثتها عن أحد أسلافها - من ناحية أمها - الذي لم يكن من العائلة المالكة .

ولقد ادعى ملوك مصر أنهم من سلالة الآلهة وكانت يتلقون الطاعة من شعوبهم باعتبار أنهم آلهة . ولذلك كان نقاء الدم الملكي من أولى الاعتبارات الهامة . كان الملك ابنًا للإله « رع » ، وكان أبوه كذلك ابنًا لرع وجده وجده وهكذا أسلافه السابقون حتى يصلوا إلى الإله نفسه . ولذا لم يكن هناك أية عائلة أخرى تنحدر من سلالة الآلهة وتصلح لزواج العائلة المالكة ، فكان الإخوة والأخوات يتزوج بعضهم البعض حتى يثبت أطفالهم من أصل ملكي ظاهر . وكان الطفل الذكر له حق اعتلاء الملك إذا كان من نفس الأم . وكان يحدث أحياناً أن أميراً من نسل امرأة عادية كان يخلف أبوه في الحكم ، وكذلك بعض الأشخاص الذين لم يكن يعرف أسلافهم ، لأن يكونوا قد اعتلوا العرش عن طريق الظفر في الحرب أو بأي وسيلة أخرى ، فيصبحوا حكامًا حقيقين ، ولكن هؤلاء لم يكونوا يعتبرون ملوكًا شرعين لدى الجمهور والكهنة ، وكثيراً ما كانوا يحاولون جعل حكمهم شرعاً ويضمنون وراثة العرش لأولادهم وذلك عن طريق الزواج من أميرات من الأصل المقدس ، فكانوا يتوجون زوجاتهم ملكات ويعملن في ظل ولايتهم . وكان الملك يشرك معه في الحكم أحد أبنائه ، وذلك عندما يكون هذا النجل وحيداً لأنه

يكون أقرب إلى الدم الملكي الطاهر من جهة أمه لا من جهة أبيه ، ولم تكن هذه الوسائل تعتبر كافية لتنقية الدم وجعله صالحًا لتكوين شرعية الأسرة الحاكمة . ولا يمكن عمل هذا إلا بعجزة من جانب الإله الذي ينحدر منه هذا النسل . ولقد تنازل « رع » إله الشمس ، أن يحل في الأب وقت الحمل ولذا أصبحت السلالة من نسل الآلهة وأصبح الملك « إبنًا لرع » .

ويوجد بجانب حتشبسوت مثلان آخران مدونان في التاريخ المصري وكلاهما دليل على امتزاج الروح المقدسة في دم العائلات الملكية ، وهما أمينوتيس الثالث ابن تحتمس الرابع وبطليموس قيصرون ابن يوليوس قيصر . وكان الكهنة يعتقدون أن هذه الاختراعات إنما هي من المستلزمات السياسية .

وقد حكم تحتمس الأول كذلك باسم زوجته ، فقد كانت أمه مجرد محظية . ولذلك لكي يصبح حكومته الفعلية بصبغة شرعية ويستمر في اعتلائه العرش بصفة مقدسة جعل حتشبسوت شريكة له ولم تزل طفلة .

ثم مات تحتمس الثاني عقب حكم قصير الأمد غير مليء بالأحداث . وهو في سن الثلاثين ، وقد ترك وراءه نهلاً واحداً هو تحتمس الثالث الذي كانت أمه ، إيزيس ، من أصل وضيع . وكان ما زال طفلاً ، ولكن عمه الملكة حتشبسوت نادت به خليفة لها واستمرت تحكم باسمه كما حكمت سابقاً باسم زوجها . ولقد استمرت هذه الحكومة الثانية حوالي 16 عاماً وانتهت في وقت وبطريقة لم توضحها لنا الآثار . وكان حكماً زاهراً يسوده السلام استمرت تجمع فيه مصر الشروات وتبني وتحتمل المعابد وتقيم آثاراً أخرى رائعة .

وكان تحتمس الثالث قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره حينما انفرد بالحكم . وسرعان ما بدأ سلسلة غزواته الجيدة . وكان قد مضى حوالي المائة عام على طرد « ملوك الرعاة » من مصر حيث أمكن إقامة الإمبراطورية على أساس منيع . إلا أن الفضل في ذلك يرجع إلى هذا الحاكم الذي ندين له بسلطنا والذي رفع مصر إلى مصاف الأمم العظيمة بين الدولتين اللتين كانتا

موجودتين حينذاك . وقد استمر حكمه حوالي خمسة وخمسين عاماً بما فيها المدة التي حكم فيها بالاشراك مع حتشبسوت .

وكانت مدة حكمه كلها عبارة عن سلسلة من الغزوات المتتابعة كتب له فيها النصر والتي كان من نتيجتها امتداد حدود الإمبراطورية كما جلبت إلى مصر فيضًا عميقًا من الذهب والفضة والخيل والماشية والأغنام إلى غير ذلك من الحيوانات النافعة وكل أنواع الثروات التي كانت معروفة للتجار في ذلك الحين .

ولقد قام هذا الملك ابتداء من السنة الثالثة والعشرين إلى السنة الأربعين من حكمه بأربع عشرة غزوة ضد الشعوب الآسيوية . وقد قام بالفعل برحلات طويلة شاقة في بلاد غريبة معادية عبر الأنهر والصحراء والجبال وهو يقيم المخصوص والاستحكامات بعد كل هجوم وحصار مدمراً كل قبيلة أو شعب يعرض غزوات ابن الإله آمون المحبوب الظاهر . وعلى حد تعبير اللغة الهيروغليفية امتدت فتوحاته في الجنوب إلى أقصى البلاد داخل أفريقيا وفي الغرب إلى ما وراء صحراء ليبيا وعلى طول شاطئ البحر وفي الشرق والشمال إلى أرض « النهرین » وأعمدة السماء الأربع .

ولقد كان معروفاً بين معاصريه بالفاثع والحاكم للعالم ، وكان ينظر إليه رعاياه المخلصون بالهيبة والخشوع على أنه كائن مقدس . ففي عصره أصبحت مصر صاحبة النفوذ العالمي في كل من التجارة والحروب . وقد ساعده حكمه الطويل الأمد والأموال الطائلة التي كان يجمعها سنويًا من فتوحاته بصفة جزية على تنفيذ خططه ومشروعاته فيما يتعلق بزيادة عدد المعابد لآلهة مصر التي كان يعتبر نفسه من سلالتها وجزءاً منها .

ولقد تقدم الفن المصري في عصره وفي العصور التالية له حتى وصل إلى أقصى درجات الكمال . إلا أن القرون التي مضت لم تترك لنا في أغلب الأحيان سوى أكواخ من الخرائب ، على أن هناك بقايا كافية تمننا بعلمات

مفصلة عن الآثار العجيبة لهذا العصر . وسواء نظرنا إلى عظمة الأفكار المبتكرة الأصلية أو رشاقة الأشكال الضخمة ، أو تناسق وكمال التركيب ، أو جمال وقوة التصميمات الزخرفية ، أو جمال وصدق التنفيذ فإننا نستنتاج أن فنانى القرن السادس عشر السابق للميلاد قد أنتجوا أعمالاً فنية بدعة لم يتفوق عليها عمل من الأعمال منذ ذلك الحين . ذلك أن هذا العصر كان عصر مصر الذهبي في القوة والتجارة ، في الثروة والفن حتى في المؤرخين والشعراء . الواقع أننا مدینون لهؤلاء بتلك المعلومات الوفيرة التي لدينا عن هذا الشعب العجيب .

وتختل مسلات تختمس الثالث مركزاً هاماً بين أعماله الأثرية وتعتبر مسلة القديس جون لاتيران بروما إحدى مسلاته ، على الرغم من أنه يبدو من النقوش المحفورة عليها أنها أنشئت وأقيمت بعد وفاته بوقت قصير بواسطة تختمس الرابع . ولقد قصرت قليلاً ، ولكنها لاتزال مائة وخمسة أقدام في الارتفاع ، وهي أكبر مسلة موجودة فيما عدا المسلة الناقصة الموجودة عند محاجر أسوان . وهي تزن خمساً مائة طن ، إلا أن مسلة أسوان تزن فوق السبعمائة طن . وكانت إحدى اثنتين مقامتين أمام معبد آمون في الكرنك . وتنص الكتابة المنقوشة عليها على « أن الملك قد أقام لآمون هذه المسلات الضخمة في ساحة بيت الإله » .

كما أن الجزء الباقى من إحدى المسلات الموجودة الآن في استنبول كانت من عمله وتنسب إلى أوائل حكمه الانفرادى . وهي تشبه المسلات المصرية الأخرى فهي مصنوعة من حجر الجرانيت الأحمر اللون وقد نقشت كتابتها بالأسلوب الذى كان يتميز به العصر . ويروى لنا الملك هنا قصة غزواته في آسيا : « لقد اجتاز الملك تختمس الثالث كل أراضي ما بين النهرين فاتحاً ظافراً على رأس جيشه . ولقد مدد حدوده إلى قرن العالم وحتى حاجز ما بين النهرين .

أما مسلة كليوباترا وزميلتها القائمة بلندن الآن فقد أقامها تحتمس الثالث أصلًا عند إحدى بوابات معبد الشمس في هليوبوليس ، ربما في أواخر أيام حياته ، حوالي ألف وخمسمائة سنة قبل ميلاد المسيح . ولقد أعاد بناء المعبد القديم وزينه ، كما قام ببناء جدار حول المعبد في السنة السابعة والأربعين من حكمه ، كما يتضح من النقوش .

ولقد أطلق على مدينة هليوبوليس في بعض الأحيان مدينة المسلطات وذلك بسبب المسلطات العديدة التي كانت قائمة فيها . وقد كانت مدينة للمسلطات لأمد طويل قبل عصر ستيتو الأول ، ومع ذلك فإن اسم هذا الملك يذكر في الآثار على أنه قد « ملأ هليوبوليس بالسلطات لكي تضيء بأشعتها معبد الشمس » . وكانت المسلطات ، أو على الأقل النقوش المحفورة عليها ، مطلة بالذهب أو بغيره من المعادن .

وتدل الكتابة المنقوشة على معبد آمون بالكرنك على وجود بعض الأشياء التي وهبها الملك تحتمس الثالث لهذا الإله . ومن بين هذه الأشياء « قيثارة جميلة مرصعة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة الزرقاء والخضراء وغيرها » ، وكذلك تمثال للملك يشبهه تماماً « لم ير مثيله في مصر منذ أيام إله الشمس رع » بالإضافة إلى « مسلطات قد ازدانت بالذهب والفضة والخديد والنحاس كانت تشرق بفخامتها فوق سطح الماء وتملأ الأرض بنورها مثل النجوم تتلألأ فوق جسد الآلة الحديدة نت » .

هذه المسلطات كانت تقام أزواجاً عند بوابات المعابد توصل إليها طرق رئيسية تصطف على جانبيها تماثيل أبو الهول . ولم تكن هليوبوليس إحدى المدن القديمة الشهيرة بآثارها وبعبادة العجل منفييس فحسب ، بل كانت مركزاً للعلم والمعرفة في مصر لعدة قرون . ولقد حضر إلى هليوبوليس الكثير من فلاسفة اليونان في سنواتها الأخيرة لكي يضيفوا إلى علمهم فيضاً من حكمة كهنتنا .

ولقد انقضى تاريخ هليوبوليس الطويل المجيد على حين فجأة بغزو الفرس للديار المصرية عام ٤٢٥ ق.م. ولو أن الكهنة قد أعادوا فيما بعد عبادة إله الشمس الذي كان يتمثل في العجل المقدس منفيس ، إلا أن المدينة بقيت خاوية الوفاض .

ويروى هيرودوت أن قمبيز وعد والدته وهو في العاشرة من عمره أنه عندما يصبح رجلاً سوف « يقلب مصر رأساً على عقب ». وقد نفذ وعده بحدافيره . وليس لدينا معلومات تاريخية عن تفاصيل تدمير المدينة المقدسة ، ولا يمكننا أن نحكم على الأعمال التي ارتكبت إلا بما كان عليه طابع الفرس الفظ التي انتهك الحرمات ودنس المقدسات وبالحالة التي وجدها اليونان والرومان فيما بعد . وعندما قام سترايو بزيارتها ، بعد ذلك بخمسين سنة ٤٢ ق.م. قبيل إنشاء مسلة الإسكندرية بحوالي ١٢ سنة لم يوجد إلا مدينة قاحلة ، إلا أن الكهنة المخلصين كانوا لا يزالون يتبعدون في معبداتها الخرب ، وهم متمسكون بدینهم القديم :

هنا في هليوبوليس يمكن للإنسان أن يرى من فوق ربوة عالية معبد الشمس حيث يستقر في أحد هياكته العجل المقدس منفيس . وهم يعتبرونه إلهًا مثل عجل أبيس الذي يعبد في منفيس . وتشاهد أمام هذه الربوة عدة بحيرات تغذيها قناة على مقربة منها . وقد أصبحت المدينة في وقتنا هذا مهجورة تماماً . أما معبداتها القديمة المبني على الطراز المصري فيشتمل على الكثير من الآثار التي تدل على غضب قمبيز وروحه المولعة بتدنيس المقدسات ، فقد دمر المباني المقدسة وشوهرها بالنار والقوة الغاشمة . وبهذه الطريقة أحرق أضراراً بلغة المسلاط ، أما المسلطان اللثان لم تصابا بسوء فقد نقلتا إلى روما . أما بقية المسلاط سواء وجدت هنا أو في طيبة فالبعض منها لا يزال قائماً وقد أكلته النار والبعض الآخر ملقى على الأرض .

من هذا الوصف يتضح السر في استدارة قاعدة مسلة كليوباترا وما أصاب

جوانبها من الأضرار . ولقد بقيت هي وزميلتها ملقة على الأرض في هليوبوليس منذ عصر غزو الفرس لمصر حتى نقلها الرومان إلى الإسكندرية . ولم تكن ملقة على الأرض فحسب بل كانت مشوهة بسبب فعل قمبيز ملك الفرس كما أنها لاقت الكثير من قلويات التربة والنيران التي كان يشعها الأهالي من وقت لآخر على مقربة منها لإعداد طعامهم لمدة خمسمائة عام .

وهلি�وبوليس لا تبعد عن القاهرة إلا مسيرة ساعة بالعربة . وأول ما يصادفك فيها هي المسلة المنفردة في الحقول البعيدة ، كما تشاهد على مقربة منها بعض الآكام والآثار الناتئة من الأرض التي تكون هي والمسلة العلامات التي تميز موقع هذه المدينة التي كانت شهيرة فيما مضي . هذه المسلة هي أقدم المسلطات الكبيرة التي اكتشفت . وقد أقامها أوسرتسن الأول أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة ، قبل عصر تحتمس الثالث بحوالي ألف سنة . وقبيل ميلاد إبراهيم بعده قرون ، حتى قبل عصر الطوفان ، استطاع كهنة هلليوبوليس أن يقرأوا النقوش المحفورة على عمق كبير على جوانب هذه المسلة والتي نقرأها اليوم . ونفس الكتابة مكررة على كل جانب . وفيما يلي ترجمتها :

حور الشمس

واهب الحياة لهؤلاء الذين يولدون

ملك الوجه القبلي والبحري

خفر قرع

رب التاج المزدوج

واهب الحياة لهؤلاء الذين يولدون

أوسرتسن

صديق روح عون

خالد على مدى الدهر

حور المجيد

واهب الحياة لهؤلاء الذين يولدون

الإله الخير

نحضر قرع

قد أقام هذا البناء

في أوائل الدورة الثلاثينية

واهب الحياة إلى الأبد

وكان أوسرسن أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة العظام ، وكان عصره زاهياً امتد خمسة وأربعين عاماً بما فيها العشرة الأعوام التي اشتراك فيها مع والده في الحكم . وفي العام الثالث من حكمه أمر بعد التشاور مع كبار موظفيه بإقامة المباني لـإله الشمس « رع » ، كما قام بتوسيع المعبد الذي كان قد حل فيه القدم حتى في ذلك العصر الغابر . وعندما أتم البوابة الكبرى أنشأ عند مدخلها مسلتين إحداهما المسلة القائمة الآن . أما المسلة الأخرى فقد ورد ذكرها كثيراً في كتابات اليونان والعرب الأقدمين ، وبقيت قائمة مكانها حتى عام ١١٦٠ بعد الميلاد عندما سقطت وتهشممت . وكان الهيكل الهرمي الذي يعلو هذه المسلات مغطى بطبقة نحاسية ثقيلة الوزن عظيمة القيمة ، كما نقشت عليها أشكال مختلفة .

ولقد عمرت مسلة نيويورك قبل نقلها من المدينة المقدسة طويلاً ، فقد عمرت طوال عصر مصر الذهبي ، كما أطلت على موسى في صباحه عندما كان يذهب يومياً مع أولاد الأشراف لتلقى العلوم على يد كهنة معبد الشمس . وكان موسى من جهته ينظر باعجاب إلى تلك النقوش الhero غليفية

التي كانت مغطاة بطبيقة ذهبية والتي حيرت علماء العصر الحديث ، والتي كان يقرؤها موسى كما يقرأ الطالب دروسه اللاتينية . كما شاهدت شعب الله المختار أيام اضطهادهم وشاهدت الاضطراب الذي تملّكهم إبان الخروج - والكهنة يروحون ويفدون مسرعين بينما أخذت الجماعات من الناس في الأماكن العامة يناقشون ذلك الحدث العظيم .

كما شاهدت بعد ذلك مرور ثمانية قرون على حكم الفراعنة ، ولم تشهد هؤلاء الفراعنة فحسب بل شهدت كذلك الآلاف من طلاب العلم الذين جاءوا ينشدون المعرفة في مدينة العلم الشهيرة . وإلى جانب ذلك شاهدت غزو الفرس لمصر ورأت مدينة عون ومعابدها وهي تتقوض ، كما وقعت هي ورفقاتها من المسلات فريسة انتقام جنود قمبيز المخربين .

وبقيت هذه المسلة ملقاة على الأرض حيث تركها الفرس ، وهنالك كانت تشاهد أفلاطون في جولاته اليومية تتبع دراسته للفلسفة وعلم الفلك ، كما شهدت بعد ذلك قدوم الإسكندر الأكبر إلى الآثار القريبة منها والاستقبال الحار الذي لاقاه به الشعب بصفته منقذًا لهم من نير الفرس ، ثم شاهدت بعد ذلك حكم البطالسة الذي دام ثلاثة عشر عام .

وفي عصر القياصرة نقلت من بين الخراب والأطلال التي كانت في تلك المدينة الداخلية إلى ذلك الميناء الكثير الحركة ، ميناء الإسكندرية . وهنالك أقيمت على شاطئ البحر وكأنها منارة للبحارة لدى ألف وتسعمائة سنة ، كانت ترقب الأمواج المتلاطمـة وغدو السفن ورواحها في جانب والمناظر المختلفة للأحداث البشرية في الجانب الآخر .

كم شاهد هذا النصب القديم وهو قائم على شاطئ الإسكندرية من الثورات والفتن والغزوات والفتحات والصراع بين عبادة الأوثان والمسيحية وبين المسيحية والديانة الإسلامية والنضال الذي كان قائماً بين مختلف الأسر العربية والتركية وعهود السلاطين والخلفاء والممالـك ، وغزو نابليون لمصر

والموقع البرية والبحرية بين الإنجليز والفرنسيين . أما ما سوف تشاهده هذه المسلة خلال القرون القادمة في مقرها الجديد في العاصمة التي لم يكن لها وجود حينما كان عمر هذه المسلة ثلاثة آلاف عام ، فلا يمكن أن يقص نبأ إلا المؤرخون الذين سيولدون في المستقبل القريب .

وكان للقدماء المصريين آداب تفوق آداب أي شعب آخر من الشعوب القديمة ، ولم يصلنا منها إلا النذر اليسير . وقد حفظت المثاث من الكتابة والنقوش على الأحجار وأوراق البردى . وكلما تعمق الطالب في دراستها ازداد إعجابه بها . ويتناول بعض هذه الكتابات الأحداث التاريخية بينما يتناول البعض الآخر العقائد الدينية .

أما النقوش التي وجدت على المسلاط فهي أقل النقوش المصرية إثارة للاهتمام ، ذلك أنها كرسـت ل مدح الملوك لأنفسهم والثناء عليها وتأكـيد نسبـهم إلى الآلهـة . والنقوش الموجودة على الشـكل الهرـمي ، وكذلك الأعمـدة الوسطـى لـمسـلة نيـويـورـك إنـما قـام بـتدـوـينـها تـحـمـسـ الثـالـثـ . وقد استـخدم رـمـسيـسـ الثـانـي بـعـد ذـلـك بـثـلـاثـمـائـة سـنـة الفـرـاغـ المـوـجـودـ عـلـى كلـ من جـانـبـي العمـودـ المـتوـسـطـ . ولمـ يـكـن رـمـسيـسـ الثـانـي مشـهـورـاً بـأـعـمالـ الـعـدـيدـ الـعـظـيمـ فـحـسـبـ ولـكـنهـ كـانـ يـنـسـبـ كـذـلـكـ أـعـمـالـ سـلـفـهـ إـلـى نـفـسـهـ اـبـغـاءـ الشـهـرـةـ . وـالـعـمـودـانـ الـخـارـجـيـانـ اللـذـانـ نقـشـهـما عـلـى كـلـ وـجـهـ من أـوـجـهـ المـسـلـةـ تـبـيـنـا بـأـعـوـامـهـ الـمـيـعـةـ بـالـخـيـرـ وـعـنـ اـنـتـصـارـاتـهـ الـبـاهـرـةـ وـأـنـهـ اـبـنـ إـلـهـ الشـمـسـ «ـ رـعـ »ـ قدـ انـحدـرـ مـنـ صـلـبـهـ .

وبـعـد ذـلـك بـأـربعـمـائـةـ عـامـ ، وضعـ أـوـسـرـكـنـ الـأـوـلـ عـلـى مـقـرـبةـ مـنـ الـحـافـةـ الـخـارـجـيـةـ لـكـلـ وـجـهـ الـمـسـلـةـ بـالـقـرـبـ مـنـ قـاعـدـتـهـ ، نقـوشـا تـبـيـنـ لـلـأـجيـالـ الـقـادـمـةـ أـنـهـ كـانـ مـلـكـ الـوـجـهـيـنـ الـقـبـلـيـ وـالـبـحـرـيـ ، وـمـنـ سـلـالـةـ إـلـهـ «ـ رـعـ »ـ . هذاـ الـمـلـكـ الـمـعـرـوفـ فـيـ التـوـرـاـةـ باـسـمـ «ـ زـيـراـ »ـ هـوـ الـذـيـ هـزـمـهـ «ـ آـسـاـ »ـ فـيـ مـعرـكـةـ كـبـرـىـ جـنـوبـ فـلـسـطـيـنـ .

وعـلـى الـواـجهـةـ الـشـرـقـيـةـ مـنـ الشـكـلـ الـهـرـمـيـ أـعـلـىـ الـمـسـلـةـ رـسـمـ تـحـمـسـ الثـالـثـ

على هيئة أبي الهول وهو رابض على قاعدة مسکا بكلتا يديه وعائين وهو على
وشك أن يقدم قرباناً إلى رع الذي له رأس صقر ، وهو إله عون (هليوبوليس)
ويلقب تختمس هنا « بـالله الخير » ، « رب الوجهين » ، « منخر رع » ،
« فحل النصر الذي ظهر في طيبة ، ابن الشمس ، تختمس » . وأسفل الوعائين
وسط النقوش التي تقاد تكون مطموسة يمكن قراءة هاتين الكلمتين : « يقدم
النبيذ » .

وفيما يلي ترجمة العمود الأوسط المكتوب بالهieroغليفية والذي نقشه
تختمس الثالث على الواجهة الشرقية لل المسلة :

* * *

الملك العلم

حورس المتوج

فحل النصر

الذي ظهر في طيبة

* * *

رب النسر ورب التيجان

دائم الملك

حتى كالشمس في سماواتها

سليل « توم » رب « عون »

ابنه من صلبه ، ذلك الذي

شكله « تحوت » ،

الذي خلق في المعبد العظيم
 بكمال أجسام الخالقين
 وهو يدرى ما عليه أن يؤديه
 دوام مملكته على مدى الأجيال
 ملك الوجهين القبلي والبحري
 من - خفر - رع (تختمس الثالث)
 « قوم » المحب ، الإله العظيم
 بدورات ألوهيته
 ذلك الذي يهب الحياة بحلوها ومرها
 شأن الشمس إلى أبد الآبدية

* * *

أما ترجمة العمود الأوسط على الواجهة الشمالية فهي كما يلي :
 الاسم العلم
 حورس المتوج
 مشوق القامة تاج الجنوب
 رع المحب

* * *

ملك الوجهين القبلي والبحري

من - خفر - رع « تختمس الثالث »
حورس الجيد ، القانع بالظفر
الذي يقضي على حكام الأمم
مئات الآلاف ،
بناء على أمر رع
الصادر إليه
لأحرار النصر في كل أرض
فتجمعت الفتوحات
إن شجاعة السيف
مجمعة في راحتي يده
لكي يوسع حدود مصر
ابن الشمس ، تختمس الثالث
الذي يهب الحياة إلى الأبد

* * *

نقوش رمسيس الثاني
ترجمة العمود الجنوبي للواجهة الشرقية :
الاسم العلم
حورس المتوج

فحل النصر

ابن خفر - رع

* * *

ملك الوجهين القبلي والبحري

أوسر - ما - رع (رمسيس الثاني) الذي اختاره رع ، حورس المجيد
سنواته حافلة بالخير ، وانتصاراته باهرة

ابن الشمس ، رمسيس الثاني

الذي جاء من الرحم

ليتقلد عرش رع

أعده الإله ليكون الحاكم المطلق

حاكم الوجهين

أوسر - ما - رع (رمسيس الثاني)

الذي اختاره رع ، ابن الشمس

راميسو ميامون (رمسيس الثاني)

الذي مجده أوزوريس

كالشمس يهب الحياة إلى الأبد

* * *

أما العمود الشمالي :

الاسم العلم

حورس المتوج

فحل النصر

رع المحب

* * *

ملك الوجهين القبلي والبحري

أوسر - ما - (رمسيس الثاني)

الذي اختاره رع

الشمس الذي أنجبتها الآلهة

من استولى على الوجهين

ابن الشمس

راميسو ميامون (رمسيس الثاني)

الشاب

المليح الذي يصلح للعشق

كمدار الشمس

حين تتلألأ في الأفق

رب الوجهين

أوسر - ما - رع (رمسيس الثاني)

الذي اختاره رع
ابن الشمس
راميسو ميامون
الذي مجده أوزوريس
الذي يهب الحياة مثل الشمس إلى أبد الآبدين .

* * *

كما توجد بعض النقوش الهيروغليفية المطموسة عند قاع المسلة ، ولقد ترجمت بهذه العبارة : « الإله الرحمن واهب الحياة ، رمسيس الثاني » ، ولقد تكررت هذه العبارة عدة مرات أسفل المسلة من كل جانب .

أما النقوش الأخرى المرسومة على جوانب المسلة المختلفة فهي من نفس الطابع وتكرار إلى حد كبير للنقوش التي أوردنا ترجمتها .

وعلى جانبيين من جوانب الشكل الهرمي يربض رمسيس الثالث على شكل أني الهول وهو يقدم القرابين إلى إله الشمس « رع هرمخيس » (الشمس البازغة) وعلى الجانبيين الآخرين يقدم القرابين إلى توم (الشمس الغاربة) .

الفصل الثامن عشر

ما فعلته مصر لأجل إنجلترا قناة السويس

بمجرد وصولي إلى القاهرة عاد جيش الخديوي الذي كان على وشك القيام بغزو بلاد الحبشة إلى مصر بعد هزيمة منكرة . وقد أحاطت الأنباء الخاصة بالخسائر التي منيت بها الحملة بجو من التكتم .

ففي أغسطس من العام السابق أرسل الخديوي ألفي رجل إلى مصوب لغزو بلاد الحبشة بقصد الوصول إلى تسوية بشأن بعض المظالم المتكررة . ولقد أشيع أن الأحباش قد تخطوا حدودهم إلى السودان للبحث عن الفنائيم مرتكبين مختلف أنواع السلب والنهب . وقد التقت فصائل الخديوي بجيش الوطنيين من الأحباش تحت قيادة الملك يوحنا البالغ عدهم حوالي ٣٠ ألفاً ، فأبادوا قوات الخديوي تماماً ، ولم يبق منها سوى ثلاثين رجلاً نجوا من هذه المذبحة .

وسرعان ما أرسل الخديوي جيشاً مكوناً من ١٦ ألف مصرى لاسترداد هيبة المصريين الضائعة ، وكانت القيادة الاسمية معقودة للأمير حسن ، وهو ابن شاب للخديوى تربى تربية عسكرية في إنجلترا ، إلا أن القيادة الفعلية كانت للطيف باشا الذي أظهر بعض التفوق في خدماته في السودان .

ولقد رافقه في القيادة لورنج بصفة مستشار . وطبقاً للمعلومات التي أعطاها الجنرال للمؤلف أوصي الخديوى لطيف باشا بأن يلتزم نصائحه في كل

تحركاته العسكرية .

وكان الجنرال لورنج مواطناً من فلوريدا . وعندما كان طفلاً حديث العهد بالحياة فر هارباً من منزله متوجهاً إلى تكساس حيث اشتراك في الحرب التي كانت قائمة بين أهل هذه الولاية تحت قيادة الجنرال « سام هوستن » وبين المكسيكيين تحت قيادة ستانانا ، كما خدم كضابط تحت إمرة الجنرال سكوت في الحرب المكسيكية ، وأظهر تفوقاً في معركة نصف بوابات مدينة المكسيك ، تلك المعركة التي فقد فيها ذراعه ، كما اشتراك بعد ذلك في حروبنا الهندية على الحدود الغربية ، ثم أصبح كولونيلاً في جيشنا عند بداية حرب الانفصال . واستقال بعد ذلك من منصبه والتحق بخدمة الحلفاء ، وأصبح جنرالاً . وكان ضابطاً مقاتلاً باسلاً ، ولكنه لم يظفر إلا بنجاح متوسط .

وبعد انتهاء هذه الحرب بعده سنين ، وكان قد خرج من الخدمة ، التحق بجيش الخديوي برتبة جنرال . ولقد زعم أنه اشتراك في حوالي ٧٥ معركة . وكان رجلاً مهذباً أنيساً حسن العشر ، ولكن الدم الجنوبي الحار كان يجري في عروقه كما كان ذا مزاج يصعب التحكم فيه ، وقد أدت هذه الصفة الشاذة فيه ، في رأي بعض كبار الموظفين المصريين ، إلى النتائج السيئة للحملة الحبشية .

بعد مسيرة بضعة أيام داخل بلاد الحبشة التقى الأحباش بالجيش المصري وهزموه هزيمة منكرة . وقد تجاهلت نصيحة الجنرال لورنج تماماً ، وكان من رأيه أنه لو اتبعت نصائحه لنجح الجيش في غزواته . على أن التجارب الحديثة للإيطاليين دلت دلالة واضحة على أن غزو بلاد الحبشة إنما هو عمل شاق .

أما نجاح الإنجليز عام ١٨٦٨ فقد كان يرجع إلى خلافات ومنازعات بين أهالي الحبشة وال الحاجة إلى وجود قوة مركبة حاكمة .

ولم تكن الهزيمة الثانية التي حاقت بالمصريين أشد من الهزيمة الأولى أو أشد

خسارة من تلك التي حاقت بالإيطاليين . وقد نزلت بالأحباش أنفسهم خسارة فادحة ، واستطاعت الحكومة المصرية أن تسحب جيشهما ، وتعيد السلام على أساس ما سمي « بالشروط الشريفة » .

ومن المحتمل أن يكون الخديوى قد أرسل حملته الصغيرة الأولى إلى مصوب بقصد الاستيلاء على مديرية صغيرة كانت تقع بين هذا المكان وبين السودان . ولم يكن الشروع في غزو بلاد الحبشة أو جزء هام منها إلا ضرباً من ضروب الطمع مما عجل بإرسال حملة كبيرة أخرى باهظة التكاليف . فقد تكلفت هذه الحملة ، إلى جانب الخسائر في الأرواح ، ما يربو على خمسة ملايين دولار ، فقد نقل الجيش من مختلف أنحاء مصر إلى السويس ثم بطريق البحر إلى مصوب وهي مسافة تزيد على ألف ميل . كما نقلت معه كافة المواد الغذائية الازمة ، وكافة وسائل النقل التي تصلح في بلاد وعراة معادية حالياً من الطرق أو وسائل المدنية .

وكان الخديوى قد غزا وضم إلى ممتلكاته أقاليم فسيحة في أفريقيا الوسطى ، وفرض نفوذه من مصب النيل حتى منابعه في بحيرات البرت وفكتوريا نيانزا ، وهي مسافة تزيد على ٣٠٠ ميل عن طريق النهر . وكان نفوذه على كل هذه الأقاليم لا منازع فيه . فكانت كلمته قانوناً ، وكانت حياة وحرية ستة ملايين نسمة من المصريين لا بأس بها ، بينما أكثر من هذا العدد في السودان وأفريقيا الوسطى كانوا خاضعين لسلطانه وإرادته . وكانت الحرب الحبشية أول عائق في سبيل مشروعاته الكبرى لتوسيع ممتلكاته ، ومن السهل إدراك شعوره بالفشل في هذا السبيل .

ولأننا لنفترض الكثير إذا قررنا أن طبيعة الحكم الشرعي 'تقابل الحقائق بروح طيبة ، ذلك أن ضباط إسماعيل الوطنيين ، لكي يتجنبوا شر فضيحتهم ، أحذوا ينحون باللائمة على الأميركيين ، وبذلك بثوا في طريقهم العقبات حينما أرادوا تسوية حساباتهم عند استرداد ديونهم بعد ذلك بعامين .

ولقد وجهت عدة اتهامات إلى الجنرال لورنج والكولونيل داي رغم أنه لم يقاتل بشجاعة أو يتفاني في إنقاذ المصريين من الهزيمة سوى الكولونيل داي . ومع ذلك ، حينما لم يعثر على حقائق تدينه بأية تهمة ، صدر الأمر بالقبض عليه ومحاكمته أمام محكمة عسكرية لأنّه صفع بيده أحد مرءوسيه من الضباط الوطنيين . وقد بلغت به الحال حدّاً جعلته يلتجأ إلى القنصلية العامة بطلب الحماية وظل هناك عدة أيام . وبعد عدة مقابلات مع الخديوي ، اعتبرت المسألة منتهية . وعند فصل الكولونيل بعد ذلك بستين حصلت له على مكافأة قدرها خمسة آلاف دولار تعويضاً له عن جرح أصاباه في معركة الحبشة وكان لا يزال يعاني منه . وقد حصلت على نفس المبلغ أيضاً للكولونيل كولستون نظراً لضياع صحته في السودان .

. وبعد مفاوضات طويلة ممّلة تقررت استحقاقات جميع الأميركيين الذين خدموا كضباط في جيش الخديوي ويبلغ عددهم أربعين ضابطاً ، وقد سوّيت حساباتهم ودفعت بشكل مرض .

أما بالنسبة للمالية المصرية فقد كانت الحرب الحبشية هي « آخر قشة قصمت ظهر البعير » . وفي أثناء تنظيم شركة لإنشاء قناة السويس وبعد أن باع المسيودى لسبس كل ما أملكه يبعه في أوربا من أسهم الشركة البالغ رأس مالها ٢٠٠ مليون فرنك ، لم يبق إلا ٦٤٢٧٧٦٢ سهماً من عدد الأسهم البالغ عددها ٤٠٠ ألف سهم . وحينشد اشتري سعيد باشا الذي كان حاكماً مصر حينذاك الأسهم الباقية باسم الحكومة ودفع في ذلك مبلغاً يزيد على ١٧٥٠٠٠٠ دولار .

وعند تجهيز الحملة الثانية لغزو بلاد الحبشة أصبح مركز مصر المالي في منتهى الخطورة . ولم يقف الأمر عند حد دفع ١٠ أو ١٢ أو حتى ١٤ في المائة قيمة فوائد على المبالغ التي كانت الحكومة مданة بها ، بل كانت تصل الفوائد إلى ٢ % شهرياً على القروض الموقته وعلى الديون التي انتهى أجلها .

وحتى ذلك الوقت لم يقصر الخديوي عن التزاماته في دفع ديونه ، ولكن وجد من العسير الحصول على الأموال الازمة للإنفاق على الحملة الحشية الباهضة التكاليف . ولراء هذه الحنة ، أخذ يتفاوض بشأن قرض بضالة نصيبه من أسهم القناة .

وطن أصحاب البنوك الفرنسيون أن الفرصة قد ستحت لهم للتعاقد على صفقة باهضة الربا ، فأخذوا يطالبون بفوائد قيمتها عشرة واثنتا عشرة في المائة . وجرت محاولة لتكوين نقابة في باريس لدفع المبلغ . وكان المبلغ المطلوب كبيراً والحصول على الأموال أمراً عسيراً . كما كان لبعض أصحاب البنوك الذين طلبت مساعدتهم شركة في لندن . وتحت تأثير هؤلاء الشركاء « ألقوا ماء بارداً على المشروع » وعملوا على تأخير المفاوضات . ثم قدم طلب إلى الوزارة الفرنسية لبذل معونتها . وكان الرأي السائد أن ضمان أسهم قناة السويس يعتبر صفقة ذات أهمية وطنية بحيث ينبغي على الحكومة ألا تستخدم نفوذها فحسب بل أن تعاون مالياً كذلك .

وكان هؤلاء الذين يحاولون تكوين نقابة من أصحاب البنوك يظنون أنهم عن طريق هذا القرض إنما سيصبحون أصحاب هذه الأسهم ، وأن القرض ما هو إلا عملية شراء في الواقع . وكان المسوودي كاز وزير الخارجية الفرنسي في ذلك الحين يخطب ود الإنجليز . وكان يرغب في توطيد الصداقة مع الإنجليز نظراً لسوء العلاقات بين فرنسا وألمانيا ، ولم يكن يرغب في أن يخاطر بالإساءة إليهم مهما كانت الأحوال . ولذا قام بإبلاغ اللورد داربي وزير الخارجية الإنجليزية بأن الأنباء تفيد بأن الخديوي يتفاوض مع شركة مالية فرنسية لبيع أسهمه في قناة السويس ، وسأل عما إذا كان لدى إنجلترا أي اعتراض على هذا البيع وكانت الإجابة السريعة هي « أنه من المؤكد أن تعارض إنجلترا في أن تصبح هذه الأسهم في حوزة شركة فرنسية » .

ورأى دزرائيلي الفرصة واغتنمها ، فتشاور مع المسؤولين بنك روتشيلد

الذين وافقوا على أن يدفعوا المبلغ ويسلموا الأسهـم ثم يتـظـروا الأـوـامـر بـتأـيـيدـ الشـراءـ عن طـريقـ قـرارـ برـلـانـيـ . وـفيـ أـقـلـ مـنـ ثـلـاثـةـ أـيـامـ أـصـبـحـتـ أـسـهـمـ قـناـةـ السـوـيـسـ فـيـ حـوـزـةـ إـنـجـلـتـراـ وـالـشـهـادـاتـ الدـالـةـ عـلـىـ ذـلـكـ بـيـدـ القـنـصـلـ العـامـ الإـنـجـلـيـزـ فـيـ الـقـاهـرـةـ . وـكـانـ دـزـرـائـيلـيـ يـتـصـرـفـ دونـ تـفـويـضـ ماـ ،ـ وـلـكـنـهـ كـانـ فـيـ نـظـرـ الإـنـجـلـيـزـ بـثـابـةـ القـاـئـدـ الـذـيـ يـتـجـاهـلـ الأـوـامـرـ أـوـ يـتـصـرـفـ بـدـونـهاـ لـكـيـ يـحـرـزـ نـصـرـاـ مـؤـزـزاـ . وـكـانـ مـنـ الـيـسـيرـ الـحـصـولـ عـلـىـ قـرـارـ البرـلـانـ . وـقـدـ وـصـلـتـ عـمـولةـ بنـكـ روـتـشـيلـدـ عـنـ هـذـهـ الصـفـقـةـ ،ـ بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ الـفـائـدـةـ الـمـسـتـحـقـةـ عـلـىـ الـدـيـونـ إـلـىـ مـبـلـغـ نـصـفـ مـلـيـونـ دـولـارـ .

ولـقـدـ قـالـ دـزـرـائـيلـيـ للـخـدـيـوـيـ ،ـ عـنـ طـرـيقـ مـمـثـلـهـ الدـبـلـومـاسـيـ فـيـ الـقـاهـرـةـ «ـ سـوـفـ نـشـتـرـىـ أـسـهـمـ قـناـةـ السـوـيـسـ وـسـنـقـدـمـ لـكـمـ الـأـمـوـالـ الـلـازـمـةـ :ـ وـلـنـ نـطـلـبـ سـوـىـ دـفـعـ فـائـدـةـ مـقـدـارـهـاـ ٥ـ فـيـ الـمـائـةـ عـلـىـ الـمـبـلـغـ فـيـ الـشـراءـ خـلـالـ الـفـتـرـةـ التـيـ يـكـونـ لـشـرـكـةـ قـناـةـ السـوـيـسـ فـيـهـاـ الـحـقـ فـيـ كـوـبـونـاتـ الـفـوـائـدـ وـحقـ اـمـتـلاـكـ الـأـسـهـمـ »ـ .ـ وـكـانـ هـذـهـ الـقـيـمـةـ أـقـلـ مـنـ نـصـفـ أـدـنـىـ نـسـبـةـ لـفـوـائـدـ تـدـفعـهـاـ مـصـرـ فـيـ ذـلـكـ الـحـينـ .ـ وـقـدـ تـشـبـثـ الـخـدـيـوـيـ بـذـلـكـ الـعـرـضـ الـمـغـرـىـ وـتـمـ صـفـقـةـ الـشـراءـ قـبـلـ أـنـ يـشـتـمـ الـفـرـنـسيـوـنـ خـبـرـ الـمـفـاـوـضـاتـ ،ـ «ـ ضـرـبةـ كـبـرـىـ »ـ وـجـهـهـاـ دـزـرـائـيلـيـ ،ـ وـلـكـنـهـاـ كـانـتـ ضـرـبةـ قـاضـيـةـ بـالـنـسـبـةـ لـلـخـدـيـوـيـ ،ـ وـتـعـتـرـ أـسـوـاـ غـلـطـةـ سـيـاسـيـةـ وـمـالـيـةـ فـيـ حـيـاتـهـ .

وـفـيـ إـحـدـىـ التـسـوـيـاتـ لـمـطـالـبـ دـىـ لـسـبـسـ ،ـ تـوقـفـ دـفـعـ فـوـائـدـ هـذـهـ الـسـنـدـاتـ وـاـنـتـقـلـتـ قـيـمـتـهـاـ إـلـىـ شـرـكـهـ حـتـىـ عـامـ ١٨٩٥ـ .ـ وـخـلـالـ الـمـدةـ الـبـاقـيـةـ مـنـ تـلـكـ الـحـقـبـةـ اـتـفـقـتـ مـصـرـ عـلـىـ أـنـ تـدـفـعـ ،ـ بـلـ كـانـتـ تـدـفـعـ بـالـفـعـلـ إـلـىـ إـنـجـلـتـراـ ٥ـ فـيـ الـمـائـةـ سـنـوـيـاـ عـلـىـ الـمـبـلـغـ الـتـيـ دـفـعـتـ مـقـابـلـ أـسـهـمـ الـقـناـةـ ،ـ أـيـ حـوـالـيـ مـلـيـونـ دـولـارـ سـنـوـيـاـ .

وـكـانـتـ هـذـهـ أـسـهـمـ بـعـدـ هـذـهـ الـفـتـرـةـ بـحـوـالـيـ سـنـةـ ،ـ أـيـ فـيـ نـوـفـمـبرـ سـنـةـ ١٨٩٦ـ تـساـوىـ ٢٧٠ـ رـ٤١ـ ٢٣ـ جـنـيـهـاـ اـسـتـرـلـيـنـيـاـ .ـ وـكـانـ الـمـبـلـغـ الـمـدـفـوعـ

بالدولارات يساوى ٦٦٦٥٦٢٦ دولاراً ، وبلغت قيمتها في ذلك الوقت ٧٤٦٣٩١١٥ دولاراً ، وكان نصيب إنجلترا الصافي من الربع ٨٥٠١٣٥٩٦ من الدولار، وهو مبلغ يساوى التكاليف الأصلية للقناة . وقد تسلمت إنجلترا أيضاً حتى ذلك التاريخ فائدة قدرها ٢ في المائة على المبالغ التي دفعتها أكثر مما تدفع على التزاماتها الخاصة . ومنذ ذلك الوقت زاد دخل القناة الصافي بشكل كبير بحيث إن سعر الأسهم ارتفع في السوق إلى تسعه أضعاف قيمتها الأصلية ، مما أدى إلى أن يصل ربع إنجلترا أكثر من ٠٠٠٠٠٣٠٠٠ دولار إلى جانب النسبة الكبيرة من الفائدة ، وإلى جانب الأسهم التي تسلمتها منذ سنة ١٨٩٦ ، وبناء على بيان أصدره مجلس العموم في عام ١٨٨١ أدى هذا الفرق في الفائدة الذي كان يصل إلى ١ في المائة و٥١ في المائة إلى تصفية حوال ٥٠٠٠٠٠ دولار (٤١٤٩٩ جنيهاً استرلينياً) من الدين الذي نجم عن شراء هذه الأسهم .

ولم يكن هذا الربح المالي الضخم سوى جزء صغير مما كانت إنجلترا تحصل عليه من هذه الصفقة . ذلك أنها قد حصلت على مصر نفسها ومديرياتها الواقعة في وسط أفريقيا . وكذلك السودان . وهي أراض تصلح لتكوين إمبراطورية . ومن اللحظة التي اشتهرت فيها إنجلترا الأسهم اعتبرت القناة ملكاً لها . ولكي « تحمي مصلحتها » كان من الضروري من وجهة النظر الإنجليزية أن تدير الدولة التي تمر فيها القناة . وكان هذا هو غرضها منذ تلك اللحظة فصاعداً . ولقد وضع السياسيون المهيمنون على الأمر في إنجلترا هذا الغرض نصب أعينهم في كل حركة من حركاتهم على رقعة الشطرنج الدبلوماسية . ولم تقتصر الهمة كذلك عن استخدام أية وسيلة من الوسائل التي تعين على تحقيق هذا الغرض .

ولقد حاولت فرنسا منذ غزو نابليون لمصر أن تحفظ بتفوق نفوذها السياسي في البلاد ، إلا أن إنجلترا كانت العقبة الكثود في سبيل تحقيق هذا المطمع . ولقد نجحت شركة فرنسية ، بمساعدة نابليون الثالث الذي كان قوياً

في ذلك الحين ، في إنشاء القناة . وكان ذلك يتعارض مع رغبة إنجلترا فأبدت معارضة قوية سواء في مصر أو في القسطنطينية . ولقد اعتقد الفرنسيون على إثر إتمام هذا العمل العظيم أنهم قد تفوقوا على الإنجليز بصفة دائمة ، ولوسوف تصبح مرسيليا ليفربول أخرى ، وتحتفظ فرنسا بتفوق نفوذها في أرض النيل .

أدركت بعد ذلك إنجلترا وشعرت أن القناة كانت ذات أهمية كبيرة وكسب بالنسبة لها أكثر من أي دولة أخرى . ومنذ أن تبيّنت هذه الحقيقة وضُبعت نصب أعينها الحصول على أسهم الخديوي في قناة السويس وكان لابد من التكتم المطلق لإحراز النجاح ، وإلا لاحتاجت فرنسا وألمت هي صفة الشراء أو وقت حجر عثرة في طريق بيع الأسهم إلى إنجلترا ، ولذا حينما سُنحت الفرصة ، لم يضيع الإنجليز وقتهم .

ويقول هؤلاء الذين يدعون أنهم كانوا على معرفة بالحقائق أن مسيو دلسبس كان على علم بهذا السر وأنه ساعد الإنجليز سرًا في عملية الشراء . وقد يكون هذا حقيقة ولو أنه غير محتمل ال الواقع . ومن ناحية أخرى يقول البعض أنه كان يبذل مجهودات ضخمة في إنشاء جمعية لشراء الأسهم ، وعلى كل فقد كانت مصلحته في ذلك الوقت تنحصر في الدخل الذي ستجلبه هذه الأسهم وقيمتها المقبلة .

ولقد تباًءَ بأنه إذا كان الإنجليز يبذلون اهتماماً بالموضوع فإن العمل في القناة والإيراد الذي سوف تدره سوف يزداد ، ومن المؤكد أنه لم يجد أي شعور عدائي ضد الخديوي بسبب هذا الضعف . وعلى كل ، فإن الشعب الفرنسي لم يصفح عن سموه قط ، ولم يرضوا عن أي عمل قام به بعد ذلك .

ولقد كان المسيو دلسبس محقًّا بلا شك في قوله عقب شراء الأسهم إن ذلك في صالح شركة القناة ، فإن اهتمام الإنجليز الذي تحقق بهذه الوسيلة أصبح عاملًا له قيمة في زيادة إيرادات القناة . ولم يكن هذا لينجم عن زيادة عدد الأطنان التي سوف تمر من القناة بسبب شراء هذه الأسهم بقدر ما ينجم

عن المعونة التي ستبذلها إنجلترا في سبيل تثبيت الرسوم والمحافظة عليها .

وبدون هذا الاهتمام الذي أبدته إنجلترا ، لم تكن تلتزم الصمت إزاء الرسوم التي تدفعها على حمولاتها الضخمة التي تمر بالقناة والتي ترتب عليها ارتفاع سعر السهم إلى تسعه أمثال قيمته الأصلية . وكانت سوف تجد منذ ذلك الحين « سبباً عادلاً » للجأر بالشكوى وطلب التخفيف بالقوة .

وتحمّل أسباب أخرى للارتفاع الاسمي في قيمة أسهم القناة ، ذلك أن قيمة القناة الاسمية بلغت حوالي ١٩٠٠٠،٠٠٠ دولار ، خصص مبلغ ١٩٠٠٠،٠٠٠ فرنك للأسهم ، واقتراض مبلغ ١٠٠ مليون فرنك بينما اغتصب مبلغ ١٢٤ مليون فرنك ظلماً وعدواناً من مصر بواسطة نابليون الثالث بناء على فتوى منه . وكان هناك مبلغ للفوائد يسد العجز في بداية التكاليف الاسمية للقناة . ولقد دفعت مصر نظير نصيبها من الأسهم ٨٨٨٠،١٠٠٠ فرنك ، ولم يدفع المساهمون الآخرون أكثر من ١١١١٠،١٠٠٠ فرنك . وهكذا ساهمت مصر في رأس المال الخاص بالأسهم بمبلغ ٤٠،٠٠٠،٠٠٠ دولار ، بينما دفع المساهمون الباقون ٢٢ مليون دولار ، أما مبلغ الـ ١٢٤ مليون فرنك (٢٤ مليون دولار) ، فقد أخذت من مصر بطريقة لا يمكن أن نوفيها حقها مهما قدحنا فيها ، فقد كانت خدعة وطنية مشينة .

وكان مشروع قناة السويس بكل نتائجه السيئة بالنسبة لمصر تركّة ورثها إسماعيل باشا عن سلفه سعيد باشا . وكان منح الإذن الأصلي لإنشاء القناة والإمتيازات التي ذكرت في الإذن ، خاضعة لتصديق عظمة السلطان ، وبدون هذا التصديق لم تكن تكون مشروعة . أما بالنسبة لعملية حفر القناة ، فما كان لها أن تبدأ إلا بعد استئذان الباب العالي . ولقد بدأ العمل فيها في ربيع عام ١٨٥٩ بدون تصريح من الباب العالي واستمرت على هذا الحال مدة أربع سنوات .

وعند منح الامتياز الأول بدأت إنجلترا تشن حملة معارضة قوية في

القسطنطينية والقاهرة ، وكانت أحد الأسباب التي تعللت بها إنجلترا لدى السلطان أن فرنسا سوف ترسل بفرق من جنود الزوارق متذكرين في زي عمال لكي يحتلوا مصر . ولكي يزيل مسيو دلسبس هذا الاعتراض الذي أبداه السلطان بإيعاز من اللورد بالمرستون أدخل فقرة في البند الثاني من الامتياز تنص على أن يكون « أربعة أخماس العمال من المصريين » .

وفي أحد بنود الامتياز منحت الشركة حق شق قناة أخرى توصل الماء العذب من النيل إلى قناة السويس . كما نصت فوق ذلك على أنه في حالة شق هذه القناة يجب أن « تتنازل مصر للشركة » عن جميع الأراضي الصحراوية - التي كانت خالية من السكان في ذلك الوقت - التي يمكن أن تروى بهما كما منحت حق امتياز الملاحة في القناة وغيرها من الامتيازات التي كانت كلها رهنا بتصديق السلطان .

وعندما كان المسيو دلسبس على أهبة الاستعداد للعمل قال للوالى إنه ينبغي أن يكون هناك اتفاق بشأن الأجر الذي سوف يتلقاه العمال وأبرمت اتفاقية تحديد أجر البالغين بخمسين سنتاً في اليوم ، وأجر الصبية الذين يبلغون من العمر أقل من ثنى عشر عاماً باثنى عشر سنتاً ونصف سنت ، مع صرف مبلغ خمسة سنتات لكل فرد من الطائفتين مقابل طعامه . وكان الأطفال يستخدمون إلى حد بعيد لحمل القاذورات وتفريفها على الشواطئ .

ولو أن العمل كان قائماً في المناطق الزراعية وعلى مقربة من القرى التي يسكن فيها العمال لكان الأجر كافياً ، ولكن نظراً للظروف التي كانت سائدة بالفعل فقد كان أجرًا زهيداً للغاية .

وقد أنشئت القناة وسط الصحراء على مسافة تتفاوت ما بين ، ١٥ ، ٦٠ ميلاً شرق الأراضي الزراعية . وخلال السنوات الأربع الأولى من العمل في حفر القناة كانت الأغذية والمياه الازمة للعمل تنقل في عرض الصحراء على ظهور الجمال . وكان هناك أكثر من ألف وستمائة جمل أمدت بها مصر

الشركة لاستخدامها في هذا الغرض . وخلال هذه الفترة أمدت مصر الشركة بعشرين أو خمسة وعشرين ألف شخص يعملون بطريق السخرة في شق القناة . وكان يحل محلهم عمال آخرون على فترات تتراوح بين شهر وثلاثة أشهر .

وبناء على بعض المعلومات التي حصلت عليها من بعض المطلعين على الحقائق ، حتى المبالغ الضئيلة التي اتفق على دفعها للعمال لم تكن تدفع لهم في أغلب الأحيان بل إلى الوالي سعيد باشا . ولقد اتضح من القضايا التي رفعت بعد ذلك أن حوالي مليون دولار (٥٠٠٠٠٠ فرنك) من المبالغ الصغيرة المستحقة لهؤلاء الناس الذين كان من بينهم نسبة كبيرة من الأطفال ، لم تدفع لأي شخص منهم . والأدهى من ذلك أنها لم تدفع على الإطلاق . بل حجزت نظير الفائدة المستحقة على التعويضات الناجمة من عدم الاستمرار في توريد عمال السخرة .

وكان الوالي سعيد باشا والسيء دلسيس زميلاً في الصغر عندما كان والد الأخير مثلاً لفرنسا في مصر . وقد أهديت بنود الامتياز بهذا النص : « إلى صديقي المخلص سليل الجد ذي المكانة الرفيعة ، مسيو فرديناند دلسيس » ، وكان البشا رجلاً متوسط القدرة العقلية ، كما كانت صحته قد تدهورت في أواخر أيام حكمه . وكان نفوذ السيء دلسيس الذي كان يتمس بالقوة والأدب والجاذبية نفوذاً يكاد يكون لا حد له . وهذا يعلل إلى حد كبير وجود بعض الشروط الملفتة للأنظار الذي كان يجري بمقتضاه العمل حتى بعد وفاته .

وأثناء القيام بالعمل طبقاً لشروط الامتياز الذي لم يكن قد صدق عليه بعد من السلطان كان السفير البريطاني يبذل جهوداً متواصلة لبث العقبات في طريق المشروع . ومن الأسباب التي أبدتها السفير لكي يبحث عظمة السلطان لا على أن يمتنع عن التصديق على الامتياز فحسب ، بل لكي يتدخل لمنع العمل ، أن الفرنسيين سوف ينشئون مستعمرة في الصحراء تروي من القناة

العذبة التي بدأت شركة القناة في حفرها ، وأن هذه المستعمرة سوف ت تعرض سيادة السلطان في مصر للخطر ، كما أضاف إلى ذلك أن عمال السخرة كانوا يعاملون بمنتهى القسوة وأنهم كانوا يموتون كالذباب .

وقد استغنت شركة القناة عن موضوع إنشاء مستعمرة فرنسية على الأراضي الصحراوية ، ومن المحتمل أن تكون مخاوف السلطان قد أبلغت إلى الميسيو دلسبس عن طريق السفير الفرنسي في القدسية وكان لها أثرها عليه .

وكانت هناك أسباب أخرى أكثر وجاهة دفعت الشركة إلى هذا العمل ، فقد كانت أموالها على وشك أن تنفد ، وكان من الواضح أنها لن تستطيع أن تنشيء قناة للمياه العذبة تكفى احتياجاتها ، وكان من الجلي كذلك أن قيمة الأرضي الصحراوية ، إذا أمكن الاستفادة منها على الإطلاق ، لن تزيد على قيمة التكاليف اللازمة لجعلها في حالة تصلح للزراعة .

وأصبح إسماعيل باشا واليًا ، وكان على الفرنسيين أن يجروا معه المفاوضات ، ولقد علم أن القناة العذبة يجب أن تصل إلى القاهرة بدلاً من أن تتصل بقناة أخرى للري بالقرب من الزقازيق إذا أرادت الشركة أن تحصل على ما يكفيها من المياه . وادعت الشركة أن ملكيتها لهذه القناة قد تؤدي إلى مشاكل مع الناس الذين يسكنون على طول القناة ومع الحكومة ، واقترحت أن تتنازل عن حقها في إنشاء القناة وتحت الوالي على أن يقبل هذا التنازل ويأخذ على عاتقه القيام بهذا العمل . وفي الوقت نفسه أعادت الشركة لمصر الأرض التي منحت لها والتي كان من المفروض أن تروي بهذه القناة .

وبعد ذلك ببضعة أيام ، أي في ٦ من أبريل سنة ١٨٦٣ بعث السلطان برسالة إلى الأطراف المعنية ، تتضمن نفس الشرط الذي سوف يصدق على أساسه على الامتياز ، وهو أن الفقرة التي تنص على أن « أربعة أخماس العمال الذين يعملون في حفر القناة ينبغي أن يكونوا من المصريين » يجب أن تلغى .

وقد قبلت الأطراف المعنية هذا الشرط .

وعلى هذا الأساس أوقف الوالي جمع العمال عن طريق السخرة نزولاً على إرادة السلطان . ولما كان قد تم التصديق على الامتيازات من السلطان وتم التنازل عن الأراضي وعن حقوق الشركة في إنشاء قناة المياه العذبة لا عن طريق التطوع فحسب بل بناء على طلب الشركة وتعبيراً عن رغباتها ، فإن الوالي قد اعتقد ، وله من الأسباب ما يجعله يعتقد في ذلك ، أن الأمر قد انتهى . ولم يكن قد تعلم الوالي حينذاك كل دروس الدبلوماسية وعظاماتها . أما مسيو دلسبس فقد كان بارعاً في هذا الفن إذ كان دبلوماسياً محنكًا .

وكانت الشركة في حاجة إلى مزيد دمن المال ولا أخفق مشروعها ، ولم يكن العمل قد أحرز تقدماً كافياً بحيث يسمح بعقد قروض تسمح لها باستمرار العمل . وكان سعيد باشا قد أنقذ الشركة من الفشل في أوائل عهدها بأن اشتري الأسهم التي لم يتسر بيعها في أي مكان آخر ، مضيقاً بذلك مبلغ ٤٠٠٠٨٨٠ فرنك إلى أرصدة الشركة .

فلم إذن لا ينبغي على إسماعيل ، في أوائل حكمه ، أن يقوم بعمل أفضل ؟

وكانت الحرب الأمريكية على أشدتها في ذلك الوقت ، وكان القطن المصري مرتفع الأسعار فكان المفروض أن مصر لديها ثروة لا يمكن التكهن بها . واعتقدت الشركة أنه مما لا شك فيه أن في قطر تتمخض فيه الأحداث عن نتائج غير متوقعة لابد أن تجرب فرص النجاح ، ولذلك بدأت الهجوم على الوجه التالي :

أولاً : طالبت بتعويض كبير نظير الخسائر التي لحقت بها من جراء عدم توريد عمال السخرة .

ثانياً : طالبت بتعويض آخر نظير الأرضي الصحراوية التي استردتها الحكومة .

ثالثاً : تعويضاً آخر عن المبالغ التي أنفقت على القناة التي تنازلت عنها الشركة .

رابعاً : تعويضاً آخر عن المبالغ التي كان ستكلفها إتمام القناة .

خامسًا : تعويضاً آخر كذلك عن قيمة المياه التي سوف يتتفع بها المصريون من القناة بعد إنشائها .

ولقد روع الوالي ، ولكن الشركة تجاهلت اعترافاته كافية . وكان القنصل العام الفرنسي والسيو دلسبس مصرین على طلباتهما . وأخيراً أحيلت المسألة كلها إلى نابليون الثالث ليكون الحكم الوحيد فيها ، وكان أشد ملوك أوروبا سطوة في ذلك الوقت ، فكان الوالي يثق في جلاله الإمبراطور ثقة مطلقة ، ولم تساوره أية شكوك عما سيترتب على ذلك من عواقب وخيمة . وبت المحامون الفرنسيون في الموضوع على وجه السرعة ، ووقع نابليون على الحكم الذي أذهل جميع محلفي أوروبا ، ولو لم يكن هذا الحكم يحمل طابعاً خطيراً لا يعتبر أujeوبة من عجائب القضاء . ولقد قرر جلالته للشركة تعويضاً قدره ٣٨ مليون فرنك قيمة الخسائر الناجمة عن إيقاف العمل بالسخرة ، ووجد كذلك أن الشركة لا تعتبر متناولة عن الأراضي والأرباح التي كانت تستعود عليها من قناة المياه العذبة ، إلا على أساس أنها ستتعوض مالياً عن هذه الأرضي والأرباح التي كانت تستعود عليها من هذا الامتياز . وعلى هذا الأساس حكم بإعطاء الشركة مبلغ ٣٠ مليون فرنك نظير ٦٠ ألف هكتار من الأرضي الصحراوية (حوالي ١٢٠ ألف فدان) التي كان من المفروض أن تروي بهذه القناة ، وعشرة ملايين فرنك ادعت الشركة أنها أنفقتها على القناة بما في ذلك نسبة من الفوائد على قيمة الخسائر . بالإضافة إلى مبلغ ٦ ملايين فرنك نظير المياه التي تعتقد الشركة أنها قد تباع إلى أطراف أخرى . وبلغ مجموع هذه المبالغ ٨٤ مليون فرنك .

كما قرر الحكم كذلك أن الشركة كان لها الحق في جميع الأرباح التي

كانت ستعود عليها من القناة لو أنها أنشأتها على حسابها ، مثل المكوس وحق الملاحة واستخدام المياه العذبة التي تحتاجها لنجاح مشروعها .

وحددت كمية المياه التي كانت تستمدها بها القناة بـ ٧٠٠٠٠٠ متر مكعب يوميا ، إذ كانت القناة طويلة بالضرورة ويبلغ طولها حوالي مائة ميل . ولقد تكلف إنشاؤها ٥٠٠٠٠٠ فرنك ، وكان على مصر أن تقوم بتنظيفها وإصلاحها على الدوام . وكانت الشركة تستمد مياهها من هذه القناة دون مقابل .

ومع ذلك كان على مصر أن تدفع ٣٠ مليون فرنك مقابل الأراضي العدية القيمة التي كان المفروض أن تروى من مياه القناة ، وتبلغ ١٠ ملايين فرنك مقابل العمل الذي تم في القناة ، وفائدة معينة على الخسائر التي افترض حدوثها ، ومبلغ ٦ ملايين نظير المياه التي كانت تتوقع الشركة أن تبيعها لجهات أخرى .

ومعنى هذا أن مصر قد منحت الشركة حق إنشاء القناة دون مقابل والاستحواذ على كل ما يترتب عليها من فوائد ، كما منحتها أيضا بعض الأرضي التي يمكن أن تروى ب المياه . ثم تنازلت الشركة عن المشروع ورددت الأرضي دون شرط ، وعلى كل ، يجب على مصر أن تنشئ القناة على حسابها الخاص ، ولن يقتصر الأمر على أن تتبع الشركة ب المياه ، بل يجب أن تقاضي تعويضاً عن جميع الأرضي التي كان يمكن أن ترويها لو لم تستخدم الشركة مياهها لأغراض أخرى .

ولكن النهاية لم تكن قد لاحت في الأفق بعد ، ذلك أن النجاح الساحق الذي أحرزته هذه الضربة على مالية مصر شجعت القيام بهجوم آخر . وقد نسيت الشركة بعض « مطالبها العادلة » ، وأعدت هجوما ثائتا ، وكانت التعويضات التي طالبت بها هذه المرة ، مثل سابقتها ، قائمة على غير أساس . ولكن هذا لم يكن بذات أهمية . لقد كانت تعويضات ، وتعويضات يتقدم

بها شخص يعضده نابليون الثالث العظيم ذو السلطة لابد أن تعتبر التزامات . ولا يمكن أن يكون أجنبي مخطيء فقط ، إذ لم يكن هذا الشعب غير المسيحي قد تعلم بعد السبل القوية التي كانت تنتهجها الأمم المسيحية المستنيرة المتفوقة ! ولم يكن مبلغ الـ ٨٤ مليون فرنك ، ومبلغ الـ ٥٠ مليوناً التي ستنفق على قناة المياه العذبة لكي تستخدمها الشركة ، بكافيين لسد احتياجات الشركة . أي إن رطل اللحم الذي اقتطعته الشركة من جسد مصر لم يكن كافياً^(١) .

ومن بين «المطالب العادلة» التي تم اكتشافها كان مطلب كبير خاص بمبان أنشئت من أجل العمال المصريين ، أطلق عليها اسم «المستشفيات والثكنات» ، وهي التي اعتبرت عديمة النفع بالنسبة للشركة نتيجة توقف عمال السخرة . وكان هذا اعترافاً في الواقع بأن الشركة لن تستخدم الأيدي العاملة في إنشاء القناة ، أي أن المصريين لن يستخدموها بعد ذلك . والواقع أن الجزء من العمل الذي كان يمكن أن يقوم به المصريون في إزاحة الأتربة كان قد تم تقريرياً أو كاد يتم في وقت التحكيم .

وكان عمق القناة ستة وعشرين قدمًا ، وعرض قاعها اثنين وسبعين قدمًا بينما يتفاوت اتساع خط المياه فيها ما بين مائتين إلى ثلاثمائة قدم .

وكانت شواطئ القناة التي تكونت من الأتربة في الأماكن الجافة تحفر بواسطة الكبار من العمال ويحملها أطفال السخرة إلى الشواطئ المتحدرة العالية . ولكن جزءاً كبيراً من هذه الأرضي لم تكن جافة ، فقد أنشئت القناة من جانبها الواقع عند البحر الأبيض لمسافة أربعة وثلاثين ميلاً خلال المياه الضحلة لبحيرة المنزلة ومستنقعاتها . وكان عمق هذه المياه يبلغ ما بين واحد إلى ثلاثة أقدام . وكان المرفأ الحفور في هذه البحيرة عند بور سعيد يبلغ اتساعه تسعمائة قدم مقاماً على شريط ضيق من شاطئ رملي يفصل البحيرة عن

(١) يشير بذلك إلى مسرحية (تاجر السنديع) المعروفة . (المراجع) .

البحر . وكانت توجد أيضًا مستنقعات شاسعة على مقرية من السويس . وفي غير ذلك من الأماكن كانت الأرض ترشع بمجرد إزالة الطبقة الرملية السطحية . كما كانت المياه تتدفق إلى القنوات التي لم تتم بعد . وكان المصريون سباحون مهرة ، ولكن الأطفال لم يكونوا ليستطيعوا أن يغوصوا في الماء لاحضار الطين الناعم من القاع . وكان لابد من استخدام الكاسحات في إتمام هذا العمل .

وكان القائمون بالأمر قد تباًوا بوقوع هذه الحالة واتخذوا الاحتياطات الازمة ، فقاموا بشراء الكاسحات وتركبيها ، وكانت قد بدأت العمل بالفعل عندما عرض التحكيم . ومع ذلك ، فإن من بين الأسباب التي استند إليها المحامي الفرنسي في طلب التعويض الخاص بالعمل هو الزيادة المزعومة في تكاليف إنجاز العمل إذا استخدمت الآلات الميكانيكية .

وللدلوماسية أساليب ملتوية غامضة ، إذ استطاع السفير الفرنسي في هذه الحالة أن يؤخر قرار السلطان الخاص بالسخرة لمدة أربع سنوات معتمداً على نفوذ نابليون القوى حتى أصبح هذا النوع من العمل عديم الفائدة . وعندما حل هذا الميعاد ويصبح من الضروري العمل بالسخرة فإن السلطان يأمر بالكف عن العمل بطريق السخرة في سبيل الإنسانية وحرصه على رفاهية وسعادة رعاياه !

ومن بين «المطالب العادلة» التي كانت منسية كان حق الصيد في مياه القناة العذبة الشهيرة . وكان هذا الحق سيكون وفقاً على شركة القناة لو أنها قامت بإنشاء القناة . على الرغم من أنها تنازلت عن حقها في هذا العمل وعلى الرغم من أن الحكومة المصرية ستقوم به على حسابها الخاص .

وقد قرر نابليون أن تنازل الشركة لا يعني التنازل عن المطالبة بحقوقها في الفوائد التي كانت ستترجم بمقتضى امتيازها الأصلي . وعلى هذا الأساس كان ضمن التعويضات التي نص عليها قرار جلالته مبلغ ٦ ملايين فرنك نظير المياه التي كان يمكن بيعها .

ولم لا تدفع مصر إذن تعويضاً في مقابل حق الصيد في هذه المياه الوفيرة السمك ؟ وحقوق الصيد في مصر تعتبر ذات قيمة كبيرة إذ أن الحكومة تحصل على دخل منها يصل إلى مبلغ كبير . وقد دخل في روع المحامي الفرنسي أن القناة سوف تخرج بأنواع زاخرة من السمك . وهذه سوف تتزايد مثل تزايد السمك على شاطئ بحر الجليل ، وسوف يصطاد الأهالي في شباكهم البسيطة بكميات وفيرة .

وليس من الضروري هنا أن نتبع تفاصيل هذه المطالب أكثر من هذا ، فقد كان الرعب يتملك الوالي ، وكان شأنه شأن جيش مدحور على استعداد لأن يخضع لأي شرط من شروط التسليم . ولكي يعفى الوالي من المزيد من الاكتشافات وافق على دفع مبلغ ٣٠ مليون فرنك مضافاً إليه مبلغ ١٠ ملايين فرنك قيمة قطعة من الممتلكات التي كانت الشركة قد دفعت ثمناً لها مبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ فرنك منذ مدة وجيبة ، وبلغة الأرقام وصلت قيمة هذين البنددين الأخيرين إلى مبلغ ٨ ملايين من الدولارات .

ولم يكن لدى الحكومة إذ ذاك أموال تدفع منها قيمة هذا العرض البسيط من أجل الصلح . وكان الميسو دلسبس الوديع يقول : ليس هناك أبسط من هذا . فبالنسبة للبند الذي يستحق مبلغ ٣٠٠٠٠٠٠ فرنك لن نطلب عنه مالاً ، فلسوف نحصل عليه من فوائد الكوبونات المستحقة لنصيبك من أسهم القناة (ومن الطبيعي أن يكون الخصم بسعر الفائدة الجارية التي كانت حينذاك تبلغ حوالي ١٠ في المائة) ولن نطلب منك أكثر من أن تلقى جانبها بحقك من أرباح نصيك من الأسهم . وكانت أسهم القناة تستحق فوائد مقدارها ٥ في المائة من يوم إصدارها . وهذه لابد أن تدفع قبل أن توزع أرباح الأسهم . ولم تكن القناة قد تمت ولم يكن ثمة إيراد ، ولذا لم يكن هناك أرباح ، ولن تكون هناك أرباح لعدد من السنين . ووافق الوالي بالقوة على هذه المقترفات . وعمل حساب الخصم الخاص بالكوبونات فوجد أن مبلغ ١٢٥ مليون فرنك الخاص بالكوبونات سوف يؤخذ في مقابل ٣٠٠٠٠ فرنك . وقد استنفت هذه

العملية فوائد الكوبونات ، حتى عام ١٨٩٥.

هذا بيان موجز لأحد المشروعات التي كانت « تذلل للمصريين » وهي خدعة لم ينطل مثلها كما انطلت على شعب كان المحتالون يبعثون إليه بالمبشرين لكي يلقنوا أفراده تعاليم المسيحية .

وبالإضافة إلى عمل السخرة الذي استمر أربع سنوات والبالغ التي بنيتها قدمت الحكومة المصرية عدداً كبيراً من الجمال استخدمتها الشركة في أغراضها بلا مقابل يذكر .

هذا وإن المبالغ التي دفعتها الحكومة تلبية لهذه المطالب بما فيها منافع أعمال السخرة وقيمة المياه العذبة ، وتشغيل الجمال بلا مقابل تساوى ، على أقل تقدير ، ما يقرب من نصف قيمة القناة الأصلية . وليس هذا التقدير قاصراً على رأي المؤلف فحسب ، بل أقره رجال آخرون مثل رياض باشا الذي تولى رئاسة الوزارة المصرية مدة طويلة تحت الإدارة الإنجليزية الفرنسية وغيره من الرجال الأكفاء المطلعين على دقائق الأمور .

ولو كانت القناة قد أنشئت في ظروف عادلة عن طريق العمل الاختياري في مقابل أجور معقولة ، ولو أن الشركة قد قامت بإنشاء قناة المياه العذبة الخاصة بها ، لزادت النفقات عن ذلك زيادة كبيرة ، وكانت قناة المياه ستتكلف الشركة ضعف ما تكلفت مصر في إنشائها ، أما عن الأرض الصحراوية فلم يكن لها قيمة تذكر .

ومن تفصيل ما ذكر يمكن إدراك أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى زيادة قيمة أسهم القناة ، ذلك أن كوبونات الفوائد المستحقة لمدة تربو على ثلاثة عاماً والتي كان من المفروض أن تدفع سنوياً قد خصممت من حوالي ٧/١٦ من الأسهم ونقلت إلى الشركة . وهذه العملية وحدتها اختصرت من قيمة المصارييف الثابتة على الشركة مبلغ مليون دولار سنوياً خلال هذه الفترة ،

كما أن الحق في الأرباح حتى عام ١٨٩٥ أي لمدة خمسة وعشرين عاماً من افتتاح القناة قد تنزل عنده كذلك .

ولولا المعونة التي قدمتها مصر طوعية وأخذت منها قسراً لتعذر إنشاء القناة في ذلك الوقت ، وكان المشروع سوف يثبت فشلاً ذريعاً ، ربما لم يكن يبلغ الحد المروع الذي وصلت إليه مغامرة إنشاء قناة « بنما » ولكنها كانت ستصبح شيئاً من هذا القبيل .

وبالرغم من كل هذه التضحيات وبذل المال لم تحصل مصر على أية منفعة ، فقد كلفت القناة مصر خسائر جسيمة أثرت على تجاراتها ، إذ كانت لها تجارة بحرية واسعة فقدتها كلية ، وتمر السفن محملة بيضائع وفيرة خلال القناة التي تشق الصحراء شرق أراضيها الزراعية ، ولكنها لا تعود على مصر بالفائدة كما كانت تمر خلال البحر الأبيض المتوسط .

ولأن الشروط التي وضعناها لإتمام قناة بنما إنما تضرب لنا مثلاً واضحاً على الفرق بين طريقة معاملتنا للدول الأمريكية الصغيرة وبين معاملة الحكومات الأوروبية للدول الشرقية غير المسيحية ، إذ أنها بعد أن قمنا بدفع قيمة ما تكلفه الفرنسيون نظير العمل الذي أنجزوه ، دفعنا مبلغ ١٠ ملايين من الدولارات في مقابل حقنا في الإشراف على أراضٍ كافية تك足نا من إتمام القناة وضمان صيانتها واستخدامها . ولم نطالبهم بمساعدة عن طريق عمال السخرة كما حدث في مصر ، ولم نطالبهم بأي تعويض عن رفضهم إمدادنا بهؤلاء العمال . كما أنها لم نطلب إنما بإنشاء قناة عذبة تتكلف مصاريف باهظة (كما قامت مصر بإنشاء قناة المياه العذبة التي لا غنى عنها) وذلك للارتفاع بمياهها ، وبأن تدفع لنا مبالغ لا عن جميع الأراضي التي يمكن ريها بهذه المياه فحسب ، بل عن جميع المنافع التي تترجم عن استخدام هذه المياه . بصرف النظر عن التعويضات الخاصة بحق الملاحة وبحق الصيد في هذه المياه .

ولم تكن إنجلترا مسؤولة بحال من الأحوال عن الأسلاب التي اغتصبت من

مصر خلال إنشاء القناة ، ولكن فوائد هذه الغنائم كانت لها ، إلى حد كبير ، ولم يكن في نيتها أن تعيد أي جزء منها إلى هذا الشعب الذي اغتصبت منه . وكانت التجارة التي تمر بالقناة إنجلizerية في الغالب ، وكانت تزيد من دخل الإنجليز ملايين من الدولارات بالإضافة إلى مبلغ المائة وثلاثين مليونا من الدولارات قيمة القرض الخاص بتصنيعها في أسهم القناة .

وكان القرض الأول الذي عقدته مصر بغرض الحصول على أمواله لشركة قناة السويس . ولقد دفعت فوائد ، باهظة عادة ، على هذا الدين لمدة أربعين عاماً ، وقدر لها أن تواصل دفع هذه الأقساط إلى أجل غير مسمى ، وترجع كل هذه الأعباء التي أقيمت على كاهل شعب مظلوم إلى الامتيازات التي كانت تبدو بريئة تماماً في ظاهرها .

وقد نص صراحة على أن الشركة تتولى إنشاء القناة برمتها دون تحمل مصر أية تكاليف ، ولكن هكذا يكون مصير الأمم الضعيفة .

الفصل التاسع عشر

مأساة إسماعيل صادق باشا

بمجرد وصولي إلى مصر وقعت حادثة - من الحوادث التي يتميز بها الشرق - في مدينة القاهرة ، وكانت عائداً حينذاك من أوروبا إلى مصر في شهر أكتوبر على إثر انتهاء إجازتي التي دامت شهرين . وكان على الباخرة نفسها التي أقتلني المستر ج. ج. جوشن G.J. Goschni وهو أحد أعضاء البرلمان ، وأحد أعضاء وزارة مستر جلاستون السابقين ، والمسيو م. جويرير M.Jaubert من باريس . وكانوا قد جاءوا كممثلين لحملة السندات من الإنجليز والفرنسيين . وكانت مهمتهم هي التوصل إلى تسوية مع الخديوي إسماعيل باشا في صالح دائرته أكثر من العروض التي تقدم بها سموه . وكان الخديوي يقول ما كان ي قوله أي إنسان على علم بأحوال البلاد ، وهو أنه لا يستطيع أن يدفع فوائد أكثر من خمسة في المائة . وهذا لم يرض أصحاب البنوك في باريس ولندن الذين كانوا يتناقضون عشرة وعشرين في المائة ، بل أكثر من ذلك في أغلب الأحيان ، على القروض المصرية .

ولقد تسلمت مصر عن بيع نصيتها من الأسهم ستين في المائة فقط من قيمة الأسهم الإسمية . وقد تسلمت عن الإصدار الأخير سنة ١٨٧٣ الذي كان يبلغ قيمته ٣٢ مليوناً من الجنيهات الاسترلينية مبلغ ١٧ مليوناً فقط ، أي أكثر بقليل من خمسين في المائة من قيمتها . وقد أجبر الخديوي على هذا الإصدار تحت وقع التهديد بفضح حالي المالية ، وقد سددت ثلاثة أرباع الديون

الإسمية على أساس فائدة قدرها ستة في المائة عام ١٨٧٦.

وطبقاً للوثائق الرسمية التي لا يمكن الشك في صحتها ، قامت مصر سنة ١٨٨٢ بتسلييد المبالغ الأساسية التي سلمتها فعلاً بالإضافة إلى فائدة قدرها ٦ في المائة سنوياً ، ومع هذا فإن دينها بقى وما زال باقياً يقدر بمبلغ اسمي قدره خمسمائة مليون ٢١٩ دولار ، وعلى هذا المبلغ الذي كان ثلاثة أرباعه يتكون من الربا في ذلك الوقت ، أصر مستر جوشن ، مستندًا إلى تأييد حكومته المعنوي له ، على أن تدفع مصر فائدة بمعدل ٧ في المائة سنوياً ، كما طالب في الوقت نفسه بتكون لجنة من المراقبين الأوربيين يفوض لهم جمع إيرادات الدولة ويقومون بدفع هذه الفائدة مباشرة إلى حملة السندات .

ولما كانت مصر بلاًدًا زراعية وليس لديها أية مؤسسات صناعية كان لابد من فرض ضريبة سنوية تتراوح ما بين ٦ و ٧ من الدولارات على كل فدان من الأرض ، وذلك لسداد الفوائد المطلوبة ، ولكي تغطى نفقات الأعباء الأخرى الثقيلة للبلاد ، إلا أن القسط الأكبر من هذه الأرضي لم يكن يغطي محصولاً كبيراً ، ولا يمكن جباية مثل هذه النسبة العالية من الضرائب مما تسبب في زيادة الضريبة اللازم تحصيلها على الأرضي ذات الإنتاج الوفير .

یطالب بها مستر جوشن .

وكان إسماعيل صادق باشا وزيراً للمالية المصرية عند زيارة المستر جوشن لها . وكان معروفاً باسم المفتش إذ أنه كان يعمل مفتشاً لأملاك الخديوي الخاصة قبل أن يعمل وزيراً . وكان أخاً للخديوي في الرضاعة .

وعلى الرغم من أنه كان ينتمي إلى طبقة الفلاحين وكانت تربيته ونشأته عادية للغاية ، ورغم أنه لم يكن يتكلم إلا العربية ، ولا يجيد كتابتها إلا أنه والخدبوى كانوا متلازمين في الصبا ، أي أنه منذ طفولته كان في حماية الخدوبي . ومن ثم أصبح سكرتيرا له في بادئ الأمر . وحينما بلغ سن الرجلة عين مديرًا لأحدى ضياعه . وفي سنة ١٨٦٩ اختير وزيراً للمالية وهو المنصب الذي شغله حتى موته .

وكان رجالاً ذا مقدرة طبيعية فذة ، ومديراً فطناً ذكياً له نفوذه العظيم على الخديوي . ولم يستطع أحد أن يقوم بالعمل الذي كان مسنداً إليه ، وهو رفع الإيرادات ، بمثل هذه اللباقة أو النجاح . ولما كان هو نفسه فلاحاً كان في مقدوره أن يحدد دخول وآرباح هذه الطبقة . وأخذ صادق يطبق نظرية الحكم المطلق أو الاستبدادي التي تقول إن الفلاح ليس إلا تابعاً للخديوي هو وعائلته وما ملكت يمينه ، وبذلك أخذ صادق باسم حكومة سمو الخديوي ، وبما له من سلطة فرض الضرائب وجمعها ، يجمع كل المبالغ الزائدة التي قد تتبقى بعد دفع الضرائب العادية . وكان يستولى على المحاصيل إذا لم تستجب مطالبه . وإذا دخل في روعه أن الفلاح يخبيء أمواله أو الأشياء القيمة . كما كان الحال في كثير من الأحيان . كان يلتجأ إلى الحبس والجلد حتى يحصل على آخر شلن وآخر متاع ، وفي بعض الأحوال كان يحصل على كل ما يمكنه من رهونات من الفريسة المسكينة .

والجلد يعتبر وسيلة شائعة للعقاب في الشرق ، وينفذ بأن يلقى المحكوم عليه بالجلد على الأرض مطروحا على صدره ، ثم يستخدم كرباج من الجلد

لضرره على باطن قدميه ، ويقال إن هذا الكرباج يسبب آلاماً بالغة ، ولكنه لا يترك أي أثر للجروح الخطيرة . وكان الفلاح غالباً ما يرضخ لهذا النوع من العقوبة مدة غير محدودة من الوقت خيراً من أن يفرط في أمواله ، وقد يفعل ذلك أحياناً اعتقاداً منه أنه إذا سلم ما عنده فإنهم سيستمرون في جلده افتراضاً منهم أن لديه أكثر من ذلك . وعادة ما يكون قد جمع ماله عن طريق إدخار مبالغ بسيطة من التي يحصل عليها بالكذب والنصب . وهو يضن بهاله إذ أنه يدرك تمام الإدراك أن لا عون له حين يطرق شبح الجوع بابه سوى البضعة الجنحيات التي يكون قد دفنتها تحت أرضية كونه المتواضع .

وقد كان صادق باشا قاسياً إلى درجة لا يمكن تصورها في مختلف الوسائل الذي كان يتبعها في سبيل الحصول على هذه الأموال بالقوة سواء كان ذلك لزيادة ثروته ، كما تدل على ذلك أمواله التي جمعها ، أو للوفاء بطلبات دائني الحكومة الملحقة . وعلى كل لم تحل صفاته السيئة بينه وبين التبغ بالمصاعب التي يخبوها المستقبل ، فكان يعارض مشروعات المستر جوشن والمسيو جوير معارضة شديدة . وربما كان قد مل من الطرق العاتية التي كان يضطر إلى الالتجاء إليها لكي يملأ الخزانة التي كانت خاوية الوفاض على الدوام . وكان يعلم جيداً أن الحكومة لا يمكنها سد حاجاتها المتزايدة باستخدام هذه الوسائل القهرية ، وذلك لأن ازدياد موارد مصر قد توقفت إلى حد كبير بسبب توزيعها على المرابين في لندن وباريس ، وبسبب استخدامها في ملء خزانة السلطان .

ومن ثم لم يكن هناك سوى المحاصيل السنوية للبلاد للوفاء بهذه الطلبات المتزايدة ، وحتى المبالغ التي كانت تتحصل بهذه الكيفية ، مع الاقتصاد الشديد ، لم تكن لتغطي لسد أود الحكومة ودفع أكثر من ٥ في المائة من الفائدة على الدين العمومي . ولاني لأعلم أنه كان يقول دوماً في تلك الأيام ، حينما كان الدائتون يلحون في طلباتهم ، أن الأموال لا يمكن الحصول عليها ، وأن من اليسير أن يستمر الإنسان في جلد الفلاحين ، ولكن هذا لن يجلب المال ، فهم لا يملكونه ولا يمكنهم الحصول عليه . وكان المستر جوشن قد بلغه أن

المفتش كان معارضًا لدفع النسبة الكبيرة من الفائدة التي يطلبها حملة السندات . وأنه سوف يقف حجر عثرة في سبيل حصوله على الاتفاق الذي أوفر من أجله . وعند وصول المستر جوشن اجتمع بالخديوي وقام بزيارة جميع الوزراء فيما عدا المفتش الذي تجاهله تجاهلاً تاماً ، ثم أبلغ الخديوي أنه لن يكون له أية علاقة بوزير ماليته .

ولقد مضى حوالي شهر في مفاوضات غير مجده ، ولكن الخديوي بدأ يضعف تحت تأثير القنصليين العاملين الإنجليزي والفرنسي ظناً منه أن الأفضل له أن يخضع بصفة مؤقتة ثم يفكر بعد ذلك في الوسائل التي تخلصه من هذه الورطة . وفي هذه الأثناء قام بعض الشعب في المديريات واتهم الإنجليز والفرنسيون « صادق » بمحاولة القيام بتمرد ، ومهما كانت حقيقة الأمور ، فإن الجمهور لم يكن يعلمها . وقد نشر علماء الإنجليز أنباء تفيد بأن « صادق قد هدد الخديوي . وليس هناك أقل احتمال لصحة هذه الأنباء .

وبعد صادق باستقالته ، وفي خطاب الاستقالة حذر الخديوي من اتفاق جوشن - جوير الذي رفض أن يتحمل المسئولية . وبسبب هذا الخطاب والأنباء التي وصلت إليه ، ثار غضب الخديوي ، ولكنه استطاع أن يخفى غضبه مستعيناً بقدرته على تمثيل دوره تمثيلاً متقدماً . وفي اليوم التالي اختبرت الخطط في رأسه ، ومع هذا فقد بدا بحالته الطبيعية وروحه الطيبة . وقد أمضى الأمسية ، حسب قول الأشخاص الذين شاهدوه ، في أحاديث سارة وفي مرح مع هؤلاء الذين كانوا مجتمعين في عابدين . وكان معتاداً أن يأوي إلى فراشه في القيولة بعد تناول طعام الغداء ثم يسهر حتى ساعة متأخرة من الليل تصل إلى الثانية عشرة بل إلى الواحدة والثانية صباحاً . ثم ينهض مبكراً من نومه في الصباح ويأخذ في التزه بعد ذلك بعريته بعض الوقت .

وفي الصباح التالي بعد قبول استقالة صادق باشا استيقظ في ميعاده وأرسل في طلب صادق باشا ليصبحه في نزهة الصباح . وكان هذا يحدث عادة

حينما يكون لديه بعض المسائل الهامة التي يرغب أن يناقش الوزير فيها ومن المحتمل أن «صادق» لم يفكر في أي شيء سوى في الصداقة . ولذا لبى طلب الخديوي وجاء إلى القصر حيث رافق سمو الخديوي في عربة مفتوحة وهما يدخلان ويتجادبان أطراف الحديث كالمعتاد ، ثم عبرا كوبرى قصر النيل متوجهين إلى قصر الجزيرة . ثم صعدات السلم ودخلوا القاعة الفخمة التي كنت قد دخلتها عند أول زيارة لى للخديوى . هنالك أغلق وراءهما الباب ومعه كل خبر يقين عن إسماعيل صادق باشا ، الوزير المطلق السلطة الذي استمر سبع سنوات يمارس سلطته في جمع الضرائب . لا يعادلها سوى سلطة الخديوى ، إن لم تكن تتفوق عليها ، والذي أصبح يثير الرعب في نفوس الفلاحين بما عرف عنه من قسوة ، وخرج الخديوى على الفور من القصر ودخل عربته ثم استقلها عائداً إلى عابدين .

وقد شاعت عدة أقاويل في فترات مختلفة بالنسبة لما حصل للوزير السابق ، وربما لم تصدق واحدة منها . وطبقاً للنشرة الرسمية فإن مجلساً خاصاً قد دعى في الحال كان من بين أعضائه شريف باشا وتوفيق باشا ، الذي أصبح خديوياً فيما بعد . وقد حكم صادق أمام هذا المجلس بتهمة الخيانة حيث أدین وحكم عليه بالنفي مع تحديد إقامته في دنقلاً . وكانت هذه المحاكمة خاصة دون أن يحضرها المتهم ودون أن يعلم شيئاً عن سير المحاكمة . والحقيقة أنه عندما انعقد المجلس في اليوم التالي للقبض على المتهم ما كان يدور بخلده صدور أي قرار ضده . ولكن من المفروض في هذه الحالة أن التنفيذ كان سابقاً على الحكم .

ودنقلاً هذه عبارة عن بلدة صغيرة في بلاد النوبة على الشاطئ الأيسر للنيل ، وعلى بعد ألف ميل من القاهرة ، وهي المركز الرئيسي لمديرية صغيرة تحمل نفس الاسم . ويقال إن بعض المساجين الآخرين قد نفوا إلى هذا المكان ليعملوا في المناجم . وعلى كل ، لم يكن هناك مساجين أو مناجم يعمل فيها أحد منذ مدة طويلة . وكان من المفهوم جيداً في مصر أن النفي إلى دنقلاً معناه

الحكم بالإعدام بواسطة الخنق أو السم أو أية وسيلة أخرى ، ولم يكن ينطلي على أحد أي تصريح من التصريحات الرسمية في هذا الشأن .

كان السجين يختفي في مثل هذه الأحوال دون أن يسمع عنه أحد شيئاً بعد ذلك كما كان الحال في عهد لويس الحادي عشر وغيره من ملوك فرنسا ، فكان السجين في فرنسا يدخل زنزانة خافية ثم ينسى أمره بعد ذلك . أما في مصر فكان المفروض أن السجين يقوم برحالة في أعلى النيل ، ثم لا يسمع عنه شيء بعد ذلك .

وبالفعل قامت باخرة من القاهرة بعد القبض على صادق وسارت في النيل جنوباً حتى وصلت إلى الشلال الأول ، لكي توصل السجين في الظاهر . وواصلت باخرة ثانية المسير إلى الشلال الثاني ، ومن هناك أخذته قافلة صغيرة إلى دنقلاً . ولم يكن يسمح لأحد بزيارة هذه البوادر أثناء سيرها في النيل ، وكانت العملية كلها محاطة بسرية تامة .

وكان صادق برتبة مشير ، مما يجعل له الحق في أن يقدم للمحاكمة في القسطنطينية . وعندما علم السلطان بالخبر طلب من الخديوي أن يرسل إليه السجين . وكانت الرحلة إلى دنقلاً تستغرق حوالي ثلاثة أيام ، وانتظر الخديوي وصول الأنباء من ذلك المكان . وجاءت الأخبار تفيد بأن المفتش قد توفى على أثر وصوله بسبب إفراطه في الشراب أثناء الرحلة .

وقد ظهرت بعد ذلك شهادة طبيب ادعى أنها قد صدرت من دنقلاً تشهد بوفاته لهذا السبب . وكانت هذه هي الوفاة الرسمية .

أما عن الوفاة الحقيقية فقد أشيعت عدة روايات في القاهرة على أثر الحادث مباشرة ، وكانت الرواية الأكثر شيوعاً وصدقها هي أن صادق باشا ترك في قصر الجزيرة في اليوم الذي قبض عليه فيه ، ثم أخذ في الليلة التالية إلى الباخرة التي ذكرناها وقادت برحلتها في النيل ، ثم خنق على مسافة قصيرة من المدينة

ووضع في غرارة مثقلة ثم ألقى في النهر ، واستمرت الباخرة في رحلتها كما بینا . وقد ذكرت كل التفاصيل حتى اسم الباشا الذي كان مسؤولاً عن الباخرة .

وفي عام ١٨٧٩ عندما أبعد إسماعيل باشا وتولى الإنجليز والفرنسيون الرقابة التامة على مالية البلاد ، أسقط عدد كبير من أسماء الأشخاص الذين كانوا يتتقاضون معاشًا بسيطًا من الحكومة .

ومن بين أرباب هذه المعاشات أعرابي من الصعيد يدعى إسحق بك ، وكان هذا الرجل يعمل جندياً بالقاهرة في الوقت الذي اختفى فيه إسماعيل باشا المفتش ، وكان ضخماً الجثة قوى البنية ، وكان قد فقد إيهامه ويتتقاضى معاشًا بسيطًا ، ولست أدرى ما إذا كان به عاهات أخرى استحق من أجلها هذه المساعدة من الحكومة . وحينما انقطع عنه المعاش أخذ يروى ويعيد قصة جديدة لهذه المأساة الغامضة .

وقد روى المسترج. س. ماك كون Mr. J.G. Mecoan الكاتب الإنجليزي الذي كتب على معرفة وثيقة به في القاهرة ، روى هذه النسخة من قصة إسحق بك .

وبعد حوالي ساعة من القبض على صادق باشا طلب إسحق بك إلى الغرفة التي كان صادق معتقلًا فيها حيث وجد بها الأمير حسن والسبعين وقد جرد من ملابسه . وهمس الأمير في أذنه وهو يصدر إليه أمراً بقتل المفتش إما بطريق الخنق أو بأي طريقة أخرى مؤلمة للغاية دون أن ترك أي أثر من آثار العنف . وقد اختار الوسيلة الأولى ، إذ بعد أن طرح المعتقل على ظهره حاول أن يحبس صوته بيده اليسرى وأن يختنقه بيده اليمنى . وبالرغم من أن « صادق » كان رجلاً ضئيل الجسم ، إلا أنه قاوم من شدة الألم بقوة تعادل قوة قاتله . وحينما أمسك يابهان الأعرابي الأيسر في فمه ، أخذ يعضه حتى فصله عن يده تماماً . وفي الليلة التالية لُف جسده في قماش سميك وربط فيه بعض الثقل ثم حمل

على ظهر الباخرة التي كانت تنتظر ، ثم أبحرت جنوباً في النيل حيث ألت
الجثة على بعد بضعة أميال من القاهرة .

وكان الأمير حسن إذ ذاك وزيراً للحرير وإنني لا تذكر أنه كان مقيناً بقصر
الجزيرة عقب عودتي من أوروبا في تلك السنة . وقد قمت بزيارته حسب
المعتاد ، وجاء إلى من المخاج الذي يشغل الحريم ، وعبر الحديقة ، ثم استقبلنى
في القصر .

وعلى كل تحوم شكوك كثيرة حول رواية إسحق بك وذلك لأنها لم ترد
على الألسن إلا بعد نفي الخديوي إسماعيل وابنه الأمير حسن . وكان هؤلاء
الذين يديرون مصر يعيرون أذاناً صاغية لكل بما يمss من سمعة إسماعيل
ويسارعون بنشره في أوروبا . والأعراب على استعداد دائمًا لأن ينشروا مثل
هذه الأنباء إذ يعتقدون أنها سوف تدخل السرور على نفوس ساميهم ، ومن
المحتمل أن إسحاق كان يأمل في الحصول على مكافأة ما ، وربما حصل عليها
بالفعل . أما التفاصيل الخاصة بأنه وجد السجين مجردًا من ملابسه ومعه الأمير
حسن ، وأنه أمره بقتله ، كل ذلك لا يمكن احتمال وقوعه . وكل الروايات
تؤيد إلقاء جثة صادق باشا من الباخرة إلى النيل قبلي القاهرة بقليل في الليلة
التالية للقبض عليه . ولا يهمنا كثيراً أن نعرف الكيفية التي قتل بها أو المكان
الذي قتل فيه .

أما الدافع لهذا العمل من جانب الخديوى فيكتنفه الغموض ، كما يكتنف
تفاصيل العمل نفسه ، ذلك أن « صادق » كان صديق العمر للخديوى ومحل
ثقة وخادمه الأمين ، كما كان معروفاً عنه . ولقد شاعت تكهنات كثيرة عن
الموضوع ، ولكن ما من تفسير مقنع قد عرف . وقد ادعى البعض أنه كانت
هناك مؤامرة فعلية ، كما ادعى البعض الآخر بأن « صادق » كان يعلم بعض
الحقائق عن الخديوى الذي كان يخشى إفشاءها ، كما أشاع آخرون بأن المستر
جوشن كان هو المسئول أديقاً عن هذا العمل . ولكن مما لا شك فيه أن المستر

جوشن كان مسروقاً لإبعاد وزير المالية الأسبق عن طريق مشروعه المالي .

وفي اليوم التالي للقبض على صادق أرسل القنصل العام الإنجليزي مستر فيفيان Mr. Vivian رسالة إلى حكومته يتحدث فيها عن المأساة على أنها « إحدى الحوادث الأليمة التي تميز بها الحياة الشرقية » ثم أضاف إلى ذلك قوله : « لقد كان أكبر حجر عثرة في سبيل أية فرصة للإصلاح المالي أو الإدارة المالية ، ومن الممكن اعتبار موته ، مهما كانت الكيفية التي حدث بها ، مصلحة عامة كبيرة ». وقد أرسل في نفس اليوم بأنباء احتمال نجاح المستر جوشن والسيء جوير « ذلك النجاح الذي كان مشكوكاً في أمره نتيجة للموقف العدائي الذي كان يقفه وزير المالية المتوفى ». والواقع أن المسؤولين وافقوا في اليوم التالي على مقترنات جوشن وجوير .

والحقيقة أنه لم يأسف أحد على المفتش ، كما أوضحت في ذلك الوقت في تقرير أرسلته إلى حكومتي . وقد عم الفرح لازاحته من الطريق ، ولم يأبه الناس بما إذا كان يستحق الموت ، أو بأية كيفية تم ذلك .

وفي مقابلة لي مع الخديوي في اليوم التالي للقبض على صادق وجدته مضطرباً للغاية . وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي شاهدته فيها فاقداً أعصابه . وكان ثائراً على المفتش ، ثم أخذ يروى لي كيف رفعه من فلاح عادي إلى أرفع منصب في مصر ، وكيف أخذ على عاته أن يشعل ثورة ضده . وأخذ يقص على مسامعي بعض التفاصيل التي زعم أنها حقيقة واقعة ، والتي علم بها من حكام المديريات ورؤساء المنظمات الدينية . ولما كنت على معرفة سابقة بأنظمة الحكومات الاستبدادية الشرقية فقد استنتجت من غضب الخديوي أن الوزير السابق قد أصبح في عداد الأموات ، ولو أنه لم يقل شيئاً يدل على هذه الحقيقة .

وكم عمل متعملاً للخلاص من المفتش صدر الأمر بمصادر أملأكه . وقد كان في ثروته مثل واضح على الفرص والامتيازات العجيبة التي يمكن أن يحظى بها

وزير من محاسيب حاكم استبدادى . وقد يكون لدينا مثل كذلك على الكيفية التي تسبب ثروة كبيرة في الإطاحة بمحسوب كهذا .

وبهذه المناسبة تتذكر فوكيه Foucquei ، وزير مالية لويس الرابع عشر الذي فقد مكانته لدى مليكه نتيجة للثروة الطائلة التي جمعها والقصور الشامخة البت شيدها والحفلات الفاخرة التي كان يقيمها . ولقد قضى آخر أيامه في زنزانته بعد أن قضى في الحبس تسعة عشر عاماً .

ولا يستطيع أن يقول أحد اليوم ما إذا كانت ثروة الوزير المصري سبباً من الأسباب التي أدت إلى نهاية المفجعة ، فإن مركز خدام الملكية غير مستقر ، وكلما ازدادت الثروة ، حينما تكون المصادر مسموحاً بها ، ازداد الخطر .

وفي هذه الحالة لدينا رجل من أدنى طبقات في مصر ، بدأ حياته فقيراً ، ولم يكن لديه أية وسيلة لجمع ثروته عدا وظيفة رسمية ، إلا أنه عندما بلغ سن الخامسة والخمسين من عمره ، وبعد أن أنفق مبالغ كبيرة بطريقة البذخ الشرقية ، ترك ثروة يتراوح مقدارها بين ١٠٠٠،٠٠٠ دولار إلى ١٥،٠٠٠،٠٠٠ دولار وكان يمتلك ثلاثين ألف فدان من أجود الأراضي ، كما خلف ثلاثة قصور كبيرة قد أثنت برياش فاخر وزينت أروع زينة ، كما ترك مئات من الجواري وكميات كبيرة من الحلوي ، إلى جانب عدد من الضمانات والممتلكات الشخصية .

ولقد ستحت لي الفرصة في أن أمر على قصورة قبل نقل ما بها من أثاث ، وكانت مقامة على أرض متاخمة ، ولذا عندما تقترب منها لا يمكن رؤية شيء منها سوى الأسوار العالية التي تحيط بالحدائق والمباني . وكانت الداخل عبارة عن بوابات كبيرة تؤدي إلى دهليز يشتمل على مساكن الشخصي والحرس . وكان كل قصر مفصولاً عن الآخر بسور عال حتى لا يمكن النظر من قصر إلى آخر ، إلى جانب أن منظر الشوارع كان محجوباً كذلك . ولم يكن هناك هناك ممرات موصولة لبعضها البعض إلا عن طريق باب صغير خلال

السور ، من المحتمل أنه شخص لسيد المكان . وكانت المباني كبيرة تحتوى على ما يقرب من مائة غرفة . وكانت القصور كلها فخمة لا تفوقها في مصر إلا قصور الخديوى فحسب .

في هذا المكان كان يعيش المفتش متربعاً منعماً مع زوجاته وجواريه اللاتى كان يبلغ عددهن ، مع شيء من التحفظ ، حوالي ثلاثة . وكان غير مسموح لهن أن ييارحن جدران الخديقة ، وكن كلهن في حراسة الأغوات بصفة مستدية . ومن بين حريمه كان يقال إن هناك عدداً كبيراً من أجمل فتيات القوقاز وجورجيا . وكان هذا النوع الأبيض من العبيد يتكلف غالباً ، وكانت ترتدى الحظيات أفسر الثياب ويترzin بأثمن المجوهرات .

وكان حريمه لهن أستقراطيتهم المميزة . فقد كان العبيد يقومون على خدمة زوجاته ومحظياته ، وهؤلاء العبيد كانوا من الملونين في الغالب وتعاملهن سيداتهن بمنتهى القسوة . وأسوأ أعمال القسوة التي سمعت عنها أثناء إقامتي في مصر كانت الأعمال التي تصدر من النسوة حيال عبيدهن . وكان كل الأطفال الذين يولدون في الحرير أطفالاً شرعاً ويتعمدون بحقوق متساوية بصفتهم وارثين شرعاً . وكانت الأم عند إنجابها مولود ، ترفع إلى درجة زوجة .

وقد امتصت القصور الأخرى جوارى المفتش . فوضعن في حريم الخديوى والباشوات والباكرات . وبالطبع كان للخديوى الأسبقية في الاختيار حسب مشيئته . وقد قيل إن عدداً كبيراً منهن قد بيع . وإذا كان الأمر كذلك فإن عمليات البيع قد تمت سراً . وعلى كل ، فقد اختفين جميعاً ، ولكن الجمهور لم يعرف قط ظروف اختفائهن ، وكانت الأنباء كلها ضرب من التكهن .

وبعد ذلك ببضعة أيام تم بيع الأثاث والمجوهرات التي لم يكن قد تخلص منها بعد ، وذلك بالمزاد العلنى . ويقول البعض إن الخديوى قد وضع في جيشه حصيلة بيع الممتلكات المصادرية ولها وضع حدًّا لأساًه جذبت انتباه الناس في

مصر وأوروبا .

وقد قضى الممثلون الرئيسيون في هذه المأساة نحبهم - الخديوي وابنه توفيق ، والأمير حسن وشريف باشا . وعلى كل ، ليس هناك دليل ملموس على أن أي واحد من هؤلاء ، فيما عدا الخديوي ، كان مسؤولاً عما حدث . ولما كان إسماعيل حاكماً شرقياً تتركز في يده كل السلطات الحكومية ، من تشريعية وقضائية وتنفيذية ، فإننا لا نستطيع أن نقول إن عمله كان إجرامياً ، حيث إننا لا نملك معلومات كافية عن الحقائق ، مهما أصدرنا حكمنا بإدانة مثل هذه الوسائل في محاكمة أشخاص متهمين بارتكاب جنائية ما .

ولذا ما أردنا أن نحكم على أعمال الناس على اختلاف جنسياتهم واختلاف نظمهم الدينية والأخلاقية والحكومية ، ينبغي علينا أن نأخذ في اعتبارنا قوانينهم واجراءاتهم الجنائية التي اعتمدوا عليها منذ أمد بعيد . ولا تتردد الحكومات المسيحية ، في سبيل القصاص حينما تجده ضروريًا أو أن سيادتها مهددة بالخطر ، في أن تلجأ إلى أقصى العقوبات . وحتى لكي توطد سلطة مشكوكاً فيها ، كانت هناك أمثلة عديدة . خلال قرن من الزمان . على إقدام بعض الحكومات المسيحية على التضحية بأعداد كبيرة من الناس عن طريق تنفيذ الإعدام بأقصى وسيلة ممكنة دون حتى تقديم المتهمين صورياً إلى محكمة عسكرية .

وعند وصول المحامين الإنجليز الذين اختارهم مستر وليفورد Mr. Wilford Seawen Blunt إلى مصر سنة ١٨٨٢ لكي يدافعوا عن عرايي باشا وزملائه ضد تهمة الخيانة رفض رياض باشا أن يسمح لهم بالاقتراب من المسجونين ، ورغم أن هذا مناف للقانون المصري . ولم يسمح بأي اتصال بهم ، حتى ولا بإبلاغهم بأن المحامين قد وصلوا إلى مصر وأنهم على استعداد لأن يبدأوا إعداد دفاعهم . ولم يسمح بالاتصال بين المحامين وبين عملائهم إلا بعد مفاوضات طويلة وبعد تدخل بعض النبلاء العقلاء من الإنجليز .

وعندما أثيرت مسألة تقديمهم إلى محاكمة عادلة ، كما اشترط السير جارنيت Sir Garnet (اللورد ولسلي Lord Wolseley) الآن وعند تسليمهم لحكومة الخديوي أجاب رياض باشا : وما جدوى محاكمتهم إذا كنا نعرف جميعاً أنهم مذنبون؟ ذلك أن أفكاره عن العدالة تجعل مثل هذا الإجراء غير ضروري بالمرة . وكان يرغلب في تكوين محكمة عسكرية سرية دون أن يزعجها بحضور المتهمين ، وتنعقد هذه المحكمة المدة الازمة لإصدار الأحكام الضرورية ، ثم ينفذ في المتهمين حكم الإعدام سريًا قبل بزوغ فجر اليوم التالي .

والخيانة الوحيدة التي ارتكبها هؤلاء المسجونون كانت تنحصر في ولائهم لشعبهم بدلاً من الخضوع للسيطرة الأجنبية التي فرضت على البلاد فرضاً . وإن أغرب واقعة في هذا التاريخ العجيب هو أن المتعصبين من الإنجليز في مصر كانوا يغضدون رياض باشا ، وقد استخدموه كل نفوذ يمكن لكي يحولو دون إتاحة الفرصة للدفاع عن زعماء الحزب الوطني عند محاكمتهم . وكان لوزارة جلادستون ، تؤيدها الطبقات الراقية في إنجلترا ، أثر كبير في قضية عرابي وصحبه .

وقد أظهر التحقيق أنه لم يكن مذنبًا في مذبحة ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ ولا في احتراق مدينة الإسكندرية ، كما أظهر براءته من تهمة الخيانة العظمى .

أما بصفته وزيراً للحربي فقد أطاع أوامر كل من الخديوى والسلطان في معارضة الإنجليز ، كما وجدت حسابات الحكومة مصانة بكل نزاهة وأمانة .

ومنعاً للفضيحة التي كانت ستتمخض عن محاكمة علنية ، ودون أن تعدم الحكومة الإنجليزية وسيلة لضرب المثل على الخطير الذي يتحقق بكل من يعترض سبيلها ، عملت الترتيبات بحيث ينفى المتهمون إلى جزيرة سيلان ، بدلاً من تنفيذ حكم الإعدام ، وكان على كل من رياض وعرابي أن يقنعوا بهذا الحكم

رغم أنفهما . وبهذه المناسبة يمكن أن نشير إلى الأحكام الجائرة غير القانونية والتي كانت تقضي بإعدام الضحايا البريئة في بعض الأحيان من بين أفراد شعبنا والتي كانت أقسى وأكثر وحشية من الأعمال التي قام بها أي حاكم شرقي . وكانت هذه التصرفات الوحشية تجد من يبنتا أناساً كثيرين يحاولون تبريرها ، كل ذلك يحدث بينما تنافر بنظمتنا المسيحية وبدنيتنا الراقية .

ولقد وقعت حادثة في مصر في يونيو سنة ١٩٠٦ تبين الإجراءات المتطرفة التي قد تتبع في بعض الأحيان في سبيل الحافظة على مبدأ حصانة السلطة الحاكمة .

كان هناك جماعة من الجنود الإنجليز متوجهين من القاهرة إلى الإسكندرية . وانطلق خمسة من الضباط إلى قرية صغيرة على بعد أربعة أو خمسة أميال من معسركهم حيث كانوا على يقين من أنهم سيجدون فرصة لصيد الحمام . وكانت هناك قرية ريفية تشتمل على مجموعة من الأكواخ المبنية باللبن والمتلاصق بعضها بجوار بعض . وفي بعض هذه الأكواخ توجد أيراج قام ببنائها الأهالي لتربيه أعداد كبيرة من الحمام تدر على أصحابها دخلاً بسيطاً . وكانت هذه الوسيلة هي المورد الوحيد للرزق بالنسبة لبعض الطاععين في السن . وهناك عدد قليل من القرى تربى فيها الحمام بهيل هذه الأعداد الوفيرة ، ومن الطبيعي أن يختار الضباط إحدى هذه القرى ، وكانوا قد زاروا هذه القرية في العام الماضي لنفس الغرض ، مما سبب استياء الناس .

ويقول اللورد كروم في إحدى تقريراته : « إن التعليمات الصادرة إلى جيش الاحتلال تقضي بآلا يقوم أحد بصيد الحمام دون الحصول على إذن من العمدة المحلي » . وفي هذه الحالة لم يحصل الضباط على إذن من العمدة الذي كان متغيّراً حينذاك . وعلى كل ، لم يستطع الضباط أو حتى أجلوا صيد الحمام ، بل انقسموا إلى فريقين ، وبدأوا يطلقون الرصاص على الحمام الذي كان يطير بالقرب من القرية . وتصادف أن كان ضابطان من هؤلاء الضباط

يقفان على مقربة من جرن يذري فيها القمح ، وسرعان ما اكتشف أن القمح قد اشتعلت فيه النيران ، وسمع الأهالي صياح امرأة ، وشاهدوا ألسنة النار تندلع فتجمعوا على عجل وأطفاؤا النيران دون أن تحدث خسائر جسيمة .

أما عن مصدر الحرائق فلم يقم عليه دليل أثناء المحاكمة التي عقدت فيما بعد ، فيما عدا شهادة زوجة صاحب القمح ، وهي امرأة في العشرين من عمرها ، فقد أدلت بالشهادة التالية : « كنت راكبة التورج ، وكان زوجي يجمع القمح المدروس ، وعلى حين فجأة أطلق عيار على التورج وأشعلت فيه النيران . ثم أصابتني طلقة أخرى في ساقي فسقطت على الأرض ولم أدر مصدر الطلقات » . ولقد صار التورج رماداً نتيجة لاحتراق القمح من حوله .

وكان هناك طبيان قاما بالفحص رسميًا لتقديم نتيجة الفحص للمحكمة ، وكان أحدهما ضابطًا ومن بين الجماعة التي قاموا بالصيد ، أما الآخر فقد كان طبيباً من أهالي القرية . وقد جاء في تقريرهما الذي استخدم بمثابة دليل على المحاكمة ، أن هذه المرأة قد أصيبت « بحوالي ستين جرحاً من جراء إطلاق النار » ، « وما زال في جسدها عدد كبير من الطلقات لم يستخرج بعد » كما أن « الأجزاء التي أصيبت في جسدها متورمة وتعانى ألمًا » . ومن المهم أن نلاحظ أن القرويين لم يكن لديهم أية أسلحة نارية ، إذ أن هذه كانت تعتبر من الكماليات التي لا يسمح للأهالي باستخدامها .

وبينما كان القمح يحترق ، أو بعد احتراقه مباشرة ، حاول صاحب القمح ، وهو زوج المرأة المصابة ، أن يتربّع البندقية من يد الضابط الذي كان يطلق النار على مقربة منه . وجاء آخرون على أثر اندلاع النيران لمساعدة الفلاح . وانطلقت البندقية ، كما زعم بعد ذلك ، بطريق الصدفة . وفي المحاكمة قيل إنه كان من الممكن أن تصيب المرأة في مقتل ، رغم أنه لم يقم دليل على أن هذه هي الحقيقة . واستمر الصراع من أجل البندقية ، وحسب شهادة أحدهم أسرع بعض الضباط الذين كانوا يصطادون في الجانب الآخر

من القرية إلى مسرح الحادث . ثم أطلقوا بنادقهم مرتين أو ثلاثة ، كما قرر أحد الشهود الأربعة ، على الجمع من الأهالي الذين قدر عددهم من ثلاثة إلى مائة . وقد جرح ثلاثة من هؤلاء من بينهم شيخ الخفر وأحد الخفراء . وقد أخذت شهادة هؤلاء الأشخاص في جانب الادعاء ، ولم توجه ضدهم أية تهمة . وقد قرر شيخ الخفر في شهادته « أن الطلقة النارية التي أصابته كانت صادرة من إنجليزي آخر أي من أحد الضباط الذين جاءوا بعد أن اجتمع الحشد وليس من الضابط الذي كان يتصارع من أجل الاحتفاظ ببنديقته . ثمك أضاف قائلاً : « لم يحدث أي اعتداء على الضباط حتى أصيب هو » .

ولما لم ينكر واحد من الضباط في شهادتهم هذه الطلقة أو يذكر أي تفصيل عنها ، فإننا يجب أن نفترض أن ما قاله الشيخ كان صحيحاً . أما من جهة الضباط فإن زعمهم الرئيسي كان يحصر في أن القمع أو القش لا يمكن أن تشتعل فيه النار من جراء إطلاق النار .

ومهما كان من صحة الحقائق فإن زوج المرأة المصابة والأهالي الذين تجمهروا على حين فجأة بسبب صياحتها وبسبب اندلاع النار اعتقدوا بطبيعة الحال مما شاهدوه وسمعوا أن الضباط قد أشعلوا النار في القمع وأصابوا المرأة ، فثارت ثائرتهم واحتدم غيظهم . وقد شهد أحد الضباط أن الأهالي الذين كانوا يتصارعون معه من أجل الاستيلاء على البنديقية « كانوا في حالة الاضطراب والغىظ » . وفي هذه الفورة الطبيعية من الغضب تعقبوا الضباط ، بعد أن جردوهم من السلاح أو بعد أن ألقوا هم أسلحتهم ، وأخذوا يضربونهم بالعصى ويلقونهم بقوالب اللبن . وما لاشك فيه أنهم عاملوهم بقسوة بلغت حد الوحشية شأنهم شأن أي جماهير ثائرة ، مع أن من الواضح أنه لم يحدث شيء مما قد يحدث في أي إضراب عمال في الولايات المتحدة . وقد كسرت ذراع أحد الضباط وحدثت بعض الرضوض لعدد آخر منهم .

وفر اثنان من الضباط وهرعا إلى أحد معسكرات الجنود ، إلا أن الأهالي

استمروا في إساءة معاملة الآخرين ، فأنحدروا إلى الجرن وأجبروا على الجلوس غير بعيد عن المرأة المصابة . ولم يكن هناك مترجم بينهم . وأشار الأهالى إلى المرأة وأطبق أحدهم بيديه على عنقه بطريقة فهم منها أنها تهدىد مباشر بقتل الضباط . ولاشك أن الضباط الإنجليز كانوا في موقف حرج خطير وهم محاطون بهذا الجمع الشائر من الأهالى ، وعجزون عن التفاهم معهم . وعلى كل لم تحدث أية أعمال عدوانية أخرى .

وكان الطقس حاراً للغاية ، ولذا أصيب أحد الضابطين اللذين حاولا العودة إلى معسكرهم بضررية شمس ومات بسببها بعد أربع وعشرين ساعة . أما فيما يتعلق بسبب الوفاة ، فقد قررت المحكمة أن « إحدى الضربات التي تلقاها سببت له ارتجاجاً في المخ ، ورغم أنها لم تكن كافية في حد ذاتها لإحداث الوفاة إلا أنها أدت إلى إضعافه مما جعله يتأثر بضربة الشمس بسرعة ، وهكذا ساعدت على وفاته » .

وصدر مرسوم خديوي ، استطاع الإنجليز أن يحصلوا عليه ، يقضي بمحاكمة المتهمين بالاعتداء على جيش الاحتلال . وطبقاً لهذا المرسوم شكلت محكمة خاصة لحاكمية تسعه وخمسين من الأهالى بتهمة الاشتراك في مهاجمة الضباط . وكانت هذه المحكمة تتشكل من ثلاثة من الإنجليز وإثنين من الوطنيين كان أحدهم قاضياً أهلياً أي أن وظيفته كانت خاضعة لمشيئة السلطات الإنجليزية . أما المواطن الآخر فقد نص في الدعوى على أنه وكيل وزارة العدل . وعلى كل ، فقد كان معه نائب المستشار القضائي الإنجليزي بصفته أحد أعضاء المحكمة .

وكان القنصل العام الإنجليزي يعمل مستشاراً للخديوي ، وكان يصدر التعليمات إلى سموه فيما يختص بواجباته ، وهكذا أصبح الحاكم المطلق لمصر . وكان كبار الموظفين الوطنيين لهم مستشارهم من الإنجليز يصدرون إليهم الأوامر الخاصة بما يergus عليهم عمله وأن يتتأكدوا أنهم ينفذون هذه

التعليمات . وهكذا . بينما كان الموظفون الأساسيون في الدولة من الوطنيين اسمًا كان لهم نفوذ التابعين فحسب ، وهم عرضة للفصل إذا صدرت منهم أقل بادرة من بوادر العصيان للأوامر الصادرة إليهم من مستشاريهم الإنجليز .

وعندما عقدت المحكمة المشكلة بهذه الكيفية استمعت لمدة يومين إلى قراءة محضر الدعوى الذي دون معظمه دون حضور المتهمين أو من يمثلهم ، والحقيقة أن بعض المتهمين لم يلق القبض عليهم حتى انتهت المحكمة من سماع الشهود . وكانت الأدلة التي صدر بمقتضاها قرار الإدانة لا تختلف في طبيعتها عن الأدلة التي كانت تؤخذ في الولايات المتحدة قبل صدور الأمر بوجوب الحصول على قرار بالقبض على المتهمين . وكانت الأوامر تصدر من وقت آخر بـالقاء القبض على الأشخاص الذين يرجع أنهم كانوا حاضرين أثناء المعركة واستبکوا فيها .

ثم استمعت المحكمة إلى المدعى العام ، وبعد أن انتهت المحاكمة فعلاً سمع للدفاع أن يتراجع عن المسجونين . وقد بعث المندوب الإنجليزي « وكان اللورد كرومر قد غادر مصر » يبلغ حكومته في لهجة الظافر بأن « الدفاع قد انهار تماماً وأن كل ما استطاع الدفاع أن يقوله في صالح المتهمين انحصر عملياً في طلب الرحمة من المحكمة » .

وبعد « المداولة » أصدر أعضاء المحكمة الخمسة حكمهم بإدانة واحد وعشرين شخصاً : الحكم بالإعدام على أربعة أشخاص: وعلى اثنين بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وكان أحدهم زوج المرأة المصابة ، وعلى واحد بالأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً ، وعلى ستة منهم بالأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات ، وعلى ثلاثة منهم بخمسين جلدة مع الشغل لمدة سنة ، وعلى الخمسة الباقين بخمسين جلدة .

وكان الحكم غير قابل للاستئناف أو التصديق عليه من أي سلطة عليا . وقد نفذ حكم الإعدام وحكم الجلد على المحكوم عليهم على مرأى من الناس

في اليوم التالي لصدور الحكم ، وفي القرية التي قامت فيها المظاهره . وقد شهد « الخبير الطبي الشرعي » بصحة الشنق والجلد . وهكذا انتهت هذه المأساة القضائية .

ولم تبذل أية محاولة للتعرف على شخصية الشخص الذي أصاب الضابط المتوفى ، كما لم يقم دليل قاطع ضد الأشخاص الأربع الذين حكم عليهم بالإعدام . وقد ذكرت أسماؤهم مع آخرين على أنهم كانوا متزعمين لحركة التمرد . أما الدليل الذي أقيم على هذه الحقيقة فكان مجرد إشاعة وبيانه فيما يلي : إن الموظف الذي دون الشهادة أوزع إلى شخص لم يكن حاضراً وقت الحادث ولا يعرف شخصياً شيئاً عنه بأن يدللي بما يعلمه عن الحادث . ومن بين الأقوال التي أدلى بها سفوياً دون أن يحلف يبين الشهادة أن بعض الأشخاص كانوا متزعمين للمعركة ، وأنه استقصى هذا النها من عدمة القرية . وكان العدة غالباً أيضاً أثناء الهجوم على الضابط ، ولكن عند سؤال العدة عما إذا كان قد أدلى بهذه الأقوال أجاب بنعم . وحينما سُئل عن مصدر هذه المعلومات ، قال : « قد أبلغني الأهالي بذلك » . وقد حاول الموظف الإنجليزي في تقريره أن يبرر صحة هذا الدليل وغيره من الإشاعات زاعماً أن هذا يتفق مع سير الإجراءات الفرنسية .

وكما كان متوقعاً ، أدانت كل الجنسيات الممثلة في مصر حكم المحكمة بقوة وشدة ، فيما عدا الإنجليز . ورفعت الكثير من الشكاوى في أوروبا وطلب تقرير عن سير المحاكمة ، وقدمنته الوزارة الإنجليزية إلى البرلمان . وقد طبعت الأدلة التي تليت أمام المحكمة والتي أدین بمقتضاهما المسجونون ، كما طبعت الحقائق الأخرى التي ظنت الوزارة أنه من المحكمة السياسية أن تنشرها على الجمهور ، في محضرين برلمانيين خاصين بهما رقمان ٣ و ٤ لسنة ١٩٠٦ . هذا وكل ما ذكرت قد اقتبسه من هذه الوثائق الرسمية .

ومهما بدا هذا الإجراء كله شيئاً ، من المعلومات المبنية على أنباء رسمية ،

فإنه يجد أكثر شناعة إذا أخذنا في اعتبارنا المعلومات التي تلقيناها من الأهلين أنفسهم ، ومن المقيمين الأوروبيين في مصر ، ونظرًا للاضطراب الذي تسبب عن هذا الحادث في مصر ارتفعت صيحات الإنجليز ضد تعصب المسلمين وطالبوا بمزيد من القوات الإنجليزية قائلين إن المصريين أناس جاددون للصنيع الذي أسداه إليهم الإنجليز ، وذلك لما يجدون من كراهية نحو المحسنين إليهم .

وعلى كل . فليس من المحتمل أن الإنجليز الذين قاموا بهذه المحاكمة الغربية قد قصدوا أن يظلموا أي شخص . حقيقة إن هذه المحاكمات قد لا يكون لها مثيل في تاريخ القضاء الحديث لأي دولة من الدول المسيحية المتدينة في قسوتها وجوهرها ، ومع هذا كانت المصالح الإنجليزية وضرورة المحافظة على الهيبة والنفوذ والسلطة الإنجليزية التي أملت على المسؤولين هذا التصرف . وفي اعتقادهم أن هذا الاستعراض الرهيب للسلطة ، ومنظار الإعدام والجلد كانت ضرورية لتكون مثلاً . وعلى المواطنين أن يدركون مغبة إزعام هؤلاء الدين ولتهم حكومة جلالة ملك إنجلترا عليهم ، بغض النظر عن صواب أو خطأ أي من الجانبين . لقد نظروا إلى المسألة كلها من وجهة نظر إنجليزية ، أي أن العبد يجب ألا يرد الضربة بمثلها مهما اشتد سيده في معاملته أو أنه يغير وجه حق ، فإذا ما فعل فقد يقتله سيده لكي يحتفظ بسلطته دون أن يناله عقاب من القانون .

وفي الطريق ما بين المعسكر الإنجليزي والقرية وجدت جنة أحد الأهالي وقد هشمته جمجمته ، وكان ذلك في وقت متاخر من يوم الحادث . ويبدو أنه لم يجر أي تحقيق عن الكيفية التي لاقى بها حتفه .

الفصل العشرون

عهد حملة السنادات

قبل الخديوي تعين مراقبين من الأجانب لخليف المصالح المالية نتيجة للضغط السياسي من قبل حملة السنادات . ولم يقتصر الأجانب بهذه الامتيازات بل طلبوا على الفور وحصلوا فعلاً على مراقبة الوزارة كلها تاركين لسموه السلطة الإسمية . ولقد منى الخديوي بامتيازات اقتصادية هامة في مقابل التصديق على هذا الطلب الأخير . وحينئذ قُصل عدد كبير من الموظفين المصريين وغيرهم من أملاكهم موظفون من الأجانب بمرتبات ضخمة دون أن يكون لهم دراية بلغة البلاد ، بل كانوا عاجزين عن القيام بأي واجب سوى قرض مرتباتهم . وكان القنصل الإنجليزي العام يبلغ حكومته بكل ما يحدث أولاً بأول ففي الثاني عشر من يوليو سنة ١٨٧٧ كتب إلى حكومته يقول بشأن كوبونات السنادات المستحق دفعها .

«إن المبلغ المطلوب وهو ٢٠٧٤٩٧٥ مليوناً من الدولارات ، قد دفع بأكمله أمس ، إلا أنني أخشى أن تكون هذه النتائج قد قمت على حساب تضحيات جسيمة سوف تلحق بال فلاحين نظيرًا لإكرامهم على بيع محاصيلهم النامية ، وعن طريق جمع الضرائب مقدماً . كل هذه المبالغ يجب اعتبارها بطريقة أو بأخرى من قطر قد أنهكته الضرائب الباهضة . وفي نفس الوقت أخشى أن تبارك الإدارة الأوروبية انهيار الفلاحين الذين هم عماد الثروة في البلاد . مما يجعلنى أعتقد أن الإنجليز يجلبون لأنفسهم مسؤولية خطيرة » .

هذه الرسائل وغيرها من الرسائل الهامة لم تخفف من حدة ضغط لندن وباريس رغم أنها كلفت القنصل العام استياء دزائلي ونقله آخر الأمر .

وفي الثلاثاء من نوفمبر عام ١٨٧٨ كتب إلى حكومته تقريرا يقول فيه :

« إن الخزينة خاوية ولم تدفع مرتبات الجنود وموظفي الحكومة منذ عدة شهور ، وقد تفشي البؤس والشقاء بين أفراد الطبقة الأخيرة ». وكان ينبغي عليه أن يضيف قوله : « إن مئات الموظفين الأجانب الذين كانوا لا يعملون شيئاً كانوا يتتقاضون مرتباتهم الباهظة كل شهر على الفور » .

وقد تعرض أحد الكتاب الإنجليز لوصف الموقف في أوائل سنة ١٨٧٩ ، ولم يحاول إخفاء شعوره بالفخر لما صادف إنجلترا من حسن الطالع في الاستيلاء على مصر :

« بدأ العام الجديد دون أن تطرأ أي تحسينات في الموقف المصري ، فإن الوسائل المالية العدوانية التي كان ينتهاها العهد القديم ما زالت قائمة على قدم وساق ، ومع هذا تجد الخزينة خاوية الوفاض ، كما أن الموظفين الوطنيين الذين لم يتتقاضوا مرتباتهم ، إلى جانب أفراد الجيش والدائنين المحليين ، كل هؤلاء يقاسون ويصيرون كما كانوا يفعلون في الماضي ، إلا أن الجيش الحافل من الموظفين الأوروبيين هم الذين يشعرون بالرضا نظراً لأنهم يتتقاضون مرتباتهم الضخمة كاملة غير منقوصة . والحقيقة أنه إذا لم يكن هناك أسباب للشكوى ضد هذا النظام الجديد سوى وجود هذا العدد من الأجانب الذين يكادون لا يعملون ويتتقاضون مثل هذه المرتبات بينما لم تدفع متاخرات الموظفين المصريين وكل أفراد الجيش على اختلاف رواتبهم لعدة شهور فإن هذا السبب وحده كفيل لتعليق هذا السخط العام الذي يزداد ويرتفع صوته كل يوم » .

ولاء هذه الحقائق وإذاء الجوع المنتشر بين الآلاف من الأهالى في الوجه القبلي بسبب انخفاض النيل كانت الصحف الإنجليزية (والكتاب الإنجليز منذ

ذلك الحين) تنسب هذا الاستيء الوطني إلى الخديوي مدعية أن هذا كله من جراء تصرفاته » .

أما بالنسبة لعام ١٨٧٧ الذي بلغ إيراده ٣٠٠٠٩ جنيه استرليني فقد دفع مبلغ ٧٤٧٣٩ جنيهات فوائد لحملة السندات وحوالى مليون من الجنيهات لإنجلترافائدة على نصيتها من أسهم قناة السويس ، بالإضافة إلى سداد الجزية التركية . ولم يبق سوى مليون من الجنيهات لكل المصاروفات الخاصة بالحكومة ، بما في ذلك الجيش وكبار الموظفين الأجانب . والواقع أن نفس القول ينطبق على عام كذلك .

وبينبغي أن تذكر أنه لم يكن ثمة مجالس بلدية في مصر ، بل كانت جميع المصاروفات بما فيها مصاريف المدن والقرى والجسور والقنوات ومصاريف المدارس تدفع من خزانة الحكومة . أما فيما يتعلق بالمبلغ المتبقى للمصاروفات الجارية ، وكانت تبلغ ربع القيمة الضرورية ، فكان الخديوي مسؤولاً بالإنفاق منه على الأمن العام وحسن سير العمل الحكومي ، ثم يعامل بعد ذلك كله على أنه مجرم لأنه لم ينجح في ذلك .

ولقد شاهدت بنفسي مالية مصر وإيراداتها وقت وصولي ، ومهما بلغت آثار الخديوي السابقة ، فإنه قد بذل ما في وسعه بعد أوائل سنة ١٨٦٧ لكي يخفف من حدة الموقف المالي ، فلم يقم بعد ذلك بإقامة القصور أو مد خطوط السكك الحديدية أو أسلاك البرق أو شراء بواخر أو مصاريف شخصية أكثر من مصاريف أمراء أوروبا الصغار أو أكثر مما تسمح به ثروة الخديوي ، قبل أن يصير خديوياً .

هذا ولقد زعمت الحكومات الأجنبية ، على العكس مما يقول به الخديوي ، إن إيرادات الحكومة إذا أحسن التصرف فيها تكفى لتمكين الحكومة من دفع فوائد قدرها ٧٪ على ديونها . وعندما تولت الوزارة الأوروبية زمام السلطة أدركت أن هذا ليس ب صحيح ، ومن ثم بحثت عن موارد أخرى

تساعد على الوفاء بوعودها لحملة السندات الذين مهدوا لها سبيل الحصول على هذه المراكز المرجحة . ولو أمكن الوفاء بهذه الوعود لاستحقت السندات التي اشتريت أصلاً بمبلغ يتراوح من ٥٠ إلى ٧٠ سنتاً لكل دولار قيمتها الإسمية . وكان أول عمل قامت به الوزارة هو طلب قائمة بالممتلكات الشاسعة الخاصة بالخديوي وأسرته .

وكان إسماعيل باشا ، قبل أن يصبح خديئياً ، من أثري أمراء الشرق وأكثرهم بذخراً وإسراهاً . ذلك أنه ورث ممتلكات ضخمة تشمل على مبان بالإسكندرية والقاهرة ، وأراض زراعية مخصصة لزراعة قصب السكر بالوجه القبلي . وكانت هذه الضياع يقوم على إدارتها ناس أكفاء وتغل محاصيل وفيرة . وباعتلاء عرش الولاية على مصر ورث أموالاً طائلة أيضاً . وكان بلاشك مولعاً بالاقتناء ، وحينما أصبح حاكماً مطلقاً على مصر ازدادت أراضيه زيادة كبيرة ، ففي خلال عشر سنوات بلغت مساحة أراضيه ٩٥،٠٠٠ فدان . وقد حصل على جزء من هذه الأراضي عن طريق الشراء ، ولكن الجزء الأكبر قد استصلاح عن طريق إنشاء قنوات الري وتسوية الأرضي واعدادها للزراعة بمختلف الوسائل .

ونتيجة لاقتناء هذه المساحات الإضافية من الأرضي ، وجعلها في حالة تصلح للزراعة ، عرض الخديوي نفسه لاستدانة مبلغ ٤٣ مليون فرنك زيادة على صافي الأرباح التي كانت تدرها كل أراضيه . ويكوننا أن نكون فكراً عن قيمة هذه الممتلكات إذا عرفنا أنها كانت توازي حوالي خمس الأراضي المصرية وتتسع سنوياً ما يزيد على ملليون فدان . وكان يمتلك بالإضافة إلى هذه الأرضي خمسة عشر مصنعاً للسكر ذات مبان فخمة وفي حالة جيدة ، إذ كانت تحتوى على خمسين آلة لعصير قصب السكر ، كما كان يملك مصانعين قدبيين غير صالحين للاستعمال ، إلى جانب مواد أخرى لإقامة ثلاثة مصانع أخرى . كما كان يوجد كذلك حوالي ٢٥ ميلاً من الخطوط الحديدية يسير عليها أربعون عربة وعدد آخر من معدات النقل وكلها مخصصة

لنقل القصب إلى هذه المصانع . ولم يمنع وجود هذه الخطوط الحديدية من استخدام عدد كبير من الجمال . ولقد شاهدت صفوياً طويلاً من الجمال لمسافة أميال وهي تقوم بحمل القصب إلى محطات السكة الحديد .

وكان الخديوي قد نقل ملكية جزء كبير من هذه الممتلكات إلى أفراد أسرته . وبناء على طلب الوزارة الأوروبية انتقلت ملكيتها جميعاً ، بالإضافة إلى ملكياتهم الخاصة ، إلى الدولة لكي تساعد في التخفيف من الضائقة المالية .

وكان بعض هذه الأراضي مرهوناً وفاءً مبلغ ٤٣ مليون دولار ، ولكن أكثر من ٤٥ ألف فدان كانت خالية من المواتع . وهكذا انتهت ملكية أثمن ضيعة فردية في العالم ، حينما كان الخديوي يمتلكها جميعاً . وكانت الهبة تتضمن ممتلكات عديدة شاسعة في القاهرة والإسكندرية .

وكان من بين المشروعات التي قدمها العضو الإنجليزي في الوزارة بصفة رسمية هو القيام برحلة إلى لندن . لكي يحصل على قرض مقابل رهن الأرضي الخالية من المواتع . وقد اجتمع بالمسؤولين بنك روتتشيلد . وكانت هذه فرصتهم . فلم لا يتذمرون بها ؟ إن مصر في حاجة إلى نقود وكانت الضمانات كافية وسعر الفائدة مرتفعاً . والمسألة الوحيدة هي كمية الدم التي ينبغي أن يحصلوا عليها . أما بالنسبة للوزير فقد كان على استعداد لقبول الشروط التي يعتقدون أنها مناسبة . ولذلك حرر عقد بمقتضاه يتعهد هذا البنك بطرح سندات قيمتها ٨٥٠٠٠٠٠ جنيه استرليني بفائدة قدرها ٧٣٪ بضمان رهن الممتلكات الخالية من المواتع التي تنازلت عنها أسرة الخديوي للحكومة المصرية . وهذه الممتلكات توضع تحت مباشرة مراقبين إنجليز وفرنسيين ؟ وفي حالة عدم كفاية الإيرادات للقيام بسداد الفوائد والقسط المستحق من القرض ، فإن الحكومة المصرية تقوم بدفع العجز . وكانت هذه السندات تساوى قيمتها الإسمية وقت إصدارها ، وكان الدائنون على استعداد

لتقبلها . ولكي يظهر المسؤولون ببنك روتشيلد بمظهر السمسرة اشترطوا أن يتقاضوا ثلاثة في المائة من حصيلة البي ، مقابل خدماتهم . وقد وصلت قيمة هذه النسبة إلى مبلغ ٩٠٠,٠٠٠ دولار . وقد طرحت السندات إسمياً في السوق ، ولكنها أخذت فعلاً بواسطة بنك روتشيلد والأصدقاء الذين يتمتعون بالحظوظة لدى البنك . وبهذه الصفة المالية خسرت مصر مبلغاً قدره ١٢٣٠,٠٠٠ دولار أقيمت في خزائن مولى لندن الأغنياء . وتعرف سندات هذا القرض باسم (الدومين) . وقد دفعت فائدة هذه الأموال في الحال كما دفع جزء كبير من أصل المبلغ من بيع الأراضي .

وبالرغم من الوعود التي أطيت للخديوي عندما تنازل عن هذه الممتلكات الشاسعة للحكومة ، وهي ألا تدفع سوى الديون السابقة ، وأنه سوف يتخلص نهائياً من مضائقات الوضع المالي ، إلا أن هذه الديون لم تسد ، ذلك أن القرض بمجرد أن تسلمه الإدارية الفرنسية الإنجليزية استخدمته في دفع الفوائد الباهظة على السندات . فقد كانت الوزارة الأوروبية تمثل على وجه الخصوص الدائنين الذين يمتلكون هذه السندات .

هذا وقد ازداد سخط الناس وقويت حدة المعارضة يوماً بعد يوم ضد تدفق الأجانب على البلاد ، هؤلاء الذين استحوذوا على أهم المناصب الرسمية والوظائف على اختلاف درجاتها ، كما سرح جنود الجيش المصري وقيد أسماء حوالي ٢٥٠ ضباط مصرى في قائمة منفصلة . وكانت مرتبات الجنود والضباط ، طوال المدة التي كانت فيها الإدارية بيد حملة السندات ، متأخرة مدة تتراوح بين سنة وستين وكان الضباط قد تدربيوا على الخدمة العسكرية دون غيرها ، ولم يكونوا على دراية بأية وسيلة أخرى من وسائل العيش ، فأصبحوا هم وعائلاتهم في حالة من الفقر يرثى لها . وأصبح الناس ثائرين للغاية . وعلى الرغم من كل الأموال والممتلكات التي أعطاها الخديوي وعائلته للحكومة ، إلا أن الدين القومي استمر في الزيادة زيادة مطردة . وقادت على أثر ذلك اضطرابات بالوجه القبلي ومبادئ ثورة القاهرة نظروا لما

كان يقاسيه الشعب نتيجة فرض الضرائب الباهظة التي أصرت على فرضها الوزارة الأوروبيّة ، والاستيلاء على كل الأموال تقريرًا وارسالها إلى باريس ولندن لسداد قيمة الفوائد البالغة ستة وسبعة في المائة على المبالغ التي زعم أن مصر مدينة بها . وكانت الإدارة الأجنبية تعتبر الخديوي مسؤولاً عن حسن سير الأمور في البلاد وعن سلوك المواطنين دون أن يتاحوا له أية وسيلة يستطيع بها التخفيف عن متابعتهم .

وهكذا بدأت الأضطرابات السياسيّة ، إما طبقاً لخطة سابقة وضعت تصمييمها الوزارة الفرنسيّة الإنجليزية ، وإما نتيجة لعجزها الإداري وتحمسها البالغ لمصلحة أصحاب البنوك في لندن وباريس ، هذه الأضطرابات التي انتهت بعد ذلك بثلاث سنوات بالمعارضة القوية التي قام بها شعب مضطهد تحت زعامة عرابي باشا . وقد تكهن الخديوي بال موقف في تصريح أدلى به إلى المؤلف في حضور اثنين من زملائه إبان بوادر الأضطرابات المدنيّة قائلاً : «إن يسعى أن أحكم الشعب دون استخدام جندي واحد ، ولكن وزارة من الأجانب أو يتتمى أعضاؤها إلى دين مختلف لا يمكن أن تحكم إلا بالقوة العسكريّة » . ولم تتكرر تجربة الحكم هذه منذ فشلها النريع أول مرة .

ولم يكن هناك تحسن في الأحوال الحكوميّة ، فكان الوزيران الأجنبيان يزدادان قوة كلما تغيرت الوزارة ، حتى أصبح واجب الخديوي ينحصر في التوقيع على المراسيم التي يصدرها الوزيران الأجنبيان . وطبقاً لما زعموا أصبح الخديوي ينفذ ما يملي عليه بالنسبة لشئون الحكومة . وكان هذا يحدث رغم أنهم لم يكونوا على دراية بالأمور التشريعية أو التنفيذية أو الحكومية وتنقصهم القدرة التي تتطلبها وظائفهم . وكان الأجردر بالخديوي أن يثور لأول وهلة كما فعل السلطان عندما طلبت الدول الأجنبية أن ينشيء إدارة أوروبيّة في القسطنطينية . ومع أن إجابته كانت مقتضبة إلا أنه لم يترك شكًا يتطرق إلى ما يعنيه جلالته ، فقد أجاب قائلاً : « قد أكون آخر الخلفاء ، ولكني لن أوفق أبداً على أن أكون خديوي آخر » .

وهكذا كان حملة السنادات يملون سياسة مصر التي كان يديرها الإنجليز والفرنسيون . ولو كان الخديوي قد رفض بادئ الأمر رفضاً بائنا جازماً السماح لهم بالتدخل في شئون دولته الداخلية بدلاً من أن يحاول إرضاءهم بمنحهم الامتيازات بصفة مستمرة لكان قد أنقذ عرشه من الضياع . ولكن كل امتياز جديد كانوا يحصلون عليه كان يطمعون في مزيد من الطلبات حتى تنازل الخديوي فعلاً عن سيادته . ولابد أنه كان من المعروف في لندن أن الحكومة لا تستطيع الاستمرار تحت هذه الشروط المفروضة عليها . وليس من المحتمل أن دزراطيلى كان يتلوى استمرارها ، بل كان يتربّط ويتنتظر الفرصة السانحة للتخلص من التحالف الفرنسي الذي كان الإنجليز يغضبونه منذ البداية ، والذي دخل فيه الإنجليز لكي يمنعوا الفرنسيين من فرض إدارتهم على مصر .

وكان كلا القنصليين العامين الفرنسي والإنجليزي يعارضان تصرف الوزارة الأوروبية ، ولكن المساهمين في باريس نجحوا في التسبب في استدعاء القنصل الفرنسي فوراً . أما المساهمون الإنجليز فلم يتمكنوا بادئ الأمر من التخلص من القنصل الإنجليزي العام ، ولكن خطط دزراطيلى السياسية والمصالح المالية لبنوك روتشيلد وغيرها من بيوت المال كانت تتطلب هذه التضحية . ولم يسمح حتى لأحد أعضاء اللوردات المقربين أن يقف في طريقهم ، واستدعاى كذلك القنصل الإنجليزي العام ، المستر فيفيان ، بعد ذلك ببضعة أسابيع . وكان الابن الوحيد للورد فيفيان الذي كان ينحدر من عائلة عريقة نبيلة ، ولكنه كان من الوجهة السياسية أحد أعضاء حزب الأحرار .

ولقد مثل المستر فيفيان حكومته في عدة دول ، وأصبح أخيراً اللورد فيفيان على أثر وفاة والده ، وقد وافته المنية عندما كان سفيراً في روما . ولقد حقق العضو الإنجليزي في الوزارة غرضه . ولكن إدارته أثبتت فشلها بحيث لم يطل أجل رحيله . وكان من الممكن أن يحتفظ إداري حكيم مثل الحاكم الإنجليزي الحالى ، اللورد كروم ، بمنصبه لأجل طويل ، ويصبح مفيداً لمصر في نفس الوقت . وعلى كل ، فقد وصلت الحكومة إلى أسوأ حال تحت الرقابة

الأوروبية ، مما أدى إلى خلق مبرر لاتخاذ إجراءات عنيفة .

وكانت تبدو المسألة المصرية - في الأيام الأولى من الأزمة التي وقع فيها الخديوى - بالنسبة لهؤلاء الذين لا يعلمون بأسرار السياسة ، على أنها مسألة مالية فحسب .

وفي الوقت الذي تدخلت فيه إنجلترا في مالية الحكومة المصرية بصفة رسمية كان هناك حوالي عشرين دولة في مختلف أنحاء العالم أخفقت في الوفاء بالتزاماتها وكانت تدين للدائنين الإنجليز بمقابلات الملايين من الدولارات . ومع هذا لم تساعد الحكومة الإنجليزية واحداً من هؤلاء الدائنين بصفة رسمية في تحصيل ديونهم ، بل كانت على النقيض لا تكترث بهم . ولم تقف عند مجرد عدم مساعدتهم فحسب ، بل كانت تبلغهم بصراحة بأنهم لو أرادوا إقراض أموالهم لجهات مضمونة ، لأقرضوها داخل بلادهم واقتصرت مساعدة بنسبة الفائدة الإنجليزية . ولكنهم ما داموا قد أقرضوها في الخارج على ضمانات أجنبية فإنهم قد فعلوا ذلك على مسؤوليتهم الخاصة وعليهم لا يتوقعوا أية مساعدة من قبل حكومتهم بشأن الضغط على تلك البلاد لتلبية طلباتهم ، سواء كانت عادلة أم غير عادلة . وكانت هذه سياسة إنجلترا الثابتة ، فلم تكن تنصب من نفسها (شريفاً) يجبر الدول الأخرى على دفع الديون التي يدفعها مواطنوها المخاطرون على ضمانات يتعاقدون هم عليها . ولم تبدل إنجلترا أي عون رسمي قط في جمع الديون الناشئة عن العقود الاحتيارية مثل إقراض النقود أو شراء السندات الأجنبية . ولا تبدل هذه المعونة إلا في حالة المطالبة بديون نشأت عن بعض أعمال خاصة ، ارتكبتها بعض الحكومات أو ارتكبها بعض مواطنيها ، أو نشأت عن إهمال خاطئ .

ويتبين من هذه الحقيقة بجلاء ، ومن النتائج التي ترتبت على هذه التمثيلية المصرية ، الذي كان ذرائيلي هو الممثل الأول لها في وقت من الأوقات ، أنه كان يرمى إلى أغراض أخرى غير مالية بعد شراء أسهم القناة .

ويتضح هذا بجلاء أكثر من أن الديون التي كان يطالب بها كانت خاضعة لربا فالحش لدرجة أن نصف هذه الديون على وجه التقرير كانت لا تستحق الدفع . ولسنا نبالغ في القول إذا قررنا أن إنجلترا لم تعامل كل القائمة الضخمة من الحكومات الأجنبية التي كانت مدينة لها بمثل هذا الإجحاف التي عاملت به الحكومة المصرية . وبينما كانت فرنسا وإنجلترا متضامنتين في الظاهر في إجبار الحكومة المصرية على دفع فوائد السندات ، وبينما كان مرابو باريس ولندن ينهيin الأسلاب في جيوبهم ، كانت هاتان الدولتان المسيحيتان يراقب بعضهما البعض بحسد بالغ .. وكل منهما يجاهد من أجل الاستيلاء على السلطة وهي تخشى في الوقت نفسه أن تحصل الأخرى على بعض الامتيازات السياسية . وهكذا استمر النزاع حتى الفصول الأخيرة من هذه الدراما التي انتهت بضرب الإسكندرية والتل الكبير والاحتلال الإنجليزي الدائم لمصر .

وكان كاهم الفلاحين ينوه بالأعباء في أواخر أيام الخديوي ، وكان عرش الخديوي مهدداً بالضياع إن لم تدفع تلك الفوائد الباهظة ، وقد قام الخديوي ببذل جهود يائسة لإنجاز المستحيل . ولم تقل الضرائب بل ازدادت تحت حكم الوزارة الأوروبية . وقد كتبت وصفاً تفصيلاً لحكم السندات ولكن المقام لا يسمح بسردها في هذا الكتاب .

واستمر الجيش يتغدى على الأموال . وبعد انتقال ملكية ضياع الخديوي التي كانت تقدر بما لا يقل عن ٧٥ مليوناً من الدولارات بخلاف الالتزامات الأخرى ، أخذت الإدارة الأجنبية تبحث عن مختلف الوسائل التي يمكن أن تزيد بها الإيرادات التي يحصلونها من مصر . ولسوف ذكر مصدرين أو ثلاثة فقط من هذه المصادر التي ثمت بها زيادة الإيرادات ، وكان أحدهما يعرف باسم (المقابلة) ، ذلك أن الخديوي أصدر مرسوماً يقضي بأن الأشخاص الذين يدفعون إلى الخزانة مبلغاً يساوى ستة أمثال الضريبة على أراضيهم يعفون من نصف هذه الضرائب بصفة مستدية ، وتحسب هذه الضرائب على أساس الضريبة المدفوعة حينئذ ، وهكذا تقل الضرائب في المستقبل ولا يمكن زiatتها

بأي حال من الأحوال أو لأي سبب من الأسباب . وطبقاً لهذا المرسوم دخل الخزانة مبلغ يربو على ٧٨ مليون دولار ، وقد رهن الكثيرون أراضيهم لكي يحصلوا على المال اللازم .

وقد اقترحت الوزارة الأوروبية إلغاء نظام المقابلة ورفض كل الطلبات المتعلقة بها . وكان هذا سوف يزيد الدخل السنوي بمقدار خمسة ونصف مليون دولار وهي تكفي لدفع حملة السندات مبلغاً سنوياً إضافياً قدره ١ %.

وكان هناك مصدر آخر لزيادة الإيرادات وذلك بزيادة الضريبة على نوع خاص من الأراضي تعرف باسم « العشور » . وكان متوسط ضريبة الأرضية السنوية لكافة الأراضي الزراعية في مصر يبلغ حوالي ٥٠ ره دolar للفدان الواحد . أما في الأرضية العشورية فكانت تفرض ضريبة أقل مما كان يفرض على غيرها من الأرضية ، ذلك أنها أراضٍ صحراوية أصلًا استصلاحت خلال الخمس والسبعين سنة الأخيرة بمصاريف باهظة أنفقت في تسوية الأرض وحفر القنوات . وكانت الحكومة قد وافقت بادئ الأمر على إعفاء هذه الأرضية من الضرائب . ولكن الضرائب فرضت عليها بعد ذلك طبقاً للقانون الإسلامي وهو العشر من دخلها الكلي . ومن هنا جاءت تسميتها بالعشور . ثم زيدت الضرائب بعد ذلك تحت أعداد مختلفة حتى وصلت إلى نصف قيمة الضرائب المفروضة على الأرضية المعروفة باسم « الخراج » أو الأرضية التي فتحت . ونتيجة لهذه الحصانة ضد جزء من الضرائب ، كانت تباع هذه الأرضية بضعف ثمن الأرضية الأخرى .

وقد اقترحت الوزارة تحت عذر جعل الضرائب متساوية ، رفع الضريبة على هذه الأرضية إلى مستوى ضرائب « الخراج » ، وكان هذا بالإضافة مبلغ ٧٥ ألف ٢٤٨ دولار إلى الإيراد السنوي قابلة للارتفاع بمجرد تقييم محاصيل هذه الأرضية .

وكانت الحكومة مدينة بمبلغ يزيد على تسعة ملايين دولار دفع إلى الخزينة

بمقتضى اتفاقيات خاصة بالمعاشات الدائمة ، وقد اقترح إلغاء هذه المعاشات برمتها . وقد جمعت كل هذه « الاصلاحات » . كما أطلق عليها ، في مرسوم واحد طلب من الخديوي التوقيع عليه . وحينما اعترض الشعب والخديوي ، اتهمه (المصلحون) ، بأنه يشير السخط والاستيلاء . وبعد عزل الخديوي ، فرضت هذه الإجراءات . بعد إجراء تعديل بسيط فيها ، على مصر . وقد فرضت فائدة بسيطة على الأموال التي قدمت بمقتضى المرسوم المعروف باسم مرسوم « المقابلة » .

ونظراً لهذه الظروف ، عقد الخديوي العزم على أن يبذل مجاهداً مستميتاً آخر لإنقاذ سيادته وتخلص شعبه من ربة الإدارة الأجنبية ، فدعى القنصل العامين للجتماع بقصر الخديوى لكي يبلغهم سموه أمراً هاماً . وكانت كل دول أوربا الكبرى ، والولايات المتحدة ، وأسبانيا ، وهولندا ، والدانمارك مثلة في هذا الاجتماع .

ولقد استقبلنا الخديوى في حضور شريف باشا ، ولجنة من مجلس الأعيان ، وبعض العلماء . وقد بدا سموه في بادئ الأمر مضطرباً للغاية ، ولكنه قال إن من المستحيل على الحكومة أن تستمر تحت وطأة الظروف الراهنة . وإن الوزارة الأوروبية قد أعدت مشروعًا ماليًا كفياً بالقضاء على الحقوق المكتسبة والقوانين التي كانت تعتبر مقدسة ، وإن هذا المشروع يضر بالبلاد ومجحف بعدد كبير من السكان ، لدرجة أن معارضته قوية قامت بين صفوف الشعب بحيث أصبح لزاماً عليه أن يرضخ لرغباته ويشكّل وزارة أخرى .

وقام شريف باشا بإيضاح الموقف بالتفصيل ، فقال إن الحركة الوطنية بدأت في « مجلس الأعيان » الذي كان منعقداً طوال الشتاء ، وانقضت جلساته دون أن تتحقق مطالبه العادلة ، وإن البلاد لا تستطيع أن تويد الوزارة الحالية . وشكلت وزارة جديدة في صباح اليوم التالي ، برئاسة شريف باشا ، طرد منها الوزيران الأوروبيان .

الفصل الحادى والعشرون

عزل إسماعيل باشا

توقف حكم حملة السنديات فجأة ، ولم يستأنف قط بصورته الشاذة التي بدأ بها . ويمكن وصفه بأنه كان عهداً إنجلزياً ، لأنه بينما كان يعرف إسماعيلا بالنفوذ الإنجليزي الفرنسي ، إلا أن النفوذ الإنجليزي كان سائداً للدرجة أن النفوذ الفرنسي لم يكن يشعر به أحد . هذا التفوق في السلطة كان ملحوظاً للدرجة أن بعض المقيمين من الفرنسيين ابتهجوا مثل المواطنين لقيام ما أسموه بالانقلاب الذي أحدثه الخديوى .

وكانت الحركة كلها شعبية ، وترجع شعبيتها إلى حد كبير إلى الفشل الدريع الذي أصاب محاولة حكم البلاد (في صالح الدائتين الأجانب) عن طريق وزارة غير مسئولة ليس لديها أية معلومات عن البلاد ، لغتها وعاداتها وقوانينها . واحتياجات شعبها . وكانت الدول الأجنبية تدرك تماماً هذا الفشل والأخطاء السياسية المسئولة عنها . ولا يمكن أن تتوقع منها أن تعرف بهذه الأخطاء ، ذلك أن الدول الأوروبية تدعى عصمتها من الخطأ فيما يختص بجميع تصرفاتها في الدول الشرقية غير المسيحية ، ومهما بلغت جسامته هذه الأخطاء أو أخطاء عملائها فإنها تصر دائمًا على أنها كانت على حق .

ولم يكن هناك أية سابقة في ذلك الوقت لتدخلها في شئون مصر بحجة ضمان دفع الديون التي يطالب بها مواطنوها . وإذا افترضنا أنه في حالة رفض أية ولاية من ولاياتنا الجنوبية دفع ما عليها من ديون للولايات الأخرى التي

تحاول أن تستولى على أموالها بالقوة ، فماذا تكون النتيجة ؟

وفي حالة مصر لم تكن ترفض دفع ديونها . بل كانت المسألة محصورة في الخلاف على نسبة الفوائد . ورغم الثمن البخس الذي يعيت به السندات المصرية ، إلا أن الحكومات كانت تطالب بنسبة من الفوائد تبلغ ضعف النسبة التي كانت تدفعها الحكومة الإنجليزية . وكان هذا المبلغ أكثر مما تستطيع مصر دفعه ، وكان مصدر المتاعب كلها هو محاولة إرغام الخديوي على أن يفعل المستحيل ، حتى بعد سلب أموال الخديوي والشعب .

وفي الوقت الذي كانت تطالب فيه هذه الحكومات ببالغ باهظة كان الآلاف الذين ماتوا جوعاً أو نتيجة لقلة الغذاء في الوجه القبلي نادراً ما تدفن جثثهم . وكان هذا العدد البالغ من الضحايا النتيجة المباشرة لاغتصاب هذه الفوائد الباهظة .

وقد قرر أحد الإنجليز (الذي كان ضمن اللجنة التي سارت في التيل جنوبًا في شهر فبراير من هذا العام (١٨٧٩) لحمل المؤن إلى الشعب ولتأكد من حالتهم) أن عدد الأفراد الذين ماتوا جوعاً ونتيجة لنقص الطعام لا يقل عن عشرة آلاف ، يضاف إليه عدد آخر ماتوا نتيجة الأمراض التي أصابتهم بسبب الحرمان والعوز . وأضاف قائلاً إن كل هذا كان نتيجة مباشرة للفقر الناجم عن الضرائب الباهظة . وكانت المناظر التي شاهدها المسافرون في هذه المنطقة في الشتاء مناظر تثير الفزع .

وتقع مسؤولية هذه المجاعة وهذه الحالة المروعة على عاتق الحكومتين الإنجليزية والفرنسية ، وذلك بعد أن أبلغوا سلفاً عن أحوال البلاد والافتقار المنتظر إلى المؤن الغذائية . وقد وقعت هذه المجاعة في الوجه القبلي ، وكانت أقرب منطقة أصبت بها تبعد ثلاثة وخمسين ميلاً جنوب القاهرة ، وهي أكثف المناطق الريفية سكاناً في البلاد . وكانت كثافة الأهالي في أقصى الأطراف الشمالية من هذه المنطقة من مائة إلى مائة وسبعة عشر شخصاً لكل

مائة فدان من الأرض . أما الأجزاء الباقية فكانت تبلغ كافتها مائة وتسعة وسبعين شخصاً لـ كل مائة فدان .

وفي أبريل سنة ١٨٧٨ . كانت مسألة دفع كوبونات مايو على الديون المستحقة محل نظر . إذ كان من المعروف أن أجزاء كبيرة من هذه المناطق قاحلة كالصحراء . ولم تغل الأراضي محاصيل تذكر نتيجة انخفاض النيل في العام السابق . وكان القمح يعتبر من المحاصيل الرئيسية لهذا الجزء من البلاد ، وهو أحد المحاصيل الشتوية التي تروى من فيضان النيل الطبيعي .

ولم تحدث المجاعة إلا في أوائل عام ١٨٧٩ مع أن انخفاض النيل كان في سنة ١٨٧٧ . وكان النيل منخفضاً في صيف وخريف ذلك العام حتى إن الأرض لم تنتج أية محاصيل في الشتاء التالي في الجزء الأكبر من الوجه القبلي . وفي الأماكن التي كانت توجد فيها محاصيل ، كانت تباع وفأ للضرائب ثم تصدر . وكان باكورة المحاصيل التي أعقبت فيضان النيل في صيف سنة ١٨٧٨ نوعاً من الفول ينبعج حتى شهر فبراير عام ١٨٧٩ لكي يسد بعض النقص . وقد حدثت المجاعة قبل هذا الأوان بضعة أسابيع . وكان الذين ماتوا في الغالب بسبب المجاعة أكثرهم من المسنين أو ضعاف الأجسام من الرجال والنساء والأطفال . وكانت مجاعة فقر ، شأن غيرها من مجاعات هذه الأيام . ومع وجود وسائل المواصلات والنقل الحديثة ، هناك كمية كافية دوماً من الطعام يمكن لهؤلاء الذين يملكون المال الضروري أن يشتروها .

ولم تكن النقود متوفرة لدى الخزانة لدفع كوبونات مايو سنة ١٨٧٨ كما ذكرت حيث بلغ العجز حوالي ٦ ملايين دولار ، فقال الخديوي إنه لا يمكن دفع هذه الكوبونات مرة واحدة . وقد طالب القنصل الفرنسي العام - بناء على تعليمات صادرة إليه من حكومته ، يعفيه في ذلك القنصل الإنجليزي العام ، الذي كان ينفذ التعليمات الصادرة إليه كذلك ، رغم أن هذا كان يتعارض مع رغباته ورأيه الشخصي - طالب بدفع قيمة هذه الكوبونات ،

وكانـتـ الحـقـائـقـ الـمـرـةـ قدـ رـفـعـتـ إـلـىـ الـحـكـومـاتـ ،ـ حتـىـ إنـ الـخـدـيـوـ تـوـسـلـ إـلـىـ الـقـنـصـلـيـنـ الـعـامـيـنـ أـلـاـ يـصـرـاـ عـلـىـ مـطـالـبـهـمـ وـهـوـ يـلـفـتـ نـظـرـهـمـ مـنـ جـدـيدـ إـلـىـ عـجـزـ النـاسـ عـنـ دـفـعـ ضـرـائـبـهـمـ ،ـ وـعـنـ العـوزـ الـذـيـ لـابـدـ أـنـ يـنـجـمـ عـنـ اـسـتـنـزـافـ كـلـ مـوـارـدـهـمـ .ـ وـكـانـتـ الإـجـاهـةـ التـيـ تـلـقاـهـاـ مـنـ الـقـنـصـلـ الـفـرـنـسـيـ الـعـامـ :ـ «ـ يـنـبـغـيـ أـنـ تـدـفـعـ »ـ .

وأـبـلـغـ الـقـنـصـلـ الـإـنـجـليـزـيـ الـعـامـ حـكـومـتـهـ أـنـهـ حـيـثـ إـنـ الـحـكـومـتـيـنـ الـإـنـجـليـزـيـةـ وـالـفـرـنـسـيـةـ قـدـ طـلـبـتـاـ تـسـدـيـدـ الـكـوـبـوـنـاتـ ،ـ فـقـدـ ردـ الـخـدـيـوـ بـأـنـهـ سـوـفـ يـبـذـلـ مـاـ فـيـ وـسـعـهـ لـاـسـتـجـاهـةـ هـذـهـ الـطـلـبـاتـ ،ـ مـهـمـاـ كـلـفـ الـبـلـادـ مـنـ أـمـرـ ،ـ وـلـكـنـهـ لـاـ يـتـحـمـلـ مـسـئـولـيـةـ التـنـائـجـ التـيـ تـرـتـبـ عـلـىـ ذـلـكـ ،ـ وـصـدـرـ الـأـمـرـ بـجـمـعـ الـمـلـفـ .ـ وـاسـتـخـدـمـ مـحـصـلـوـ الـضـرـائـبـ وـسـائـلـ غـيـرـ عـادـيـةـ ،ـ وـلـكـنـ بـعـدـ أـنـ تـحـصـلـواـ عـلـىـ آـخـرـ قـرـشـ أـمـكـنـ اـغـتـصـابـهـ مـنـ الـفـلـاحـيـنـ الـمـساـكـيـنـ .ـ كـانـ لـمـ يـزـلـ هـنـاكـ عـجـزـ قـدـرهـ أـكـثـرـ مـنـ ٢ـ مـلـيـونـ دـوـلـارـ .ـ وـقـدـ جـمـعـ هـذـاـ الـمـلـفـ عـنـ طـرـيقـ بـيـعـ الـحـكـومـةـ لـقـمـحـ دـافـعـيـ الـضـرـائـبـ الـذـيـ لـمـ يـجـمـعـ بـعـدـ وـالـذـيـ كـانـ لـاـيـزاـلـ قـائـمـاـ فـيـ الـحـقولـ ،ـ وـعـنـ طـرـيقـ رـهـنـ الـمـتـلـكـاتـ الـشـخـصـيـةـ لـأـنجـالـ الـخـدـيـوـ .

وـلـقـدـ دـفـعـتـ الـكـوـبـوـنـاتـ يـوـمـ اـسـتـحـقـاقـهـاـ ،ـ كـمـاـ صـدـرـتـ الـغـلـالـ بـعـدـ ذـلـكـ إـلـىـ أـورـوباـ لـلـوـفـاءـ بـالـأـمـوـالـ الـمـطـلـوـبـةـ .ـ وـلـقـدـ أـمـكـنـ لـعـدـدـ مـنـ الرـجـالـ فـيـ بـارـيسـ الـذـيـنـ بـلـغـهـمـ الـنـبـأـ مـبـكـراـ -ـ بـصـفـةـ خـاصـيـةـ -ـ عـنـ الـأـثـرـ الـذـيـ تـرـكـهـ تـصـرـيـعـ الـقـنـصـلـ الـفـرـنـسـيـ الـعـامـ فـيـ نـفـسـ الـخـدـيـوـ ،ـ أـمـكـنـ لـهـؤـلـاءـ أـنـ يـجـمـعـواـ ثـرـوـةـ مـنـ جـرـاءـ اـرـتـفـاعـ سـعـرـ السـنـدـاتـ الـمـصـرـيـةـ .ـ وـكـانـتـ التـنـيـجـةـ التـيـ عـادـتـ عـلـىـ مـصـرـ مـنـ مجـاعـةـ فـصـلـ الشـتـاءـ التـالـيـ .ـ وـلـمـ يـمـكـنـ سـدـ عـجـزـ مـنـ حـصـيـلـةـ بـيـعـ الـقـمـحـ .ـ وـبـعـدـ الدـفـعـ مـنـ مـخـتـلـفـ الـوـجوـهـ ،ـ صـدـرـ قـرـارـ آـخـرـ الـأـمـرـ ضـدـ الـأـمـرـاءـ لـدـفـعـ الـعـجـزـ الـمـتـبـقـيـ وـهـوـ حـوـالـيـ ١٢٠ـ أـلـفـ دـوـلـارـ .

وـقـبـلـ ذـلـكـ بـقـلـيلـ ،ـ كـانـتـ تـكـالـيفـ الـاحـتـفـاظـ بـجـيشـ فـيـ تـرـكـياـ قـدـ أـضـافـتـ حـمـلاـ آـخـرـ عـلـىـ كـاهـلـ الـبـلـادـ ،ـ إـذـ كـانـ الـخـدـيـوـ مـطـالـبـاـ بـإـرـسـالـ قـوـةـ لـكـيـ تـشـرـكـ

في الحرب ضد روسيا في الحرب التركية الروسية . وقد تردد سموه مدة طويلة حتى بعد أن استعدت القوات لركوب السفن ، ولم يرسلها إلا تحت تأثير ضغط إنجلترا السياسي . وقد حاول الميسوي دي ليكسي القنصل الروسي العام الذي أمد المؤلف بتفاصيل وافية عن المفاوضات . أن يشنّ الخديوي عن إرسال هذه القوات . ولكن دون جدوى .

وفي النهاية لم يخرجُ الخديوي على مخالفة طلبات السلطان التي كانت تؤيدها إنجلترا ، فأرسلت قوات قوامها ثلاثون ألف جندي ، بما فيها تلك القوات التي أرسلت من قبل للاشتراك في الحرب ضد الصرب . وجهزت وزودت بالعتاد . ثم أبحرت عبر البحر الأبيض المتوسط وأنفق عليها لمدة عام في تركيا . وعادت هذه القوات في نفس الوقت التي كانت تطالب فيه الدول بدفع كوبونات مايو سنة ١٨٧٨ . ورغم تلك الأعباء التي كانت تهنّ تحتها البلاد . ورغم الأخطاء التي كانت ترتكب - إذا أحجمنا عن استخدام تعبيارات أقسى من تلك - في عهد حملة السندات ، إلا أن الحكومات لم تكتف عن استخدام المشروعات والخطط العدوانية . فقد تزعم الفرنسيون حركة جديدة . وهي عزل الخديوي . ذلك أن العداء القديم الذي نجم عن بيع أسهم القناة الإنجلزية قد ازداد نتيجة لازدياد نفوذ إنجلترا في الشرق .

وحين بُرِزَ هذا العداء بهذه الكيفية ، لم يكن لفرنسي أن يقنع بأقل من المطالبة بدماء الخديوي . وطالب الجمهور الفرنسي علانية بالأخذ بالثأر في باريس ، وكان هذا هو الذي يرغونه منذ اللحظة التي بيعت فيها الأسهم . وقد نالوا غرضهم ، ولكنهم ضحوا بذلك بكل النفوذ السياسي الذي اكتسبوه في مصر طيلة كفاح استمر زهاء قرن من الزمان ، ذلك أنه بمجرد أن عزل رئيس الحكومة القوى ، توالت الظروف التي مهدت السبيل إلى السيادة البريطانية .

وثمة فارق أساسي بين طبيعة الفرنسيين وطبيعة الإنجليز ، فالفرنسيون يضطجعون بالمستقبل من أجل أرضاء نزعة حالية ، أما الإنجليز فهم يزنون كل

الحقائق ، ويقرؤن - قبل أن يتخذوا أي إجراء - أى الطرق سوف تكون أكثر نفعاً لهم في النهاية . وهم بهذا يستطيعون أن يتظروا ويتظروا حتى تصل الحظة السانحة .

هذا وقد هيأ الاستيلاء على قبرص بعد مؤتمر برلين وكذلك الصدقة المتينة التي توطدت بين إنجلترا وسلطان تركيا . هيأ للإنجليز لدى الخديوي مركزاً أقوى من مركز الفرنسيين . كما كان الإنجليز أناساً عمليين ويعرفون كيف يلائمون أنفسهم تبعاً لظروف البلاد أكثر من الفرنسيين . وقد مكثهم هذا ، بمساعدة حكومتهم . من الحصول على عدد كبير من المناصب المربيحة في مصر وأن يعمروا البلاد بسيل من الموظفين الإنجلizer .

وحازت أعمال الوزارة الجديدة رضاء الجمهور من كل الطبقات . ولم يستطع أحد أن يجد خطأ في الوسيلة التي كان يدير بها الخديوي شئون الحكم أو ينكر أنه كان يعمل ما في وسعه إزاء هذه الظروف . وعلى كل ، واصلت فرنسا ، تحت تأثير حملة السنادات ، حملتها الشعواء التي كانت تشنه عن طريق حرب الصحافة لمدة ثلاثة سنوات . وحينما ترددت إنجلترا ، وبدا عليها أنها على استعداد للتخلي عنها ، أخذت تسبر غور وزارات الدول الكبرى في أوروبا تطلب منها التأييد المعنوي .

وفي عام ١٨٧٨ في الوقت الذي انعقد فيه مؤتمر برلين لتصفيية المسائل التي نشأت عن الحرب التركية الروسية ، كانت إنجلترا في حاجة إلى نفوذ فرنسا . وقد حصلت إنجلترا على هذا النفوذ عن طريق الحصول على موافقة الدول الأوروبية الكبرى على اقتراح عدم مناقشة المسائل المصرية في ذلك الوقت ، عن طريق الوعود التي أدخلت في روع فرنسا أن إنجلترا سوف تتبع سياسة فرنسا في مصر .

وتحت وقع المسائل المعلقة في برلين اضطررت إنجلترا ، مخالفة بذلك نصيحة قنصلها العام وغيره من الممثلين الإنجليز في مصر ، إلى المعاونة في إكراه

مصر على رفع الفائدة المستحقة على كوبونات مايو من ذلك العام .

ولكن الظروف تغيرت ، ولم تعد إنجلترا في حاجة إلى نفوذ فرنسا . بل أصبح من الحق تفوق النفوذ الإنجليزي في مصر ، ورغم كل ما حدث ، أظهر الخديوي تفضيله للسياسة الإنجليزية ، وكانت الجالية الإنجليزية في مصر ، بما فيها القنصل العام ، ضد الوزارة الإنجليزية الفرنسية ، وكانت أقوى من المؤيدين لهذه الوزارة . زد على ذلك أن إنجلترا لم يكن لديها الرغبة في الدخول في هذا المشروع الجديد بالاشتراك مع فرنسا . ولم يكن ودهم المزعوم سوى مظهر خارجي فحسب . وكثيراً ما صرخ لـ كبار المسؤولين بإنجلترا بأن حكومتهم قد سمحـت لنفسـها دون تـروـ أن تـتـورـطـ في حـلـفـ مـعـقدـ لا يـسـرـ خـاطـرـهمـ ، ذلكـ أنـ آراءـهـمـ بـالـنـسـبـةـ لـماـيـجـبـ عـمـلـهـ كـانـتـ تـخـتـلـفـ تـامـاـ عـنـ آراءـفـرـنـسـيـنـ ، وـلـمـ يـكـنـ فـيـ مـقـدـورـهـمـ أـنـ يـصـلـوـ إـلـىـ اـتـفـاقـ بـشـأنـ سـيـاسـةـ عـامـةـ أوـ مـفـصـلـةـ . وـكـانـتـ الدـوـلـتـانـ تـغـارـانـ مـنـ بـعـضـهـمـ الـبعـضـ لـدـرـجـةـ أـنـ كـلاـ مـنـهـمـ كـانـتـ تـظـنـ أـنـ الـأـخـرـىـ تـخـفـىـ مـشـرـوـعـاتـ سـيـاسـيـةـ مـاـكـرـةـ فـيـ كـلـ لـحظـةـ مـنـ الـلحـظـاتـ . وـالـوـاقـعـ أـنـ كـلاـ مـنـهـمـ كـانـ يـبـيـتـ مـثـلـ هـذـهـ مـشـرـوـعـاتـ فـيـ مـعـظـمـ الـأـحـوالـ .

وأصبحت المسألة المالية إحدى المسائل الثانوية من حيث الأهمية . وهذه الحقيقة هي التي جعلت تعاونهما معًا في اللفة وانسجام أكثر صعوبة عن ذي قبل . وكانت فرنسا تظن أن بفضل غزوات نابليون الأول لها حقوق مكتسبة في مصر قد حرمتها الإنجليز من جني ثمارها . وكانت إنجلترا هناك ، ولو أنها لم تقصد البقاء في ذلك الوقت ، بل كانت كل ما ترمي إليه هو منع فرنسا من تثبيت أقدامها في مصر . وكان الباعث على هذه الحركة الحالية من جانب الفرنسيين هو كراهية الخديوي إلى حد كبير . أما إنجلترا التي لم يكن لديها أي دافع لل التجار بالشکوى ، فقد ظلت متربدة تمعن النظر في النتائج الأخيرة . وكانت تعرف من خبرتها السابقة أن خلع أمير قوي يارع عن العرش وإقامة شاب غير محنك في مكانه يعني تولي مقاليد الحكم بنفسها . وهي لن تتردد في حمل مثل هذه المسئولية على عاتقها ، ولكن كيف يمكن إدارة هذه

الحكومة المزدوجة ، هذه الشركة مع فرنسا في حكم البلاد ؟

ونظروا لهذه الاعتبارات وحسن سير الحكومة فيمصر ، بدا أن ميزان القوى سوف يصبح في صالح الخديوي ، حينما دخل النزاع على حين فجأة عنصر جديد من مصدر لم يكن يتوقع بالمرة . ولم يكن هذا العنصر الجديد سوى ظهور تحالف على المسألة المصرية المعلقة بين الأمير بسمارك وبين فرنسا . وعلى الرغم من أن هذا الأمر كان مثيراً للدهشة ، لم يكن من العسير على الشخص الذي كان يراقب الأحداث وعلى معرفة بالأحوال الدبلوماسية في القاهرة خلال العامين الماضيين أن يدرك بعض الأسباب التي أدت إلى هذا الحدث المفاجئ . كانت ألمانيا قد لعبت حتى الآن دوراً ضئيلاً متواضعاً للغاية في شؤون الشرق ، ولم يكن لها نفوذ يذكر بالقياس إلى نفوذ إنجلترا وفرنسا . وعلى كل فقد كان نصيبها من الدين السائر في مصر مبلغًا قدره ٧٥٠ ألف دولار ، وكان نصيب النمسا نفس المبلغ .

وأخذ القنصلان العامان التابعان لهاتين الدولتين يشكوان من أن الخديوي لا يأبه بطالبهما في الوقت الذي يلبي فيه طلبات قناصل إنجلترا وفرنسا . وكانا يقولان دائمًا إنه لا يوجد في مصر سوى قنصليين عاميين فقط : قنصل إنجلترا وفرنسا ، وأن الباقيين يمكنهم أن يذهبوا إلى حال سبيلهم . وشعر بسمارك بالإهانة نظراً لمركز ألمانيا الثاني في مصر ووجد الفرصة سانحة لكي يشعر العالم بنفوذه ويحصل على مركز هام في مصر تماشياً مع هيبة الإمبراطورية الجديدة التي أسسها أخيراً . والحقيقة أن كل موارد البلاد بما في ذلك أموال الخديوي كانت في يد المراقبين الأوروبيين الذين كانوا يستخدمونها في دفع فوائد الديون . ولم تف الوزارة الأوروبية بالوعد الذي بذلتة للخديوي بينما تنازل عن أملاكه الخاصة ، لكي يدفع الدين السائر . هذا الدين كان يتزايد دائمًا ، ولم يكن بوسع الخديوي أن يفعل شيئاً لتخفيف حدة هذا الموقف طالما أن حملة السنادات يتتصون كل الإيرادات .

ولسنا ندرى ما إذا كان موقف ألمانيا له أي تأثير على إنجلترا ، ومهما يكن من أمر ، فإن إنجلترا ب مجرد أن أبلغت بسياسة حكومة القيصر أبدت موافقتها على خطة فرنسا التي تقضي بعزل الخديوى .

وهكذا حصلت فرنسا من عدوها اللدود الذي كانت تخشاه أكثر من غيره على ما اعتبرته معونة قيمة في تنفيذ مشروع كانت تعلق عليه أهمية بالغة ، وكانت تعمل بكل قوتها لإنجازه . ولم يكن نجاحها في هذا المشروع هو السبب في ضياع نفوذهما من مصر فحسب ، بل أدى إلى نفور بينها وبين إنجلترا دام عشرين عاماً . وحينما عقدت إنجلترا العزم على أن تعمل ، أصبح عزل الخديوى أمراً يسيراً . والمسألة الهامة الوحيدة كانت الكيفية التي ينبغي أن ينفذ بها هذا العزل .

وفي حوالي منتصف شهر يونيو نصح مسٹر فيفيان ، مثل إنجلترا في مصر ، الخديوى شفويًا . وبطريقة غير رسمية كما شاع في ذلك الوقت . أن يعتزل العرش ويترك مصر فوراً على لا يعود . ثم حضر بعد ذلك بقليل الميسیو تریکو القنصل العام الفرنسي الجديد ، الذي كان يدو أنه أرسل لهذا الغرض ، ووجه إلى الخديوى نفس النصيحة بأسلوبه غير المذهب .

وكان ميسیو تریکو قد مثل فرنسا في مصر قبل ذلك واستدعى بناء على طلب الخديوى . ولهذا تعتبر عودته في ذلك الوقت إهانة مباشرة إلى سموه ، ويظهر بوضوح تحيز القابضين على زمام الحكومة الفرنسية ضد الخديوى .

وفي اليوم التالي لهذا الاتصال الشفوي . أطلع ميسیو تریکو ومسٹر لاسل القائم بالأعمال الإنجليزي ، سموه على مذكرة روسية مشتركة تحمل نفس المعنى . وكنت في مقابلة مع الخديوى في اليوم السابق لعرض المذكرة . وكان يدو على محياه الاكتئاب وغضبت عنه الحيوية التي كانت تميز مقابلاته عامة . حتى في وقت أخطر مشاكله . وقد تحدث بصراحة عن الموقف ، ولكنه لم يعبر عن رأيه فيما يختص بنتيجهته المحتملة . وكان قد أخطر سلفاً بالمذكرة

الرسمية التي سوف تعرض عليه تطلب منه اعتزال العرش ، لكنه لم يكن يتوقع أن تعرض عليه إلا في اليوم التالي ، وفي حديث لي مع شريف باشا في نفس اليوم وجدته مفعماً بالأمل فيما يختص بالنتيجة النهائية .

وقد أعطى الخديوي مهلة : ثمانية وأربعين ساعة يجيز فيها على طلبات الدولتين الكبيرتين . وحينما زاره القنصل العامون بعد انتهاء الوقت المحدد أبلغهم بأنه أبرق إلى القدسطنطينية لتلقى التعليمات من السلطان ، وأنه لم يتلق إجابة بعد ، وحينما تصل الإجابة سوف يشعل عليهم بالحضور لتلقى الإجابة . وأضاف قائلاً : إنه قد استمد سلطته من السلطان ولا يستطيع أن يعفي نفسه من مسؤوليات الحكومة دون صدور أوامر إليه من جلالته . واغتناط القنصل العام الفرنسي لهذه الإجابة غير المتوقعة ، قائلاً بأسلوبه المعتمد : « منذ متى وسموك خادم ذليل للباب العالي ؟ » فرد الخديوي على الفور : « منذ ولادي يا سيدي » .

وكانت الدولتان تأملان أن يتحلى الخديوي عن العرش طوعاً لكي تتجنبها عقد أي التزامات مع السلطان . واستمر القنصل العام يناقش مسألة التنازل ويبحثه عليها ، وحينما احتملت المناقشة ، اتهم الخديوي بعضيان السلطان أكثر من مرة . فقال الخديوي : « إنني أتحدىك أن تذكر واحدة » . وحينما ارتفع القول على مسيو تريكو . تقدم المستر لاسل لإنقاذه بأن سهل الخديوي عما إذا كان من الأفضل في هذه الواقعة بالذات أن يعمل تحت مسؤوليته الخاصة . فأجاب الخديوى على هذا السؤال بطريقة مهذبة للغاية : « سيدى العزيز . إذا كانت أول واقعة تريدنى أن أستخدم فيها استقلالى عن السلطان هي أن أتحلى عن السلطة التي خولها لي فلانى لا أرى أية فائدة تعود على من ذلك » .

واستخدم القنصلان كل وسائل الضغط الممكنة للحصول على عزل الخديوى دون انتظار قرار من السلطان . وبذلت الوعود للخديوى بأنه يتولى العرش من بعده إذا وافق على التناهى عن العرش . كما هدداه بأن يخلفه في

العرش حليم باشا . ثم ينفي من مصر دون أن يأخذ شيئاً ، إذا لم يقبل ذلك .

و بعد ذلك توجه كل من القنصل الفرنسي العام والقنصل الألماني إلى القصر واستدعايا الخديوى حوالي الساعة الثالثة صباحاً ، محدثين بذلك فرعاً بالغاً في الحريم خشية اغتيالهن . ثم أبلغاه بأنهما قد حضرا لمحه آخر مهلة لاعتزال العرش لصالح نجله ، وأن في ظرف بضع ساعات سوف يعين حليم خديويًا خلفاً له وحيثند يكون الأمر قد فات . فقال الخديوى في برود : « لسوف يكون هناك وقت كاف لاعتزال العرش . سأراكم غداً . أسعدتم مساء أيها السادة » ، ثم عاد ثانية إلى غرفته .

و كان الأمير حليم هو الراية الحمراء التي كان يلوح بها الفرنسيون في وجه الخديوى كلما رفض الإذعان لمطالبهم . ولما كان نابليون الثالث هو أقوى ملوك أوروبا في ذلك الوقت ، كان الخديوى يرتعد مجرد إعلان بسيط عن زيارة من القنصل الفرنسي العام . فكان الخديوى يقول حينئذ « ماذا يريد الآن ؟ أو يقول : « لقد جاء لكى يصر على مطلبك الذي تقدم به بالأمس » .

و كان حليم عم الخديوى ، وفي حالة وفاة الخديوى أو اعتزاله العرش يصبح المرشح الوحيد لتولى العرش ، طبقاً للشريعة الإسلامية . إذ أنه أكبر الذكور سنًا من ذرية محمد على .

وفي عام ١٨٦٦ حصل الخديوى على فرمان من السلطان عبد العزيز يقضي بتعديل نظام وراثة العرش حيث تكون ولاية العهد لابن الخديوى رأساً بدلاً من انتقالها في حالة وفاة الخديوى إلى أكبر أفراد الأسرة المذكورة .

وقد عارض في هذا التعديل عدد كبير من أصحاب التفوذ المقيمين في القسطنطينية ، وكان حليم يقيم في تلك المدينة ، وحينما اعتلى السلطان عبد الحميد العرش حدثت عدة مؤامرات ضد الخديوى ومحاولات لإعادة النظام القديم لوراثة العرش . ولكي يصد هذه المحاولات ، اضطر الخديوى إلى

إرسال مبالغ كبيرة من النقود إلى القسطنطينية زيادة على الجزية السنوية التي رفع مقدارها إلى ٣٤٠٠٠ دولار بسبب بعض الامتيازات المختلفة من بينها لقب خديوي ، وهو شرف لم يحظ به أجداده من قبل .

هذه الظروف تعلل خوفه من نفوذ أية حكومة أوروبية قوية قد تقلب ميزان القوى ضده ، كما تعلل قلق ممثلي الدول الأوروبية من أجل اعتزال الخديوي العرش وتوليه ابنه من بعده . ذلك أنهم كانوا يخشون أن يكون حليم ذا نزعة استقلالية متطرفة أو أن يكون واقعا تحت نفوذ السلطان الذي قد يحاول أن يستفيد من الموقف ويستعيد الامتيازات التي قايضوا عليها مع سلفه . وهذا الموقف الأخير هو ما حدث بالفعل ، ذلك أن إصرار إنجلترا وفرنسا على رفض الخصوص لأوامر السلطان هو الذي أخفق محاولة السلطان وضمن توفيق باشا استمرار الامتيازات التي منحت لأبيه من قبل طلما اعتقدت الدول في ضرورة هذه الامتيازات ، إذ أن ذلك كان يعتبر ضماناً لامتيازاتهم ، كما حدث مع توفيق الذي أجلسوه على العرش ولم يكن له أي رأي في المفاوضات ، كما اضطر أن يرضخ بعد ذلك لما يملوه عليه .

وفي مرحلة مبكرة من المفاوضات ، قبل أن يفضي القناعات بمسألة اعتزال العرش لإسماعيل ، استشير السلطان في الأمر ، فعبر جلالته عن رغبته في تعيين حليم خديوياً ، ولكن لم يوافق على تعيين توفيق إلا تحت ضغط قوى من جانب إنجلترا .

وفي اليوم التالي لزيارة كل من القنصل العام الفرنسي والقنصل الألماني للخديوي استئنفت المحاولات للحصول على استقالة الخديوي طوعية والتي قامت على أبناء - زعمنا أنهما تلقياها من القسطنطينية - تفید أن السلطان على وشك أن يعين حليم خلفاً له . وقد تقدمت إليه عروض تقضي بكتابه ضمانت تكفل تنفيذ وعودهما ، ولكن الخديوي قال في إصرار إنه لن يتنازل عن ولائه إلا للسلطان أو بناء على أمره .

وفي الوقت الذي كانت تمثل فيه هذه المشاهد في القاهرة كان سفير إنجلترا وفرنسا من همكين في العمل في القسطنطينية .

في عام ١٨٣١ أشعل محمد على حرباً ضد الباب العالي لكي يحصل على استقلاله . وفي العام التالي ، فتحت جيوشه سوريا بقيادة ابنه إبراهيم باشا ، والد إسماعيل ، إلا أن تدخل الدول الأوروبية حال بينه وبين حصار القسطنطينية ، ولكنه احتفظ بحكم سوريا بناء على المعاهدة التي أبرمت في أعقاب ذلك ، وفي سنة ١٨٣٩ حرضت إنجلترا السلطان على أن يجدد عداوته ، وكانت النتيجة أن حاقت بالسلطان هزيمة منكرة ، ولكن إنجلترا سارعت لنصرته تعاونه في ذلك النمسا ، وأوقفتا زحف قوات محمد على ، كما أجبرتاه على أن يتخلّى عن سوريا التي رحبت بمقدمه ورضيت بعهده ، ومن ثم أعادتا هذه الدولة التuese إلى حكم الأتراك ، ضد رغبته ، كما اضطرتاه إلى الاعتراف بسيادة السلطان وأن يدفع له جزية سنوية بلغت مليوناً ونصف مليون من الدولارات . هذا العمل الذي قامت به إنجلترا لوضع مصر تحت سيطرة السلطان قد كلف هذه الدولة مائتي مليون دولار .

وكان من سياسة إنجلترا دائمًا أن تحتفظ بتركيا كسد منيع ضد روسيا ، ومهم ما بلغت من قسوة الأتراك إلا أنهم يعتمدون دائمًا على تأييد إنجلترا كلما تعرضت كرامة دولتهم للخطر . وهكذا لم يكن في مقدور السلطان ، طبقاً للمعاهدات المبرمة ، أن يعزل الخديوي دون موافقة الدول التي اشتراك في المعاهدة التي أجبرت محمد على على أن يقبل على نفسه وعلى خلفائه من بعده سيادة تركيا .

وعندما وصلت الأنباء من القاهرة تفيد أنه ليس ثمة أمل في أن يعتزل الخديوي العرش من تلقاء نفسه ، شعر السلطان بالرضا والسرور لأنه سوف يتمكن ، بناء على دعوة الدول الأوروبية ، من استخدام حقه في السيادة بشأن تبديل حاكم مصر . هذا الامتياز كان السلطان وأسلفه محروميين منه منذ أن

أعلن محمد على استقلاله . وما زاد في سروره ورضاه أنه لم يكن على علاقة طيبة مع الخديوي في وقت من الأوقات . وربما كان السبب في هذا أنه منذ اعتلاء جلاله السلطان عرش الخلفاء في عام ١٨٧٦ لم تتمكن خزانة مصر الخديوى من أن يرسل إلى القسطنطينية المبالغ الضخمة التي اعتمد السلطان عبد العزيز وأعضاء بلاطه أن يتسللها .

وقبيل ظهريرة يوم ٢٦ يونيو وصلت برقية إلى سراي القاهرة بعنوان « صاحب السمو إسماعيل باشا ، خديوى مصر السابق » . وفي غمرة هذه الأزمة ، كان هناك عدد غير عادى من الأشخاص في غرفة رئيس التشريفات في انتظار الحصول على مقابلة مع الخديوى .

وفي الأذمنة الغايرة . كان حامل الأنباء السيئة إلى حاكم من حكام الشرق غالباً ما يفقد حياته . ويروى هيرودوت أن زرزيس أرسل إلى بيثيس ما يلي : « اعلم ذلك جيداً ، أن روح الإنسان تسكن في أذنيه ، فإذا ما استمع إلى أنباء سارة ملأت كل كيانه بالبهجة والسرور ، أما إذا ما استمع إلى العكس فإنه يحتمد غيظاً وحنقاً » .

وما زال النفور من تبليغ الأنباء السيئة قوياً في الشرق ، فحينقرأ رئيس التشريفات العنوان المكتوب على البرقية سارع باللقائها على المنضدة ولم يكن ليجسر هو أو مساعدته ، طونيتو بك ، أو أي موظف آخر من موظفي القصر أن يصعد بالبرقية المشتملة إلى سموه ، ولحسن الحظ دخل شريف باشا في هذهلحظة ، وكان رجلاً بمعنى الكلمة لا يتأثر بأية أفكار خرافية فأخذ الرسالة على الفور إلى الخديوى . ويقال إن الخديوى فض البرقية وقرأها دون أن يدوس على ملامحه أي تبديل . وكانت تحوى ما يلى :

« من الوزير الأعظم لتركيا إلى إسماعيل باشا ، خديوى مصر السابق .. إن الأزمات التي اعترضت مصر في الداخل والخارج قد تفاقمت تفاقما خطيراً . وإن استمرار الحال على هذا المنوال سيكون خطراً على كل من مصر

والدولة العثمانية .

ومن أهم الواجبات الملقاة على عاتق الحكومة الإمبراطورية هو أن تتخذ الوسائل التي تكفل المحافظة على الأمن والهدوء وتضمن رفاهية الناس . وقد التزمت نصوص الفرمانات الإمبراطورية بهذا الغرض . ومن الواضح أن بقاءك في منصب الخديوى لا ينجم من ورائه سوى ازدياد العقبات الحالية وتفاقمها .

ولذا ، فقد قرر جلالة السلطان . بناء على قرار صادر من مجلس وزرائه ، أن يعين في منصب الخديوى ، سعادة محمد توفيق باشا . وقد صدر بهذا المعنى مرسوم إمبراطورى» .

وقد بلغ سعادته بهذا القرار الهم عن طريق برقية أخرى ، وإنني لأطلب منك أن تنسحب من أعمال الحكومة نزولاً على أوامر جلالة السلطان ٦ رجب سنة ١٢٩٦ (٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩) . وكان سموه يعتمد على تأييد السلطان له حتى هذه اللحظة ، وحينما فرغ من قراءة الرسالة ، يقال إنه صاح قائلاً : « هذا ما أناناه جزاء إرسالي إبان حكمى مبلغ ٢٠ مليونا من الجنيهات الاسترلينية (٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درلار) إلى القدسية » . ثم طوى الرسالة في هدوء قائلاً : « أرسل في طلب توفيق فوراً . وأسرع شريف ينزل الدرج إلى باب جانبي ، وبدلاً من أن يبعث في طلب توفيق ، استقل عربته وذهب إليه بنفسه .

وكان توفيق يقيم في ذلك الوقت في قصر الإسماعيلية على مقربة من كوبرى قصر النيل على مسافة نصف ميل من عابدين . وقد تحقق أمل كان يراود شاباً في السادسة والعشرين من عمره كان حتى ذلك الوقت يعيش مع أسرته في هدوء ، دون أية مظاهر تذكر ، والذي كان يتسم بتواضع يصل إلى حد الإحجام والحياء .

وفي الوقت الذي أرسلت فيه البرقية من القدسية إلى إسماعيل باشا

بعث برسالة أخرى إلى توفيق تبلغه بتعيينه في مركز خديوي بدلاً من أبيه وتطلب منه إدارة الحكومة . ولم يكن هناك أي تردد أو تأخير في تسليم هذه الرسالة . وقد شجع الأمل في الحصول على مكافأة حامل هذه الأنباء السارة على تسليمها على وجه السرعة .

ويقال إن عامل التلغراف الذي كان في انتظار البرقية التي أعلنت وفاة سعيد باشا سنة ١٨٦٣ وحملها ليلاً إلى إسماعيل خلفه كوفىء بترقية عاجلة تبعتها ترقيات أخرى حتى وصل إلى لقب باشا .

وعند وصول شريف إلى قصر توفيق وجده على أبهة الاستعداد للدخول عربته التي كانت في الانتظار ، وعلى وشك أن يتوجه إلى عابدين ، وجلس شريف بجانبه ، وبينما كانا يهمنا بالخروج من بوابة القصر ، سلمه توفيق الرسالة التي أخذ في قراءتها والعربة تنعب الأرض تجاه عابدين . وكانت كما يلي :

« من وزير تركيا الأعظم إلى محمد توفيق باشا :

إن رغبة جلاله السلطان هي ضمان وسائل التقدم والأمن في مصر التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية . هذا وإن الامتيازات التي منحت لحكومة هذه الولاية ثبت تماماً حسن نيتها تجاهها . ولكن العقبات الداخلية والخارجية التي نجمت لبعض الوقت تحتم علينا عزل والدكم الحليل إسماعيل باشا .

وإن مقدرتك وفطنك المعترف بهما من جلاله سلطان تركيا تبيان بأنك ستتمكن من حكم هذه الولاية حكماً سليماً وتنشر الأمن والهدوء في ربوعها تحقيقاً لرغبة جلاله السلطان . وبناء عليه ، فقد عينك جلالته بقرار إمبراطوري خديوياً على مصر ، وسيسلم إليك الفرمان الإمبراطوري حسب المراسيم المعتادة .

ولقد طلب من إسماعيل باشا في رسالة أخرى أن يتتحى عن أعمال الحكومة . وعليه فبمجرد تسلم هذه الرسالة ينبغي عليك أن تجتمع العلماء والموظفين وأعيان البلاد ومستخدمي الحكومة لتبلغهم نصوص الفرمان الإمبراطوري الخاص بتعيينكم حيث تبدأون بإدارة أعمال الحكومة .

وإن هذا المركز السامي لمكافأة على قدراتك ، وسيكون اعتلاوك العرش إيداعاً بيده النظام والتقدم اللذين سوف يسودان البلاد التي دعيت لإدارة حكومتها .

ولاني لأتمني لك نجاحاً عظيماً وأهنتك باعتلاوك العرش » .

٦ رجب سنة ١٢٩٦.

وعندما أعاد إليه شريف باشا الرسالة قال : أو سوف تتخذ سموكم الإجراءات اللازمة لإعلانك خديوياً في القلعة هذا المساء ؟ . فأوْمأَ توفيق بالإيجاب .

وسرعان ما وصلت العربة إلى المدخل الكبير بعاديين حيث صعدا السلم الفخم فقابلهما إسماعيل باشا عند مدخل حجرة الاستقبال . فأخذ سموه يد ابنه ورفعها إلى شفتيه ، حسب العادة الشرقية المتبعة في إظهار الخضوع ، ثم قال : أحبيك بصفتك أفندينا ، كما كان الأهالي يسمون الخديوي ، ثم قبله على كلتا وجنتيه قائلاً : « أتعشم ألا تنسى أنني والدك وحييند توجه على الفور إلى جناحه الخاص » .

وهكذا ، أقيمت جميع مسئوليات حكم مصر والسودان من البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرات ألبرت وفكتوريا نيانزا على عاتق هذا الأمير الشاب ، فأصبح الحاكم المطلق على عشرة ملايين نسمة . كانت كلمته بالنسبة لهم تعتبر قانوناً . وسرعان ما أُعفاه المهدى من مسئولية السودان ووسط أفريقياً ، وتولت إنجلترا وفرنسا مقايد الجزء الأكبر من حكم مصر ، ولكن همومه وأعباءه أخذت تزداد نتيجة لذلك بدلاً من أن تقل .

الفصل الثاني والعشرون

تعيين توفيق باشا ورحيل إسماعيل

عقب تلك الأحداث بقليل اجتمع أعضاء الوزارة بالسرائى حيث ظهر إسماعيل باشا أمامهم وقبل رسمياً اعتلاء ابنه عرش مصر ، ثم أرسلت مذكرات رسمية عاجلة إلى الممثلين السياسيين بشأن تغيير الحاكم في مصر مصحوبة بدعوتهم لمقابلة سمو توفيق باشا بعد ظهر ذلك اليوم بسرائى الإسماعيلية ومرافقته إلى القلعة للاحتفال بإعلان تنصيبه خديئياً .

وفي الساعة المحددة وصلنا إلى السرائى حيث استقبلنا سمو الخديوى وكان الجميع بملابسهم الرسمية عدا مثل الولايات المتحدة الذى كان مضطراً إلى الظهور في هذه المناسبة ، كما هو الحال في المناسبات السياسية الأخرى .. مرتدياً حلقة بسيطة ، وقد أدى افتقار أعضاء مجلس الكونجرس إلى المعلومات الخاصة بعادات الدول الأخرى ورغبتهم في تطبيق أفكارهم بالإكراه على العالم كله إلى حرمان مثليهم في الدول الأجنبية من حق ارتداء الملابس الرسمية التي تقضي بها العادات الدبلوماسية العالمية .

وانضم إلينا بعد ذلك في القصر قضاة المحاكم الجديدة أو المحكمة الدولية الذين كانوا موجودين في القاهرة . وكانت يرتدون ملابسهم الرسمية التي كانت تتكون من الطربوش الأحمر والرداء الاستامبولي ، (وهو عبارة عن

معطف ذى صيف واحد بياقة متنصبة) ، ثم وشاح فرمزي عريض تنتهي أطرافه بشرابات ذهبية اللون ، وكان الوشاح يلتف فوق الكتف الأيسر ومشيناً عند الخصر الآمين . وقد وضعوا على صدورهم دبوساً كبيراً قد حفر عليه بالنقش البارز الشمس البارزة وكتب عليه باللغة العربية بالطلاء الأسود الكلمات الآتية : « العدل أساس الملك ». وكان الخديوى الجديد وأخوه (الأمير حسين والأمير حسن) ، وأعضاء الوزارة ، وموظفو البلات ، وكبار الضباط يرتدون ملابس زاهية ، وكان العلماء والقضاة الأهليون وغيرهم من الأعيان في ملابسهم الوطنية الفضفاضة .

وقد غادر الخديوى السראי في عربة صغيرة في رفقة أخيه وشريف باشا . وسارت في أعقابهم عربات القنصل العامين والقضاة يتبعهم موكب طويل من الأوروبيين وقليل من الأهالى . وكانت القلعة تقع على مسافة تزيد على ميلين وعلى مرتفع في أقصى الجنوب الشرقي من المدينة وكانت جماعات السوارى محتشدة على جانبي الشارع المؤدى إلى السrai ، كما اصطف بعض الجنود على مسافة طويلة قبل الوصول إلى القلعة .

ولم تذع الأنباء الخاصة بتبدل الحكومة على الجمهور حتى الساعة الثانية بعد الظهر . وسرعان ما انتشرت الأخبار واشتد الرحام عند نهاية الطريق حتى أن الجند لم يستطعوا إفساح الطريق إلا بصعوبة . وحينما كنا نرتقى ذلك التل المرتفع في تؤدة عن طريق ضيق يحوطه جدران سميكه على الجانبين ، أطلق مائة مدفع وواحد معلنة للجمهور بهذه حكم جديد والنهاية المخزنة لعهد إسماعيل باشا الذي بدأ بداية زاهرة منذ أكثر من ستة عشر عاماً .

وعندما وصلنا القمة شاهدنا المدينة متعدة أمامنا بحدائقها العديدة ، وأسقفها المنبسطة ، ومداخلها المتعددة ، ومقابر المالك والسلطان والخلفاء والباشوات والبكوات التاريخية ، ومساجدها العديدة بقبابها وماذنها . وكانت صورة فريدة رائعة لمدينة شاسعة تشمل حوالي نصف مليون من السكان .

ويجري في الجهة الغربية من المدينة نهر النيل تمتد وراءه الحقول الخضراء ، وفي الجانب الآخر من الوادي توجد الأهرامات وجبال صحراء ليبها . وكان أمامنا مباشرة مساجد وقصور القلعة محاطة برمال جبال المقطم الصفراء .

وقد شيد صلاح الدين هذه القلعة - وهو مؤسس أسرة الأكراد في مصر عام ١١٦٦ - من أحجار أخذت من أهرام الجيزة الصغيرة ، وتعتبر قليلة الأهمية في الوقت الحاضر من الوجهة الحربية ولا تعدو أن تكون أكثر من حصن دفاعي مؤقت ضد أي ثورة مفاجئة من أهالي المدينة .. ويؤدي إليها ممر ضيق قديم ذو أسوار عالية ، وكان هذا الممر مسرحاً للمأساة الشنيعة التي حدثت في أول مارس سنة ١٨١١ حيث ذبح فيه أكثر من أربعين ألف من المالك ييد جنود محمد على ، أصبح على أثرها الحاكم المطلق لمصر .

وكان المالك عبيداً في الأصل . كما يدل عليه اسمهم ، يدربون كجنود ، ويكونون الحرس الخاص للسلطانين . وفي عام ١٢٥٠ اغتصبوا عرش مصر وكونوا أسرة ملكة ، وحكموا البلاد مائتين وخمسين عاماً .. وأصبح هؤلاء الذين كانوا عبيداً سلطانين حاكمين . وفي سنة ١٥١٧ غزا الأتراك البلاد وأنضموا إلى البقوش المالك ، وأنزلوهم إلى مرتبة الأمراء الصغار ، فأصبح البقوش حكامًا للمديريات ، ولكن الباشوات الذين وعدهم البقوش بالولاء لهم أرسلوا حكم البلاد جميعاً . وعلى كل فقد أصبحت سلطة الباشوات اسمية فقط ، إذ أن البقوش كانت لهم السلطة التامة على المديريات ، رغم أنهم كانوا يدفعون الجزية للباشوات ، وفي بعض الأحيان كان البقوش يقومون بثورات ويصبحون شبه مستقلين عن الحكومة العثمانية .

وكان هذا هو حال البلاد عندما أصبح محمد على حاكماً عليها ، أو الوالي . وكان البقوش المالك طبقة من الأعيان كانت تحكم البلاد في الواقع ، ولم تكن سلطة الأتراك إلا اسمية فقط .

ووجد محمد على أنه لا يستطيع عمل شيء دون رضاهم . فلما مل هذه

السلطة المقيدة له فكر في القضاء عليهم قضاء مبرماً . وحيثند قام بعمل الترتيبات اللازمة لهذا الغرض ، ثم دعا كل المماليك في مصر إلى حفلة استقبال كبيرة في قصره بالقلعة .

وكانت دعوة الوالي تعتبر دائمًا أمراً ، وما كان المماليك يشكون في نوایاه ، لبوا دعوته عن طيب خاطر . وحينما انتهى الحفل ، دعاهم للانضمام إلى موكب يسير في أرجاء المدينة ، فوافقوا على الفور . وقد تراءى لهم أنهم حين يتخطون صهوة خيولهم العربية المزركشة سوف يظهرون بمظهر العظمة ، لا يسر منظرهم الجمهور فحسب بل يبعث أيضًا في نفوسهم الهيبة من سطوة أمراء المماليك .

وحينما دخل الجميع المر الضيق محوطين بصفوف من جنود الباشوات كحرس شرف على كلا الجانبين ، أمر الباشا بإغلاق البوابات الكبيرة خلفهم ، كما أمر بإغلاق تلك البوابات التي تقع عند سفح التل حيث حصرهم بين الأسوار العالية . وصدر الأمر ، فانقضت القوات عليهم ، وقتلوا عن آخرهم ، وكان عددهم يتراوح بين أربعين وخمسين تقوية . ولم ينج منهم إلا واحد كان قد وصل متاخرًا إلى القلعة فلم يتسع له الدخول قبل أن تغلق البوابة السفلية . وحينما سمع الضيوضاء بالداخل فر هاربًا على جواهه السريع إلى سوريا . وهكذا بضربة واحدة ، وهي أنجح الضربات في التاريخ ، أيد عدد كبير من الأستقراطيين الذين حكموا البلاد ما يربو على خمسة قرون . وبهذه الوسيلة استتب الأمر لحمد على الذي كان ابن تاجر دخان من قوله ، وكان يبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاماً . وغالبًا ما يطلق عليه اسم الجد الأكبر لتوافق الذي كنا بصدده تنصيبه خديويًا على مصر . والواقع لم يكن إسماعيل إلا ابنه من نسل محمد على ، ذلك أن إبراهيم باشا والد إسماعيل ، الذي كان قائداً عظيماً ، والذى خلف محمد على في حكم مصر . لم يكن سوى ابنه بالتبني ، بل كان في الواقع ابن لأحد زوجات محمد على من زوج سابق ، وولد في تركيا .

والقلعة عبارة عن مكان فسيح يكفي لإقامة مدينة صغيرة ، ويوجد بها عدة مساجد عتيقة ، وقصر كبير جداً ، كان يستخدم حينما كانت في مصر مكاتب لنظرية الحرية . أما القصر الذي ابناه محمد على فقد كان متوسط الحجم ويستخدم للاحتفالات ، وهذا هو القصر الذي كان يتوجه إلينا موكبنا .

وكانت العادة تقضي بإقامة احتفال رسمي عند وصول الفرمان . ولذا كان احتفالاً صغيراً يتكون أساساً من قراءة الرسالة الإمبراطورية أمام الوزراء والعلماء وكبار الموظفين والأعيان ومستخدمي الحكومة ، ثم استقبال الشخصيات الهامة في البلاد من أجانب ووطنيين .

وقد استقبلت الهيئات الدبلوماسية والقنصلية أولاً . وكان الخديوي الشاب ولحوته والوزراء جالسين في غرفة استقبال فسيحة . وعند دخولنا وقف سموه ، وتقدم لاستقبالنا .

وألقى عميد السلك السياسي خطاباً موجزاً باللغة الفرنسية بالنيابة عن نفسه وعن زملائه ، ورد عليه الخديوي باللغة نفسها .

ثم جلسنا ندخن ، ونشرب القهوة ، وتبادلنا بعض الكلمات ، ثم استأذنا في الإنصراف . ثم تقدم القضاة بعد ذلك ثم الهيئات المدنية والدينية والعسكرية المختلفة يقدمون ولاءهم لسلطانهم الجديد ، وقد انبعح عدد كبير منهم في حضرته ، ولم يتقدم لأنحد القهوة أو الغلابين سوى الممثلين الدبلوماسيين .

وكان إسماعيل في ذلك الوقت في قصر عابدين ، فتوجهت من القلعة مباشرة لزيارته ، وقد أكون القنصل العام الوحيد الذي فعل ذلك . وكان مركز الصداقاة التي بيننا إبان المشاكل التي لاقاها سموه يسمح لي بأن أفعل ما لم يستطع غيري من القناعات العاملين الآخرين الذين يمثلون الدول الكبرى أن يفعله ، فيما عدا مثل روسيا .

وتحدث سموه بصراحة عن الموقف ، وقال إنه ينبغي عليه أن يحرر يوم الأحد أو الاثنين القادم ويتوجه مباشرة إلى القدسية حيث يتوقع أن يقضي بقية أيامه . ولما كنت أعلم أنه تربى في فرنسا وأنه يحب المدينة الأوروبية فقد تخافت بأن أقترح عليه بأن دولة أوروبية خلاف تركيا قد تكون أكثر ملائمة له . فأجاب قائلاً : « نعم ، قد تكون أكثر ملائمة لي شخصياً ، أما بالنسبة لعائلتى ، وبالنسبة لعاداتنا ، فإن هذا لن يكون ملائماً ، بل سيكون مستحيلاً » .

وحينما كنت أستاذن من سموه في أثناء زيارتي السابقة ، كان يصطحبنى حتى باب غرفة الاستقبال فقط . وفي هذه المناسبة رافقنى ، وهو يتحدث بلا انقطاع ، خلال الصالة إلى رأس السلم وشرع في النزول معي قبل أن أتحقق من غرضه ، ولم أسمع له بالسir أبعد من هذا . واستجابة لعدم موافقتي قال وهو يهز على يدي ونحن نفترق : « لم أعد خديوى » .

وكان يقدر عبارات الجاملة ، وقد أراد أن يتنازل عن كل حقوقه التي كان يتمتع بها إبان سيادته عن طريق مرافقته لي .

وبعد ذلك بيومين ، أي يوم السبت ، قمت بزيارة سموه مرة أخرى حيث أخبرني أن السلطان رفض التصرير له بالذهاب إلى القدسية . وكان يشعر بخيبة أمل كبيرة ، ولكنه قال إنه ينبغي عليه أن يغادر القاهرة صباح يوم الإثنين وأن يغادر الإسكندرية مساء ذلك اليوم . وفي خلال أربع وعشرين ساعة من تنازله عن العرش زاره القنصل الفرنسي العام لكي يستفسر عن ميعاد رحيله ، وهو يتعلل بأنه يود أن يصدر الأوامر إلى السفن الحربية الفرنسية الراسية في ميناء الإسكندرية لكي تؤدى له التحية التي تليق بمقام الملك عند سفرهم .

وفي مساء يوم السبت زاره مرة أخرى مع القائم بأعمال القنصل العام الإنجليزي ، خشية أن يكون هناك بعض التأخير ، كما زارا الخديوى الشاب وأصرًا على أن يغادر إسماعيل البلاد فورًا . وقد طلبت الدولتان كذلك أن

يغادر الأميران حسين وحسن البلاد ، كما أخبراني بذلك . وهكذا طلب من الخديوي عن طريق أولياء أمره المسيحيين ، أن يقوم لا بنفي أبيه فحسب ، بل أخويه كذلك اللذين كانوا في سنه نفسها واللذين لم يشك فيهما أحد . وكان قرار النفي هو تقريرًا أول قرار رسمي يصدره . وبعد اعتزال العرش بأربعة أيام أبحر المنفيون من الإسكندرية مع عائلاتهم إلى مكان مجهول .

ولم يكن هناك أي شعور بالابتهاج في مصر بسبب تبديل الحكومة ، بل بعض آثار العطف والاحترام للحاكم المخلوع . وعلى الرغم من العادة الشرقية بالتخلي عن المخلوع وتركه لمصيره ، إلا أن قصر إسماعيل كان مزدحما - منذ يوم اعتزاله العرش - بالزائرين الذين وفدوا للتعبير عن مشاركتهم الوجданية ، كما رافقه إلى الحطة جماهير غفيرة من الناس . وهناك كان الفراق بين أفراد العائلة منظراً محزناً ، فقد احتضن الخديوي الشاب ولده وأخوه ، وأغرورقت عيون المشاهدين بالدموع . وكان الأب هو الوحيد الذي استطاع أن يتمالك عواطفه . وكان اللقاء الأخير مع ولده الذي ضحى من أجل ضمان اعتلاله العرش بمبالغ باهظة هي قيمة الهدايا التي قدمها للسلطان ورجال بلاطه .

وكانت هناك حشود غفيرة على طول الطريق إلى الإسكندرية ، وكلها تبدى عطفها واحترامها . وقد بلغ الازدحام أشدّه في الإسكندرية حتى اضطر الخديوي أن يصل إلى السفينة عن طريق غير متوقع .

وأطلقت السفن الحربية الرئيسية في الميناء التحية الملكية المعتادة ، وصعد عدد كبير من الناس على ظهر الباخرة يودعونه ، فاستقبلهم سموه بكل ود وهدوء . وكان يودع الواحد تلو الآخر بأن يصافحه ويقول كلمة رقيقة إلى الأشخاص الذين كان بينه وبينهم صداقه ، وبين كل حين كان يعانق أحد الأصدقاء القدامي المخلصين ، كما هي العادة المتّبعة في الشرق .

وقد وقفت قليلاً ، على سطح الباخرة ، أتحدث إلى الأميرين ، وأنا أشاهد البعض يقبل يد الخديوي السابق ، والآخرين يقبلون ثيابه ، بينما كان يتحنى له

عدد كبير باحترام بالغ . وهكذا ودع الواحد بعد الآخر ، لمدى أكثر من ساعتين ، أفندينا السابق الوداع الأخير . وحان وقت إبحار السفينة فتحركت المحسنة - التي كانت باخرة سموه المفضلة السريعة إبان سطوهه ، والتي أرسلت لكي تصحبه وعائلته إلى منفاه - بعيداً عن الميناء وسط دوى المدافع من جديد .

وسرعان ما بلغتنا أنباء الابتهاج الذي سرى في باريس بسبب النصر الدبلوماسي و « الانتقام الرهيب » ، ولكن الشعور السائد في مصر كان شعور شعب مغلوب على أمره افترق عن حاكمه بناء على أوامر الأجانب المبغضين .

وقد فكر الفرنسيون في تدعيم سلطانهم المضمحل في الشرق عن طريق هذا العمل ، ولكنهم كانوا يهدون الطريق لكي يفقدوا ما كتب له البقاء رغم أنف سياستهم الرديئة ، وعن طريق هذه السياسة تكدرست ثروات أصحاب السنادات ، ولكن الأمة تأثرت لا في هيبتها فحسب ، بل من الناحية التجارية بدرجة لا تناسب مطلقاً مع المكاسب التي أحرزواها .

ووصل الخديوي إلى نابولي أولاً ، وحينما توقفت بذلك المدينة بعد ذلك بشهر ، وجدت سموه وعائلته ما زالوا على سطح الباخرة لا يعرفون مستقرهم بعد ، وقد زرته بعد ذلك بستين في « فافوريتا » ، وهو أحد القصور الملكية ، ويقع على خليج نابولي عند سفح بركان فيزوف وكان ملك إيطاليا قد منحه هذا القصر ليقيم فيه . وإذا صحت الإشاعات ، فإن هذا الصنيع لم يكن إلا مقابل جزء يسير من المبالغ الهائلة التي أفرضها الخديوي شخصياً إلى والد ملك إيطاليا ، فيكتور عمانويل ، والتي لم يقم هذا الملك بتسديدها .

وفي هذه المرة ، بدأ التأثير البالغ على الخديوي لزيارتى ، فعانقنى بالطريقة الشرقية الصحيحة وهو يقبلني على كلتا وجنتي ، وببدأت الدموع تعطر من عينيه ، وهو واقف لم يزل واضعاً يده على كتفى . وكان شانثوه يصفون ترحيبه ووده البالغ اللذين كان يظهرهما ويفتن بهما قلوب زائريه حينما كان

خدبيًا على أنهم مجرد « حركات مسرحية » الغرض منها إدخال السرور على الزائرين دون أن يكون لها أساس من الإخلاص أو الود الحقيقي . وما لاشك فيه أنه كان يملك موهبة فذة لإدخال السرور والبهجة على الناس ، وليس بعيد عن الاحتمال أنه كان يستخدم هذه الموهبة في بعض الأوقات لمجرد الحصول على النتائج المرجوة . ولكن من معرفتي الشخصية لأنحلاقه فإنني أعتقد أنه إلى جانب ذلك كون صداقات قوية كان مخلصاً لها بوجه عام .

وقد أمضيت معه بالقصر حوالي ساعة أو ساعتين تحدث معه عن بعض الشؤون المصرية ، وعند عودته إلى نابولي ، سارت عربة الأميرين حسين وحسن ، في أعقاب عربتي لكي يردا الزيارة .

وفي خريف عام ١٨٨١ تناولت طعام الإفطار مع الخديوي في ميلانو وكذلك في شتاء عام ١٨٨٢-١٨٨٣ في باريس . وكان حاضراً في المرة الأخيرة الجنرال ستون عند عودته من مصر بعد خدمة دامت حوالي عشر سنوات ، وكان الإنجليز قد استولوا على البلاد وأصروا على تقاعده الجنرال مع أن الخديوي الشاب كان يفضل بقائه .

وحينما شاهدت إسماعيل آخر مرة في باريس ، كان قد بدل طربوشه بقبعة حريرية طويلة ، وظهر بظهور الأوروبيين . وقد أقام في قصر « فافوريتا » حتى عام ١٨٨٨ حينما سمح له بالإقامة في القدس . وقد أصبح بعمله هذا أسيراً بالفعل للسلطان عبد الحميد . خصميه العتيق ، ولم يكن في مقدوره بعد ذلك أن يiarح المدينة دون إذن خاص من جلالة السلطان ، حتى يبحجز في منزله لبعض الوقت . وقبل وفاته بمنتهى وجية ، حينما رأى حالته الصحية تتدهور ، سعى للحصول على تصريح من السلطان للعودة إلى مصر ليقضي فيها البقية الباقيه من حياته في مناخها الجميل ، وأن يموت في بلاده ، ولكن هؤلاء الذين كانوا يتحكمون في مصيرها رفضوا أن يؤدوا له هذا الصنيع .

وبعد وفاته في مارس سنة ١٨٩٥ سمحوا له بنقل جثمانه إلى القاهرة

وُدْفِنَ بِمَقابرِ العَائِلَةِ الْخَدِيُوِيَّةِ . وَهَكُذَا تَوَارَى بَطْلُ الْمَأْسَاةِ الْمَصْرِيَّةِ الَّتِي اسْتَمْرَتْ مِنْ عَامِ ١٨٧٥ إِلَى عَامِ ١٨٧٩ . وَكَانَ قَدْ سَبَقَهُ وَلَدَاهُ تَوْفِيقٌ وَحَسْنٌ وَشَرِيفٌ باشاً وَاللُّورَدَ فِيفِيانُ ، وَغَيْرُهُمْ . وَتَوَارَى كَذَلِكَ كُبارُ الشَّخْصِيَّاتِ الْأَمْرِيَكِيَّةِ الَّتِي عَمِلَتْ فِي خَدْمَةِ الْخَدِيُوِيِّ (الْجَنْرَالُ سْتُونُ وَالْجَنْرَالُ لُورِنجُ وَالْكُولُونِيلُ كُولِسْتُونُ وَالْكُولُونِيلُ فِيلْدُ ، وَكَثِيرٌ غَيْرُهُمْ) . وَالْقَوْلُ نَفْسُهُ يَنْتَطِقُ عَلَى الْأَمْرِيَكِيِّينَ الْبَارِزِيِّينَ الَّذِينَ زَارُوا أَرْضَ النِّيلَ فِي هَذِهِ الْحَقْبَةِ ، وَالَّذِينَ أَكْرَمَ إِسْمَاعِيلَ وَفَادُوهُمْ وَهُمْ : جَرَانتُ ، وَشِيرْمَانُ ، وَوْشِبْرُونُ ، وَمَانِيَارْدُ ، وَلُوِيسُ .

الفصل الثالث والعشرون

إسماعيل باشا وعهده

تختلف الآراء بالنسبة لمزايا وعيوب عهد إسماعيل باشا ، باختلاف مصادر المعلومات والمقاييس التي يحكم بها عليه . ولم يمدد شخص بأدئ الأمر بهذا الإفراط ثم دُم بعد ذلك بهذا القدر مثلما حدث مع إسماعيل ، وحتى وقع في الضائقة المالية كان الأشخاص المحيطون به وكانت الصحف الأوربية من جميع الطبقات والشخصيات ذوى المراكز العالية يسرفون في مدح التطور الباهر الذي أحرزته مصر وتقديمها المطرد في عهد حاكمها المستنير التقى ، « نابليون الشرق » .

وعند زيارته لأوروبا استقبل استقبال الملوك وأعدت له القصور الملكية في فلورنس وفيينا وبرلين وباريس ولندن ، وتنافس الأباطرة والملوك والملكات والأمراء في منحه ألقاب الشرف . ففي عام ١٨٦٧ منحته الملكة فكتوريا وسام الباث الأعظم ، وفي سنة ١٨٦٨ منحته وسام نجمة الهند الأعظم . وقد أرسل اللورد ناير إلى القاهرة لكي يقدم إلى سموه هذا النيشان الأخير . وحينما تغيرت الأحوال المالية ، صوب نحوه متسلقوه من محررى الصحف نيران مدافعهم من التشهير والطعن .

وحيثند أصبحت الأشياء التي عملها من أجل تقدم التعليم ، ومن أجل المدينة الحديثة . وأصبح التحسن المادي للبلاد الذي أثار من قبل مثل هذا التقرير والمدح اللذين لا حد لهما ينسب إلى بواعث الأنانية ، فقد قام بهذه الأعمال إما لإثراء نفسه ، أو - على حد تعبير الدين يحطون من قدره - :

«لكي يذر الرماد في عيون الأوروبيين». وكل ما كان جديراً في الماضي بأطيب الثناء أصبح دليلاً على الأنانية والخداع والدهاء الوضيع ، أو غير هذا من المشاعر الدينية .

ومعظيم مدوني تاريخ هذه الحقبة من الإنجليز ، وقد كتب الكثيرون منهم بشيء ولا يجدون عذرًا سوى الادعاء بسوء الإدارة في عهد إسماعيل . وليس يعنيني الدفاع عن حكومته ، ولكن من العسير أن نبرر أعمال أي أمير شرقي بمقاييسنا عن مقومات الحكومة الصالحة .

ولو أن فرنسا وإنجلترا أرادتا أن تخلعاً أمير أفغانستان أو شاه إيران أو السلطان ، لما وجدتا صعوبة في العثور على عذرهما بوجود حكومة فاسدة ، ثم يدخلها في روع العالم كله صدق هذه الحقيقة . وكل ما أبغي قوله هو أن حكومة الخديوي كانت أفضل بلا شك من كل تلك الحكومات ، وكان الناس يحكمون حكماً عرفيًا ، وبقسوة ، طبقاً لمعاييرنا ، كما كانت تحكم كل البلاد الشرقية ، كانت هناك سجون قليلة . وفي حالات كثيرة كان يحل «الكرياج» و «المد» محل عقوبة السجن .

ولكن إلى جانب هذا لم يكن ثمة مظاهرات أو اغتيالات للمسيحيين كما كان يحدث في بقية أجزاء الإمبراطورية العثمانية ، وهؤلاء المسيحيون الذين اغتيلوا يعدون بالآلاف ، والمذابح التي حدثت تبلغ عدد السنين الماضية . ومع ذلك ، كانت الدول التي تعرف باسم الدول المسيحية تتضامن دوماً فيما بينها لتأييد السلطان في الاحتفاظ بالسيطرة على جميع الدول التابعة له .

وكان المسيحي طوال حكم إسماعيل باشا يتمتع بكافة الحقوق والحرية والحياة ، شأن المسلم تماماً . وكان الأجنبي ، مهما كانت جنسيته أو دينه ، يستطيع أن يجوب خلال أراضيه ، من البحر إلى أواسط أفريقيا في أمان كما يجب أنباء أية دولة في العالم ، ولو أنه استمر خديويًا دون أن تحد من سلطته ، لاستمرت الأحوال نفسها ، ولما حدثت ثورات عام ١٨٨١-

١٨٨٢.. ولا حكم عراقي باشا . ولما قذفت الإسكندرية بالقنابل وخررت وأحرقت . ولما حدث كل ما تمخض عن ذلك من فظائع ، ولما اضطرت الحكومة المصرية أن تدفع تعويضاً قدره ٣٠٠ مليون دولار أضيفت إلى الدين الوطني .

ولما كانت هناك معركة « التل الكبير » التي ذبح فيها الأهالي العزل من السلاح ، ولما نجحت ثورة المهدى ، ولما هزم وقتل هكسى باشا في كردفان مع عشرة آلاف جندي من المصريين ، ولما تواتت الهزائم المنكرة والمذابح في سواكن ، ولما أرسلت الحملة المشئومة إلى أعلى النيل لإنقاذ غوردون باشا دون ضرورة ، ولما فقدت مصر والسودان وغيرهما من الولايات الواقعة في أواسط أفريقيا ، ولما أرسلت حملة من الجنود المصريين والإنجليز تكلفت مصاريف باهضة تحملتها الخزينة المصرية ، لاسترداد الأقاليم الضائعة .

كل هذه الأحداث بخسائرها التي ترتب عليها من ضياعآلاف الضحايا وملايين الدولارات كانت النتيجة المباشرة لعزل حاكم قوى كفوء ووضع مقابليد السلطة في أيدي وكلاء بنوك باريس ولندن غير المسؤولين وكان هذا العزل نتيجة لموافقة اللورد ييكر نزفيلد على الانضمام لفرنسا في محاولة لابتزاز فوائد باهضة على قروض لم تحصل منها الحكومة المصرية فعلاً إلا على ٥٠ أو ٦٠ وقد قال كاتب إنجليزي في هذا الموضوع : « هذا التدخل العنيف من جانب هاتين الدولتين هو قوة غاشمة خرجت على القانون العام من أجل أحبط نزعة يمكن أن تتأثر بها الحكومات المسيحية ». ثم أضاف قائلاً : « مثل هذا الابتعاد عن كل مبدأ ابعته السياسة الإنجليزية في الماضي لا يمكن إلا أن يكون خطيراً » .

كان إسماعيل باشا في كثير من الوجوه رجلاً جديراً بالاعتبار ، ولقد فاق غيره من حكام الشرق في النشاط والمقدرة الإدارية والذكاء ، فعلى يده تقدمت مصر في مضمار المدينة الحديثة إبان الست عشرة سنة من حكمه أكثر مما

تقدمت في الخمسينات سنة السابقة على حكمه . ووصلت مصر في رقيها إلى درجة تفوق ما وصلت إليه أثناء الإمبراطورية العثمانية منذ أيام عثمان من حيث تقدم التعليم والمحافظة على الآثار . وفي الاكتشافات الواسعة - العلمية والجغرافية - وفي إنشاء السكك الحديدية وخطوط البرق ، وفي ملاحة السفن ، واستصلاح الأراضي الصحراوية .

كما أنشأ أحواضاً للسفن وجسراً ومصانع ضخمة للسكر وأقام بعض المنشآت على الشواطئ . كما بدأ نظاماً رائعاً للإنارة على جميع شواطئ مصر . واشترى سفناً بخارية ، وأنشأ خطوط ملاحة منتظمة في البحرين الأبيض والأحمر . وقد قام بناء حوض جاف كبير في فرنسا ثم نقله إلى الإسكندرية . وزادت قيمة الصادرات السنوية إبان حكمه إلى ثلاثة أميال ما كانت عليه ، أي من ٤٠٠٠ إلى ٤٥٠٠ جنيه استرليني إلى ١٣٨٠٠ جنيهات .

أما ممتلكاته فقد أضاف إليها مساحات شاسعة من البلاد في وسط أفريقيا على شواطئ البحر الأحمر ، بما فيها سواكن ومصوع وزيلع .

وقد أمر ببسع هذه البلاد ، ووضع خريطة لها ، ثم أقام فيها حكومات

كان يخشى بأسها في كل مكان . هذه الأرضي الشاسعة مضافاً إليها السودان القديم هي ما يطلق عليه الإنجليز الآن بكل فخر ، « الإمبراطورية البريطانية الجديدة في السودان » ، وكانت كلها تحت إدارة الخديو في الوقت الذي عزل فيه .

ـ وكانت القاهرة في أول حكمه مدينة شرقية تماماً ، ذلك أن شوارعها كانت ضيقة لا تكفي إلا لمرور جمل واحد أو حصان واحد ، كما أنها كانت غير مضاءة . وكل إنسان كان يخرج إلى الشوارع ليلاً يحمل مشعله ويقدمه حامل شعلة . ولم تكن المياه متوفرة إلا فيما عدا قناة تخترق المدينة . كانت تحمل منها المياه في قرب . وعندما كانت تجف القناة ، وكان ذلك بضعة شهور من كل عام ، كانت المياه تؤخذ من خزانات تحفظ فيها المياه أيام فيضان النيل . وقد أعد إسماعيل باشا نظاماً لتوزيع الغاز والمياه في القاهرة والإسكندرية . كما أنه أضاف عدة شوارع إلى مدينة القاهرة إلى جانب عدة متنزهات ، وهكذا خلق مدينة أوروبية جميلة مزودة بوسائل الراحة الحديثة إلى جانب المدينة القديمة .

وتجنى مصر الآن ثمار هذه الإصلاحات الداخلية ، إلى جانب الزيادة في رقعة الأرضي المنزرعة ، وخطوط التلغراف ، والموانئ والأحواض الجافة والمنارات .

ـ وألغى إسماعيل باشا كذلك تجارة الرقيق في جميع ممتلكاته وجعل من ذلك العمل الشنيع ، وهو تشويه الصبيان الملونين جريمة يعاقب عليها بالإعدام . وأوقف استيراد الرقيق ، كما صرف مبلغاً كبيراً للقضاء على تجارة الرقيق بالسودان وغيره من أقاليم وسط أفريقيا ، ولكي يمنع نقل العبيد عبر البحر الأحمر حيث كان يأخذهم التجار إلى تركيا وبلاد فارس .

كما سن قانوناً ينص على أن بيع العبيد ، سواء البيض منهم أو السود ، من أسرة إلى أسرة يتوقف في أغسطس سنة ١٨٨٤ . ولما كان من النادر أن يولد

العبيد في مصر ، قضي هذا على الرق فيها بسرعة . وسمح لكل من أنجاهه بزوجة واحدة لكي يضرب مثلاً لإيقاف تعدد الزوجات وتوقف استيراد الحوارى البيض .

و قبل عهده ، كان يوجد بالقاهرة سوق حرة للرقيق حيث كانت تباع فيها الحوارى السود والبيض ، وكان الزوج يؤسرون في وسط أفريقيا ثم ينقلون إلى أعلى النيل أو عبر البحر الأحمر ويبيعون في أسواق الرقيق .

و قبل اعتزاله العرش بوقت قصير ، عقدت مع شريف باشا ، بموافقة الخديوى ، معايدة تنص من جانب الخديوى على إلغاء تجارة الرقيق . وقد تم هذا بناء على اتفاق شفوي بشأن هذا الموضوع بينه وبين حكومة واشنطن . ولقد بعثت إلى مستر افارتس بمسودة من المعايدة الإنجليزية والفرنسية ، ولكن نتيجة لتغيير الخديوى والإدارة بالإنجليزية والفرنسية ، لم تنفذ هذه المعايدة قط .

وقد اشتملت هذه الاتفاقية على نص يبيح لطرادات الولايات المتحدة أن تزور وتفتش وتعتقل أي سفينة مصرية تعمل في تجارة الرقيق أو يشتبه في أنها تستخدم لهذا الغرض ، وذلك لتسليمها إلى أقرب سلطة مصرية لمحاكمتها .

ولما لاح الحاجة إلى مجلد لوصف تاريخ تطور التعليم خلال حكم إسماعيل ، ففي نهاية عهده سلفه سعيد باشا كان عدد المدارس العامة ١٨٥ مدرسة فقط . ولكن هذا العدد زاد في حكم إسماعيل إلى ١٧٨٤ . وكان في هذه المدارس ما بين ثمانين ألفاً ومائة ألف طالب ، وهي نسبة مئوية من مجموع الصبيان في البلاد تبلغ ثمانية أضعاف النسبة المئوية من طلبة المدارس العامة في الإمبراطورية الروسية ، وثلاثة أرباع النسبة المئوية في إيطاليا .

وفي السنة الأخيرة من حكم سعيد باشا كان المبلغ الذي خصصته الحكومة للتعليم هو ٣٠٠٠ دولار ، وقد زاد إسماعيل هذا المبلغ في عام ١٨٧٢ إلى

٤٠٠٠ دولار ، ونخفض هذا المبلغ عام ١٨٨٢ في عهد حملة السندات إلى ٢٠٠٠٠ دولار ، وهو يساوى تماماً مجموع مرتبات اثنى عشر أوروبياً من المراقبين الذين فرضوا على البلاد فرضاً . والعرب يعرفون بشغفهم للعلم . وهذا الميل لتحصيل المعلومات معروف في العالم أجمع ، وكان تقدمهم في هذا المضمار في عهد إسماعيل ليس له نظير . كما أنهم على درجة كبيرة من الثقافة ، وقد بذل إسماعيل محاولات كبيرة لرفع مستوى التعليم ، وكان عليه أن يتغلب على الأمية المتفشية بين جماهير الشعب .

وقد صادفته عقبات ضخمة في سائر البلاد الأخرى إلى جانب التعليم . ونحن عشر الغربيين لا يمكننا أن ندرك المغزى التام من وراء هذه الإصلاحات والابتكارات ، ذلك أن الحاكم الذي يحاول أن يطعم المدنية الشرقية القديمة بالمدنية الحديثة لا يجد أي عون . ولذا ينبغي عليه ألا يتذكر ويوجه كل تغير بل عليه في الواقع أن يفرضه بقوة سلطانه .

وكانت شخصية الخديوي شخصية محببة ، ويشهد بذلك كل موظفي قصوره من أجانب ووطنيين ، وقد أوقف العقوبات الصارمة التي كانت متبرعة في مصر . فلم يعد هناك مصادرة ممتلكات ، أو حالات نفى ، ولم تنفذ إلا بضعة أحكام بالإعدام . ولقد سمعت بحالة إعدام واحدة طيلة الثلاث سنوات التي حكمها بعد وصولي ، بالإضافة إلى واحدة شاذة ، هي حالة وزير المالية ، إسماعيل صادق باشا . وفي الحكومات الشرقية المطلقة كان السلطان لابد أن يحل محل القاضي في كثير من الأحيان ، ولذا كان يتحمل وقوع بعض الظلم في بعض الحالات ، ولكن سجل إسماعيل باشا يعتبر ناصحاً من هذه الناحية إذا قارناه بسجل أي سلطان شرقي آخر . حتى الإنجليز أنفسهم لا يستطيعون أن يظهروا سجلاً أنصع من سجله في حكمهم للأقطار غير الإسلامية ، فهم لا يتزدرون في محاكمة الناس أو شنقهم ، أو ضربهم بالنار كلما اعتقادوا أن ذلك ضروري لتدعمهم سعادتهم . وقد استخدمو بعض هذه الوسائل عند نزولهم إلى الإسكندرية بعد قدفها بالقنابل .

وبينما كانت مصر تسير بخطى متقدمة في كل ما يتعلق بالمدنية الحديثة (بما فيها رفاهية خلق دين وطني كبير اشتراك فيه معظم الدول الأوروبية على قدر طاقتها) ماذا كان يحدث في بقية أجزاء الإمبراطورية العثمانية ؟ وعلى الرغم من أن الدول الأوروبية كانت تحافظ على حكومة جلالة السلطان وتصونها من الانهيار . هل استخدمت قطرة مداد واحدة ، خلال تلك الحقبة ، في مدح التطورات المادية للبلاد أو تحسين حال سكان الممتلكات التي كان السلطان يحكمها ؟ كلا ، لم يكن هناك سوى سجل لصحراءات الإنسانية المعدبة ، ومذابح الأرمن والبلغاريين ، وغيرهم من المسيحيين ، ومؤتمرات لفرض الإصلاحات بالقوة وثبتت أقدام الأتراك . ولم يتوقف دين الدولة العثمانية عن الازدياد ، ليس إلى الحد الذي يمكن للحكومة أن تستدنه فحسب بل أكثر مما تتحمل تسلیمه . وفي مقابل هذا ، لم يكن في سجلها شيء تبديه اللهم إلا أحداث الاغتيالات والقتل .

ففي جميع أنحاء سوريا لم يكن ثمة ميناء واحد أو خط حديدي واحد ، ولا حتى طريق يصلح لمرور عربات المسافرين سوى الطريق الذي كان يمتد بين بيروت ودمشق . وكانت التجارة الداخلية للبلاد تنقل على ظهور البغال والجمال في طرق وعرة ملتوية لم تكن قد أصلحت لعدة قرون على الأقل . وكانت البوادر التي تبحر على طول الشاطئ تضطر إلى أن ترسو في عرض البحر ، لكي تنقل شحناتها وركابها إلى الشاطئ في قوارب صغيرة ، إذا كان الجو يسمح بذلك ، أما إذا كان الجو مكفهراً لا يصلح لهذه العملية فتبحر دون أن ترسو .

وكان هناك في آسيا الصغرى كلها خط حديدي واحد ، قامت بإنشائه شركة إنجليزية لمسافة صغيرة إلى الداخل . أما الجزء الواقع من تركية في أوروبا فلم يستطع أن يظهر أي تقدم يذكر ، وكان البوس ، والاضطهاد ، والظلم منتشرًا في كل مكان . ولكن رغم كل هذا كان السلطان يُرفع إلى مصاف إنسان رفيع المنزلة ، ويطلب من أجل الحكم الصالح ومن أجل رفاهية رعاياه

الأعزاء ، أن ينحى الخديو الذي وقف عقبة في سبيل إطلاق أيدى هؤلاء الذين كانوا يضعون موارد مصر في جيوبهم . ولم يكن في وسعه إلا أن يوضخ للأمر .

ولقد عبر النائب الإنجليزي سير وليفريد ولسون عن هذه النتائج تعبيراً دقيقاً سنة ١٨٨٧ بقوله حينما كان يؤيد مشروع قرار قدم إلى البرلمان بشأن استدعاء القوات الإنجليزية في مصر فوراً : « لقد عملنا على زيادة دين مصر من ٩٠٠٠،٠٠٠ جنيه إلى ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠، وذهبنا عدة آلاف من المواطنين ، وكمنا المجلس الوطني ، وضررنا المدينة الرئيسية للبلاد بالقنايل في ظرف غاية في الفطاعة ، ورفعنا قيمة الضرائب ، ونشرنا الدعاية والفساد في العاصمة ، وبذرنا بذور الشقاوة بين الخديو والشعب ، وسحقنا أول بوادر الاستقلال التي ظهرت في الأمم الشرقية منذ أجيال مضت » .

وينسب هؤلاء الذين يحاولون أن يبرروا عزل إسماعيل باشا بالقوة أسباب الأزمات المالية التي وقع فيها إلى إسرافه البالغ ، وعلى هذا الأساس نسجوا القصص الخيالية ، فأي بيت صيفي في الصحراء يصفونه بأنه أحد « قصور سموه الشامخة » .

ـ ولم يكن هناك سوى مقررين بناهما إسماعيل يستحقان أن يطلق عليهما اسم قصور ، وقد كانت تكاليفهما لا تذكر بالنسبة لتكاليف القصور الملكية في أوروبا . وكانا مبنيين ، شأن غيرهما من المباني في القاهرة ، من الحجارة العادية الموضوعة في الملاط ، ومطلبين بالجبس في الداخل والخارج ، وكان لهما أسقف مسطحة عادية من الأسممنت ولم تكن تكاليفهما مما لا تتناسب مع ثروة سموه قبل أن يصبح والياً . وكانت حفلات الاستقبال والعشاء التي أقامها بعد وصوله إلى مصر قليلة العدد ، ولا تتسم بالإسراف . ومع هذا فإن أحد الكتاب الإنجليز الذي كان يدعى الأمانة والتحفظ في المعلومات التي وردت في كتابه أطلق عليها « حفلات الطرف » و « الولائم الفخمة » . وحسب

ما ورد في الصحف ، كانت حفلات الرقص وغيرها من أنواع التسلية التي أقامها خلفاؤه ، تحت إشراف المستشارين الأوروبيين ، تفوق في العدد والفحامدة الحفلات التي كان يقيمها إسماعيل ، ومع ذلك لم يتهموا هؤلاء بالإسراف .

وحينما جاء المستر جوشن إلى مصر ، بكل ما يحيطه من مهابة عضو سابق من أعضاء إحدى الوزارات الإنجليزية ، لكي يواصل مشروع « إفساد المصريين » الذي بدأه منذ عدة سنوات خلت كعضو من أعضاء شركة فرهلننج - جوشن ، كانت إحدى التهم الخطيرة التي وجهها ضد الخديوي أنه كان يساعد في المحافظة على وجود المسرح بالقاهرة .

وكان هذا المسرح يملاه إلى حد كبير الزائرون الأوروبيون والأمريكيون الذين جاءوا في الشتاء إلى مصر طلباً للصحة أو المتعة . وتدير الحكومات الفرنسية والإنجليزية وغيرها من الحكومات الأوروبية دور الأوبرا والمسارح الرئيسية في مدنها أو تقدم لها مساعدة كبيرة . كما أن المسرح لا يزال موجوداً في القاهرة ، ولكن ما من نقد يوجه إليه الآن .

كل هذه الأنواع من الإسراف الظاهري والتي كانت مادة غنية لمراسلى الصحف لعدة سنوات لصالح حملة السندات ، لا تفسر كثيراً تلك المبالغ التي استداناها إسماعيل ، ولكن النفقات الباهظة غير الضرورية هي التي نجمت عن كرم الخديوى في تسلية ضيوفه من الأباطرة والملوك والأمراء ورجال حاشياتهم العديدين وسفرائهم وزرائهم ومراسلى صحفهم الذين زاروا مصر أيام افتتاح قناة السويس .

وكان من بين هؤلاء الضيوف فرنسيس جوزيف إمبراطور النمسا ، والإمبراطورة يوجينى ، وولى عهد بروسيا ، وعدد وفير من سلالة الملوك والنبلاء . وإذا تدرجنا من هذه القائمة الطويلة من النبلاء إلى مراسلى صحف خاملة الذكر وعدد آخر من الشخصيات غير البارزة ، وجدنا أن عدداً آخر يربو على ثلاثة آلاف أدرجت أسماؤهم من بين المدعون عن طريق وساطة بعض

الرسميين . كل هؤلاء الزوار كانوا يستضفون في القصور والفنادق وبعضهم كان تحت تصرفه بواخر يستخدمونها في رحلات على النيل . لقد كان هذا إسراً أحمق وإظهاراً مبالغة للكرم الشرقي ، كان من الواجب أن تخصم نفقاته من ممتلكات الخديوي الخاصة .

ولقد ظن سموه حينئذ أن القناة التي ساهم في إنشائها إلى حد كبير ، سوف تكون العمل الجيد الذي يتوج أعماله . ولم يخطر بذهنه أنها سوف تؤدي إلى القضاء عليه وعلى مصر ، كما لم يخطر بباله أن الدولة التي لم تساعد في هذا المشروع والتي أعاقت العمل بقدر المستطاع هي التي سوف تجني أرباحها التجارية الطائلة في النهاية ، وعن طريقها توسيع في فتوحاتها وزادت من سلطانها السياسي إلى حد كبير . ومن المحتمل أن دماثة خلق مسيو دلسبيس وكرمه الشرقي الحاتمي هو الذي أدى به إلى هذا الإسراف الذي لا مبرر له . ومهما قيل عن أعمال مسيو دلسبيس العظيمة ، فإن مما لا شك فيه أنه العقري الشرير لمصر ، وأن قناة السويس هي السبب الرئيسي في خرابها .

وقد احتفى إسماعيل كذلك بولي عهد إنجلترا وغيره من الشخصيات الملكية أو البارزة حفاوة لا تقل عن تلك الحفاوة التي قبّل بها المدعوون في حفل افتتاح قناة السويس . وقد أدت نفقات من هذا النوع إلى الاستدانة ، ولكنها لم تكن السبب في الأزمات المالية . ولكن السبب هو نفس السبب الذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى إخفاق رجال الأعمال ، وهو محاولة القيام بأعمال كثيرة في وقت الرخاء سرعان ما يعقبها أزمات حين ينحصر المد .

ولقد اعتلى إسماعيل العرش سنة ١٨٦٣ في الوقت الذي كانت فيه أسعار القطن مرتفعة ، ذلك أن مصر كانت تنتج كميات كبيرة من هذه السلعة لعدة سنوات . وقد أدت هذه الأسعار المرتفعة ، إلى جانب الاعتقاد باستمرار الحرب في الولايات المتحدة ، إلى توسيع كبير في هذا النوع من الزراعة . وفي سنة

١٨٦٤ بلغت قيمة صادرات مصر إلى ٧٢٠٠٠٠٠ دولار ، وهو حد لم يسبق له نظير . هذا الرخاء سبب اضطراباً بالغاً بين جميع الطبقات وأدخل في روع الناس أفكاراً خيالية عن مناجم الثروة في تربة دلتا النيل ، فظن الناس أن مصر من الآن فصاعداً سوف تصبح أعظم دولة متجهة للقطن في العالم . حتى الفلاح العادي أصبح في مقدوره أن يتزوج مرة ثانية . وقد كبار رجال الأعمال تحفظهم وجروا في تيار المضاربات المالية .. وتشبع الخديوي بهذه الروح السائدة وظن أن ثروة مصر لن يناسب لها معين ، خاصة وأنه نجح في كل مشروعاته السابقة .

وبعض الشرقيين يتسمون بعدم التبصر ، فمع نجاحهم وثائهم يأتي المظاهر وحب الظهور . وكان الخديوي ، لسوء الطالع . يعرف أوروبا تماماً ، فكان يحب عظمتها . ومع أفكاره العظيمة عن توسيع حدود مصر وتكوين إمبراطورية إفريقية على طراز المدنية الأوروبية بما فيها من خطوط حديدية عديدة وتسهيلات تلغرافية ، وموانئ ، وأحواض جافة ، وخطوط ملاحة ، وتعليم عام ، كانت تتملكه الرغبة في إنشاء مدن فاخرة وحداثة ومتزهات غناء وكل وسائل الرفاهية التي تمتاز بها المدنية الحديثة . وكان محاطاً بفرقة من المتعلمين الأوروبيين كانوا يتذلونه ويبالغون له في ثروة البلاد ، وسرعان ما بدأ في تنفيذ مشروعات ضخمة التكاليف خاصة بالتوسيع الإقليمي والإصلاحات الداخلية . وفي عام ١٨٦٤ ، بناء على طلب السلطان ، أرسلت مصر جيشاً صغيراً على حسابها الخاص لإخماد ثورة في الحجاز ، وفي ربيع العام التالي أرسلت قوة أخرى إلى كريت لمساعدة تركيا في إخماد الثورة المسيحية .

وجاء على أعقاب هذه النفقات نقصان في الإيرادات . وفي عام ١٨٦٦ نتيجة لنقص محصول القطن ، قلت الصادرات بنسبة ٣٣٪ أي بما قيمته ٢٣ مليوناً من الدولارات . وكانت هناك مشروعات كبيرة بقصد التنفيذ ، وأبرمت بعض العقود ، ونظرًا لأن الأمل في تحسن الأحوال وزيادة الدخل من الإصلاحات التي لم تتم بعد كان يشيع في كل مكان ، لم يحدث أي اقتصاد

في المصارف ، بل على العكس كانت تزداد باستمرار ، وكان كل عمل جديد يحتاج إلى نفقات إضافية ، فالموانئ تتطلب بناء أحواض جافة ، والخطوط الحديدية تتطلب عربات تسير عليها . كما كان هناك مبالغ ضخمة تتفق هباء وعيوب كثيرة تستند نفقات ، ذلك أن كل المشروعات كانت جديدة بالنسبة للأهالى ، وكانت تنفذ بواسطة عقود مبرمة مع الأوروبيين الذين كانوا يكثرون طائفنة تجده في البحث عن « أعمال » مربحة .

وكان للخدودى قليل من الوكلاء المختصين الجديرين بالثقة ، ولذا كان لزاماً عليه أن يشرف على كل إدارة من إدارات حكومته ، ولكي يقوم بهذا العمل كان عليه أن يكون على دراية بالسكة الحديدية ، والتلغراف ، وخطوط الملاحة ، والموانئ ، والأحواض الجافة ، ونظام إضاءة المنائر ، والإصلاحات المحلية ، والجيوش ، والاكتشافات الواسعة والغزوات الضخمة في وسط أفريقيا ، واستباب السلطة في المديريات الاستوائية ، وفي سواكن ومصوع .

كانت كل هذه الإدارات تحت مراقبته المباشرة ، ولم يكن من الممكن إبرام عقد ، أو شراء سيارة ، أو تحويلة جديدة لخط ، أو وضع علامة من علامات الطريق دون إرشاده . وبالإضافة إلى كل هذا وإلى حكم الملائين من رعاياه ، كانت ممتلكاته الخاصة الواسعة ومتلكات أسرته ، وتنظيف وشق قنوات الري ، واستصلاح الأراضي الصحراوية تتطلب منه عناء فائق .

وكان إدارته لأراضيه بما فيها من مئات الآلاف من العمال ، ومصانع السكر الضخمة بها ، وخطوطها الحديدية ، وقواربها ، وجمالها ، ومواشيرها ، وأدواتها ، كافية لتعجيز أكبر إداري بارع . ومع كل هذه المشاغل ، لم يهمل ممتلكاته الشخصية . وكانت معرفته بتفاصيل كل آلة ، وكل أداة ، من الشادوف والمعلول حتى المضخة البخارية والقاطرة والسفينة البخارية ، دائمًا مصدر دهشة كبيرة لهؤلاء الذين يحدثون إليه لأول مرة ومصدر إعجاب دائم

لهؤلاء الأوروبيين الذين كانوا على صلة به وببلاده .

وكان يبرم كل العقود الهامة ، وحتى العقود البسيطة كانت تتم تحت إشرافه ، وكانت كل هذه الأعمال كثيرة جداً بالنسبة لعقل واحد ، ومن المشكوك فيه أن يستطيع إنسان أن يتولى أمر كل هذه المشروعات الواسعة المتنوعة - تاهيلك بالمشاغل التي لا نهاية لها الخاصة بالحكومة - وكانت النتيجة مضيعة وخراباً بسبب الوكلاء الذين تنقصهم الكفاية والأمانة .

وعلى الرغم من كل هذه الخسائر ، كان يوسع إدارته أن تفي بكل الاقتراحات التي عليها فيما عدا الفائدة المفاحشة التي كانت تدفع على الديون . وكما بینا من قبل ، كانت مصر في سنة ١٨٨٢ قد سددت كل الأموال التي سلمتها فعلاً من بيع السندات بما في ذلك فائدة سنوية قدرها ٦ في المائة . وهذه القروض كانت تشمل الديون المختلفة من أيام سعيد باشا وقدرها خمسون مليوناً من الدولارات ، كما تشتمل على تلك الملايين العديدة التي أخذتها شركة قناة السويس نتيجة للتعويض الذي حكم به نابليون الثالث . أما الأربعينية والخمسون مليوناً من الدولارات المدينة بها مصر الآن والفائدة التي تدفع عليها منذ سنة ١٨٨٢ والتي يبلغ مقدارها نفس مقدار الدين الأصلي فكلها من قبيل الربا دون أي وجه حق .

وتبلغ قيمة الفائدة السنوية المستحقة على المبلغ الذي مازال متبقياً حوالي ثمانية عشر مليوناً من الدولارات ، وهذه جزءة مكسورة ينبغي دفعها لأوروبا سنوياً لأجل غير محدود ، قد يمتد إلى أجيال ، مثل الجزءة التي كانت تدفع لتركيا ، والتي فرضتها الدول الكبرى ، بإيعاز من إنجلترا ، على محمد على ، وتنحصر الجريمة الحقيقة التي ارتكبها إسماعيل في أنه وضع نفسه تحت نفوذ يهود لندن وباريس ، هؤلاء الذين كان معظمهم من الممولين اليهود ، وكانت لديهم القوة الكافية لتوجيه حكومتي إنجلترا وفرنسا وتحتها على ابداع سابقة جديدة خاصة بتدخل الدول رسمياً في جميع الديون المبرمة طبقاً لعقود ،

وحتى الديون التي لا ترتكز على أي التزام أديبي .

ومن أجل جمع هذه الديون التي تميزت بهذا الطابع والتي مكنت بنوك روتشيلد ، وأبنهايم ، وجوشن ، وغيرها من البيوت المالية أن تجني ثمار مغامراتها المالية ، قامت الدولتان الكبيرتان ببذل معونتهما الرسمية أولاً ، ثم قامت إنجلترا بعد ذلك بتقديم معونتها العسكرية .

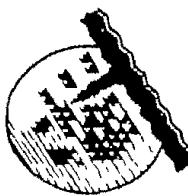
ولم يتسع إلا لعدد قليل جداً من الإنجليز أن يحصلوا على معلومات صحيحة بالنسبة لأسباب الفشل المالي في مصر ، ولذا دخل في روعهم أن الأموال أقرضت بوجه عام ، وأن الديون المستحقة هي الديون التي لم تدفع بعد ، وأن هذه المئات من الملايين كان يعيشها إسماعيل باشا في حياته الصافية .

وهم يشعرون بالفخر لما فعله اللورد كروم من إقامة حكومة صالحة في البلاد ، ولكنه لم يستطع أن يخفف عن هذا القطر الصغير التي كانت تبلغ مساحته خمس ولاية نيويورك ، من دفع ثمانية عشر مليوناً من الدولارات سنوياً عنوة واقتداراً من هذا الشعب المظلوم وتحت وقع القوة العسكرية ، ولم يستطع كذلك أن يعيدها من دفع ثلاثة ملايين ونصف مليون من الخزينة لتركيا ، التي بلغنى أنها رهنت منذ زمن طويل ، وتذهب مباشرة إلى إنجلترا .

وحينما نتحدث عن مساحة مصر ، فإننا نستبعد مساحة الصحاري الحبيطة بها ومساحة السودان وغيرها من الولايات الجنوبية ، فهذه المساحات لم تبلغ حد الاعتماد على النفس بعد ، كما أنه لم تعد جزءاً من الأراضي المصرية ، ذلك أن مصر قد دفعت تكاليف استرداد السودان ، ويسمح لها نظير ذلك ، بصفة تعويض ، بالشرف الأجوف لرفع علمها ، في الوقت الحاضر ، إلى جانب العلم الإنجليزي .

ولأن ابتعاد بعض الدول الأوروبية العدوانية عن المبادئ الأصيلة السليمة ،

في محاولاتها جمع ديون قائمة على عقود وديون أخرى يُشك في صحتها باستخدام قبضتها الحديدية ، ليفتح السبيل لارتكاب أخطار جسمة ضد الدول الصغيرة والضعيفة . وقد يؤدي تشجيعنا أو اعترافنا بأعمال من هذا النوع ضد الدول الأمريكية الضعيفة إلى أن تقع في مشاكل دولية خطيرة . والمساعدة ، والمساهمة بأي شكل من الأشكال ، في جمع ديون ضخمة كتلك التي تدين بها مصر ، تعتبر جريمة أود إلا تخلق الفرصة التي تجعل الحكومة الأمريكية تتهم ببنائها ، وإذا ما تمسكنا بالنهج الذي سلكناه حتى الآن فسوف نتجرّب لا خطر مثل هذه السياسة فحسب ، بل الظلم الناجم عنها . وقد قال وزير الخارجية ، اليهو روت في خطابه الأخير الذي ألقاه في بوينس آيريس في الأرجنتين : « إن الولايات المتحدة لم تستخدم ولن تستخدم قط جيشها أو بحريتها في جمع ديون تعاقدت عليها حكومات أو أفراد » . ثم أضاف قائلاً : « مثل هذه الإجراءات تؤدي إلى المصايربة وهي قائمة على أغراض دنيئة » .



جامعة القاهرة - كلية التربية - كلية التربية البدنية - ١٣٢٠١٥

الفصل الرابع والعشرون

المحاكم الدولية

تكون المحاكم الدولية أو المحاكم المختلطة في مصر نظاماً فريداً . وهي تتشكل من قضاة أجانب ووطنيين ، ولكي تعقد محكمة للنظر في قضية من القضايا تشكل من خمسة قضاة ، ثلاثة من الأجانب وأثنين من الوطنيين . ولا يوجد بهذه المحاكم نظام المخلفين ، بل تهتدى المحكمة إلى الحقائق وتقرير المسائل القانونية . وتعرف المحكمة التي تجرى فيها المحاكمة باسم محكمة من الدرجة الأولى ، ولها فرعان : المحكمة المدنية والمحكمة التجارية . وتحتخص الأولى بالفصل فيما يعرف في المحاكم الإنجليزية أو الأمريكية باسم « قضايا الانصاف » ، وتفصل الثانية في القضايا الخاصة بالمنازعات القانونية . وعلى كل هناك حالات استثناء من هذا التقسيم .

وفي المحكمة التجارية يوجد اثنان من الخبراء المثبتين أحدهما وطني والآخر أجنبي يختارهما رجال الأعمال البارزين في المدينة التي تعقد بها المحكمة . ويقوم هذان الخبراء بالخدمة لوقت معين ، وبعد انتهاء مدة تهمما يقع الاختيار على غيرهما ليحلما محلهما بنفس الكيفية التي ينتخب بها المخلفون في الولايات المتحدة ، فهم يجلسون مع القضاة وقت المحاكمة ، ولهم رأي في الفصل في القضية .

والأوروبيون يختارون من بين المقيمين في مصر ، أما الأهالى فيختارون من بين التجار المحليين البارزين . ولما كان هؤلاء التجار على دراية بأحوال الجمهور

فهم يعتبرون الساعد الأول لهذه المحاكم ، والقضايا المطالب فيها يبلغ أقل من القدر المحدد لاختصاص المحكمة ، ينظر فيها أمام قاض أو رئي واحد في محكمة تعرف باسم « المحكمة الجزئية » .

وتوجد كذلك محكمة استئناف ، وهي المرجع الأخير الذي تستأنف أمامها القضايا المرفوعة أمام المحاكم . وتشكل محكمة الاستئناف من سبعة قضاة من الأجانب ، كل واحد منهم يمثل إحدى الدول السبع الكبرى ، وخمسة من القضاة الوطنيين ، وقد عين أحiero الجنرال جورج س . باتشلر بمعرفة الرئيس روزفلت ليمثل الولايات المتحدة في هذه المحكمة . وقد كان نائباً لوزير المالية بواسنطن ، وزيراً لدى البرتغال . وذلك في عهد الرئيس هاريسون . ولما كان قد اشتغل بمحكمة الدرجة الأولى بالقاهرة لمدة عشر سنوات فقد أصبح أهلاً لنصبـه الجديد .

ويوجد بهذه المحاكم الدولية أربعة وثلاثون قاضياً من الأجانب ، وواحد وعشرون قاضياً من المصريين ، فمن الأجانب يوجد ثلاثة قضاة عن كل دولة من الدول العظمى السبع بما فيها الولايات المتحدة ، وقاض واحد أو اثنان عن كل دولة من الدول الأوروبية المسيحية التي تعتبر من الدرجة الثانية كبلجيكا وهولندا واليونان وأسبانيا .

وتختص هذه المحاكم بالفصل في القضايا المدنية في جميع القضايا المختلطة . أي التي تحدث بين أطراف من جنسيات مختلفة ، كقضية بين مصري وإنجليزي أو بين إنجليزي وألماني ، كما أنها تختص بالنظر في القضايا الجنائية التي ترتكب أثناء معارضـة تنفيذ أحكامها . ولقد أنشئت هذه المحاكم في عهد الخديوى إسماعيل لكي تحل محل أكبر عدد من المحاكم القنصلية التي كانت قد أنشئت بمقتضى الامتيازات الأجنبية التي منحت للدول المسيحية . ولم تعرف الحكومـات المسيحية فقط باختصاص المحاكم الموجودة في الدول غير المسيحية بالفصل في النزاع بين رعاياها . وكلما كانت هذه الدول تفتح

ذراعيها للأجانب بغرض التجارة أو الإقامة المؤقتة أو الدائمة كانت تعقد معاهدات أو تمنح امتيازات خاصة بالفصل في النزاع بين الأجانب ، وهذا هو حق الدول الأوروبية في الفصل عن طريق قناصلها ، بين مواطنيها الذين يقيمون في دولة من الدول غير المسيحية سواء بصفة مؤقتة أو بصفة دائمة . وقد شنت اليابان أخيراً عن هذه القاعدة ، وسواء كان ذلك صواباً أم خطأً فإن تصرفات محاكمها المقبلة سوف تقرر ذلك ، ولكن بعض التجار الأوروبيين قد قدمو شكاوى خطيرة في هذا الشأن .

أما في حالة الإمبراطورية العثمانية فإن الخلفاء والسلطان لم يكن في وسعهم أن يتعاملوا مع الكفار ، فإن الدخول في اتفاقيات معهم يعد اعترافاً بأن لهم حقوقاً لابد أن تاحترم حتى من جانب الخليفة نفسه ، وبخلاف من الدخول في اتفاقيات أو إبرام معاهدات ، كان الخلفاء يصدرون رسائل تشتمل على منح بعض الامتيازات ، هذه الخطابات كانت تعرف لدى الشرقيين باسم « البراءة الإمبراطورية » ولدى الأوروبيين باسم « امتيازات » تمنح للبحارة والتجار الأجانب الذين يفدون للتجارة في ممتلكات الخليفة وتقضى بإعطائهم حصانة ضد القبض عليهم أو الإزعاج من جانب السلطات المحلية .

ولقد صدرت هذه الامتيازات بادئ الأمر في القرن الثاني عشر ولم تتواضع الأمم المسيحية في طلباتها الخاصة بالامتيازات الأجنبية . وحينما ستحت الفرصة حصلوا على امتيازات إضافية في المدن الرئيسية بمصر ، وخاصة في الإسكندرية حتى أصبح الناس يتساءلون ما إذا كانت الحكومات الأجنبية أم السلطة المحلية هي الحاكمة . هذه الامتيازات الأجنبية التي طالبت بها الدول الأجنبية وتمتعت بهزايها ، نجم عنها وجود سلطات عديدة في مصر .

وكان الأجانب من المسيحيين ، فيما يختص بحكمهم وكل الإجراءات القضائية الخاصة بهم ، يعتبرون كأنهم مقيمون في بلادهم . وكان يمثل هذه

الدول عدد كبير من القنصلات يتراوح بين ١٤ و ١٨ ، وكل قنصل كان المحاكم الفعلية لأعضاء جاليته وقاضياً يفصل في الشكاوى والقضايا التي ترفع ضدهم : ولم يكن لأحكامه وقراراته أي استئناف إلا لدى حكومته .

وعلى كل ، لم تكن هناك وسائل لتنفيذ الأحكام ضد الأجانب سوى سلطة القنصل الذي يتبعه الخصم الصادر ضده الحكم .

ولم يكن الأجانب معفين من إلقاء القبض عليهم ومحاكمتهم بواسطة السلطات المحلية فحسب ، بل كان أطفالهم الذين يولدون في مصر يتعجذبون بجنسية آبائهم . وقد يستمر هذا ، كما حدث فعلًا في بعض الحالات ، لعدة أجيال ، ولكي تضمن الأسرة هذا الحق الخاص بجنسية الآباء والأطفال ، كان من الضروري أن تسجل الأسرة أسماءها فقط ، ثم تحفظ في دفاتر القنصلية .

وكان يقيم في مصر في عام ١٨٧٨ ثلاثون ألفًا من اليونانيين ، وعشرة آلاف من الإيطاليين ، وكثير غيرهم من جنسيات أخرى . وكان أصحاب البنوك وجزء كبير من التجار الكبار وغيرهم من رجال الأعمال في البلاد من الأجانب ، كما كان جل المشاريع التجارية في أيديهم .

ومع وجود أربعة عشر نظامًا قضائيًا مستقلًا ، غالباً ما كانت تتعارض قراراتهم - حيث إن كل قنصل كان يتصرف بمقتضى قوانين دولته - أصبح هناك اضطراب لا حد له تنجم عنه صعوبات ومشاكل خطيرة .

وقد اتبعت عدة طرق مختلفة لتجنب هذا الخلط ، ولكن أول حل فعال توصلوا إليه كان المحاكم الدولية . ويقال إن هذا لم يحدث إلا عن طريق مفاوضات شاقة طويلة ، كما يقال أن الخديوي قد استخدم أموالًا كثيرة في القسطنطينية وفي صحافة لندن وباريس حتى نجح في إنشاء هذه المحاكم . وقد تمسكت عدة دول بشدة بالامتيازات المنوحة لها أو التي اكتسبتها عن طريق الممارسة الطويلة ، وطبقاً للامتيازات التي أخذت قسراً . وما زال الفصل في

الجرائم من اختصاص المحاكم الجنائية .

وكان القاضي الأجنبي يتناقضى مرتبًا ضخماً لا يوازى العمل الذي يقوم به رغم أنه كان يحصل على إجازة سنوية تبلغ مدتها ثلاثة أشهر ونصف شهر ، وهي شهور الحرارة عادة ، من يونيو إلى أكتوبر . وعلى كل كان لابد من بقاء ثلاثة قضاة من الأجانب أثناء العطلة لعقد محكمة تنظر في الأمور المستعجلة . وكان هؤلاء يأخذون إجازاتهم في ميعاد متاخر ، وكانت المحكمة مزدحمة بالقضايا بصفة مستديمة من شهر أكتوبر إلى يونيو .

وكان القضاة يعدون الأحكام على هيئة التقرير الذي يقدمه المحكمون ، ويشتمل على الحقائق التي توصلوا إليها ، والرأي القانوني والأمر بالتنفيذ . وطبقاً للقانون الفرنسي يجب إعلان الخصم الذي صدر ضده الحكم بالحقائق والحيثيات التي أدت إلى إصدار الحكم ، وإلا أصبح الحكم باطلًا وغير قابل للتنفيذ .

وكانت اللغات الرسمية التي تستخدم في هذه المحاكم ، إلى وقت قريب ، هي اللغات الفرنسية والإيطالية والعربية . وقد أضيفت الآن اللغة الإنجليزية .

ولكن الواقع أن اللغة الفرنسية هي اللغة الرئيسية ، ذلك أن كل القضاة ، فيما عدا الإيطاليين ، وكذلك معظم المحامين لا يستخدمون لغة غيرها في إجراءات المحاكمة . أما المستندات الخاصة بتقديم الأدلة فتكتب بعدة لغات بالإضافة إلى اللغات التي سبق ذكرها ، وهي اليونانية والألمانية والاسبانية والتركية ، وحتى العبرية ، وكان هذا يستلزم عدداً كبيراً من الكتبة والمتجمين .

وكانت المحكمة هيئة مستقلة في تصرفاتها ، فلها حق التصرف التام في تعين وعزل مستخدميها من كتبة إلى مأمورى أحکام مدنية إلى مترجمين . وكانت المحكمة تتناقضى مصاريف كبيرة من المدعين نظير خدمات الكتبة

وكان القضاة يشغلون مناصبهم لدى الحياة ، أو طالما كانت هذه المحاكم قائمة ، ولم يكن من الممكن عزلهم من طرف حكوماتهم أو من طرف الحكومة المصرية . وعلى كل ، كان يمكن عزلهم عن طريق محكمة الاستئناف بسبب سوء السلوك أو عدم الكفاية .

و كانت الشهادة الشفوية نادراً ما يسمح لها في حالة نظر إحدى القضايا ، ولكن كان يجرى توجيه بعض الأسئلة أو إثبات بعض الحقائق . وإذا سمح بالإدلاء بمثل هذه الشهادة ، كما هو الحال في المحاكم الأمريكية أو الإنجليزية ، لا يكون لها فائدة كبيرة بالنسبة للأطراف المتخاصمة ، إذ لا يصح شهادة موظف أو صاحب عمل أو خادم أو سيد أو شريك في العمل أو أي شخص من

الدرجة الرابعة في القرابة لأحد الأطراف . وهو نفس النظام المطبق من حيث المبدأ في فرنسا وغيرها من دول أوروبا . وهو قائم على افتراض أنه لا يمكن تصديق أي شخص له مصلحة في القضية ، مهما كانت الصلة بعهدة بينه وبين الطرف المعني .

وإذا لم تكن العقود محررة فليس لها أي علاج قانوني يوجه عام ، ولا يمكن الاعتماد في هذه الحالة إلا على شرف المتقاضين . وحتى دفع النقود لا يمكن أن يبرهن عليه شفويًا ، ولكن الطرف الذي يدعى عليه بأنه حصل على مبلغ ما يمكن أن يعلن بالحضور إلى المحكمة ، ثم يلقى عليه سؤال بسيط عما إذا كان قد تقاضى المبلغ . وإذا لم يمثل أمام المحكمة فإنه يخسر قضيته . أما إذا حضر وأنكر الدفع ، فإن هذا يحسم الأمر . ولا يمكن أن يدلل على كذب إنكاره بواسطة شهادة شفوية . وفي القضايا الجنائية يؤخذ بالشهادة الشفوية كما هو الحال في النظام الإنجليزي أو في القانون العام .

أما قيمة الممتلكات أو مقدار الخسائر الناجمة عن الأضرار فإنها تحدد عادة بواسطة الخبراء الذي تعينهم المحكمة . وينبغي أن يقدم الطلب الخاص بهذا التقدير عقب الحادث الذي تسببت عنه الأضرار مباشرة ، كما ينبغي على الخبير أن يكتب تقريره في الحال ويقدمه إلى المحكمة لكي تستخدمه عند النظر في القضية .

ويسمح بتقديم دفاتر الحسابات ، إذا كانت تمرر بطريقة خاصة ، والنسخ المطبوعة ، كأدلة في القضايا التي تحدث بين التجار فقط ، ولكن الحسابات والميزانيات تحدد في تقارير مكتوبة من طرف المحاسبين الخبراء الذين تعينهم المحكمة كذلك .

وكان يؤخذ بالوثائق والتعهدات والخطابات وغيرها من الكتابات كدليل دون الحاجة إلى إثبات صحتها . وكان للخصم الحق في أن يطعن في هذه المستندات بالتزوير ، فإذا ما ثبت هذا التزوير يصبح المستند باطلًا . في مثل

هذا الظرف توجل القضية ، ثم تنظر هذه الحالة بفردها أمام قاض واحد ، وفي حالة فشل أحد الطرفين في إثبات ادعائه لا يحكم عليه بدفع قيمة المصاريف فحسب ، بل يحكم عليه بالغرامة إذا ثبتت سوء النية أو التزوير .

وتعقد المحكمة جلساتها يومياً بصفة عامة قبل الظهر ما عدا يوم عطلة المسلمين الذي يوافق يوم الجمعة وكذلك يوم الأحد . أما المحاكمة فت تكون من بعض المناقشات الوجيزة بين المحامين بشأن الأوراق الخاصة بالقضية ، بما فيها تقريرات الخبراء ، إذا كان هناك أي تقرير ، وغالباً لا تستغرق الجلسة أكثر من ساعة ، وغالباً لا تزيد عن نصف هذا الزمن .

وتسلم المحكمة أوراق القضية مع مذكرات المحامين ، ثم توزع القضية على القضاة ، وعلى القضاة الأجانب يوجه عام لفحصها . وكان يتافق على قرار في مجلس يعقد كل أسبوع ، ويكون هذا القرار بناء على الحكم الذي أصدره القاضي الذي تسلم الأوراق لفحصها ، ويقرأ الحكم في جلسة علنية بواسطة رئيس المحكمة . وكانت الإجراءات مختصرة جداً ، ويصدر الحكم في القضية في أقصر وقت ممكن بعد رفع القضية .

وكانت القرارات جميعها تصدر بأغلبية أصوات القضاة ، أو القضاة والمحضن الحاضرين بالجلسة . ولا يسمح بآراء منشقة بالجلسة كما لا يباح بسر الآراء المختلفة للقضاة . فالحكم يعتبر صادراً من المحكمة ، وهو بالنسبة للجمهور صادراً بإجماع آراء القضاة . وذلك لأن اختلاف الآراء والعلم بوجود الشقاق بين القضاة في الرأي يضعف من تأثير الحكم ، كما يقلل من الثقة بالمحكمة ويحمل على عدم احترامها . وهناك من يدافع عن اتباع نفس هذا النظام فيمحاكم بلادنا .

والحاجة إلى إقامة مزيد من الأدلة الواضحة المفصلة كثيراً ما تسبب الارتباك للقاضي ، ولاشك في أن المواطن غير المتعلم تحيق به أضرار كثيرة من جراء هذا ، ولكنني لست مستعداً للقول بأن هذه الطريقة لا تؤدي إلى إظهار

الحقيقة كما هو الحال مع نظامنا القائم على الأدلة المتنازعه والمتناقضه في أغلب الأحيان . ولاشك في أن التأكيد من قيمة الخسائر التي تتحقق بالمتلكات عن طريق خبراء مختصين يعلمون في الحال هو أكثر ملاءمة من الحكم القائم على الشهادة الشفوية التي تتبع في محاكمنا ، والتي يستغرق عدة سنوات .

ولقد نظمت المحاكم المختلفة عام ١٨٧٥، واستخدم في ذلك قانون هو عبارة عن تعديل للقانون المعروف باسم « قانون نابليون » وكانت هذه التعديلات بحسب تلائم عادات وظروف البلاد . ولكن تطبيقها بواسطه المحاكم دل على أنها في حاجة إلى إجراء تعديلات أخرى . وفي عام ١٨٨٠ تكونت لجنة دولية لإدخال بعض التعديلات الإضافية . وقد عين الرئيس هايس جورج سن . باتشلر الذي كان قاضيا في هذه المحاكم بالقاهرة ، والمُؤلف ، لكي يمثل الولايات المتحدة في هذه اللجنة . وكانت هذه اللجنة تعقد من وقت لآخر بالقاهرة خلال شتاء ١٨٨٠-١٨٨١ ، ولكنها لم تنجز أعمالها بسبب بعض الخلاف بشأن عديد من المسائل الهامة .

ويبينما كنت في إجازة بالولايات المتحدة في صيف سنة ١٨٨١ وصلتني برقية من رئيس الكتبة بوزارة الخارجية يطلب حضوري إلى واشنطن . عند وصولي إلى هذه المدينة صباح أول يوم من شهر يوليه علمت أن الرئيس مستر جاوفيلد يود أن يراني . وقد رتب لي المستر بلين الذي كان وزيرا للخارجية حينئذ مقابلة مع الرئيس بعد انتهاء انعقاد مجلس الوزراء في ذلك اليوم . وكان آخر اجتماع يعقده هذا الرئيس المأسوف عليه . وعندما دخلت الغرفة بناء على دعوة المستر بلين ، كان أعضاء الوزارة الآخرون يتجادلون أطراف الحديث ويرتبون أوراقهم تأهلاً لغادر الغرفة . وبعد أن حبيتهم ببعض كلمات اتخذت مقعدي على مقربة من الرئيس الذي بدأ الحديث بشأن منصب القاضي الأمريكي في مصر الذي أصبح شاغراً بعد تعيين القاضي مورجان في منصب سفير فوق العادة ووزير مفوض لدى المكسيك . وسألتني ما إذا كنت أرغب في شغل هذا المكان قائلاً إن المستر بلين قد أوصى بأنني الشخص اللائق لهذا

المنصب وأنه يسره أن يعرضه لي إذا كان يلقى قبولاً مني .

وكان الرئيس قد أعد العدة للقيام برحمة إلى نيوإنجلاند على أن يغادر واشنطن صباح اليوم التالي . وبينما كان أعضاء الوزارة يتأهبون لمغادرة الغرفة ، التفت ناحيتهم وقال بصوت مرتفع : « من ذا الذي سيصبحنى غداً ؟ » وفي اعتقادى أن مستر بلين أجاب أنه ينوى الذهاب معه ، كما قال آخرون بأنهم سوف ينضمون إليه بعد ذلك .

وقد قبلت العرض الذى تقدم به الرئيس ومن ثم أرسلت برقية إلى مصر عن طريق وزارة الخارجية تعلن تعيني في هذا المنصب . و كنت في نيويورك صباح اليوم التالي حينما ورد نبا اغتيال الرئيس . وعندما وصلت إلى مصر في أكتوبر ، عينت بالمحكمة المختلطة بالإسكندرية .

الفصل الخامس والعشرون

الشغب والهياج بالإسكندرية

بينما كنت منهمكاً في أعمالى الجديدة في المحاكم في شتاء عام ١٨٨١ - ١٨٨٢ كانت الأزمة المالية التي استمرت منذ وقت عزل الخديوى قد وصلت إلى ذروتها ، وازداد استياء الجمهور إلى درجة لا حد لها . ولم يكن هناك اعتراض على الخديوى ، ولكن الكراهة كانت موجهة ضد السيطرة المالية الأجنبية .

ولا يمكن القول بأن الشخصيات الحاكمة في لندن والتي كانت تملى السياسة الإنجليزية فيما يتعلق بمصر لم تكن لتتبأ بنتيجة عملها هذا . وقد تغيرت الوزارة الإنجليزية ولكن الممثلين الأجانب والمصالح الأجنبية بقيت في يد العناصر المتعصبة من حزب المحافظين الذي كان يعتقد أن المصالح الإنجليزية في كل قطر من أقطار العالم ينبغي تفضيلها على مصالح غيرها من الأقطار . وكانت تحركهم نفس البواعث التي تمثلت بعد ذلك في غارة جيمسون وسياسة سيسيل رودس في جنوب أفريقيا .

وبعد إجراء تعديلات مختلفة بالوزارة المصرية كانت تتم أحياناً بوسائل تدل على بدء التمرد ، أصبح عرائى باشا هو القوة الحاكمة . ولم يتدخل عرائى في الإيرادات الخصصية لدفع فوائد الدين العمومى ، ولم يصدر منه أى خطر حقيقي في سياساته سوى أنه قلل من هيبة القوات الأجنبية التي كانت ربما تؤدى - إذا استمرت الحال على هذا المنوال - إلى استقلال مصر مرة

أخرى . وكان عرائي معبد الشعب . وقلما كان يوجد وطني محبوب لدى الجمهور المصرى كعرابى باشا . وكان ظهوره بالإسكندرية مناسبة لاحتفاء شعبي لم يسبق له مثيل بين أفراد هذا الشعب . وقد جعله هذا موضع سخط هؤلاء الدين كانوا يملون على الحكومة سياستها . وكثيراً ما تساعد المطامع الشخصية إلى درجة ما على إثارة الحركات الوطنية ، ولكن الحقائق أثبتت فيما بعد أن ما من وطني كان بعيداً عن الدوافع الشخصية مثل عرابي . والواقع أنه بعد التحقيق الدقيق لم يكن العثور على أي دافع لديه (سوى الرغبة الجامحة في التحرر من سيطرة أجنبية غاشمة) .

وما من شك في أن الخديوى كان يعطى على حركة تحرير البلاد من قبضة حملة السنادات ، وكان يسره أن يعاونها لو أنه كان واثقاً من نجاحها . ولكن لاحقاً كان معناه الضياع ، حتى شبه السلطة التي كانت بيده . ولم يكن أمامه طريق آخر أكثر أماناً من الرضوخ لأوامر « هؤلاء الدين فرضوا عليه » .

وكانت معارضة الدول الكبرى بعد فوات الوقت أمراً غير محمود . وكان الشعب مقيد الوثاق مكتوف الأيدي . ولم يكن هناك جيش يستحق الذكر أو أية أموال لإنشاء جيش ، إذا لم يكن لمصر أية رقابة على ماليتها ، وكل ما زاد عن صافي إيراداتها كان يرسل إلى باريس ولندن مقابل ما عليها من فوائد الديون ولم يكن يترك للشعب إلا النذر اليسير ، حتى نفت ثروات أفراده التي كانوا قد جمعوها قبل ذلك أو ورثوها عن الذين أقرضوهم ليدفعوا ما عليهم من ضرائب . ومهما تكون النتائج ، فإن الحكومات الأجنبية لم تكن لديها نية ترك المواطن الذى حصلوا عليه - بدون سفك دماء - عن طريق سلسلة طويلة من المفاوضات ، وعن طريق الضغط السياسى على القاهرة والقدسية . ذلك الضغط العنيف الذى لم يكن في مقدور أحد أن يقف في سبيله .

وقد بعثت إنجلترا وفرنسا بأساطيلها إلى الإسكندرية وألقت برساها في

الميناء ، كما حدث حذوها دول أخرى ، بغرض مراقبة تحركات هذه الأسطول . وكان من بين هذه السفن الحرية التي وصلت إلى ميناء الإسكندرية عدة قطع من الأسطول اليوناني . وكان هناك قليل من الود بين الطبقات الدنيا من اليونانيين في الإسكندرية وبين العرب . ولكن وجود البوادر اليونانية جرح كبراء المصريين وأثار حفيظتهم ، كما أثار كراهية اليونانيين بالمثل . وقد زاد توتر الشعور العام ، وأصبحت جميع الطبقات في حالة من الاضطراب لم تكن لتوجد لولا وجود السفن الحرية العديدة في الميناء ، ولكن الهدوء القائم قد ساد لو أن هذه السفن لم تصل .

وبعد وصول الأسطول الإنجليزي ببضعة أسابيع وقع حادث نتيجة للتوتر السائد ، أدى إلى هياج عنيف . وعن طريق تشويه الحقائق تشويهاً جسيماً ، استطاع الإنجليز أن يضفوا لوناً من التبرير على العمل الذي قامت به إنجلترا عقب ذلك .

كان يسكن الجانب الشرقي من الإسكندرية عدد كبير من الأوريين والطبقات الراقية من المصريين ، أما الجانب الغربي فكان يسكنه عامة الشعب والطبقات الدنيا من الأجانب . كان يسكن في هذا الجانب كثير من اليونانيين المعروفين بميلهم إلى الشغب وبسوء الخلق في بعض الأحيان . وقد حدث شغب كبير في يوم أحد الأحاد في هذا الجانب . ولم تعرف تفاصيل هذا الشغب بالدقة كما هو الحال في معظم المشاحنات . ولكننا نعلم علم اليقين أن أحد الرعايا الإنجليز ، وهو أحد الملطبين من اليونانيين ، وهو الذي أثار النزاع . وكان عدد كبير من أفراد الطبقة العاملة من الأهالي والأجانب جالسين إما في المقهى أو نائمين وقت القيلولة حيث كانوا في عطلة . وقام نزاع بين عربي وبين هذا اليوناني بشأن مبلغ بسيط من النقود . واستشاط اليوناني - الذي يقال إنه كان مخموراً - غضباً ، فسحب سكيناً وطعن بها العربي في بطنه . وقد أثار منظر المصاب محمولاً وهو يندى ، والقصة التي توالت بأسرع ما يكون ، غضب الأهالي الذين بدأوا يتجمعون في أعداد كبيرة .

وكان عرب مصر خاضعين لأجيال عديدة لحكومة استبدادية عدوانية بوجه عام . والمصريون بطبيعتهم هادئون محبون للسلام . ولكن حينما انتشر النباء ، ازداد تجمع الناس واحتدم غضبهم ، ولكن ما أن بدأ اليونانيون والملطيون في إطلاق النار من نواخذة دورهم ومن أسطح منازلهم على الأهالي العزل من السلاح ، وقتل بعضهم وجراح البعض الآخر حتى ثارت ثورتهم وشرعوا في ارتكاب أعمال انتقامية . وكان الأهالي ، فيما عدا البدو ، غير مصرح لهم بحمل السلاح الذي كان يعتبر من وسائل الترفيه ، فلم يستطعوا إلا أن يزودوا أنفسهم بالهراوات ، وهي عصي ضخمة كتلك التي يحملها الفلاحون عند سيرهم في الحقول . وهي عبارة عن فروع خشنة مستديرة يبلغ قطرها بوصة ونصف بوصة ، أو بوصتان ، وطولها حوالي خمسة أقدام ، كما أنها ثقيلة وأقرب إلى الهراوات منها إلى العصي . وما كان لا يوجد أراض تزرع فيها الأشجار التي تستمد منها الأخشاب ، كانت هذه الهراوات تستورد عبر البحر الأبيض وتباع في الأحياء العربية . وكان اليونانيون يحملون أسلحة نارية ياذن من القنصل ، بحججة أنها كانت ضرورية لحماية أنفسهم . ونتيجة لإطلاق النار جن جنون المصريين وتدفعوا إلى هذا الجانب من المدينة يقتلون بهراواتهم كل أوروبي يعشرون عليه في الطريق .

وكان « فندق أوروبا » التي كنت أتناول فيه وجباتي يقع في الطريق الجنوبي من ميدان محمد على ، وعلى مقربة من الحي العربي . وكانت شقتني التي أقطن فيها على مسافة ثلاثة أربع ميل ، فغادرت الفندق في حوالي الساعة الثانية . وبعد ذلك بساعة تقريرًا كان من الضروري وضع حاجز عند بوابة الفندق لحماية النزلاء من الغوغاء . وقد انتهت اللصوص هذه الفرصة وسلبوا أغلب الحال التجارية الواقعة في الحي العربي . وقد أفلت بعض الضباط البحريين الأمريكيين الذين كانوا على الشاطئ يرتدون الملابس المدنية من الموت بأعجوبة . وقد عجز البوليس عن قمع هذه المظاهر العنيفة .

وفي فصل الصيف جرت العادة في مصر على أن يأخذ الإنسان إغفاءة

قصيرة بعد الغداء . وتغلق عادة البنوك والمحال وغيرها من الساعة الثانية عشرة إلى الساعة الثالثة بعد الظهر ، فلا يزعج أحد في راحته أثناء تلك الفترة . وكان المسؤولون في الإسكندرية يأخذون إغفاءتهم المعتادة وقت أن بدأت الأضطرابات . وبعد مرور حوالي ساعة على طعن العربي أوقفت الحاكم من نومه وأبلغ بخطورة الموقف . ولم يكن هناك في ذلك الوقت وزير للداخلية ، وكان الحاكم يتلقى التعليمات من الوزارة مباشرة . ولذا استغرق اتصاله بالقاهرة وبقواته الأساطيل الإنجليزية والفرنسية وقتاً طويلاً . وأخيراً استدعي الجنود ، فحضروا على عجل ، وبمجرد وصولهم استتب الأمر مرة ثانية .

وكانت الساعة ما بين الرابعة والخامسة عندما وصلني النبأ بأن هناك قتالاً دائراً في شوارع المدينة ، وعلى الرغم من أنني أخطرت بأن من المجازفة الخروج في هذا الوقت ، إلا أنني شرعت فوراً في السير نحو ميدان محمد على . وقد صادفت بعض أشخاص في الشوارع كانوا يفرون هاربين من الأحياء التي يجري فيها الشغب . وفي الوقت الذي دخلت فيه الطرف الجنوبي من الحي ، كان الجنود قد حضروا من القلاع الموجودة بجزيرة فاروس ودخلوا الحي من الطرف الآخر . وحينما وقفت على السلم العالي لقصر العدل شاهدت أشخاصاً قلائل يفرون بأقصى سرعة ممكنة . وبمجرد ما عرف أن الجنود يقتربون اختفى الغوغاء بسرعة سحرية .

ولقد ضاعت حياة ستين من الأوريين في هذا الشغب ، وهو لاء كانوا من أفراد الطبقة الدنيا ، وجلهم يسكنون الأحياء العربية . وقد أُشيع في اليومين التاليين ، دون أن يثبت العكس ، أن أضعاف هذا العدد من العرب قد قتل . وقد افتخر أحد اليونانيين في اليوم التالي بأنه قتل خمسة أفراد .

هذه هي الرواية الصحيحة ، بقدر الإمكان ، لما أطلق عليه المؤرخون مذبحة المسلمين للمسيحيين في الإسكندرية ، ولم يطلق عليها أحد في الأيام الثلاثة أي اسم سوى أنها كانت هياجاً مؤسفاً خطيراً بدأه أحد الأجانب .

لقد أطلق القنصل الفرنسي في تقريره الذي رفعه إلى حكومته بتاريخ اليوم التالي على هذا الحادث أنه عبارة عن « شغب ». وقد قال في ذلك ، بالإضافة إلى أشياء أخرى : « في حوالي الثالثة بعد الظهر تراجعت ملطي مع أحد الأهالي فطعن الأول الثاني بسكين في بطنه . وعندما أخذ يصرخ تجمعت العرب . وكان الحي يسكنه بعض المالطيين واليونانيين وكان الأخيرون مسلحين في تبجح . فإذا بالمدسات تطلق من النوافذ . وتتخذ المعركة طابعاً عاماً . وإذا بجماعات من العرب يندفعون من جميع الأحياء مسلحين بالهراوات ويضربون الأوروبيين ضرباً يفضي إلى الموت ».

وكان القومدان باتشلر ، أحد ضباط السفينة الحربية (آلان) واقفاً في ذلك الوقت ضمن الضباط الأمريكيين على الشاطئ ، وقد كتب في تقريره يقول : « لقد كانت مظاهرة خطيرة ، قتل فيها عدد كبير من الأوروبيين والأهالي »

وقد نشرت روايات مشابهة في الصحف الإنجليزية في اليوم التالي ، وظهرت هذه الفقرة في جريدة الدليل نيوز : « أطلق الأوروبيون النار من النوافذ فقتلوا عدداً كبيراً من العرب الذين أحذثوا بدورهم أضراراً جسمية بين الأوروبيين في الشوارع . وقد نشرت الصحف الأخرى أنباء تفيد المعنى نفسه .

وعندما عاد المراسلون الأوروبيون - الذين كانوا قد حضروا إلى مصر عند وصول الأساطيل - من القاهرة ، سرعان ما أصبح يطلق على الشغب اسم « مذبحة » يرجع السبب فيها إلى تعصب المسلمين . ولقد استطعوا في قولهم إلى حد اتهام عراقي باشا ، دون أي داع ، بأنه هو الذي أزعز بهذا الشغب إلى الغوغاء ، كما عمل على تنظيمه . وقد نقل الموتى والجرحى من الأوروبيين إلى المستشفيات الأوروبية ، أما الأهالي فقد قاموا على الفور بburial موتاهم ، ولم يعرف عدد الضحايا على وجه الدقة فقط .

وكانت البيانات والتقريرات التي ينسب القسط الأكبر منها إلى خيال

المراسلين الصحفيين ، تنشر في إنجلترا وفي غيرها من بلاد القارة ، وكذلك في الصحف المصرية التي يملكونها الأجانب ، حتى أن الاعتقاد في صحتها لم يكن مقصوراً على الإنجليز والأوريين فحسب ، بل على الأوريين المستوطنين في مصر بصفة عامة . ولقد اعتقد الأوريون الأكثر ذكاء ، والذين كانوا يعرفون الحقائق ، أن مصالحهم سوف يخدمها الاحتلال الأجنبي ، ولذا شجعوا نشر هذه الأنباء دون أن ينشروا على الملأ أي اعتراض من جانبهم . وهكذا يصنع التاريخ .

- وبعد حدوث الشغب بأسبوع ، قرأ المؤلف رواية غير صحيحة بالمرة عن الحادث في إحدى الصحف المشهورة في لندن . ولما كانت على معرفة بسيطة بمراسل تلك الصحيفة ، فقد سمحت لنفسه أن أتفقد روایته هذه . وسألته : لم أخفى جزءاً من الحقائق ووصف الشغب بأنه مذبحة دبرها المسلمين سلفاً للمسيحيين ، على حين أنه يعلم أن أحد الرعایا الإنجليز قد بدأها ، وأن عدد القتلى من الأهالي يفوق عدد الأجانب . ولم تبد أفل بادرة من اضطراب على المراسل . وأجاب في برود إنه في مصر لغرض ما ، وهو بهذا يؤدى الغرض من مهمته . ثم ابتسم ورفع يديه في وضع شخص يمسك بصحيفة ويقرؤها ، وأضاف قائلاً وهو يمزح : «إننى أرسل برقية كل يوم إلى لندن ، وفي الصباح التالى يقرؤها المشتركون في الصحيفة في جميع أنحاء إنجلترا وهم يحتسون قهوتهم بكل جد وثقة كما لو كانوا يقرأون الإنجيل » .

ولقد خلقت هذه الروايات التي نشرت والمعلومات التي كان يفضي بها القناصل إلى مواطنיהם والتي تفيد أن الحرب وشيكة الواقع ، خلقت حالة عامة من الفزع ، وأصبح كل قطار يتحرك من الداخل مزدحماً بالأوريين الذين استقلوا أول بآخرة إلى بلادهم ، أو لجأوا ، من شدة فزعهم ، إلى ظهر إحدى السفن الرئيسية في الميناء . وكانت المحاكم مستمرة في عملها طالما أن هناك مدعين أو ظهر لهم محامون ، واستمر وصول السفن الحربية حتى كان الميناء عبارة عن مظاهرة للسفن الحربية لم يشهد لها مثيل ، وحتى الولايات المتحدة

التي كان لها أسطول محدود في ذلك الوقت ، كانت محطة بأربع سفن .

وكانت الباخر من مختلف الجنسيات تغدو وتروح وهي محملة في العادة بالهاجرين ، وكانت السفن الفرنسية والإيطالية واليونانية راسية بالميناء وهي غاصة بناس من جنسياتها من لا يستطيعون دفع أجور نقلهم . ومن ثم كانت المياه مغطاة بقارب يمتلكها الأهالي وهي تغدو وتروح بالقرب من هذه السفن ، وكان بعضها يستخدم المجداف ، ولكن معظمها كان مزوداً بالقلاع ذات الطراز الشرقي . وكان بحارة هذه القوارب الذين كانوا يرتدون الأزياء الوطنية ، بطربوشهم الأحمر أو العمامة ، لا ينفكون عن الحركة والضجيج .

وكان بعض الضباط بملابسهم الرسمية في زوارقهم يعملون مع البحارة ، وهم في حللهم التي تمثل جنسية كل منهم ، يجتمعون ويذهبون من وإلى الشاطئ أو يقومون بزيارة ضباط الباخر الأخرى . وكان جمال الطقس وجمال الأعلام المرفوعة على مختلف الباخر ونشاط البحارة المصريين يضفي على المنظر منظر يوم عيد دون أن يوحى بالكارثة التي توشك أن تقع . وكان هذا هو الهدوء التام الذي سبق هبوب عاصفة الحرب . وكانت المدينة والبلاد كلها تسود فيها السكينة والهدوء ، كما هو الحال في الميناء .

وكانت تجري هناك محاولة جدية في ذلك الوقت للحصول على دليل يبرهن على أن عرايي باشا كان مسؤولاً عن حدوث هذا الشغب وأنه كان نتيجة لخلط رسمها هو وشركاؤه . وكان لدى الحكومة الإنجليزية من الأسباب السياسية ما يجعلها ترغب في إثبات بعض الأعمال الإجرامية ضد هؤلاء ، ولذا عينت محامياً من الإسكندرية وحصلت على بعض المعلومات غير الموثوق فيها والمليئة بالتناقضات وخاصة من المالطيين واليونانيين ، ودون أن تتعثر على أي شيء يبرهن على هذا . وقد وجه لورد جرانفيل ، في رسالة بعث بها ، نظر العلماء البريطانيين إلى الحصول على دليل يدين عرايي والذين يعملون تحت إمرته . ولكنهم عجزوا عن ذلك فتخلوا عن المهمة .

ورغبت الحكومة المصرية في الحصول على تحقيق كامل في الموضوع ، فكانت لجنة تحقيق . وقد عينت إنجلترا ، عن طريق القنصل الإنجليزي ، المحامي الإنجليزي الذي أشرت إليه على أنه عضو في هذه اللجنة لكي يمثل حكومته فيها .

وبمجرد أن عرف هذا النبأ في لندن بعث اللورد جرانفيل بتعليمات بأن « يتبع الممثلون الإنجليز عن هذه اللجنة ، وانسحب الممثل الفرنسي كذلك ، وبدون معونة هاتين الحكومتين لم يكن في الإمكان إنجاز أي شيء . ويسبب الامتيازات الأجنبية التي كان يتمتع بها الأجانب لم يكن من المستطاع الاستشهاد بأجنبي أمام اللجنة ، كما لم يكن من المستطاع تفتيش منازل الأجانب للبحث عن الأشياء المسروقة أثناء فترة الشغب دون موافقة القنصل وتعاونهم مع السلطات . وقد رفض القنصل إعطاء هذا الإذن، وهكذا منع اللورد جرانفيل الوصول إلى مزيد من التحقيق في الموضوع .

ولم تقم هنالك أية أدلة على الإطلاق على أن هذا الهياج كان نتيجة خطط سابقة مدبرة . وعلى كل ، فالحقيقة أن مثل هذه المزاعم وإيقاف التحقيق فجأة ، إنما تعزى إلى عدم وجود أي لوم على أحمد عرابي ، وأن رفض الحكومة الإنجليزية للتعاون مع هؤلاء الذين لهم حق أديبي في إجراء تحقيق جدي قد ترك شكا في عقول الكثير من الإنجليز ، وشعروا بأن هناك حقائق ترغب الحكومة في إخفائها . ولقد أعد اللورد راندولف تشرشل بعض الأوراق التي قدمت إلى البرلمان يطالب فيها بمزيد من التحقيق .

ولقد كتب السير إدوارد ماليت ، المندوب البريطاني في القاهرة ، في ٧ مايو سنة ١٨٨٢ رسالة إلى اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية يقول فيها : « إنني أعتقد أنه لابد من حدوث مضاعفات من نوع حاد قبل إيجاد أي حل مرض للمسألة المصرية ، وأنه من الأصوب الإسراع في هذا خير من التأخير فيها » . وهذا يعني بالطبع « حل مرض » من وجهة نظر إنجليزية .

في ذلك الوقت كان الحزب الوطني يملّك زمام الحكم ، وكانت الإجراءات الحكومية مقنعة ومرضية للجميع فيما عدا الأجانب الذين لم يكن لهم رغبة سوى حكم البلاد لصالحتهم ، وهؤلاء الذين لم يكونوا يجرون على عصيان أوامرهم . وقد كان السلام يسود بين مختلف طبقات الشعب في جميع أنحاء البلاد . ومع هذا كان القنصل الإنجليزي في الإسكندرية يمد المالطيين واليونانيين بالسلاح سرًا ، كما كان القنصل اليوناني ، بناء على نصيحة القنصل الإنجليزي ، يحدو حذوه مع رعاياه من اليونانيين . وهكذا مدت أخطر طبقة وأكثرها فوضي بالوسائل التي أضفت على المشاغبات طابعها الدموي .

وقد شرح الأميرال البريطاني لأحد ضباط فرقته التفاصيل لرسم الخطط والقيام بتنظيم ما . ولم يجد أن الفرنسيين قد اشتركوا أو ساهموا في هذه الاستعدادات ، ولم يعلم القنصل النمساوي أو القنصل الإيطالي بهذا السر حتى ٩ يونية ، أي قبل حدوث الهياج والشغب بيومين . وكان القنصل اليوناني ، بناء على نصيحة القنصل الإنجليزي ، يحدو حذوه مع رعاياه القنصل العامين بالقاهرة . كما كان السير إدوارد قد علم بما يضممه القنصل الإنجليزي ، ولكنه التزم الصمت حتى ذلك الوقت . وعقد القنصل العامون اجتماعاً صباح يوم الأحد الذي حدثت فيه الأضطرابات ، وكانوا يرون أن التسلیح هو « أخطر طريق يمكن اتباعه ، ومن المحتمل أن يؤدي إلى تصدام في أية لحظة » وقد أبلغ هذا القرار إلى القنصل الإنجليزي بالإسكندرية ، وعقب تسلمه بساعتين كان الشغب والهياج على أشدّهما .

على أنه توجد حقيقة أخرى غريبة ، فقد كان من المعروف أنه خلال الشغب كانت أسلاك التلغراف مشغولة بالاتصالات بين محافظ الإسكندرية ، والقوات والسلطات القنصلية ، وحكومة القاهرة ، ولم تنشر أية حقائق عن هذه الاتصالات .

وكان عرافي باشا مجتمعًا مع درويش باشا ، المندوب الخاص لتركيا ولم يكن لديه علم بما يدور في الإسكندرية حتى انتهت المظاهرات .

وكنت على معرفة وثيقة بالمستر كوكسن القنصل الإنجليزي بالإسكندرية لعدد من السنين . وكان رجلاً شريفاً ، وإنني لعلى يقين من أنه لم ي عمل سوى ما كان يعتبره واجباً رسمياً عليه ، ولم يكن في وسعه أن يفعل سوى أن ينظر إلى كل شيء من وجهة نظر إنجليزية ، أي مراعيًا المصالح الإنجليزية ، ومهما يكن من مقاصده أو مقاصيد الممثلين الآخرين من الإنجليز . فإن ثمة استنتاجات لا محيد عنها لأي شخص كان على علم بالحقائق ، أو درس الوثائق الرسمية بعناية

١ - كانت أحداث الشغب أسيّ كبيراً بالنسبة لعرافي وأصدقائه ، فإن من مصلحتهم أن يستتب الأمن ، وكانوا يعلمون هذا تمام العلم

٢ - كان هؤلاء الذين يرغبون في الاحتلال العسكري الأجنبي يرجحون بقيام هذا الشغب . وكان هو « المضاعفات التي من نوع حاد » التي كان لابد ، في نظرهم ، من « حدوثها قبل إيجاد أي حل مرض للمسألة المصرية » والتي « كان من الأصوب الإسراع فيها بدلاً من تأخيرها » .

٣ - مهما كان الغرض من تسلیح المالطيين ، فمن المؤكد أنه إن لم يكن هذا قد أحدث قيام الشغب فعلاً ، لحدث نتيجة طباعهم الحادة المتعطشة للدماء .

وجاءت الأسطيل الإنجليزية والفرنسية إلى مصر ، لحفظ الأمن في البلاد ، على حد زعمها ، وقد خلق وجودها حالة لم تكن تتوقعها فرنسا مطلقاً ، ذلك أنها اعتمدت في تحقيق أغراضها على الضغط الدبلوماسي والاستعراض البسيط لقوتها ، وإلى هذا الحد ، قامت بأداء دورها لإرضاء أصحاب السندات في باريس ، ولكي تحافظ على هيمنتها ، وتنزع إنجلترا من السيطرة على مصر . ولم

يُكَنْ فِي نِيَّتِهَا أَنْ تَشْتَرِكَ فِي اعْتِدَاءِ حَقِيقِيٍّ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِهَا أَنْ تَحْثُرْ بِرِمَانِهَا عَلَى قَبْوِهَا هَذَا الْعَمَلُ ، وَيَنْحُصُرُ خَطْوَهَا الَّذِي لَا يَمْكُنُ إِصْلَاحَهُ فِي أَنْهَا أَوْعَزَتْ بِخَلْعِ حَاكِمٍ قَوِيًّا بارِعًا ، وَوَضْعِ حَاكِمٍ مَكَانِهِ يَخْضُعُ لِأَوْامِرِ الْمَرَاقِبِينَ الَّذِينَ تَرْسَلُهُمْ بَارِيسُ وَلَندَنُ وَكَانُ إِرْسَالُ أَسْطُولِهَا إِلَى الإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَنْوِي الاشتِراكَ فِي أَيَّةِ عَمَلِيَّاتِ حَرْبِيَّةٍ « كَانَ تَصْرِيْحًا سَيِّئَ الطَّالِعِ مِنْ جَانِبِهَا بِضرُورَةِ استِخدَامِ الْقُوَّةِ » . وَكَانَ إِخْفَاقُهَا هَذَا فَرْصَةً لِإِنْجِلْتَرَا ، سَرْعَانًا مَا انتَهَزَتْهَا .

وَحِينَما تَكُونُ أُمَّةٌ مِنَ الْأَمَمِ مُسْتَعِدَةً لِلِّحَرْبِ ، وَتَضُعُ نَصْبُ أَعْيُنِهَا غَزْوًا مُرْبِحًا ، فَإِنَّ مِنَ الْيُسِيرِ إِيجَادُ أَسْبَابٍ لِبَدْءِ الْعَدُوَانِ . وَتَحْتَ سَتَارِ الْادِعَاءِ بِأَنَّ عَرَابِيًّا كَانَ يَقْيِيمُ مَدَافِعًا إِضافِيَّةً فِي الْقَلْاعِ مَدْعَمًا بِهَذَا مَرْكَزَهُ وَمَعْرِضًا بِهَذَا الْأَسْطُولِ الْبَرِيطَانِيِّ الرَّاسِيِّ فِي الْمِيَنَاءِ لِلْخَطَرِ - وَهُوَ أَمْرٌ نَفَاهُ كُلُّ مِنَ الْخَدِيُوِيِّ وَعَرَابِيٍّ - تَحْتَ هَذَا السَّتَارِ شَرْعُ الْأَمِيرَالِ سِيمُورُ فِي عَمَلِيَّاتِهِ الْعَدُوَانِيَّةِ .

وَكَانَ قَدْ مَضَى شَهْرٌ عَلَى حَدُوثِ الشُّغُبِ ، وَكَانَ الْأَجَانِبُ يَهْجُرُونَ الْمِدِيَّنَةَ خَلَالَ هَذِهِ الْفَتْرَةِ . وَقَدْ طَلَبَ مِنْ عَرَابِيٍّ باشا تَسْلِيمَ الْقَلْاعِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعُلْ ، فَاتَّخَذَتِ التَّرْتِيبَاتُ الْعَاجِلَةُ لِقَذْفِ الْمِدِيَّنَةِ بِالْقَنَابِلِ ، وَلَقَدْ دُعِيَتْ مَرَازِيَّا لِلِّالْتِجَاءِ إِلَى إِحْدَى الْبَوَاحِرِ الرَّاسِيَّةِ فِي الْمِيَنَاءِ . وَلَكِنِّي كُنْتُ أَجِيبُ بِأَنَّهُ حِينَما تَعْطِيِ الْإِشَارَةَ بِبَدْءِ الْعَدُوَانِ المُتَوقَّعِ ، فَلَسْوُفَ أَفْعُلُ ذَلِكَ . وَهَنْتَ ذَلِكَ الْوَقْتُ ، لَمْ أَجِدْ سَبِيلًا يَبْرُرُ تَرْكِيَّ الْمِدِيَّنَةِ .

الفصل السادس والعشرون

ضرب الإسكندرية بالقنابل

قبيل ظهر يوم الأحد الموافق ٩ يولية تلقيت نبأ من مصدر خاص موثوق به أن إعلانات ضرب المدينة بالقنابل ، الذي سيحدث بعد ذلك بأربع وعشرين ساعة ، سوف تطبع هذا المساء بعدة لغات مختلفة على ظهر سفينة الأميرال الإنجليزي ، ثم توزع في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي .

و عند الغسق أخذت إلى البارجة لانكستر ، وكانت تحت إمرة أمير البحر نيكلسون . وقد أبدى دهشته لسماع النباء الذي أفضي به إليه وشك في صحته ، ثم قال إنه على اتصال بالأميرال الإنجليزي يومياً ولا شك في أن الخبر كان قد بلغه لو أن ميعاد الضرب قد حدد ، وأضاف قائلاً : لقد عشت في الشرق مدة طويلة تكفي لعدم الاعتقاد في الإشاعات غير الموثوق في مصادرها .

فأجبته بأنني لست في حل أن أذكر له مصدر النباء ، ولكنه يمكنه الاعتماد على صحته .

واستدعي قادة السفن الأمريكية الأخرى ، وصعدوا إلى ظهر سفينة الأميرال حيث عقدوا اجتماعاً للتشاور ، ولكن الأميرال ظل غير مقتنع . وقضيت الليلة على سطح جالينا ثم نقلت بعد ذلك إلى ظهر السفينة كوينبيوج ، وصدر الأمر بإبحار جالينا بعيداً ، وقد أبحرت بالفعل صباح الضرب .

وفي الفجر صدرت الأوامر من الأميرال نيكلسون بالاستعداد بالتحرك ، وبعد بضع دقائق صدر الأمر بالاستعداد للتحرك بسرعة « ١ » وكان قد تلقى في منتصف الليل إشارة رسمية بالضرب المقصود ، وحينما صعدت إلى سطح السفينة حياني البحارة بطريقة مؤثرة رائعة . وكنا راسين في مرفأ رحب مقابل قصر الخديوي ، رأس التين ، أي على بعد ميل أو أكثر من المرسى العادى . وكان بالميناء عدد كبير جدًا من السفن الراسية . وكان يوجد إلى جوار البارج الحربية بواخر وسفن بحرية من مختلف أنحاء البحر الأبيض ، من سفن ذات شراعين ، وغلايين ، وسفن للصيد وغير ذلك من السفن الصغيرة بأعداد وفيرة . وكان بعضها بشراع مربع والبعض الآخر بقلاع مستطيلة .

وكان هناك قبل ذلك صيف من القوارب الشراعية تمر بنا تجاه البحر ، وكل منها ترفع علمها القومي . واستمر هذا العرض لمدة ساعات عديدة . وعلى الرغم من أن الياхات الأمريكية كانت على أهمية التحرك إلا أنها ظلت في مكانها حتى يصل قطار القاهرة يحمل نائب القنصل العام الأمريكي وموظفيه .. ومن ثم تحركنا خارج الميناء ورسينا خلف الأسطول الإنجليزي على بعد الذي ظنه الأميرال مناسباً .

وفي هذا المكان أخذنا نترقب أحداث الغد ، وكان خلفنا السفن التجارية ، والبارج الحربية ، التابعة لكل الدول الأوربية المحايدة تقريباً . وكان الأسطول الفرنسي قد انسحب وأفلق إلى بور سعيد . وكان نسيم البحر العليل قد توقف ، ولما كانت الشمس تميل نحو المغيب كانت تتعكس أشعتها الأخيرة على صفحة المياه الهادئة ، وكانت حوالي ستين أو سبعين سفينة راسية على الشاطئ الرملي على طول هامش البحر حيث كانت تفصله عن المدينة التي كانت تبدو كلها هادئة آمنة .

ومن ذا كان يمكنه التنبؤ بما سيحدث لها ، وأية مناظر مروعة سوف تشهدها ، حينما يجن جنون أهلها ، إذ تدوى القنابل التي تقدفها أساطيل

العدو ويخر السكان الأبراء صرعى ؟

وكان السلك البحري الممتد تحت الماء تشرف عليه شركة إنجليزية فنقل الطرف الواقع على الشاطئ المصري إلى سفينة راسية على بعد عدة أميال في عرض البحر . وفي أثناء الليل كان الأسطول الإنجليزي يلقى بأضواء الجير على طول خطوط الدفاع الواقعة على الشاطئ .

وبلغت الشمس صباح اليوم التالي في سماء صافية ، وكان يوماً من أيام الصيف الجميلة في مصر ، وكانت الاستحكامات تمتد على الشاطئ ، يرجع بعضها إلى عهد محمد على . ولم يكن أحدها معداً لمقاومة آلات الحرب الحديثة ، ولا لحماية الرجال الذين يتولون إطلاق المدافع . وكان بعضها مبنياً من الحجارة بحيث كان من العسير أن تجد مكاناً أخطر من هذا المكان بالنسبة لجندي يقف على مرمى من قنابل بارجة حديثة مجهزة تجهيزاً كاملاً . وقد برهنت هذه الاستحكامات على أنها مذابح حقيقة .

وإذا نظرنا جهة الجنوب وجدنا على يسارنا استحكامات « فاروس » و « عدا » ، وكانت تقع الأخيرة في موقع « فارى » القديم وكانت إحدى عجائب الدنيا السبع ، وكان يقع على يميننا المدخل إلى الميناء الجديد ، والمنارة الجديدة ، وبعض الاستحكامات الأخرى . ويقع خلفها ، على مسافة بعيدة فوق مرتفع بسيط العمود الجرانيتي الشاهق الذي يعرف باسم « نصب يومبي » . أما جهة الشرق فتقع المدينة المحتملة المصير .

وأمامنا مباشرة ، كان يقف أسطول حديث ، أقوى أسطول تجمع لارتكاب أعمال عدوانية حتى وقتنا هذا ، كان هناك ثمانية مدرعات وخمس سفن مبنية من الخشب ، وقد وقفت هذه السفن في أماكنها في ساعة مبكرة من الصباح ، وكانت المدرعة « انفلكسيل ذات هيكل مبني من الخشب وال الحديد ، ويبلغ سمك الألواح الحديدية من ۱۶ إلى ۲۶ بوصة ، والألواح الخشبية من ۱۷ إلى ۲۵ بوصة . وكانت هذه السفينة من أكبر المدرعات التي

شيدت ، إذ كانت مسلحة بمدفع زنة كل منها ثمانون طنًا ، وتستطيع أن تقدر قابل تزن ١٧٠ رطلًا مدى خمسة أميال .

وفي تمام الساعة السابعة صباحاً انطلقت إشارة إيزانًا ببدء الضرب وردت القلاع بإطلاق النار على الفور .

وكان الخبراء العسكريون يتوقعون إسكات المدفع المصرية خلال ساعة واحدة ، وكان من المعتقد أنه من المستحيل بالنسبة لأية قوات تقع في مثل هذه الاستحكامات ، أن تحمل ، ولو لفترة وجيزة ، مثل هذا السيل الجارف من القنابل التي تلقيها سفن الأسطول عليهم . وخلال حديث كان قد دار بيني وبين الجنرال ستون منذ أيام خلت ، سأله عن الوقت اللازم للأسطول لإسكات مدفع القلاع ، وبعد تفكير دام بضع لحظات ، أجاب قائلاً: « حوالي ثلاثة دقيقة » . ولكن الجميع منوا بخيبة الأمل .

وكنا نسمع طوال النهار زئير المدفع الذي يصم الآذان ، ونشاهد انفجارات القنابل ودخان المعركة الذي كان يدفعه نسيم البحر إلى البر فيحيط البلدة بسحابة منه . وقد أمطرت الثلاث عشرة سفينة الرجال البواسل في قلاعهم بوابل من القنابل المتفجرة حتى وصل عددها إلى أكثر من ثلاثة آلاف قنبلة . وكان في مقدورنا أن نرى الانفجارات بوضوح وكنا نراقبها في شغف من سفنا . وكانت تنفجر أحياناً في الهواء قبل ميعادها ، وأحياناً كانت تنفجر فوق رءوس العرب في الاستحكامات فتبعد أشلاءهم في كل مكان . وكان البعض الآخر يدخل في الأرض على عمق كبير أو في البناء ثم ينفجر هناك فيرسل بسحب من الغبار والأنقاض تاركاً خلفه أخداد كبيرة ، وكان يبلغ عمق بعض هذه الأخدود ثمانية أقدام ويبلغ عرضه ستة عشر قدماً بل يزيد ، وكانت تمر إحدى القنابل من وقت لآخر من فوق قلعة من القلاع وتدخل المدينة .

ولقد أذهلتنا شجاعة العرب وهم يصوبون مدافعين ، إذ بعد أن ينقشع

الغبار والدخان المتتصاعد من القنابل المتفجرة التي ترك كل ما حولها حطاماً ، كانت تتتصاعد سحابات صغيرة من الدخان من فوهه مدفع قريب يدل على أن الأحياء من الجنود مازالوا متشبثين بمراكيزهم .

وخلال النهار حدثت ثلاثة انفجارات في القلاع ، اعتقدنا حينذاك أنها صادرة من انفجار مستودعات الرصاص أو أن الترسانات تلقى في عنان السماء بسحب من الدخان ، وأكمام الأنفاس . وكان أحد هذه الانفجارات في قلعة « عدا » فأسكتت مدافعها وقضى على كل شخص في القلعة تقرباً ، مما يدل على عدم صلاحية هذه الاستحكامات القديمة الوقوف في وجه المدافع الضخمة الحديثة . ولم تصمت جميع المدافع المنصوبة في القلاع حتى الساعة الخامسة بعد الظهر ، ولم يكف الإنجليز عن إطلاق النار حتى الساعة السادسة ، وقد تلقت السفن عدداً كبيراً من الطلقات . وحدثت بها بعض الأضرار ، وإن لم تكن جسيمة . وكان عدد القتلى والجرحى صغيراً إذ قتل ستة أشخاص وجرح سبعة وعشرون شخصاً ، وقد قال الأميرال في تقريره : « لقد كان من المستحيل أن نعمل سبب هذه الخسارة الضئيلة للغاية بالنسبة لكمية القنابل والطلقات التي أصابت السفن » .

وكان يوجد في القلاع حوالي ١٥٠٠ مقاتل مات أغلبهم في مراكيزهم . وبعد بدء المعركة مرت إحدى القنابل عبر السفن الإنجليزية وسقطت على مقرية منها . وحوالي الساعة العاشرة تحرّكنا قليلاً تجاه البحر ، ولكننا ظللنا أكثر قرابة من مسرح الأحداث عن أي سفن أخرى لم تشارك في القتال .

وفي الصباح التالي كان كل شيء هادئاً . وكان الإنجليز قد دفعوا موتاهم في البحر ، ثم أقيمت قبليتان أو ثلاث قنابل على الاستحكامات ولكنها لم ترد بشيء . وقد شاهدنا بعد ظهر ذلك اليوم دخاناً كثيفاً يتتصاعد من الجزر الشمالية للمدينة واستمر يتزايد حتى قبل الليل فشاهدنا السنة التيران تتدريجياً فوق الحي الأوروبي مهددة بإفناء هذا الجزء من المدينة .

وأخذت تتسع الرقعة المحتقرة طيلة اليوم التالي والليلة التالية .. وكان الأوروبيون يمتلكون معظم هذا الجزء من المدينة ، ولكن لم يكن هناك جنود لإنقاذ تلك الممتلكات من الدمار . وخلال مساء الثالث عشر من الشهر أنزلت فرقة من الجنود الإنجليز ولم يتغلوا داخل المدينة . ولكنهم اتخذوا أماكنهم على طول جانبيها الجنوبي .

وقبيل ظهر اليوم الرابع عشر ، وكان يوم الجمعة ، كان الأميرال الأمريكي قد سئم من الانتظار ، فتحرك إلى الميناء متقدماً السفن الحايدة الأخرى ، دون تلقى أية إشارة من الإنجليز ، ثم أرسل بعد ذلك مائة وخمسة وسبعين بحاراً إلى المدينة لإعادة فتح القنصلية الأمريكية . ليفعلوا ما يسعهم لإنعام النيران . وقد تم هذا بناء على طلب الأميرال الإنجليزي وبموافقة الخديوي الذي كان قد عاد إلى قصره برأس التين ، وفي الصباح استولى البحارة الإنجليز على القلعة الداخلية وبعض بوابات المدينة المحاطة بالأسوار .

وعلى الرغم من أن الجنود المصريين كانوا قد أخلوا المدينة قبل ظهر يوم الأربعاء ، إلا أن الإنجليز لم يدخلوها حتى يوم السبت ، بعد أن أعادت قوتنا الصغيرة الهدوء إلى أحياها ، ورفعت العلم الأمريكي عند الطرف الجنوبي من ميدان محمد على .

ودخلت المدينة كذلك يوم السبت . وكان جزءاً كبيراً من الحي الأوروبي عبارة عن كتلة من الأنقاض المحتقرة . وكانت الشوارع التي لم تصل إليها النيران تشبه شوارع يوم بي في عزالتها . وكانت الحال قد نهبت ولم تكن لترى شخصاً سائراً . ولمن يومن عقب انسحاب السلطات المحلية بسبب قنابل الأساطيل ، كانت المدينة بأكملها في أيدي اللصوص ، وكانت النتيجة كما كانت متوقعة ، وإن لم تكن أسوأ مما كان يحتمل حدوثه في لندن أو نيويورك . فلتطرد السلطات المحلية من أي من هاتين المدينتين ، ولوسوف نرى حشداً من اللصوص المدمرين والسارقين تعج بهم المدينة في ظرف ساعة واحدة .

وكان قلب المدينة لا يمكن الوصول إليه إلا خلال طرق ملتوية ، وكانت جدران المباني عالية بصفة عامة ويبلغ سمكها حوالي ثلاثة أقدام ، وهي مبنية من الأحجار غير المستوية والملاط و يصل بعضها بعض كتل من الأخشاب وتطلّى بالجبس من الداخل والخارج . ولذا كانت كتلة الأنفاس ضخمة جداً لدرجة أنها كانت تغطى الأرض لارتفاع عشرة وخمسة عشر قدماً وتملاً حتى الشوارع الواسعة . وقد دمرت كذلك عدة أميال من المباني ، وكانت النار لاتزال تنتشر ، ولحسن الطالع كانت كمية الأحجار والأسمنت والملاط الكبيرة المستخدمة في كل جزء من أجزاء المباني ، وكمية الأخشاب الصغيرة جعلت هذه المباني تحترق احتراقاً بطيفاً .

وقد أنقذ بحارتنا قصر الحقانية والقنصلية الأمريكية وعدداً كبيراً من المباني الأخرى ، وكانت هناك بضع قنابل ملقاة في الشوارع لم تتفجر بعد ، كما كان هناك آثار بضع قنابل أخرى في المباني الباقية . وطبقاً لما نشرته التقارير الرسمية قتل حوالي مائتين من السكان العزل من السلاح بواسطة هذه القنابل الطائسة وشظايا البعض الآخر . وقد ظهر بعد ذلك أن القوات التي أخلت المدينة هي التي أشعلت النيران فيها . ومن المحتمل أن بعض الحرائق حدث بفعل القنابل . ومن المعروف أن أحد المباني الملحقة بقصر رأس التين قد ثبت فيه النيران بهذه الطريقة .

وقد قمنا بزيارة القلاع عقب الضرب فظهر لنا مدى المخنة التي تعرض لها الجنود المصريون في هذه الاستحكامات المكسورة غير المحسنة . ولا يمكن للكلمات أن تصف ذلك المنظر ، فالمدافع الملقاة والمجدار المهشمة ، وبقايا القنابل المتفجرة وكسر الحجارة المبعثرة فوق مساحة القلاع الداخلية كلها كانت في حالة يستحيل معها أن يستطيع أي شخص الإفلات من هذه المجزرة البشرية ، وكان منظر « قلعة عدا » حيث حدث انفجار الخزن الذي تسبب في تراجع الحامية الباقية ، كما وصفها الأميرال الإنجليزي يايجاز ، كان منظراً مروعاً . وكان من الواضح أنه لم يبق شخص حي لكي يستطيع التراجع ، فقد

كانت القنابل وشظاياها والأنقاض من جميع الأنواع ملقة بكميات كبيرة في كل اتجاه بحيث كان يتذر على أي شخص أن يهرب .

وعلى الرغم من هذه الحالة ، إلا أنني وجدت مایلي في وصف أحد الكتاب العسكريين للمعركة : «إن الإنجليز ، على الرغم من دهشتهم من ثبات خصومهم ، إلا أنهم كانوا أول من اعترفوا بأن رجالاً على شاكلتهم كانوا قد قبلوا التحدى في اليوم التالي وجددوا القتال». الواقع أن الرجال كانوا أمواتاً في الغالب أو عاجزين عن القتال . ولو أن هناك ألفاً وخمسمائة من رجال المدفعية زيادة على العدد الذي قاتل بالفعل ، وكان من الممكن استخدامهم ، ثم وضعوا في صباح اليوم التالي في هذه السلاخانات المكشوفة والتي كانت مجرد آلات الدفاع ، لقضي عليهم كما قضي على من قبلهم ، ولأي غرض؟ ليس هناك من شك في شجاعة القوات الإنجليزية ، ولكن متى وأين وقفوا عند مدافعتهم لكي يذبحوا كما وقف هؤلاء الرجال؟ ولو كان هناك أقل بادرة من أمل في النجاح النهائي لكان من الممكن تبرير تضحية حتى أعظم من هذه .

وقد احترق كل الحي الخاص برجال الأعمال في المدينة ، أما الجزء الذي أفلت من السنة النيران فقد نهب تماماً . وقد جرت مناقشات في ذلك الوقت بشأن عمن يكون المسئول عن هذه الكبة المروعة . وإذا سلمنا ، كما زعم البعض ، بأن الضباط المصريين المدحورين واللصوص من الأهالي هم الذين سببوا في إحداث الجزء الأكبر من الأضرار ، فمن المسئول عن خلق الظروف التي أدت إلى هذه الأحداث؟ وبتعبير آخر ، من كان المسئول عن عدم إنزال الرجال للاستيلاء على المدينة حينما أخلوها السكان؟ وإذا كان السبب هو نقص الرجال ، فمن المسئول عن بدء الاعتداءات دون وجود قوة مستعدة للنزول؟ كان ثمة قوات إنجليزية في كل من قبرص وماليطا ، ولم يكن الأمر في حاجة إلى أكثر من عدد قليل من الرجال . وكان تأخير العمليات أربعة أيام يكفي لعمل كل الترتيبات اللازمة .

حتى لو سلمنا بأن إنجلترا كانت محققة في احتلالها العسكري لمصر ، وسلمنا بأنها كانت على حق في استيلائها على الإسكندرية بالقوة لتحقيق هذا الغرض ، فإنها غير محققة في تدمير الإسكندرية بالقنابل وبهذه الطريقة التي تم بها . ولم أسمع قط بأن أحد الإنجليز قد حاول أن يبرر هذا العمل حتى هؤلاء الرجال الذين حاولوا أن يستميحوا لها العذر اعترفوا بأنها كانت غلطة من جانبهم . وقد سمعت عدداً من الضباط الإنجليز من البحريه والجيش يتحدثون عن بدء إطلاق النيران دون وجود قوة برية كافية على أنه كان خطأ عسكرياً مؤسفاً . وقد عزا بعض ضباط الجيش هذه الغلطة إلى طموح الأميرال ورغبته في أن يقرن اسمه بحدث من الأحداث التاريخية ويتوخ سجل خدمته بجزء من مجد غزو كان يعلم أنه على وشك الوقوع . وثمة تفسير ممكن آخر ، وهو أن السلطات الإنجليزية أسرعت بالقيام بهذا العمل لكي يصبح أمراً متهماً وحقيقة واقعة خشية حدوث مضاعفات سياسية .

ويمكن شرح الموقف في بعض كلمات ، ذلك أن أنظار العالم كانت متوجهة إلى الإسكندرية منذ البداية ، كما يتبع من التقارير الرسمية التي نشرت فيما بعد ، على الرغم من أن إنجلترا لم يكن لديها نية دخول مصر عن طريق تلك المدينة . ولستا ندري متى كانت إنجلترا تفك في خطة لغزو مصر . وتدل الوثائق الرسمية التي نشرت فيما بعد أن الخطة كانت قد أعدت بكامل تفاصيلها قبل ضرب الإسكندرية بثمانية أيام . وكانت الخطة تقضي باحتلال مصر بواسطة غزو يتم عن طريق قناة السويس .

وكانت تقضي بأن تدخل بورسعيد قوة قوامها حوالي عشرين ألف جندي ، ثم تحضر فصيلة أخرى من الهند لتدخل السويس . وكانت هذه الجيوش ستتقابل في الإسماعيلية على مقربة من مركز القناة . وبعد انتصار سهل يسير في ضواحي التل الكبير ، في الطرف الشرقي من الأرضي المنزوعة ، كانت ستقوم حملة من الفرسان السريعة وتتجه إلى القاهرة قبل أن يكون لدى المصريين المهزومين وقت لاسترداد قوتهم . وكان هذا هو ما حدث

بالضبط عقب ذلك بشهرين بمجرد أن أرسل الجنود . وحينما يكون هناك مقاومة مسلحة ضئيلة يصبح من اليسير أن ترسم خططاً حرية وتنفذها بالحرف الواحد ، كما يحدث في أي معركة صورية .

وفي هذا التاريخ الذي ذكر ، وضعت الخطط الخاصة حتى بوسائل النقل عبر الصحراء من القناة إلى التل الكبير ، وعلى طول الصحراء إلى القاهرة . وقد اقترح شراء ألف بغل من أمريكا لشحنها في الحال .

وأصدرت تعليمات سرية إلى الضباط ونظمت قائمة طويلة من التفاصيل . وغادر سير أرشيبيلد أليسون إنجلترا إلى قبرص لكي يتولى أمر إنزال القوات هناك وتنظيم استعدادهم للإبحار إلى بور سعيد .

وفي غمار كل هذه الاستعدادات الحربية التي أعدت قبل ضرب الإسكندرية بالقنايل ، لم يرد ذكر أي تعاون متوقع مع الفرنسيين ، وقد ظل أسطولهم في الإسكندرية إلى جانب الأسطول الإنجليزي حتى وقت إصدار التعليمات بضرب الإسكندرية ، دون أن يبدو أي نقص في الانسجام بين الاثنين . وكانت الاستعدادات الحربية سرية ، وكان من الواضح أن إنجلترا قد علمت ، عن طريق جواسيسها ، إن لم يكن بوسيلة أخرى ، أن البرلمان الفرنسي لن يعطي الإنذن بالقيام بأية اعتداءات عسكرية .

وقد انتهت إنجلترا في نهم ، الفرصة التي أتيحت لكي تربح عن كاهلها عباء تحالف طالما كان مصدراً من مصادر إزعاجها . ولقد سُنحت الفرصة التي كانت تترقبها منذ أمد طويل . ولسوف تكون مصر ملِكًا لها دون أن تشتراك الحكومة الفرنسية معها في إدارتها .

وقد يكون خوفها من حدوث أي تغيير أو مضاعفات في مفاوضاتها مع الفرنسيين قد دفعها إلى البدء في القيام بالاحتلال الفعلي .

وفي تلك الحالة ، قد يكون قذف المدينة بالقنايل قبل أوانه ، مسبباً بذلك

إحدى النكبات الكبرى في القرن التاسع عشر ، نتيجة لتلقي أوامر مباشرة من لندن . وكانت الأسباب التي أبديت في ذلك الوقت لضرب المدينة بالقنابل هي أن الإنجليز - عن طريق استخدام أصوات الجير - اكتشفوا أن المصريين كانوا يدعمون مراكزهم في القلاع ، وأنهم نصبو مدفعة أو مدفعين زيادة عما كان فيها ، وأن الأميرال أبلغ حكومته بالحقائق قائلاً إن أسطوله كان معرضاً للخطر ، ولأنه نتيجة لهذه الأسباب قد حصل على الإذن باحتلال القلاع إذا رأى أن ذلك ضروري . ولقد نفت الوزارة المصرية هذا النبأ . وذهبت إلى حد أنها عرضت أن ترفع مدفعين عن كل مدفع يثبت أنه نصب حديثاً . وكانت هذه الأسباب التي أبديت سخيفة للغاية بحيث لا تستحق أن نفكر فيها لحظة واحدة . ومن الواضح أنها لم يكن لها أي تأثير على تحديد خطة الأميرال ، إذ كان يدرك تمام الإدراك أن أي شيء في وسع المصريين أن يفعلوه في تدعيم مراكزهم لن يجدى فتيلاً في تحديد مصير أي هجوم يشن على هذه الاستحكامات ، كما كان يعلم أنه لم تتوفر النية أو الميل من جانب المصريين في أن يبدأوا بالعدوان .

الفصل السابع والعشرون في أعقاب ضرب الإسكندرية

كانت عودة المهاجرين الذين لجأوا إلى داخل البلاد فراراً من ضرب القنابل مأساة محزنة . وكان الناس قد فهموا ، حتى المطلعون منهم ، أن الهجوم سوف يقتصر على القلاع فحسب ، وأن الخطر الوحيد الذي يهدد البقاء في أي جزء من أجزاء المدينة ، لا في ضواحيها القرية ، هو الرعب والخنق اللذان قد يشيرهما الضرب في نفوس الأهالى .

ومن المحتمل أنه لم يكن قد هاجر من السكان البالغ عددهم ٢٥٠ ألف نسمة سوى ستين ألفاً انفجرت القنبلة الأولى فأيقظت الباقي من فنورهم وعدم اكتراائهم . وكانت أغلبية كبيرة من السكان تعتقد أن ما من شيء خطير سوف يحدث - أو - لم تصد القلاع الحجرية المنيعة والمدافع العتيقة التي زودت بها ، عنهم غارات المع狄ين منذ نعومة أظفارهم ؟ فلم يخافون الآن ؟ ألم يغرق الجنود المتحفزوون في القلاع الأسطول الإنجليزي أو يطروه بعيداً عن شواطئهم ؟

ولم تدرك جموع الطبقة الدنيا الخطر الذي يحيق بهم إلا حينما بدأت القنابل الطائشة تساقط في وسطهم . وحينئذ شرعوا في الهروب ، وسرعان ما عمّت حركة الهجرة من المدينة . وقد تشبت الكثيرون ، حتى في هذه الساعة الرهيبة ، بحمل ممتلكاتهم الضئيلة . وتحد بحيرة مريوط الإسكندرية من الجنوب . ومن ناحية الغرب يفصل شريط ضيق طويل من الشاطئ البحيرة عن البحر . وكان الطريق العملي للهروب بالنسبة للحشود الفارة من الرجال والنساء والأطفال هو جهة الشرق أو الجنوب من ضاحية الرمل ، وهي ضاحية

صغيرة مقامة في الصحراء على مقربة من البحر . وفي هذا الاتجاه أخذ الألوف من الناس يبحثون عن ملجاً لهم .

وبدأت القوات تفدى من قبرص يوم الإثنين ، أي عقب الضرب بستة أيام . وحينما أنشئت مراكز خاصة بالجيش وأصبح هناك قوة كافية لإقرار الأمن في المدينة ، بعث برسل إلى المهاجرين ، الذين كانوا معتسرين في الرمال ، يبلغونهم بأن في وسعهم أن يعودوا في أمان إلى المدينة ، فأخذ المهاجرون يفدون إلى منازلهم في شغف ، على الرغم من البؤس الذي كان يرتسם على تلك المساكن ، ودخلوا المدينة عن طريق بوابة رشيد أو بوابة الرملة ، ومرروا في شارع عريض كان يعج بهم لمدة ساعات .

كانوا عبارة عن سيل متدفق من الإنسانية المعدية ، وكلهم كانوا يرتدون ملابس بسيطة تعلوها القذارة والغبار . وكان الأهالي حفاة الأقدام شبه عراة ، وكانت النساء يحملن أطفالهن الرضع بين أذرعهن ، بينما كان أطفالهن يسيرون متتالين وهم نصف عراة بجوارهن ، وكان الرجال والنساء الشيوخ منهم والشباب ، يحملون ما بقي لهم من متعة . ومن حين لآخر كان يبدو أحد الأثرياء وقد حمل ظهر حماره أو حصانه أو عجله وما له من ممتلكات ، كما كان هناك أيضاً بعض العربات العتيقة محملة باللوازم الشخصية . هكذا كان حال هذه الجموع المتباينة التي كانت تمر من الشوارع التي كانت تفوح منها رائحة الدخان المتتصاعد من الأنقاض المحترقة ، قاصدة إلى أحياائهم التي يقطنون بها في المدينة . ولحسن الطالع أن النار لم تحدث أضراراً جسيمة في هذا الجزء من المدينة ، ولكن بيوتها جردت من الأشياء التي كانت قيمتها تكفى لإغراء اللصوص .

ويقى الخديوى في قصره بالرمل خارج المدينة ، وعلى مقربة من جانبها الجنوبي الشرقي ، أثناء الضرب ، ثم عاد إلى قصر رأس التين في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي الذي نزل فيه البحارة الأمريكيون إلى البر . وكان الجنرال

ستون ، وقد وفى بالوعد الذي أخذه على نفسه أمام الخديوى السابق إسماعيل باشا بأن يظل بجانب ابنه توفيق وأن يخلص له ، ملازماً للخديوى طيلة أيام المخنة .

وفي مقابلة لي مع سموه بعد ذلك بوقت قصير ، صرخ لي بأنه أصدر أوامره لعرابي بألا يسمح للإنجليز بأن يتزلوا إلى البر ، وكان ييدو من حديثه أنه يوجه إليه اللوم لأنه لم يستطع تنفيذ أوامره . ثم أضاف قائلاً : « بصفتي مثلاً للسلطان ، فإن من واجبى أن أدفع عن البلاد ، ولا أستطيع أن أتنازل من تلقاء نفسي عن شبر واحد من الأرض » .

وكل الإشاعات التي سمعت بعد ذلك عن اتهام عرابي بأنه كان ينوى الإضرار بالخديوى كانت محض خرافة ، ولو ثبت شيء من هذا القبيل ، لكان عرابي قد حكم عليه بالإعدام بدلاً من النفي . ولقد روى لي سموه ماحدث فعلاً بالتفصيل . كان عرابي يرغب أن ينسحب الخديوى داخل البلاد ويظل هناك ، ومن ثم أرسل ضباطاً لكي يصحبوه . وكان هذا سوف يزيد من مكانة الحزب الوطنى ، وهي نفس الأسباب التي جعلت الإنجليز يرغبون في وضعه تحت سيطرتهم ، ذلك أنهم حاولوا أن يجعلوه يرحل ، كما صرخ لي سموه ، على ظهر إحدى السفن التابعة لهم قبل ضرب الإسكندرية . ولكنه رفض أن يفعل هذا مفضلاً أن يظل مع شعبه .

وليس من المعروف قط ما إذا كان الخديوى قد توقع فعلاً أن يكتب له النصر في الدفاع عن البلاد . ومن المؤكد أنه كان يرغب ذلك . وكان من السهل عليه أن يتولى أمر عرابي ، ولكنه كان يدرك تماماً ، بناء على نصيحة المستشارين المخلصين . أن إنجلترا إذا ما أطبقت يدها على مصر لن تفلت من قبضتها بعد ذلك على الإطلاق . وحينما رأى أن مزيداً من المقاومة لن يجدى . سلم نفسه على أنها الوسيلة الوحيدة التي ينقذ بها عرشه بما تبقى له من سلطة شكلية . ومنذ ذلك الوقت حتى وفاته لم يكن أمامه سوى أن ينفذ

مشيّة آسرية . أما الخيانة المزعومة التي تسبّ إلى عرائى فتحصر في أنه عصى أوامر الخديوى على حين كان الأخير أسيراً في الواقع .

وبعد وصول الأسطول الإنجليزى في شهر مايو ، استقال عرائى وزارته ، بناء على طلب الإنجليز . ونزاولاً عن رغبة الممثلين الدبلوماسيين النمساويين والألمان والإيطاليين ، أعاد الخديوى تعين عرائى وظل في الحكم حتى بعد انتهاء ضرب الإسكندرية . ثم بذل الإنجليز جهوداً عنيفة في كل من القسطنطينية ومصر لكي يعلن رسمياً أن عرائى خائن . وكان هذا في رأيهم ضروريًا للبقاء على أسطورة صداقتهم للخديوى وأنهم قد جاءوا لتأييده . وكان ثمة أسباب سياسية هامة ذات طابع دولي يجعل من الضروري استمرار الحكم باسم الخديوى . ولو أن الممكن أن يتهم عرائى بالخيانة لساعد هذا على تنفيذ خططهم الحربية التي رسموها . وكان حتى ذلك الوقت ينفذ أوامر السلطان والخديوى التي تقضي بمعارضتهم . وكانت الحقائق واضحة جدًا لدرجة أن الخديوى تردد في أن يستجيب لطلباتهم الشاذة التي قدموها إليه .

وقد زعموا أن مهمة الأسطول هي إعادة سلطة الخديوى وإقرار الأمر في البلاد ، ذلك الأمن الذي لم يكن قد احتل حتى وقت وصولهم ، وبتعبير واضح ، جاء الإنجليز متظاهرين بأنهم أصدقاء للخديوى ، لكي يساعدوه ضد نفوذ عرائى والحزب الوطنى . وقد أصدر الخديوى أوامره إلى عرائى بأن يطلق النار على هؤلاء الأصدقاء وسفنهما في حالة قيامهم بأى اعتداء ، وألا يسمح لهم بالنزول فوق أرض مصر . وقد حاول عرائى بكل ما وسعه من جهد أن ينفذ هذه الأوامر . وقد فعل ما في مقدوره أي قائد أن يفعله بهذه الوسائل التي يتكلّها ، بل فعل أكثر مما كان يظنه أي خبير عسكري . وهكذا هدمت الاستحكامات والقلاع ، وقتل الجنود من المشاة ، وحرقت المدينة كحادث من أحداث الحرب ، دفاعاً عن البلاد ضد أصدقاء الخديوى ! لقد كانت المدرعات والمدافع التي يزن كل منها ثمانين طناً أقوى من عرائى الذي اضطر أن يستسلم لمصيره المحتوم .

ومهما كانت الحقائق . فإن الخديوي لم يستطع أن يقاوم طلبات هؤلاء الذين وقع بين براثنهم ، أو يحتفظ حتى لسلطته الصورية وأخيراً ، أعد له بعض العبارة هذا التصريح الشهير وكان عليه أن يصدره وينشره على الناس . « فليعلم كل من يطلع على هذا الأمر أسباب طرد أحمد عرابي باشا ولكي يستثير الجمع .. ننشر الحقيقة فيما يلي :

بعد عشر ساعات من الضرب كانت استحكاماتنا قد تهدمت وضرب ٤٠٠ مدفع من مدافعنا ، كما قتل العدد الأكبر من رجال مشاتنا وشهوا على حين لم يفقد الأسطول الإنجليزي سوى خمسة رجال ، ولم تصب بواخره بأية أضرار جسيمة .

ثم جاء إلينا عرابي باشا في سراي الرمل وأفضى إلينا بالأنباء المؤلمة الخاصة بهدم القلاع .

أما فيما يختص بأميرال الأسطول الإنجليزي فقد طلب منا أن نخلّى قلاع العجمي والدخيلة والمكس لكي تختلها قواته . وقد اجتمع مجلس الوزراء بمساعدة سعادة درويش باشا وقرر أنه لا يمكن تسليم القلاع دون استصدار أمر صريح من جلاله السلطان ، وأن على العكس من ذلك كان من الضروري أن نعمل على الدفاع عنها عن طريق تعزيز حامياتها لكي تمنع نزول القوات الأجنبية . وفي نفس الوقت بعثنا برسالة إلى الباب العالي :

ولكن عرابي باشا توجه إلى بوابة رشيد في الإسكندرية دون أن يتخذ أي إجراء عسكري . وقد أرسلت في أثره أحد رجال الياوران لكي يذكره بأنه ينبغي عليه أن يرسل مددًا إلى المراكز المتفق عليها .

وأجاب عرابي باشا بأنه لا يستطيع أن يرسل جندیا واحداً ، ثم أمر الجنود أن ينسحبوا معه ويلجأوا إلى كفر الدوار ، تاركًا المدينة دون أن يدافع عنها أحد .

وفي اليوم التالي نزلت القوات الإنجليزية في الإسكندرية ، وهي أهم نقطة في بلادنا ، واستولت على المدينة دون أن تطلق رصاصة واحدة ، وهي حقيقة توصلم الجيش المصري بالعار ، إذا لم يكن هذا العار الذي لا يحمي قد وقع كله على كاهل هذا الذي كانت القيادة بيده ، على كاهل عرافي باشا » .

هذا الإعلان ، بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا على علم بالحقيقة ، هو وثيقة باللغة الشذوذ والسيخط . ولكنها قد وضع لهذه الطبقة من الناس التي كان المقصود أن ينشر بينهم ، وقد ظن الذين أصبحوا يبيهم السلطة حينئذ أنها وسيلة بارعة للحط من شأن عرافي بين جموع الطبقة الجاهلة من المصريين . وكانت هذه الطبقة تعتقد في مناعة وقوة تلك المدافع القديمة الموجودة بالاستحكامات ، كما كانوا يعتقدون في سلطة الخديوي المنزهة عن الخطأ . وكان اتهامه لعرافي وإلقاء مسئولية الفشل في إغراق السفن الإنجليزية أو طردها من الشواطئ المصرية على عاتقه ضربة ساحقة لهيبة و منزلته . وكان تبريراً للخديوي كذلك وأداة نافعة في حكم البلاد .

وقد أعادت البوادر القادمة المقيمين الأجانب بالتدرج ، وظهرت على المدينة معالم الحياة من جديد ، وكان الكثير من الشوارع مسدوداً تماماً بواسطة الأنماض المختلفة من المبانى التي احترقت .

وكانت بعض الشوارع معرضة للخطر بسبب الجدران الآيلة للسقوط . وكان « فندق أوربا » الذي انتقلت إليه قبل ضرب المدينة قد احترق واحترق معه كتبى و حاجياتي الأخرى . أما المبنى الذي كنت أقيم فيه الواقع في الجزء الجنوبي من المدينة فقد اتخذه الضباط الإنجليز مقراً لهم .

ولحسن الحظ استأجرت بعض الغرف المتواضعة في مسكن بسيط يقع على مقربة من مياه الميناء الشرقي القديم ، الذي كان يستخدمه البطالمة والرومان .

وقد بقى عدد كبير من الكتبة وغيرهم من الموظفين في المحاكم أو عادوا

إليها على وجه السرعة . وكان جميع القضاة ، باستثناء شخصي ، عائدين أثناء الصيف . وفي الوقت الذي كنت فيه متحملًا كل المسؤوليات كانت واجباتي إدارية فقط . ولم يحاول أحد أن يتخذ إجراءات قضائية . وكان عراقي قد انسحب إلى كفر الدوار ، وهي نقطة واقعة على طريق السكة الحديد إلى القاهرة خلف بحيرة مريوط ، على مسافة سبعة عشر ميلًا .

وقد أنشئت مراكز للجيش حول المدينة ، وبقيت السفن الحربية راسية في الميناء ، ولكن كانت كل الحركات العسكرية العدوانية قد توقفت بصفة مؤقتة . وكان رأى الخبراء العسكريين في ذلك الوقت يقضى بأن جيشاً صغيراً مدرّباً يستطيع أن يزحف بسهولة إلى القاهرة أو إلى أي مكان في الوجه البحري ، وعلى كل لم يكن الإنجليز مستعدين لتنفيذ الخطة التي رسمها في لندن السير جارت ولسلى .

وكان هذه الخطط تقضي بأن تعطى إنجلترا الفرصة لكي تبرهن لأوروبا على أنه في أية حالة طارئة يمكن لإنجلترا أن تجلب قوات من مصادر أخرى خلاف الجزر البريطانية .

وكان من المعلوم أنه لن يكون هناك قتال جدي ، وظن المسؤولون أنه سوف يكون من الأسلم ، بل من قبيل الضربات السياسية السديدة استخدام قوات هندية تحت إمرة ضباط من الإنجليز . ومنذ ذلك الوقت والإنجليز يهشّون أنفسهم على الطريقة البارعة التي أمكن بها أن يستعرضوا مواردهم الحربية الضخمة . وعند وصول هذه القوات وغيرها من إنجلترا استخدمت قناة السويس كقاعدة حربية . وعلى الرغم من أن المسوو دلسبس كان له مطلق السلطة على القناة ، إلا أن احتجاجاته ومعارضته القوية ذهبت أدراج الرياح . كانت المسألة في بساطة قوة عسكرية برية وبحرية . وسوف ينطبق القول نفسه على قناة بينما وقت الحرب . وسوف تعتمد السيطرة عليها واستخدامها على قدرتنا على التشتيت بها ضد جميع الأعداء .

هناك أرسل عرابى أحد ضباطه إلى التل الكبير لاقامة الاستحكامات في ذلك المكان الذى يعتبر أسهل بقعة موجودة للدخول إلى البلاد من جهة القناة ، وكان من السهل عليه أن يغلق القناة ، ولكنه تركها مفتوحة للدخول القوات المعادية معتمداً على وعود الميسو دلسبيس . وبعد أن استسلم الخديوى ، بدأ الكثير من الضباط المصريين يعدون العدة للمستقبل ، وقد اتصل الضابط المكلف بالدفاع عن التل الكبير بالسلطات الموجودة بالإسكندرية عن طريق أسرة الجنرال ستون وأبدى استعداده لإخلاء مركزه بدلاً من الاستمرار في العمل الذي كلف به ، وهرب الضابط عن طريق قناة السويس مزوداً من الإنجليز بكلفة المعلومات عن حالة الاستحكامات ، ولم يكن هناك سوى حوالي ثمانية آلاف جندي من الأهالى المدربين في جيش عرابى . وهؤلاء كان معظمهم معسكراً في كفر الدوار وفي رشيد ودمياط ، وهما مصبا النيل الحاليان . أما باقى الجنود من المصريين ف كانوا إما طاعنين في السن ، أو فلاحين غير مدربين ، كان يمكن لألف جندي مدرب أن يجبروا عشرة آلاف منهم على الفرار . ولقد كانت المعركة التي أطلق عليها معركة التل الكبير سبباً في منح السير جارنت ولسلى لقب لورد ، على أنها إذا ما قورنت بالمعارك الكبيرة التي خاضها الإنجليز في أوروبا وأسيا وأمريكا خلال الخمسين سنة الأخيرة تعتبر مجرد مناوشة بالنسبة للإنجليز . وكان هناك فجوات كبيرة في الاستحكامات كانت تستطيع الخيالة أن تنفذ منها ، وعلى الرغم من وجود خطين من المتراس ، إلا أن المدافع لم تنصب إلا في واحدة منها فحسب .

زحفت القوات الإنجليزية لمسافة كبيرة عبر الصحراء في « ليلة حالكة الظلام » ، وقامت بالهجوم في فجر تلك الليلة . وكان الطريق خالياً من الموانع ، والماكن العسكرية . ولم يقف أحد في سبيل ذلك الزحف . وقد بلغ نجاح وهدوء تلك الحركة ، كما بلغت دهشة المصريين ، إلى حد أن شرعت بعض القوات الإنجليزية في تسلق المتراس قبل أن تطلق رصاصتها واحدة ، ثم أطلقت بعد ذلك ، لمدة بضع دقائق ، عدة رصاصات طائشة بواسطة العرب الذين استيقظوا فجأة في الظلام الذي كان لا يزال مخيماً حتى كان من

الصعب تمييز الأصدقاء من الأعداء . وقد استيقظ عراقي على دوى المدافع ، ولكن ، قبل أن يرتدى ملابسه ، كان جنوده قد انسحبوا تماماً ، وطبقاً لما ورد في التقرير الإنجلزى الرسمي « ألقوا أسلحتهم وأخذوا يطلبون الرحمة » .

في هذه المعركة التي استمرت بضع دقائق فقط ، فقد الإنجليز ثمانية وخمسين شخصاً ، بما فيها الضباط الذين ماتوا بعد ذلك متاثرين بجراحهم . أما المصريون فقد خسروا ، حسب معلومات موثوق بها ، ألفين ومائتي قتيل وعدداً كبيراً آخر مات بعد ذلك . ثم اقترب الإنجليز ودخلوا الاستحكامات ، طبقاً للأوامر الصادرة إليهم من القائد ، دون أن يطلقوا رصاصة واحدة ، ونظروا لهذه الظروف وقصر الوقت الذي حدثت فيه المقاومة ، لم يكن من العجيب أن تلتزم التقارير الرسمية الإنجلزية التي نشرت الصمت إزاء الخسائر من الأهالى ، ذلك أنها كانت مدحمة لا معركة .

وكان معظم الأهالى المقيمين في التل الكبير حينذاك من الفلاحين العزل من السلاح ، وكانوا قد أحضروا إلى هناك بأعداد وفيرة لاقامة المدارس بنفس الطريقة التي كانوا يستدعون بها لحرف وتنظيف قنوات الري طبقاً للنظام المعروف باسم السخرة . وكانوا ينامون في مثل تلك الأحوال ، في مكان عملهم بالليل ، على الأرض يلتحفون ببطانية واحدة على الأكثر لوقاية أنفسهم ، وفي الوقت الذي حدث فيه الهجوم الإنجلزى ، كان الآلاف من هؤلاء الأهالى راقدين على الأرض حيث كانوا يعملون طيلة اليوم السابق . وقد ذبح هؤلاء دون تمييز ، مع الجنود الفارين ، بواسطة القوات الهندية .

ولقد صرخ لي ضابط إنجلزى كان قد حضر معركة التل الكبير موضحاً هذا العمل ، أن هذه القوات جن جنونها حينما أصيب بعض الهندو ، وقبل أن يستطيع الضباط أن يسيطروا عليهم حدثت هذه المذبحة الأليمة . وما لاشك فيه أن هذه المعلومات صحيحة ، فما من ضابط إنجلزى من ضباط الوقت الحاضر يسمح بوقوع مثل هذه المذبحة ، بل كانت ببساطة حالة من حالات

«إطلاق العنان لكلاب الحرب». وكان درساً غير متظر لأوربا المسيحية عن مغبة استخدام جزء من هذه الطبقة.

وعقب معركة التل الكبير توقفت كل معارضة مكتشوفة للغزو الإنجليزي، وانتقل مقر الحكومة مرة أخرى إلى القاهرة. وانتقلت قوة من الفرسان الهنود إلى الإسكندرية كحرس شرف استخدم في حراسة الخديوي إلى محطة السكة الحديد، وكانوا يمتطين صهوة خيولهم ومرتدين ملابسهم الوطنية الزاهية فبدوا في صورة بهيجية. هذا العرض كان الغرض منه التأثير في نفوس الأوريين والأهالى لكي يثبتوا في أذهانهم فكرة وجود قوة احياطية كبيرة للإمبراطورية الإنجليزية في قلب الهند. وحينما ركب الخديوي محاطاً بهذه الثلة من الجنود، إلى جوار السير إدوارد مالت، الممثل السياسي والقنصل العام الإنجليزي، مخترقين الشارع الرئيسي الذي اصطف الأهلون على جانبه، لم يصدق الناس ولم يبدوا أي مظاهر من مظاهر الفرح.

ولقد توطد الاحتلال العسكري الدائم للبلاد، أثناء الصيف والخريف. ومنذ ذلك الوقت ساد الخضوع التام، ذلك أن بقاء الخديوي في منصبه كان رهناً بتوقيعه للأوراق التي كانت تعد له، دون أي نقد أو تعليق، تماماً كما ينفذ الجندي في الجيش أوامر رؤسائه.

ولقد قام الخديوي الشاب بمحاولة بسيطة، منذ بضع سنوات، لكي يمارس بعض حقوق السيادة التي خولت له، ولكن السلطات الإنجليزية قمعت هذه المحاولة في مهدها.

وعقب احتلال الإسكندرية مباشرة، رفع المقيمون الأوريين شكاوى شديدة اللهجة إلى المسؤولين بسبب ضياع ممتلكاتهم الذي سببه ضرب الإسكندرية وما ترتب على ذلك من إحراق وسلب المدينة.

وأصدر الخديوي مرسوماً يقضي بأن مصر مسؤولة عن تعويض هذه

الخسائر . وماذا كان يوسعه أن يفعل غير ذلك ؟ لقد أصبح شبه مبدأ دولي أن المهزوم عليه أن يدفع ثمن هزيمته . وكانت الخسائر التي حدثت في الإسكندرية مجرد حدث من أحداث الحرب . وقد جرت العادة أنه في القضايا القائمة بين التخاصمين فيمحاكمنا أن الطرف الحكوم ضده يدفع في الغالب تكاليف القضية على أساس أنه كان مخطئاً في ادعاءاته . وقد يكون هذا سليماً من الوجهة العملية بين الأمم . ولذا ، فإن الأضعف ينبغي عليه أن يدفع تكاليف الفشل الذي حاصل به .

وبدأت المفاوضات بين الدول ، وكانت نتيجتها إبرام اتفاقية خاصة بتكونين لجنة دولية للتعويضات . وكانت الحكومات المختلفة تعين أعضاء هذه اللجنة التي بدأت عملها في الشتاء التالي . وكان عدد أعضاء اللجنة أحد عشر عضواً ، إثنان من مصر ، وواحد من كل دولة من الدول السبع الكبرى ، وواحد من اليونان ، نظروا لكثره التعويضات الخاصة بها ، وممثل عن كل دولة من دول الدرجة الثانية . وقد عين الرئيس الأمريكي مؤلف الكتاب لكي يكون عضواً اللجنة عن الولايات المتحدة .

وكانت الطلبات الخاصة بالتعويضات كثيرة العدد بحيث كان لزاماً علينا أن نفحصها فحصاً عاجلاً ، إذ بلغ عددها حوالي أكثر من عشرة آلاف طلب . وكان فحصها بدقة والبحث عن أدلة ، كما هو الحال في محاكم التعويضات الأمريكية ، يستغرق سنين طويلة ، وعلى كل ، فقد كانت الإجراءات مشابهة للإجراءات المتّعة في المحاكم الفرنسية عند نظر إحدى القضايا المدنية ، فيما عدا أن المحامين لم يحضروا شخصياً ، بل قدموا مراجعاتهم مكتوبة . ولم يؤخذ بالشهادات الشفوية ، كما كانت جلسات اللجنة سرية ، ولم يكن من المتوقع أن تكون هناك عدالة بالمعنى الصحيح نتيجة لعمل يمتاز بمثل طابع السرعة هذه . وعلى كل ، فقد كان المدعون يطالبون بسرعة البت في طلباتهم ، فائلين إن دفع نصف المبالغ المستحقة لهم دون تأخير لكي يستخدموها في إعادة بناء وإنشاء أعمالهم أفضل لديهم من دفع المبالغ كلها بعد عدة سنين .

وكان المدعون يقدمون طلبات مفصلة مقرونة بالأدلة ، ومرفقاً بها إقرارات وشهادات من أشخاص يدعون أنهم على علم بهذه الحقائق . وكان محاموهم يضيفون إلى ذلك بيانات مقتضبة يلخصون فيها الأدلة والبراهين ويدلون بآرائهم واستنتاجاتهم فيما يتعلق بالمبالغ التي يستحقها عملاً بهم ، وفي حالات المباني التي هدمت ، يضاف إلى ذلك آراء الخبراء والبناءين والمقاولين والمهندسين . وتعرف هذه الطريقة لدى الفرنسيين باسم « الدوسيه » ، وقد رفعت هذه الطلبات إلى محامي الحكومة الذين فحصوا الأوراق ثم أدلو بآرائهم واستنتاجاتهم . وبهذه الصيغة تعرض كل دعوى أمام اللجنة التي انقسمت إلى لجان وزع العمل فيما بينها .

وسميت « الدوسيهات » بين أعضاء اللجان لفحصها ، وكتابة تقارير تعرض على اللجنة التي تتخذ فيها قرار بالقبول أو التعديل أو الرفض . ثم تجتمع اللجنة بكامل هيئتها يوماً من كل أسبوع وتلتقي تقارير اللجان المختلفة . وكانت هذه التقارير تحول الموافقة في العادة دون اختلاف في وجهات النظر ، ولكن في الحالات الأكبر أهمية ، كان هناك في الغالب خلاف في الرأي وفي بعض الأحيان كانت تجرى مناقشات طويلة حامية .

انتهت اللجنة من أعمالها في غضون أحد عشر شهراً ، بعد أن فصلت في العشرة الآلاف طلب التي قدمت لها ، وحكمت بما يقرب من عشرين مليوناً من الدولارات . وكانت النية متوجهة إلى منح تعويضات بسيطة تتفق مع الحقائق على قدر الإمكان . وقد رفضت بضعة طلبات ولكن معظم الطلبات تقريرياً حكم فيها بمبالغ أقل مما طلب ، وفي بعض الحالات لم تتح لـ إلا مبالغ بسيطة . وفي غمرة الشك الذي كان يحيط بجزء كبير من التعويضات ، كانت الأحكام الصادرة في صالح الحكومة المصرية ، ومن المحتمل أن المجموع الكلي للبالغ الذي منحت لم يكن أكثر من نصف قيمة مجموع الخسائر الفعلية .

الفصل الثامن والعشرون

مستقبل مصر

ما هو مستقبل مصر؟ كثيرة ما يوجه هذا السؤال ، من الناحية السياسية ، ستبقى البلاد الواقعة على النيل ، من البحر الأبيض إلى البحيرات العظمى في وسط أفريقيا ، مديريات إنجلزية في الواقع ، طالما أن إنجلترا تحكم الهند وغيرها من المستعمرات ، وقادرة ، كما هو الحال في الوقت الحاضر ، على الاحتفاظ بسيادتها البحرية .

وفي حديث دار بيني وبين السير ادوارد مالت ، قبل أن أغادر الفندق إلى ظهر السفينة الأمريكية ، مساء الليلة التي حدث فيها الضرب صرح لي بأنه لولا وجود قناة السويس ، لخرجوا من مصر في ظرف أربع وعشرين ساعة . وكان هذا هو الشعور السائد في وزارة جلادستون في ذلك الوقت ، ولكن الأمر يختلف اليوم ، حتى ولو لم تكن هناك قناة ، فمتى استولت إنجلترا على قطعة طيبة من الأرض لا تتخلى عنها مطلقاً ، ولسوف تحكم مصر ما دامت تحكم في جبل طارق .

والتحكم في قناة السويس بالنسبة لها يعتبر من أهم الأمور الحيوية . ففي حالة قيام حرب عالمية ، سوف تكون القناة من أكبر العوامل المساعدة لها . ولقد استولت عليها في مقابل مبلغ يقل عن ٣٠ مليوناً من الدولارات ، وعلى الرغم من أن قناة بينما أقل حيوية بالنسبة لنا ، إلا أنها سوف تكلفنا ٢٠٠ مليون دولار . وكل من هاتين القناتين ذاتفائدة كبرى من الناحية التجارية وللأغراض الاستراتيجية . ولن تفرط أي من هاتين الدولتين في هذه الحقوق

المكتسبة ما دامتا تتبعوان مركزهما المتقدم الحالى بين الدول الكبرى في العالم .

لماذا ، إذن ، لا تخلع إنجلترا عنها لباس التنكر وتحيل مصر ولاية إنجلزية بدلاً من أن تحكمها بواسطة نظام خداع استشاري في الظاهر ؟

أولاً لأن من الأيسر أن تحكم الشعب بواسطة الخديوى الذى يتكلم لغتهم ويدين بدينهم . وهم يعتبرونه سلطانهم الشرعي وصاحب الحق في حكم البلاد ، فيحترمون أوامره وسلطانه حتى أكثر من احترامنا لرئيس جمهوريتنا . كما أنهم يعرفون أن بلادهم قد أصبحت محتلة بدولة أجنبية وأن الخديوى يجب أن يوافق على رغباتهم . ويعتقدون كذلك ، بفعل أشياء كثيرة لا تتفق مع رغباته ، ولكنهم لا يعدمن الأمل في إنهاء هذا الاحتلال الأجنبى يوماً من الأيام .

وقد حرص الإنجليز على أن يدروا الخديوى وأسرته بمرتبات كافية ويحيطون بهما بظاهر العظمة التي تضفى عليه مظهر السلطان الحقيقى . وعن طريق الإبقاء على هيبة سموه ، يمكن حكم البلاد بواسطة الأهالى ، ولا يلزم إلا الإبقاء على قوة صغيرة من الجنود الإنجليز في البلاد . أما القوة الحاكمة الحقيقية ، التي يزعم أنها سلطة استشارية فقط ، فتتهرب بهذه الطريقة من مسؤولية أعمالها وسياستها التي لا ترغب دائمًا في تحملها . فالخديوى ، نظرياً ، هو الحاكم المطلق الذي يسن القوانين جميعاً ويطلب بتطبيقها . وكل المراسيم والأوامر تصدر باسمه . وبمقتضى هذه السلطة المزعومة يخضع الأهالى لأعباء لم يكونوا ليتحملوها في الظروف الأخرى إلا عن طريق استخدام القوة العسكرية .

حينما كنت في زيارة للوجه القبلي ، منذ بضع سنوات ، تحدثت بشأن ضريبة الأراضي مع أحد الأهالى الذين يقطنون ما بين الأقصر والشلال الأول . وكان يمتلك قطعة كبيرة من الأرض في هذا الوادى الضيق الآهل بالسكان . وقد أخبرنى أن الضريبة كانت مرتفعة جداً لدرجة أنها لم تكن تترك له سوى القليل ، ولكن حينما كان الخديوى يزور أعلى النيل ، وبعد أن فحص الأمر

بنفسه ، قام بتحفيض الضريبة في هذا الجزء إذ وجد أنها باهظة فعلاً . ولم يكن هذا الرجل سوى فلاح ، ولكنه كان من الشخصيات البارزة في المنطقة التي يعيش فيها . وكان له ابن على درجة كبيرة من الثقافة ، ومع ذلك كان كلاهما يتهم أن الخديوي يستطيع أن يغير قيمة الضرائب من تلقاء نفسه ، كما كان يفعل حكام مصر السابقون . هذه الطريقة التي تبقى على هيبة الخديوى في نفس شعبه هي طريقة بارعة ، ولا يستطيع استخدام مثل هذه الخدعة والإبقاء عليها لسنين طويلة سوى هؤلاء الذين كانت لهم خبرة طويلة في حكم الولايات الهندية .

ولو أن إنجلترا جعلت مصر إحدى ولاياتها ، لسوف تظل ملزمة بدفع الديون التي يذهب أكثرها للشعب الإنجليزي ، كما تظل ملزمة بدفع الجزية إلى تركيا التي تذهب في الواقع إلى أصحاب البنوك في إنجلترا .

وثمة أسباب أخرى ذات طابع دولي تجعل إنجلترا تستمر في اتباع هذا النظام الاستشاري للحكم ، ذلك أن إنجلترا قد وعدت مرتين بأن تسحب قواتها العسكرية ، المرة الأولى حينما كان حزب الأحرار يسيطر على الحكم ، والمرة الثانية في عهد المحافظين . وعلى الرغم من أن مسألة الاحتلال الدائم اعتبرت منتهية نتيجة لصمت الدول الكبرى ، فإنها لم تتوافق على ذلك الاحتلال بصفة رسمية قط . وكانت فرنسا لا تزال تطالب بحقوقها ، على الرغم من أن المفاوضات التي جرت منذ وقت قصير تدل على أنها قد تخلت عن هذه المطالب إلى حد كبير في مقابل « أن تطلق يدها » في مراكش تؤيدها في ذلك إنجلترا .

كما أن كل الدول المسيحية تتمتع بامتيازات أدت إلى إنشاء المحاكم المختلطة ، ولن تتنازل بعض هذه الدول عن تلك الامتيازات إلا تحت ضغط شديد . وينبغي كذلك وضع حقوق السلطان في الاعتبار ، إذ أن جلالته ، باعتراف كل دول أوروبا ، هو السلطان الحقيقي على مصر . حقيقي أن سلطنته

اسمية فقط في الوقت الحاضر ، ولكن « استيلاء » إنجلترا على السلطة سوف يكون افتئاتاً على حقوقه قد يؤدي إلى شعور عدائياً على الدوام .

وكانت سياسة إنجلترا تقضي بأن تعزل روسيا وسط مناطقها الجليدية في الشمال ، ولذا كانت دائمًا في حاجة إلى معونة السلطان لإبقاء الدردنيل مغلقاً في وجهها . وفي حالة قيام حرب طاحنة مع هذه الدولة ، تلك الحرب التي كان شبحها يراود مخيال السياسي الإنجليزي على مدى جيلين ، قد يقوم صاحب الجلالة السلطان ، إذا أراد ذلك ، بإصدار نداء ديني يستغيث به ، وحيثند يهب ملايين المسلمين في الهند . الذين يعتبرونه خلفتهم ، خليفة محمد ، وحامي الإسلام . وما لم يقم الإنجليز بإبرام اتفاقية مرضية مع الباب العالي لنقل سلطة حكم مصر إليهم ، فإن من الممكن أن تستمر طريقة الحكم الحالية إلى الأبد ، حتى ولو كان من اللازم إزاحة جميع العقبات السياسية الأخرى من الطريق .

ماذا ستكون عليه حال سكان مصر مستقبلاً ؟ أما حالة الطبقة العاملة التي تكون الغالية العظمى من الشعب ، فلسوف تبقى على ما هي عليه الآن ، وعلى ما كانت عليه في الماضي السحيق . لم يكن هناك تغيير كبير لدى قرون ، ولن يحدث تغيير كبير لدى قرون مقبلة . أما الأراضي فيما تملكها الأجانب بسرعة . وقد أصبحت بعض الشركات الإنجليزية وبعض الأفراد ملائكة لمساحات كبيرة من الأرض . ولكن بصرف النظر عن من يمتلك التربة ، سواء كان أوروبياً أو تركياً أو من الأهالي ، فإن حالة هؤلاء الذين يعزقونها ، ويحفرون القناة ويطهرونها ، ويقيمون الجسور على النيل ، ويقومون بالجزء الأكبر من العمل الذي يتطلبه الري ، لن يتغير من الناحية المادية .

ولقد تحسنت وسائل الحكم الفظة القاسية في بعض الأحيان التي كان يستخدمها الحكام في الماضي ، كما هو الحال في الدول الأخرى . ولكن الناس يتلقون أجرًا زهيداً عن عملهم بحيث يستحيل حدوث تطور إما في

ثقافتهم أو في أحوالهم المعيشية ، ذلك أنهم يكسبون من عشرة إلى خمسة عشر سنتاً في اليوم ، ولا يعملون إلا جزءاً من السنة فحسب . ويعتبر هذا الأجر أكبر مما كان يتلقونه في الماضي ولكن تكاليف المعيشة قد ارتفعت نسبياً . ونظراً لهذه الظروف ، لن تخفي الأيام لهم سوى الجهل ، والكوخ أو الحظيرة المبنية من اللبن ، وأقل كمية ممكنة من الغذاء البسيط الذي يحفظ أجسادهم من العدم .

ويعتبر إلغاء السخرة ^{في عد الخديوي توفيق خطوة على الطريق السليم ،} تستحق الثناء . ولقد عمر هذا النظام أكثر من الوقت الضروري له . وكان العمل في تطهير القنوات وإصلاح جسور النيل يحتاج جهداً كبيراً بحيث كان من المشكوك فيه أن ينجز هذا العمل بدون استخدام السخرة التي كانت عبارة عن نوع من الضرائب المفروضة على الجماهير . وكان الإهمال أو التأخير يسبب نكبات كبيرة ، فالمياه التي يتحكم فيها النهر وتوزع بواسطة القنوات هي الحياة بالنسبة لمصر .

ويمقتضي نظام السخرة كان لابد لل فلاحين على طول القنوات العديدة أن يقوموا بالعمل الضروري في قراهم دون أن يتلقوا أجراً ، كما تتم أعمال الطرق في بعض أجزاء الولايات المتحدة . وكانت طريقة المعيشة أثناء القيام بهذا العمل لا تختلف مادياً عن الطريقة التي اعتادوا عليها ، وهي عناء كبير إذا ما قيست بمعايير معيشتنا ، ولكنها إذا قورنت بطريقة معيشتهم فلن تختلف كثيراً عن الفرق بين حياة جنودنا وقت السلم وحياة المدنيين .

أما دين مصر فهو في الواقع على ما هو عليه منذ خمسة وعشرين عاماً ، وهناك أسباب سياسية تجعل من سياسة الحكومة الإنجليزية إلا تعمل على تخفيف قيمته ، ذلك أن الدين هو السبب المزعوم الذي جاءوا من أجله ولسوف يظل سبباً مزعوماً لبقائهم . ولقد بيعت بعض الأراضي والممتلكات التي كان إسماعيل قد وهبها للدولة وذهب ثمنها وفاء للدين . ثم استجدة

الالتزامات أخرى بسبب الخسائر التي حدثت في الإسكندرية ، وبسبب حرب السودان ، وبسبب إجراء بعض الإصلاحات العامة المتنوعة . وقد أضاف إقامة سد أسوان وقنطرة أسيوط مبلغ ٨٠،٠٠٠ دولار إلى قيمة الضرائب السنوية لمدة ثلاثين عاماً . ولقد خفضت النسبة العالية من الفوائد ، ولكن قيمة الفوائد ، والجزية إلى تركيا ، والاحتلال الإنجليزي والإدارة الباهظة التكاليف كل هذه تكون مبالغ ضخمة في مجموعها لدرجة أن الطبقة العاملة سوف تظل في حالة من الفقر . أما ملاك الأراضي منهم ففي حالة أفضل مما كانوا عليه في الماضي ، وذلك نتيجة لتخفيف قيمة الفوائد إلى نسبة معقولة ، وعن طريق حصولهم على الأيدي العاملة مقابل الأجر الزهيد الذي يدفع لهم الآن ، يستطيعون أن يحققوا دخلاً لا بأس به من أموالهم التي يستمرونها .

سوف يظل الفلاح الكادح العادي في المستقبل ، كما كان في الماضي ، ما يعرف لدى الطبقات الراقية من الأوروبيين والوطنيين « من دواب الحمل ». وأن الحمار النافع الذي يحمل ثقال الفلاح ومتاعه إلى عمله ، ليعيش في حالة أحط منه بقليل . ولست أعني بقولي هذا أن أوجه اللوم إلى الحكماء الحالين أو أنسب إليهم وجود هذه الأحوال . وما لاشك فيه أن وجودهم في مصر ليس بغرض القيام بمهمة إنسانية أو تبشيرية ، أو لنشر المدنية ، ولكن حكومتهم قد وجدت هناك لأنها تؤمن بالرفاهية التجارية والسياسية للإمبراطورية ، كما وجد مواطنوهم هناك ، سواء موظفين أو غير موظفين ، لصالحهم الشخصية .

وتعتبر إدارة اللورد كرومبل إدارة مكنة ، إذا أخذنا في الاعتبار الظروف التي بدأت فيها حقيقة لانستطيع أن نمتدحه كثيراً ، ولكنه هو وخلافه كان ينبغي عليهم أن يستمروا في ابتزاز الجزية السنوية من الناس لدفعها إلى أصحاب السندات وإلى تركيا . وكانت إدارته في الواقع ، حكومة شخصية أي أن نجاحها كان يعتمد على نواياه الطيبة ومقدراته الشخصية . ولكن هل تجد إنجلترا كرومبل آخر ؟ ذلك أن مسألة السيادة على مصر كانت ما زالت مجالاً أخذ ورد ، وكانت أنظار أوروبا متوجهة إلى إدارة حكومتها .

لذا أكان من صالح إنجلترا أن تكون هذه الإدارة هي أفضل ما يمكن لا لأسباب سياسية فحسب بل لأسباب تجارية كذلك . وقد عبر لي أحد الباشوات المصريين . من كانوا يحتلون منصباً مرموقاً . عن أن الإنجليز لم يهملوا الناحية التجارية بقوله : « إن الإنجليزي يحكمون حكماً صالحاً ، ولكنهم لا يحكمون من أجل مصلحتهم » ذلك أن إنجلترا هي التي كانت تجني ثمار هذا الحكم ، فما لم تعزق الأرض جيداً وتحصد أعواد القمح ، ثم تخزن حباته في عنابة ، فإن الكميات الكبيرة المطلوبة لسد حاجاتهم لم تكن ليتحقق وجودها . ولكن مهما توفرت النيات الطيبة ، فإن محاولة إجراء أي تحسين مادي في حال الفلاحين ، في الوقت الذي لم تدفع فيه الديون التي فرضت عليهم فرضاً ، هي محاولة يائسة . وقد تحسن أحوالهم بعض الشيء لو أن هذه الأعباء الباهظة أزيحت عن كاهل البلاد ، ولكن تحسين حال الجموع العفيرة من الطبقة العاملة لن يكون ملمساً ، إذ أن إدراك الموقف الحقيقى كان يتطلب عملاً دائمًا واهتمامًا متواصلًا .

ينبغى أن تكون أسباب الحياة ميسرة في قطر مثل الولايات المتحدة بعدد سكانه الهائل ، ومساحته الشاسعة الخصبة من الأرض . ولا شك في أن التقدمين المادي والعلقلي في متناول الجميع ، بل أصبحا العاطفة السائدة بين الناس . أما مصر ، باستثناء السودان وولايات أواسط أفريقيا فهي في حدود أراضيها الزراعية تعتبر قطراً صغيراً يحيطه البحر والصحراء وتحصر مواردها في تربتها ، ذلك أنها تحتوى على ما لا يقل عن ٦ ملايين فدان من الأراضي الزراعية ، وتبلغ قيمة ديونها ٤٥ مليوناً من الدولارات ، أي بواقع ٧٥ دولاراً عن كل فدان من الأرض . وإذا حولنا الجزءة التي تدفع إلى تركيا إلى رأس مال يدفع بواقع ٥٪ من الفوائد ، فإننا نضيف مبلغ ١٠٠ مليون دولار إلى الدين الذي يدفع عنه فوائد ، وبهذا يصبح المبلغ الذي يدفع عن كل فدان ٩٠ دولاراً . وهو في الواقع رهن عقاري يبلغ قدره ٩٠٠ دولار عن كل مائة فدان ينبغي دفع الفوائد المستحقة عليه كل نصف سنة . ويقال إن عدد سكان مصر

الآن هو ١٠ ملايين نسمة . وهكذا يجب أن يعول كل مائة فدان ١٦٦ شخصا ، وتسدد فوائد عن كل ٩٠٠٠ دولار وتغطى تكاليف الحكومة ، بما في ذلك مصاريف المدن ، والمدارس ، والاحتلال الأجنبي وإدارته . فكم يتبقى بعد ذلك لهؤلاء الذين يعزقون الأرض ؟

إن الفنادق الحديثة الفاخرة ، وزيادة وسائل الرفاهية ، وقضاء شتاء ممتع في العاصمة ، أو في الوجه القبلي ، في مجتمع قوامه أناس مثقفون مهذبون وضباط إنجليز مؤدبون ، لما يخلب لب السائح الذي يعلم عن طريق العدد الوفير من الكتب الإنجليزية والتصريرات الشفوية أن هناك تغيرا عجيبا في مصر . وهو يعيد هذا القول على مسامع أصدقائه و يجعله أساسا لمقالاته في الصحف والمجلات والكتب . ولكن من النادر أن يدخل هؤلاء السائحون كوتا من أكواخ الفلاحين أو يدققوا البحث في الأحوال الحقيقة التي تعيش فيها هذه الطبقة .

و قبل ذلك كانت إصلاحات إسماعيل باشا ترك هذا الأثر في نفس السائح حينما كان يرى التغير العجيب الذي جعل الناس في أوروبا يسبحون بحمده ؟ ولكن الإصلاحات المدھنة التي قام بها والإصلاحات التي أنجزها خلفاؤه من بعده لم تغير من حال الفلاحين ، فلسوف تجدهم ، إذا شئت أن تتعرف على أحوالهم ، يعيشون في نفس الأكواخ ، وفي نفس البؤس الذي كانوا يعيشون فيه في سالف العصر . وكانت حتى الأحوال في عصر إسماعيل باشا ، إلى وقت وقوع الأزمة المالية ، أفضل منها منذ ذلك الوقت حتى الآن ، فقد كانت الأموال تتتدفق على البلاد من بيع المحاصيل ومن إيرادات القرض . وكانت هذه الأموال تنفق في التحسينات الواسعة النطاق التي سلف ذكرها . ومنذ ذلك الوقت تتتدفق الأموال إلى الخارج ، إلى أوروبا التي امتصت كل موارد البلاد . وسواء يعيش المصريون في أحوال أفضل أو أسوأ من سابقتها ، فإنهم ليسعودون تحت ظل حاكم وطني من دينهم عن أي حاكم أجنبي . وعلى الرغم من أن الحكومات الأوروبية أكثر تنظيما من الحكومات الوطنية ، إلا أن

نظام فرض الضرائب ، كما يطبقونه في جميع المستعمرات غير المسيحية ، هو طاحونة قد عدلت بمهارة فائقة حيث تناسب مقدرات البلاد الإنتاجية ، فهي تطحون بدقة وتحصل على كل ما يمكن من الدقيق . ولا يبقى لهؤلاء الذين يتتجرون ثروة البلاد ، بكدتهم وكدهم ، سوى النزير اليسير مما تغله الأرض ، ولا تترك لهم فرصة لزيادة نصيبهم ، ولذا كثيراً ما تحدث المجاعات إذا تلف المحصول .

وليس هناك حكومة أفضل من الحكومة الإنجليزية بالنسبة للشعب الإنجليزي ، سواء في إنجلترا أو في المستعمرات التي يحتلها مواطنوها . ولكن الحكومة الإنجليزية التي تفرض على المستعمرات التي يكون أهلها غير مسيحيين لا يمكن أن يصطبغوا بالصبغة الإنجليزية ، فهي حكومة عرفية عسكرية ، يحرم على المواطن الاشتراك فيها ، إلا في حدود ضئيلة للغاية في بعض المدن ، كما يحرم عليه أن يشغل أي مركز قيادي ، سواء كان مدنياً أو عسكرياً وتتوقف معاملته على شخصية هؤلاء الدين يتحكمون فيه ، وإذا تصادف أن يكون الحاكم اللورد كرومروث مثلاً ، فإنه يكون سيداً طيباً ، ولكنه سيد على الدوام يضمن ويقي على خضوع الشعب له باستخدام القوة العسكرية كلما احتاج الأمر إليها ، ويعامل المواطن دوماً على أنه مخلوق أقل منزلة منه .

وفي أوائل عهد فرض الرقابة الإدارية الإنجليزية الفرنسية على البلاد استحضر عدد من الإنجليز ، من ذوى الخبرة الطويلة في الهند ، إلى مصر لكي يشغلوا المناصب الحكومية الرئيسية . وعندما تم الاحتلال العسكري نظم جيش وطني تحت قيادة ضباط إنجليز ، كما هو الحال في الهند ، ولكن دون تطبيق النظام كله الذي كان يستخدم في هذه البلاد ، ذلك أن إنجلترا أنشأت بالهند نظاماً يمكن أن نطلق عليه اسم الاستقرارية العسكرية ، حكمت بواسطته البلاد . ويعققى هذا النظام يصبح الجندي الإنجليزي العادي شخصاً ذات أهمية ، له من الخدم أكثر مما لأحد اللواءات في جيشنا . فيخصص له طباخ وخدام ينظف ويرتب ملابسه ، وخدم يمسحون أحذيته ، ويسيرون على راحته

وهو نائم ، ويستخدمونه عند تناول طعامه ، ويؤدون له جميع الخدمات . وإذا كان هذا الجندي من الفرسان فيخصص له سائس يطعم جواده ويعتني بنظافته . وبهذه الكيفية تتحقق فكرة سيادة الرجل الأبيض .

ويستخدم نفس النظام بين الجنود من الأهالى الذين يكونون الجزء الأكبر من الجيش ، فالوطنيون يسمح لهم بتولى بعض المناصب . ولكنهم لا يستطيعون أن يتحكموا في رجل إنجليزي ، ذلك أن الإنجليزي ، مهما كان منصبه الرسمي وضيقا ، تفوق رتبته رتبة أي مواطن . ويخصص للضباط من الأهالى بعض الخدم كذلك ، ولكن عددهم لا يصل إلى العدد المخصص للضباط الإنجليزي . وحتى الجندي العادى من المواطنين له خدمه ويتقاضى مرتبًا أعلى من المرتبات العاديه في البلاد ، وذلك لكي يضفى عليه هذا مركزاً أعلى من مركز أي طبقة عاملة ، فيصبح شخصاً ينتمي إلى طبقة متازة . ولذا بمجرد أن يلتحق بالخدمة لا يرغب في أن يتخلى عن منصبه . وهكذا يصبح الجنود طائفة أرستقراطية ، تسيطر وتحكم في جموع الشعب ، وتحكم البلاد بأقصى الوسائل العرفية ، فهم جنود جلالة الملك ، ولذا فإن أي شيء يرغبون فيه هم ورؤساؤهم يعتقدون أن لهم الحق في الاستيلاء عليه دون الانتظار للشكليات التي تتم بها طريقة الاستيلاء .

ولقد كنت منذ عدة سنين مضت أتناول طعام العشاء مع أحد الضباط المتقاعدين من الإنجليز في مقره وكان قد عمل مدة طويلة في الخدمة العسكرية في الهند ويحمل لقب (جنرال) . وكان هناك عدد من المدعون وكلهم من الإنجليز فيما عداي . وتطرق الحديث إلى الهند وإلى الحرب الإنجليزية الهندية ، فأخذ الجنرال يقص على مسامعنا طرقاً من خبراته ، فروى لنا كيف كان حاضراً في إحدى المناسبات حينما ربط بعض الأسرى من الهند إلى فوهة مدفع فتاثرت أسلاؤهم ، ثم قال « كنت حينذاك ضابطاً برتبة ملازم . وصرح لي قائد الفرقة في الصباح أن من المحتمل أن يقع بصرى على منظر دماء أثناء النهار ، فلم أفهم القصد من حديثه ، ومن ثم صدر لنا الأمر بال الوقوف في

أماكنا . وكان مكانني إلى جانب أحد المدافعين ، فوقفت ، وإذا بالدماء تتناثر فوقني تلوث ملابسي . وبعد أن روى عدة تفاصيل خاصة بتنفيذ هذا الحادث قال بلهجة حازمة : « حسنا ، لقد قلمنا أظافرهم ، وفي نيتنا أن نبقيها كذلك » . وحينما استفسرت منه عما يقصده من هذا التعبير أجاب قائلاً : « لقد جعلناهم في فقر مدقع ، وفي نيتنا أن نبقى عليهم هكذا حتى لا يتعدوا علينا » .

وينبغي ألا يتطرق إلى الأذهان أن هذا الضابط كان بأي حال من الأحوال وحشاً ضارياً أو مجرداً من الشعور الإنساني ، ذلك أنني كنت أعرفه جيداً وكان رجلاً عطوفاً . وإنساناً مهذباً ، وإنى لعلى يقين من أنه ما كان ليسيء إلى أحد عن قصد . ولكنه كان يمثل الطراز الإنجليزي الذي ينظر إلى كل شيء من زاوية المصالح الإنجليزية . فمن وجهة نظره ، ووفقًا لما تلقاه من تعليم ، لابد من أن تسود سلطة حكومة جلالة الملك حيث يرفع العلم الإنجليزي ، سواء بوجه حق أو بدون وجه حق . وكل من يقف في وجه هذه السلطة يعتبر خائناً ، خارجاً عن القانون ، عرض حقه في الحياة للخطر . ومن المشروع ، ومراعاة للمصالح الإنجليزية ، ينبغي أن يكون عقابه مثلاً رادعاً لغيره ويحول بينه وبين القيام بأي عمل من أعمال التمرد والعصيان . ويتصفح النجاح في إبقاء الهند فقراء من المجتمعات التي انتشرت أخيراً في الهند . ففي السنوات التي تكون فيها المحاصيل وفيرة تؤخذ هذه المحاصيل نظير الضرائب . وحينما يكون هناك نقص في المحصول ، لا يجد الهنود ما يشترون به غذاءهم . ويضطر الشبان الأقوياء والرجال المتوسطون في العمر إلى الرحيل للبحث عن وسيلة يقيمون بها أودهم . أما المسنون والضعفاء والعاجزون فيكون مصيرهم الهلاك . ولا يعتبر هذا خسارة من الناحية الاقتصادية الحالية من العنصر الإنساني ، إذ أن الطبقة غير المنتجة هي التي تتلاشى بالألاف . ويقول ويليام ج . بريان في مقال له عن (الحكم البريطاني في الهند) . والذي نشر في الكومونر في ٦ يوليه سنة ١٩٠٦ : « إن فقر الناس في الهند مؤسف للغاية ، ذلك أن الملايين

يعيشون على حافة الموت طوال الوقت ، وإن الإنسان ليظن أن مجرد مظاهرهم يتوصل من أجلهم ». ومع هذا فإن هذه الملايين التي تتضور جوعاً تدفع سنوياً ، نظير (تمعهم) بميزة حكم المسيحيين لهم مائة مليون دولار للجيش وخمسة عشر مليوناً من الدولارات للموظفين المدنيين الذين يتحولون بينهم وبين التمرد . لقد استولت إنجلترا من هذا القطر ، في المائة والخمسين سنة الأخيرة ، على آلاف الملايين من الجنيهات . وما زالت تستولى ، طبقاً لمصادر إنجلizerية موثوق بها ، من هؤلاء القوم المساكين ، بالإضافة إلى كل النفقات ، على ثلاثة ملايين من الجنيهات الاسترلينية سنوياً تضيفها إلى الثروة الضخمة التي جمعتها قبل ذلك من هذه البلاد .

ويقول المستر بريان أنه قد سمع عدة مرات وهو في الهند أن (الطاعون يعتبر دواءً سماوياً لعلاج ازدحام السكان) . ولكنه لم يشر إلى المجتمعات على أنها تعتبر من نفس الدواء .

ولذا فإن الإنجليز الذين لم يحضروا إلى مصر لمصلحة المصريين لا يمكن أن تتوقع منهم إلا أن يحكموا لصالح إنجلترا فحسب . وعلى كل ، فإن عدد السكان قليل إذا قورن بعدد سكان الهند ، كما أن هناك عدة قواعد إنجلizerية عسكرية قرية من مصر . ونظراً لطبيعة الأهالى الحبة للسلام ونظراً للظروف الأخرى ، فلن تجد إنجلترا لزاماً عليها أن تلجأ إلى وسائل الحكم الشاذة التي تستخدمها في الهند . ومن المحتمل أن تمنحهم إنجلترا أفضل حكومة ممكنة تحت الشروط التي فرضتها . وهذا يعتبر من مصلحة إنجلترا ، ولا لما أمكن الاستيلاء على كل هذه المبالغ سنوياً من البلاد . وما لاشك فيه أنها لن ترى ضرورة لاتخاذ وسائل غير عادلة للبقاء على فقر الجماهير . فإن المبالغ الثابتة التي ترسل إلى أوروبا من موارد البلاد سوف تؤدي حتى هذه النتيجة . ولحسن الظالع أن سنوات القحط والمجاعات نادرة الوجود ، ولقد مر أكثر من ربع قرن منذ أن حدثت آخر مجاعة في مصر .

٧	نبذة عن المؤلف
٩	مقدمة
	الفصل الأول
١٣	مشاهداتي الأولى في مصر
	الفصل الثاني
٢١	استقبال سمو الخديو لى
	الفصل الثالث
٣٣	أسرار النيل والرى
	الفصل الرابع
٤٧	أسرار النيل
	الفصل الخامس
٥٩	الصيام والحج إلى مكة
	الفصل السادس
٧١	الدوسة والدراويش

الفصل السابع

رحلة إلى جبل سيناء ٨١

الفصل الثامن

جبل سيناء ٩٥

الفصل التاسع

ارتفاع جبل سيناء ١٠٣

الفصل العاشر

واحة فيران والعودة إلى الحج ١١٣

الفصل الحادى عشر

بحيرة المنزلة وجنة الطيور المائية ١٢٧

الفصل الثاني عشر

زون القدمة ١٣٩

الفصل الثالث عشر

طريق الخروج ١٤٧

الفصل الرابع عشر

مسلسل كليوباترة ١٦١

الفصل الخامس عشر

إهداء المسلسل ١٧٥

الفصل السادس عشر

١٨٩ نقل المسلة والرموز الماسونية ..

الفصل السابع عشر

١٩٩ تاريخ المسلة والنقوش الموجودة عليها

الفصل الثامن عشر

٢١٧ ما فعلت مصر لأجل إنجلترا (قناة السويس) .

الفصل التاسع عشر

٢٣٩ مأساة إسماعيل صادق باشا

الفصل العشرون

٢٦١ عهد حملة السنديات

الفصل الحادى والعشرون

٢٧٣ عزل إسماعيل باشا

الفصل الثانى والعشرون

٢٩١ تعيين توفيق باشا ورحيل إسماعيل .

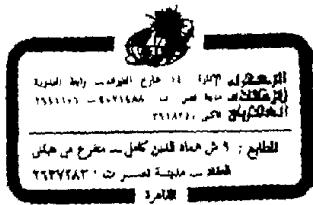
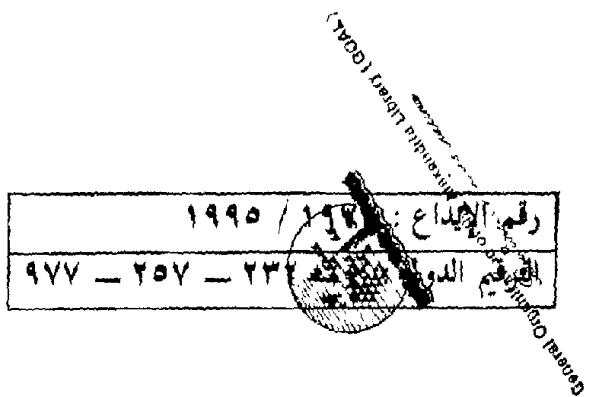
الفصل الثالث والعشرون

٣٠١ إسماعيل باشا وعهده

الفصل الرابع والعشرون

٣١٧ المحاكم الدولية

	الفصل الخامس والعشرون
٣٢٧	الشعب والهياج بالإسكندرية
	الفصل السادس والعشرون
٣٣٩.....	ضرب الإسكندرية بالقنايل
	الفصل السابع والعشرون
٣٥١.....	في أعقاب ضرب الإسكندرية
	الفصل الثامن والعشرون
٣٦٣	مستقبل مصر
٣٧٥	الفهرس



مصر
وكيف غُدر بها

١٠٩٧



الزهاء للأعلام العربي

To: www.al-mostafa.com